د. محمد الجوادى

د. محمد كامل حسين
عالمًا ومفكرًا وأديبًا

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

الإشراف الفنى: صبرى عبد الواحد

الخطوط : محمـود إبراهيم

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (١٩٧٨) مصدرة بهذه الصفحة:

□□ فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية عام ١٩٧٨.

□□ محمد محمد الجوادى، مؤلف الكتاب، هو الطالب المثالى لجامعة القاهرة.

إهـــــــداء

إلى والديّ

اللذين ربيانيْ صغيرا.

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد لله سبحانه وتعالى أن منحنى كل هذه السعادة وأنا أكتب مقدمة الطبعة الثانية من كتابى هذا الذى كان أول كتبى، وقد انتهيت من طبعته الأولى منذ عشرين عاماً، ظل خلالها بمثابة المصدر الأول للكتابة عن محمد كامل حسين، ويجدر بى أن أشير إلى أنه لولا أن مجمع اللغة العربية قد انتبه إلى قدر كامل حسين وخصص مسابقته فى عام ١٩٧٨ لتكون عنه ما كان هذا الكتاب، وقد أكون مسرفاً فى هذا الحكم، وبخاصة أننى دعيت إلى الحديث عن محمد كامل حسين والكتابة عنه فى أكثر من مكان ولأكثر من جهة، ولكنى مع هذا أعود لانتصر للرأى المقر بالفضل لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولعل من أدلتى على هذا أنى دعيت لوضع كتاب عن محمد كامل حسين ليصدر فى سلسلة محترمة عن أعلام الفكر العربى كانت تنتوى إصدارها جمعية ثقافية رفيعة المستوى لها دورها المقدور فى الثقافة والنشر، ومع أنى انتهيت من هذا الكتاب منذ قرابة تسع سنوات فإن الكتاب لم ير النور بعد، لا هو، ولا السلسلة كلها.

□

وقد كان هذا الكتاب فاتحة خير علىّ فيما يتعلق بالسلسلة التى كتبتها على مدى

السنوات الثانية (١٩٧٨ ــ ١٩٨٦) عن ستة من علماءنا المبرزين الذين جمعوا إلى الاشتغال بالعلم مشاركة فى الحياة الفكرية وكان لهم أكبر الأثر فى صياغة نهضتنا العلمية الحديثة، وقد كان هؤلاء هم: مشرفة باشا وعلى باشا إبراهيم وأحمد زكى وسليمان عزمى باشا ونجيب محفوظ باشا بالاضافة إلى كامل حسين نفسه، ومع أنى ما زلت تواقاً ومشوقا إلى أن استأنف الجهد الذى حققته فى هذا المجال إلا أنه يبدو لى أننى لن أتمكن من هذا لا فى القريب العاجل ولا فى البعيد الآجل فالعمر يمضى والزمن يتسارع والأجل يقترب، فأرجو أن يغفر لى القارىء تقصيرى، وأن يكون دافعه إلى هذا الغفران ما قد يجده من جهد بذلته فى هذه المجموعة من الكتب حين كنت قادراً على بذل الجهد فيها.

□

ومع هذا فإنى مدين لمحمد كامل حسين بما لست مدينا به لأحد غيره، فقد أتاحت لى دراسته المبكرة أن أترقى فى مدارج الفكر القادر على التحليل والنقد والربط والتفكير والمناظرة والتركيب كما أتاحت لى قراءته أن أنمى كل ما كان من شأنه أن يحفظ لى على الدوام مزايا وضوح الفكرة، ودقة الفهم، والاستيعاب، والتحليل، وأتاح لى التعريف بكامل حسين أن أكون على مقربة من مستواه من حيث الدقة، والحكمة، والصواب، والموسوعية.

ولست بمستطيع إلا أن أعترف بأن هذا التأثير لم يكن ممكنا لى من دون أن أقدم كتابى الأول عن محمد كامل حسين حتى وإن ظن القراء وأنا معهم أن بذور هذا أو إرهاصاته كانت واضحة فيما أنجزت من أعمال أدبية متفرقة قبل أن أنجز كتابى هذا عن محمد كامل حسين.

□

ومع أنى مدين لكامل حسين ـ كما قدمت فى الفقرة السابقة ـ فما زلت غير قادر على أداء دينى لمحمد كامل حسين على الرغم من أنى بذلت جهدا حقيقيا فى هذا الصدد. فما

زالت هناك جـوانب كبرى من حياة كامـل حسين فى حاجة إلى كتـابتى عنها (كى أؤدى بعض الدين)، وقد تضمن كتابى الثانى، عن محمد كامل حسين ـ الذى لم ير النور بعد ـ عدة أبواب مهمة أظن أنها قد تقوم ببعض الواجب تجاه كامل حسين، ولكن يتبقى علىّ دين آخر لمحمد كـامل حسين حتى لو صدر كتابى الثانى عنـه فما زلت فى حاجة إلى أن أكتب عن دورين مهمين له فى الطب وفى تـاريخ العلوم عنـد العرب، وقد وعـدت أستاذى العظيم الدكتور أمين رضا أن أكتب (بالانجليزيـة فى الغالب، وبالعربية لو تحقق الأمل) عن الجانب الأول مقالا كبيرا للمجلة المصرية لجراحة العظام ولكنى لم أنته منه بعد. كما أنى أدعو اللـه أن أكون قـادراً على أن بالكتابـة عن الجانب الثانى وهـو دوره فى تاريخ العلوم عند الاحتفال بمئويته فيما بعد سنوات أربع أو خمس إذا قدر الله لى الحياة حتى ذلك اليوم.

□

وفى كل الأحوال فهـذا كتاب عزيـز علىّ إلى أبعد الحدود، وقـريب إلى نفسى إلى أقرب الحنايا، وإنى لأحب أن أذكر أنى ما زلت معتز بمخطوطتى الأولى لهذا الكتاب وقد كتبت على أنـواع مختلفة الطبـع ومتباينـة الحجم من الأوراق البيضـاء والصفـراء والزرقـاء والخضراء، وما زلـت محتفظا فى ذاكرتـى بكل الأيام السعيدة التـى أنفقت منها أوقـاتاً مثمرة فى البحث والتحليل والتنقيب حتى كتبت هذا الكتاب الـذى يطالع القارىء طبعته الثانية اليوم.

وإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن يسعـد القارئ بهذا الكتاب كما أسعدنى به، وأن يهديـه بـه كما هـدانى به، وأن يجعلنـى فى كل الأوقات قـادراً على حمد اللـه، وشكـره، والامتنان لفضله الواسع العميم.

هذا وبالله التوفيق

د. محمد الجوادى

١٩٩٧ / ٨ / ٢٩

تقـــديم

بقلم الدكتور حسين فوزى

هذا الكتاب، يتلقاه بكل إعزاز الصديق القديم لمحمد كامل حسين منذ جمعتنا بمدرسة الطب المصرية (شـارع قصر العينى) دفعة ١٩١٧، فهو سجل كـامل لكثير مما أدى الطبيب والجراح الكبير خارج مهنته النبيلـة، فى مجالات الفكر والفن والأدب. وكان «كامل» عندى أشبـه برجال عصر الإحياء (الرينسانس)، وعصر ازدهار الحضارة العربية.

كتاب يقربه إلى قلبى أن يكون واضعه طالبا بكلية الطب هو محمد محمد الجوادى، الطالب المثالى لجامعة القاهرة، أترسمه صـورة حية من صور جيلنا نحن أبناء مطالع القرن العشرين، وكأنى أتوسم فيـه أن يحتل فى جيله مركـزا مساويا لمركز محمـد كامل حسين، ولكن فى عصر لصقت بشبابـه تهمة قاسية، وصفهـا المتشائمون بجيل الشبـاب الضائع. ويكفينى أن ألتقى بأمثال محمد الجوادى من أبنـاء جيله ـ وحدث ذلك مرارا ـ لأنفى التهمة الجائرة. فلكل ثورة ضحاياها وإن اختلف نوع التضحيـة بين جيل ثورة ١٩١٩، وثورة ١٩٥٢، إنما طغت النسبة المئوية فى هؤلاء على النسبة المئوية فى أولئك، بسبب استطالة عصر الكبت والحكم الشمولى.

وأن نلتقى ضمن هـؤلاء بشبـاب من أمثـال الجوادى، فإن فى ذلك دلالـة على أن قبس الحضارات المصريـة لم ينطفئ، وأن نهضة مصر مكفـولة إذا ما حـل السلام بأرض الخصب والعطاء، مستشرفا اقتراب اليوم الموعود، نستأنف السير قدما فى موكب الحضارة العالمية، كما كنا فيما بين عامى ١٨٥٠ و١٩٥٠. وسوف تتولى شئون الـوطن القلة النابهة فى مجموع أبناء النصف الثانى من هذا القرن. وأملنا فيهم لـن يخيب. بل نحن مطمئنون إلى بزوغ فجر القرن الأول بعد العشرين بالخير كل الخير.

وما بى حاجة إلى الإشادة بما جاء فى هذا الكتاب حديثا عن محمد كامل حسين، صاحب المصنفات الفذة فى أبواب القصص الفلسفى. فشهرة «قرية ظالمة» تعدت حدود الوطن إلى آفاق الشرق والغرب. ومبادراته الفكرية فى «التحليل البيولوجى للتاريخ» وحول «وحدة المعرفة»، ووصفه الرائع بل توصيفه لـ «الوادى المقدس»، وفصول كتابيه الأول والثانى بعنوان «متنوعات»، وغيرها مما تناوله الجوادى فى كتابه الموسوعى، تجعل من كامل حسين رجلا قمينا بأن يحمل لقب «بحر العلوم» لإحاطته المبدعة بشتى عناصر المعرفة.

□

إنما يهمنى فى هذه المقدمة التنويه بما اشتمل عليه الكتاب من تسجيل صادق لناحية من نواحى جهاد محمد كامل حسين فى سبيل تحرير اللغة العربية من أصفاد الماضى، وهى ناحية أعترف بأن علمى بها لم يتعد أصداء ما توارد علىّ من أخباره فى المجمع اللغوى.

وأضرب لهذه الناحية أمثلة مجتزأة من محاضر المجمع، فهذه صورة نيرة لديمقراطية العلم والعلماء، حين يتواجه أنصار الماضى من حكماء التراث الذى نعتز به جميعا، وأنصار الحاضر ممن يتقدمون بدستور التجديد. وكان كامل حسين المصباح المنير، والفارس المجلى لفريق المجددين. وكل هؤلاء وأولئك صادقو النية فى الدفاع المجيد عن قوام حياتنا الفكرية: لغتنا القومية ذات التاريخ التالد فى إبان رفعتها، وقد استأنفت سيرها الظافر منذ أواخر القرن الماضى. وطوال هذا القرن، بفضل الأعلام من كتابنا شقوا طريقا لها يحملون أعلام التجديد فى كل باب من أبواب الفكر، والعلم، والفن، والأدب.

جمع كامل حسين فى مقدمة كتابه «اللغة العربية المعاصرة» ـ كان آخر كتبه ـ ما لا يريد أن تكون عليه لغتنا القومية فى العصر الحديث. فهو يرفض العودة بما يصفه بالفصحى العالية إلى ما كانت عليه فى صدر الإسلام. يرفض البحث فى أصول اللغة كما وضعها القدماء، مثلهم كمثل أهل الكهف حين حسبوا أن عملتهم ــ وهى صحيحة غير زائفة ـ يمكن أن تكون رائجة يقضون بها حوائجهم. بل مثلهم كمثل علماء الحفائر، علمهم له قيمته التاريخية الكبرى دون أن يكون ذلك مدعاة للاحتذاء بما يجدونه فيها.

والذين يقصرون عملهم على ما عرفه القدماء: مثلهم كمثل من يسير فى طريق وعرة، محمولا على عربة «كارو» تجرها دابة منهوكة، وعلى بعد خطوات من طريق واسعة، معبدة تقطعها

السيارة فى دقـائق. والذين يستخـدمون القـواعد مثلهم كمثل من يستخـدم مغزل اليـد، وهو يسمع من حوله ضجيج الآلات التى تغـزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحـدة. والذين يعتقدون أن كل ما لا يـرد فى المعاجم خطأ، مثلهم كمثل الـذى يدخل السجن طواعيـة واختيارا، ويضع نفسه تحت إمرة السجان، وكان فى غنى عن ذلك لو قدر قيمة الحرية وجمال الانطلاق الفكرى الحر، أو كالذى يـرفض أن يستضىء بالكهرباء ويفضل عليها سراج الزيت. والـذين يريدون المحافظة على اللغـة فيرفضون كل جديد، مثلهم كمثل من يـريد أن يحافظ على جمال الأزهار، وطيب رائحتها، بوضعهـا فى خزائن حديدية، فتـؤدى تلك المحافظة إلى ذبولها. فـالمحافظة على الكائنات الحية لا تكون إلا بتطويرها، وجعلها مطابقة للبيئة التى تعيش فيها.

وقصـارى القول: محمـد كامـل حسين يطالب بإنقـاذ الفصحى العـالية من عنت الـذين يعلمون وعبث الذين لا يعلمون. كما يرى مستحيلا تجاهل دور التفكير العلمى كله. ويعنيه أن تكون لغتنا دقيقة فى غير تعقيد، واضحة فى غير ابتذال، متفقة وأساليب التفكير الحديث.

وفى جلسات المجمع، اقترح كامل حسين أن يكـون للعدد حالة واحـدة تتعلق به وحده دون نظر إلى تمييزه.

وقد شـارك سائر أعضـاء المجمع فى مناقشة هـذا الاقتراح، وانتهوا إلى أن مقترح الـدكتور محمد كامل حسين فى جنس العدد مخالف للقواعد.

وحاول الدكتـور غير مرة أثناء النقاش الـذى استمر طويلا فى أكثـر من جلسة أن يستحث الأعضـاء على مبدإ التيسير والتسهيل، وهـاجم كتاب الأشمـونى، ووصفـه بأنه «جحـر ضب خرب»، وألفيـة ابن مالك بأنها الستـار الحديدى القائم بين اللغـة وبين أهلها. فأصروا على أن مقترحه فى جنس العدد ليس به تيسير.

ثم عادت المجادلات الحامية إلى أشدها عندما تقـدم كامل ببحثه عن «القواعد العامة لوضع المصطلحات العلميـة»، واللغة العلمية ليست مسألـة كرامة (كما أشـار عضو محترم) ولا هى إنجليزية أو فرنسية أو عربية، وإنما هى اللغة التى تقوم على الدقة فى التركيب، وتقبل النمو.

وفى الدورة الثـامنة والعشرين، تعرض المجلس لموضـوع «كتابة الأعلام الأجنبيـة بحروف عربيـة»، وكان المجمع قد اقترح أربعـا وعشرين قاعدة جـديدة تنتظر الإقـرار، وأحس «كامل» تقاعسا من زملائه عن الأخذ باقتراحه، وأنهم يميلـون إلى إقرار القواعد الجديدة مما لا يساعد قط على حل الصعوبة. فقال: نحن نريد طـريقة منطقية للقارىء العربى يستطيع بها أن ينطق الاسم الأجنبى صحيحا.. ثم واصل الكـلام: لقد قضيتم على صلاحية العربيـة لأن تكون لغة

للرياضيات حين رفضتم ما أقترح بصدد قواعد العدد. وستقضون على صلاحيتها لتكون لغة للجغرافيا، والتاريخ وأسماء الأعلام إذا أقررتم كل هذه.

□

تلكم مختزلات مقتضبة تصور جهود مجمع علمى يتميز كما قلت بديموقراطية سليمة، شرطها الأساسى اتفاق الجميع على مبدإ تخطيط عملى للاستحداث، دفعا بلغتنا فى طريق التطور والتقدم، لا أن نقف عندما قال به القدماء منذ قرون طويلة. كل هذا الجدل هو الذى حضنى على لفت نظر القارئ إلى الفصول اللغوية ليطالعها بإمعان وتبصر، حتى يبلغ عبقرية التجديد اللغوى عند رجل متمكن من لغته تمكن علمائها، يعشقها مجددة لشبابها، لا ثباتها على الهرم.

فإذا فرغ القارئ من هذه الملحمة اللغوية الرائعة فسوف يهدأ سره، وهو يطالع ما يشاء من فصول كتاب محمد الجوادى الأخرى، فهى الشاهد على أن بطل تلك الملحمة كاتب عظيم، ثوب أدبه القشيب لغة صافية، حسن بيان، وسمو فكر، ودقة تعبير.

والحق أنك لا تفاضل بين أسلوب كامل حسين الأدبى والفلسفى والقصصى، وبين لغته العلمية، فهذه أدب فى بيانها، علم فى شفافيتها، ووضوحها، ودقتها، وقد ردت على هدية الأدب لها بما نتبينه فى أدب محمد كامل حسين من رصانة العلم، وحصافته واعتداده وإيمانه.

دكتور حسين فوزى

مقدمة الطبعة الأولى

ليس هذا الكتاب إلا مجموعـة من الفصول تتفق بعضها مع بعض في روحها، وإن اختلفت في نصها، ذلك أن هذه الفصول كتبت في زمن واحد لتكون كتابا واحدا.

وتفصيل الكتاب على النحو الذي يطالعنا بـه فهرسه تفصيل غريب، فكم من فصل لا تزيد صفحاته على صفحـة واحدة، وكم من صفحة يضمها فصل واحـد. والحق أن تفصيل الكتاب على هذا النحو قد أتعب مؤلفه، ولم يهون عليه هذه المشقة إلا رغبته في أن يريح قارئه.

□

والدكتـور محمد كامل حسين مـوضوع هذا البحث، واحـد من اثنين يحملان نفس الاسم مسبوقا بنفس اللقب، ولكن اللقب الأخير يختلف، فصاحبنا من أسرة السبكي، والآخر من أسرة المخزنجي، فأمـا السبكي فدونك الكتاب بأكملـه عنه، وأما المخـزنجي فقد كان — رحمه الله — أستاذا للأدب العربي في كلية الآداب بجـامعة القاهرة، وقد صنف وألف كثيرا في الأدب المصري والإسلامي والفاطمي والمملوكي. غير أن الكتب والقوائم والفهـارس الببليوجرافية لا تفرق بين الرجلين أبدا. ولعل في تعاصر الرجلين عذرا للببليوجرافيين، ولكن يبدو أنه عذر أقبح من الذنب، فقد عاش هؤلاء الببليوجرافيون معهما في نفس العصر.

ولقد عاش الدكتور كامل حسين ستة وسبعين عاما إلا أياما، ثم مات وله من العمر أكثر من ذلك بكثير، ثم كان له بعد موته من الذكر عمر ثان.

وسوف يمضى الباب الأول فى هذه الحياة يوجه «الأضواء» على معالمها البارزة حتى يتسنى للمبصرين أن يروا جوانب العظمة فى حياة كامل حسين. وستسطع هذه الأضواء حينا، وقد تخفت أحيانا، غير أنه من المؤكد أنها لن تكون مبهرة تذهب بالأبصار التى ستبصر حياة باهرة بغير شك.

أما آثار الرجل فستقتسمها أبواب ثلاثة:

الباب الثانى عن الدكتور محمد كامل حسين مفكرا.

والباب الثالث عن الدكتو محمد كامل حسين أديبا.

والباب الرابع عن الدكتور محمد كامل حسين لغويا.

وسيجد القارىء فى هذه الأبواب الثلاثة صوت كامل حسين عاليا، ولكنه سوف يجد أيضا صدى لهذا الصوت يصدر عن المؤلف. وسوف يحس القارىء بأن المؤلف حريص كل الحرص على أن يجعل «صداه» يتجاوب مع صوت كامل حسين، ولكن أنى لمثل هذا الصدى الضعيف المتقطع أن يبلغ مبلغ هذا الصوت القوى الأخاذ.

وكأنى بالمؤلف يريد أن يؤلف من الصوت وصداه سيمفونية رائعة، وقد فاته أن الصوت وحده لم يكن إلا سيمفونية رائعة أروع من تلك التى بدا له أن يؤلفها.

□

وسوف يشعر القارىء بأن هناك نواحى عظيمة فى كامل حسين لم يتناولها هذا الكتاب، حينئذ لن نرجوه أن يعذرنا فحسب، ولكننا سنطلب إليه أن يضرع إلى الله أن يوفقنا إلى الكتابة عن هذه العظمات.

وسوف يجد نقاد الأدب العربى فى هذا الكتاب مادة غزيرة تدور أقلامهم فيها بالتمحيص والتحليل والنقد، والحق أن ما ينتقد فى هذا الكتاب كثير جدا لسببين، فالسبب الأول يرجع إلى أن كثافة ما ينتقد فى كل صفحة فى الكتاب كثافة مرتفعة، والسبب الثانى يرجع إلى أن عدد صفحاته كبير.

وسيجد الذين يتحرجون من نقد كـامل حسين ـ رحمه الله ـ فرصتهم فى أن ينتقدوا المؤلف بلا شك، وسيجد آ خـرون آ راء يدلهم عليها هذا الكتاب لا يمانعـون فى أن تكون محل نقدهم. ولعل المؤلف حين علم ذلك من كتـابـه حمد الله أنـه إن لم يضف بـه إلى الأدب العربى شيئـا، فسيضيف به إلى نقد الأدب العربى أشياء.

وأما البـاب الأخير من الكتاب فهـو الببليوجـرافيا. ولا يستطيع المؤلف أن يـدعى أن الباب يعرض أعمال كامل حسين والأعمال التـى كتبت عنه على بكرة أبيها، فعلم ذلك عنـد الله وحده، ولكن هذا البـاب يعرض كل ما تمكن المؤلف من البحث عنـه، والتحقق منه، والرجوع إليـه بعد جهد جهيد.

□

وليست هذه الكتب والفصول والمقالات والدراسـات التى أشار إليها الباب الخامس هى كل مراجع هذا الكتاب، بل إن هناك طائفتين أخريين من المراجع.

أما الطـائفة الأولى، فتتعلق بمنهج البحث، وقد رجـع المؤلف فى هذا الصدد إلى كل الـرسائل الجامعية التى أجازتها أقسام اللغـة العربية وآدابها فى جامعة القاهرة، وإلى مـا أمكنه الرجوع إليـه من رسـائل الجامعات الأخـرى، كما رجع إلى الكتب التـى تتناول تـراجم الأدبـاء وسير المفكرين، وكان حريصا فى هذا كلـه، وبهذا كله، على دراسة السبل التى سلكها الرواد من قبله، ثم ظل على حرصه هذا حتى هداه الله إلى الصراط المستقيم فسلك بالقارىء فيه.

كان المؤلف يبحث عن طـريق لا يذهب بوقت القارىء ولا يستهلك جهـده، فلما وجد هاتين الصفتين فى طرق كثيرة حفزه ذلك إلى أن يتخير من هـذه الطرق طريقا يخرج منه ســالكه، وقد ساءه أن الطريق قد انتهى بـه عند هذا الحد، فوضعت نهايته حدا لسعادتـه ومتعته بالطريق. وأظن أن الله سبحانه وتعالى قد هدى المؤلف إلى هذا الطريق القصير السهل الممتع الممتنع.

وأما الطائفة الثانية فتضم كل ما كان من شأنه أن يصنع مناخ هذا البحث وجوه، وأن يوفق بين تفاصيله وفصـوله، وتنتظم هذه الطائفة عـددا من الصحف والمجلات ومحاضر الجلسات والنشرات والأدلة التذكارية.

□

غير أن مـراجع هذا البحث لا تقف عنـد ما رأتـه العين من سطـور مخطوطـة، ذلك أن حظ المؤلف قـد أتاح لـه اللقاء بـاثنتى عشرة شخصية من كبـار الشخصيات يحدثـونه عن كـامل حسين، ولعل المؤلف حين يسرد أسماءهم فى ختام مقدمته لا يشكرهم بقدر ما سيشكر ذكرهم الكتاب، ولا يقدر فضلهم بقـدر فضلهم على هذا الكتاب، فللأساتذتى الـدكاترة: حسين فوزى، وكامل منصـور، ومحمد عبدالحليم العقبى، وبول غليـونجى، وعبد العزيز السيـد، وإبراهيم بيومى مدكور، ومصطفى كمال حلمى، وعبدالحافـظ حلمى، وعائشة عبد الرحمن، ومصطفى الشكعة، وجلال موسى، وعصام الهنامى، لهم جميعا منى كل حب وتقدير وثناء.

محمد محمد الجوادى

الباب الأول

حَيَاة
محمد كامل حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

ولد الدكتور محمد كامل بن على حسين فى مطلع هذا القرن فى يوم العشرين من مارس عام واحد وتسعمائة وألف، بسُبْك الضحّاك[1] من أعمال المنوفية، أو كما يسميها العامة سبك التلات بالتاء المثناة، وهى واحدة من سبكين فى المنوفية، أما الثانية فهى سبك الأحد موطن آل خطاب السبكى الذين أنشئوا الجمعية الشرعية وتولوا أمرها حتى عهد قريب. وكان والده مدرسا للغة العربية، وذكر لى أستاذنا الدكتور حسين فوزى أنه كان صديقا للشيخ محمد عبده.. وتوفى والده وهو طفل رضيع، فكفله أخوه الأكبر محمد الصادق بك، وكان يقيم بالقاهرة فى الحلمية الجديدة التى كانت فى ذلك الوقت موطنا من مواطن العلماء وطبقة المثقفين، يجدون فيها هدوءا يبعدهم عن ضجيج الحياة.. ولما تقدم الزمن بهما انتقلا إلى حلمية الزيتون، وظل الدكتور كامل حسين يسكن فى حلمية الزيتون، فى الفيلا رقم ٨ من شارع البشرى حتى وافاه الأجل.

وكان لكامل شقيقان: الصادق بك الذى ارتبطت حياته بحياته.. تخرج فى مدرسة المعلمين، وترقى فى الوظائف الحكومية حتى صار مراقبا عاما لحسابات الحكومة.. وألف كتاب «البيت السبكى»[2]، كما ترجم كتاب الأخلاق وسفر المزامير، وتوفى عام ١٩٦٤. والشقيق الثانى هو الأستاذ أحمد حسين تخرج أيضا فى مدرسة المعلمين، وعمل بتدريس الإنجليزية، وترقى حتى صار من كبار مفتشيها، وتوفى عام ١٩٧٢.

□

(١) سُبك، هى اسم التمساح فى اللغة المصرية القديمة. وكان المصريون يعتقدون أن التمساح يضحك فى موسم الفيضان، فرحًا بالنيل. ومن هنا جاءت التسمية.

(٢) هو البيت الذى ينتميان إليه، وقد اشتهر نسبهم إلى الخزرج، ومن أبرز هؤلاء السبكية: العالم الدينى الكبير تاج الدين السبكى.

وكـان بمصر حين شب كامل حسين نـوعان من التعليم: الأزهـرى والمدنى، وكانت طبقـة المتعلمين قليلة العدد وإن ارتفعت نسبتها فى مـديرية المنوفية نوعا مـا نظرا إلى ضيق مساحتها وميل السكان إلى الهجرة، وكان أغلب التعليم فى بداية القرن أزهريا ثم زاحمت مدرسة المعلمين الأزهر، ثم بـدأ مع جيل الدكتور التخرج من المدارس العليـا كمدرسة الطب ومدرســة الزراعة ومدرسة المهندسـخـانة. والتحق الدكتور أو قل ألحق بالتعليم المدنى، وكـان تعليمه الثانوى فى المدرسة الإلهامية (بنبـا قادن الآن) وهى من المدارس التى كانت تتمتع حينـذاك بسمعة طيبة، وكانت لا تزال تدرس العلـوم باللغة الإنجليزية بينما كانت المدارس الثانويـة الأخرى قد بدأت التدريس بالعربية قبلها بسنتين.

وفى المدرسة الإلهاميـة تكشفت لأساتذته مـوهبته الفذة وذكاؤه النـافذ وتفوقه، فحفـوا به يعدونه ليكون أول البكـالوريا ليرفع من شأن مدرسته فـوق المدارس الأميرية، وكان فى نفسه ضيق من ذلك يشعر بأنه ليس بحاجة إلى مثل ما يفعل مع فرس السباق. وقد تحقق له ما أريد به، فكان أول البكالوريا قسم ثان سنة سبـع عشرة (١٩١٧) وأهدته مدرسته الإلهامية ساعة ذهبية.

□

والتحق كامل حسين بمـدرسة الطب على رأس الـدفعة التى تضم ستين طـالبا، وظل الأول على دفعته طوال سنى دراستـه، ولم تكن أوليته على درجة أو درجتين وإنما كانت أوليـة فائقة بمراحل حتى إن زملاءه كانوا يقولون عنه إنه ليس بأولهم وإنما أول الفرقة السابقة عليهم.

وفى مدرسة الطب التقى كامل بزملاء له يعرفون الفرنسية إذ درسوا بها فى المرحلة الثانوية، فرغب كامل حسين وبعض زملائه فى تعلمها فأشير عليهم أن يلتحقوا بمدرسة «برليتز»، وكان أحد زمـلائهم قد تلقى فيها دروسا فى الفـرنسية وهو مـا يزال طالبـا بالثانويـة. وتعلم كامل حسين الفرنسية فى هذه المدرســة وساعدته قراءته فى هـذه اللغة على إجادتها، وظل سعيدا بها طوال حياته، وكان يردد: «إننى مدين لهذه اللغة بأسعد ما حققت وعرفت من تجاريب الحياة».

وكانت مصر سياسيا إلى ذلك الوقت من القرن العشرين استمرارا لمصر القرن التاسع عشر، فهى محتلة من قبل الإنجليز ومرتبطة ارتباطا ما بالكيان العثمانى والخلافة الإسلامية.

ومع بداية هذا القرن لاحت فى الأفق نـذر الحرب العالمية الأولى، وانضمت تركيا إلى ألمانيا فى

مواجهة بريطانيا وحلفائها.. أما مصر فارتبطت بالحلفاء أملا منها فى الحصول على استقلالها من الاحتـلال الإنجليزى بعد أن (تحررت) مـن العثمانيين. وانتهت الحرب بانتصـار الحلفاء، وانتظرت مصر انتهاء الاحتـلال ولكن بريطانيا أخذت تماطل فكـانت ثورة سنة ١٩١٩ تعبيرا عن رغبة الشعب فى استقـلاله، وكـانت ثورة عارمـة امتدت حتى شملت أنحـاء القطر المصرى وحتى ضمت مختلف فئـاته. وتعطلت الـدراسة فى مـدرسة الطب كما تعطلت فى غيرهـا. وكان كـامل حسين على أبواب السنـة الثانيـة، وشـارك كامل حسين فى ثـورة سنة ١٩١٩، وكـانت جماعته تتألف من إبراهيم عبد الهادى، ومحمـد حلمى الجيار، ووصفى عمر، وحسين فوزى، والمرحومين زكى مطـر، ومحمود عز العرب وكـانوا يجتمعون بمنـزل محام شرعى من أعضاء الهيئة الـوفديـة بشارع المبتـديان لـه ثلاثة أولاد: محام، مهنـدس، وزميل لهم، وهيأ لهم ذلك المنزل أن يكـونوا على اتصـال بأخبار الثـورة التى لم تكن تنشر فى الصحف، وكانت نفـوسهم هادئة متعقلة، ولم يحدث أن ارتكبوا أى شطط أو اعتداء أو انضموا إلى جمعية سرية.. ويحكى الدكتور حسين فوزى فيقول: «لم أعرفه غاضبـا ـ يقصد كامل حسين ـ إلا فى ليلة من لياليـنا فى صحن الجامعة الأزهر الشريـف إبان ثورة ١٩١٩، وقد ذهبت جماعتنا لمقـاومة خطيب من خطبـاء الحفل يـزمع إثارة الخلاف بين الـوفـد المصرى والأحـزاب السائدة، وقـام كـامل من قرفصائه غـاضبا يحرك خيرزانة ليست له ويعلن بأن الخطيب لا يفهم شيئا ممـا يتعرض له، وهاج القوم وأزاحـوا الخطيب عن منبره». كانت تلك السنة التى تعطلت فيها الـدراسة ذات أثر كبير فى الطلبة وتحررهم تحررا اختلف نوعه، وتباينت درجاته. فقد قضت على المستقبل العلمى لبعض الطلبة، بينما سافر آخرون للدراسة فى ألمانيا حتى لا تضيع عليهم هذه السنة، أما كامل حسين القارىء المشغوف بالمطالعة فلا شك فى أنه استفاد كثيرا من سنة كهذه.

□

تخرج كامل حسين فى مـدرسة الطب مع مطلع سنـة ١٩٢٣ (وكانت الـدراسة فى مـدرسة الطب أربع سنـوات وأشهـرا تمتد إلى أول العـام الميـلادى التالى)، فعمـل فترة بالمستشفيـات المركزية ثم فى مستشفى البـدراوى بسمنود، ثم سافر إلى لندن فى بعثتـه العلمية سنة ١٩٢٥. والفقرات التـالية للدكتور حسين فـوزى تلقى الضوء على بعض جوانب من حياة الـدكتور فى أوربا: «وسافر إلى لوندرة ولحقت به بعد بضعـة أشهر ولكن إلى باريس وكنا نتبادل الزيارات، وجاءنى فى خـلال إقامتى بتولوز لنصعـد سويا فى جبـال البيرنييه ونبدأ مراننـا على التزحلق

(الاسكى فى سـوبـر بـانيير). وذهبت إليه فى إنجلترا فقـدم على من ليفـربـول ليصطحبنى إلى المتحف البريطانى والنـاشونال جالارى، ومتحف الـرويال كولدج للجراحـة، ومتحف التاريخ الطبيعى، وقد أضعت عليه فرصة مشاهدة سباق التجديف بين جامعتى أكسفورد وكمبردج».

« وفى باريس دعوته إلى الأوبرا (فاوست) وإلى متحف اللوفر، وحضرنا افتتاح مسرح بيجال الذى أنشأه واحد من أسرة روتشلد لنشهد استعراضا رائعا على المسرح الدائر من وضع الممثل ساشا جيترى، تأثـر كامل بواحد من مناظره يصـورمبادرة الوزير كليمنصو لزيـارة صديقه المصور الانطبـاعى الكبير كلود مـونيه يعلن لـه فى بهجة عامـرة خبر انتصار فـرنسا وهـدنة ١٩١٨».

وفى لندن تعرف كامل حسين بكثير من المصريين فى النادى المصرى. ويـذكر الدكتور كامل منصور أن أول معـرفته بـه كانت فى مناظـرة من المناظرات التى كـانوا يعقـدونها فى النادى، وكـانت تلك المناظـرة عن اللغة العـربيـة كلغة للعلـوم. وكانت لنـدن حينذاك البلـد الكبير من الإمبراطـورية العظيمـة، وتمثل درجة من الـرقى الحضارى لم يكن للمصريين عهـد بها لا من قريب ولا من بعيـد. وهو رقى يحمل فى ثنـاياه كثيرا من البعـد عن حياة دينيـة مستقيمة نشأ عليها صاحبنا فى بيت عائلة علماء مسلمين يؤمنون بأكثر عقائد الإنسان استقرارا واستمرارا وتقدمـا وهو الـدين. ولم يكن له فى لنـدن شأن إلا العلم، فعكف عليـه راهبا فى محرابـه، وكان مجتمع لنـدن يضمـر للمسلمين الاحتقار لأنـه تقـدمهم فى الحرب والسياسـة، واستعبـدهم واسترقهم فى العلم والثقافة، ثم جرهم فى الحكم والإدارة.

ومن يوم لآخر يجد صاحبنا نفسه بين ضروب راقيـة من التقدم يود لو استطاع أن يجعل لمصر منها نصيبا، فتراه يكتب ضمن مقالاته فى السياسة الأسبـوعية والتى كان يوقعها بتوقيع مستعار (ابن سينـا) عن «مهمة الجامعة المصريـة»، وعن «البحوث العلمية: نقصهـا ووسائل علاجها». كما تنشر لـه السياسة الأسبوعية أيضا محاضرة فى النـادى المصرى بلندن عنوانها: «نحن والعلوم التجريبية» يركز فيها على ضرورة الاهتمام بالمعامل.

□

وعـاد كامل حسين من بعثتـه سنـة تسع وعشرين(١٩٢٩) يحمل زمـالة كليـة الجراحين الملكية ليكون من آحاد يعدون على أصابع اليـد فى مصر يحملون هذه الشهادة. ولكن على باشا إبراهيم يطلب إليه أن يعود فيتخصص فى جراحة العظام. ويعود كامل حسين مرة ثانية يحمل

درجة الماجستير فى جراحة العظام من ليفربـول، فكان بذلك أول مصرى يجمع بين زمالة كلية الجراحين بإنجلترا وماجستير جراحة العظام من ليفربول. وعاد كامل حسين مرة ثانية فى أول فبراير سنـة إحدى وثلاثين (١٩٣١) لينشـىء شيئا اسمـه جراحة العظام فى مصر، «ومـا كان طب العظام فى مصر علما ولا شبه علم، وكـان العلاج فيه يجرى على طريقـة المجبراتى البدائية. وقد أدرك بفطنته أهميـة هذا العلم بعد تعدد الحروب وتعميم وسـائل النقل الآلية»، كما يقول الأستاذ محمـد فهمى عبد اللطيف، وإن كـان الإنصاف يقتضى أن نذكـر أن الدكتـور بيومى كانت له محاولة فى هذا الصدد وإن لم تكن على أساس علمى. وغنى عن البيان أن كامل حسين كأى رائد ـ وفى مصرنا بالذات ـ لقى عنتا وعانى كثيرا حتى صار لقسم جراحة العظام شأنه.

وتدرج كـامل حسين فى مناصب هيئة التـدريس مدرسـا للجراحة سنـة ١٩٢٩، فأستاذا مساعدا للدراسات العليا للجراحـة سنة ١٩٣٦، فأستاذا لجراحة العظام سنة ١٩٤٠. وكانت جمعية الهلال الأحمر المصرى قد نشأت فى رعاية على باشا إبراهيم، وأنشأت مستشفى الهلال الأحمر للحوادث والإصابات سنة سبع وثلاثين (١٩٣٧)، فكان هذا أول مستشفى تخصصى للحوادث فى الشرق الأوسـط. واستطاع كامل حسين أن يجعـل من هذا المستشفى الـذى لازمه أربعين سنة جامعـة صغيرة، فكان منارة فى هذا العلم والفن، واستطـاع هذا المستشفى بفضله أن يبلغ شأوا بعيدا ومـراحل متقدمة فى هذا الفن حتـى صارت له مكانـة عالية مرمـوقة.. ولما أنشىء قسم الحوادث فى قصر العينى فيما بعد كان على غراره.

□

كان كامل حسين جراحا ماهرا بارعا مبدعـا، وقد شهد له الجميع بالكفاية النادرة والقدرة الخارقة. وحدثنى أستاذنا الدكتور كامل منصور أن حسن شاكر أفلاطون باشا ـ وكان عميدا لكلية العلـوم ـ كـان على رأس بعثة علمية لارتيـاد بعض الأودية فى شمالى السـودان عند جبل علبة.. ووقع به الجمـل ثم وقع عليه مرات فتدغـدغت ركبته ونقل إلى القاهرة بـالسكة الحديد، وتولى عـلاجه كـامل حسين، فلما شفى أفلاطـون باشا أرسلـوه إلى أشهر جـراحى العظام فى العالم وقتها وكان فى زيورخ فدرس الحالة وقال: إنه ما كان يمكن عمل أحسن مما عمله كامل، وقرر أن العملية اقتضت من الدكتور كامل سبعـة عشر مسمارا فى ركبة أفلاطون باشـا.. وكان أفلاطون باشا يمشى بعدها وكأن لم يصبه شىء.

وعنـدما أصيب الملك فـاروق فى حـادث القصاصين فى أوائل الأربعينيـات جـاء على باشـا

إبراهيم بكامل حسين ليعالجه ضمن فريق الأطباء الستة الذى ضمهما هما وعبد الوهاب مورو باشا، وعبد اللـه الكاتب باشا، وعباس الكفراوى بـاشا طبيب الملك الخاص. وكان كامل حسين أصغر هـؤلاء وكان وجوده كطبيب شـاب وبعيد عن أجواء القصـور الملكية مثار حفيظـة عند أناس ما. فلما انتهـوا من علاج الملك أنعم على فريق الأطبـاء بالباشوية فيما عـدا كامل حسين فأنعم عليه بـالبكوية. ولم يستعمل كامل حسين هـذا اللقب إطلاقا، شـأنـه فى ذلك شـأن ألقاب المفكر والأديب التى أضفيت عليـه بحق، فلم يكن يباهى بها أو يذكرهـا لنفسها، بل كان يعتبر نفسه طبيبا فحسب، ولم يكن يـذكر قبل اسمه ولا بعده إلا كلمة الدكتـور، وظل على هذا طيلة حياته.

□

اعتز كـامل حسين بمهنة الطب اعتزازا لا يـدانيه اعتزاز، وتسنم الـذروة بين الأطباء التى تتقاصر دونها العزائم والهمم، على حـد تعبير أستاذنا الدكتور أحمد عمار، وشهد لـه تلاميذه وأقرانه بالأمانة المتناهية فى عمله والإنسانية التى لم يعرفوا لها حدا. وكانت براعة كامل حسين فى فنه براعـة على المستوى العالمى شهد لـه بها عظماء الجراحين فى العالم، فكانوا يقـولون لمن يذهب إليهم من المصريين: كيف تجيئوننا وبينكم كامل حسين؟!

وكانت علاقته بالمريض مثالا رائعا للمعانى النبيلة، والأخلاق السامية، والتقاليد الشامخة، ويكفى أن نذكر أنـه ما من مريض أجرى له كـامل حسين عملية إلا وزاره فى نفس اليوم مهما يكن من أمر المجـامع واللجان والنوادى والصـالونات وصحته ومـزاجه، ولا يعرف الـدكتور جـلال موسى استثنـاء لهذه القاعـدة. ونستطيع إذن أن ندرك المدى الحقيقى لقـول أستاذنـا الدكتـور عثمان سرور: «إن كامل حسين كان طبيبا بغير مـرضى، فكل مرضاه قـد تحولوا إلى أصدقاء».

لم يكن كامل حسن طبيبا إنسانا بارعا فحسب، لكنه كان مفكرا وعالما قبل أن يكون طبيبا، فلم يكن يعنى بأن يستنبط المرض من الأعراض استنباط الأطباء، لكنـه مزج الطب بالفكر على نحو بدا معـه لتلامذته وكأنه فيلسـوف. ولعل هذا المعنى الذى كان واضحـا فى سيرته وعمله كطبيب، هو نفسه المعنـى الذى عبر عنه فى مذكرة البحث العلمى التـى قدمها إلى المجلس الأعلى للعلوم، حين يدعو إلى تزود العلماء بثقافة عامـة عالية وعلمية ممتازة، فيقول: «وقبل أن يكون الإنسان عالما ممتازا فى الكيمياء يجب أن يكون عالما ممتـازا أولا ثم يكون عالما كيميائيا، وكذلك

أستاذ الجامعة فى علم بعينه يجب أن يكون أولا صالحا لأن يكون أستاذا فى الجامعة، ثم يكون بعد ذلك أستاذا فى علمه الخاص»

□

كان كامل حسين عالما، على أدق وأكمل ما يراد بهذا الوصــف، فهو يؤمن بالتجربة إيمانا لا يقل عن إيمانه بالعقل، يؤمن بها لأنها سبيل كشف الحقيقـة، وكسب المعلومات، وكان يرى أن التجربـة هى حجر الـزاوية فى البحث العلمى،وهى الأســاس الذى يقـوم عليه ولا يقـوم إلا به ولكنها ليست غـاية العلم بل هى أولى مـراتبه. وهـو يؤمن بـالعقل إيمانا كـاملا لأن التجـربة تنصب عادة على وقائع جـزئية لا يفيد منها العلم الفـائدة المرجوة إلا إن استخلص معها العقل القضايا الكلية والأحكام العامة، لكنه يقصد بالعقل ذلك العقل العلمى الذى يحلل ويعلل لا ذلك العقل الإقطاعى الـذى يسلم ويستسلم، فلا ينقـد ولا يناقش ولا يخترع ولا يفكر. نظـر كامل حسين إلى العلم على أنه عقليـة ومنهج فكان بذلك ـ كما قـال الدكتور أحمد عمار ـ عـالما عالمى النزعة.

أما وطنية كـامل حسين وقوميته فأمر لا يحتـاج إلى التدليل، وهما أعظم بكثير من وطنيات وقـوميات أخـرى تتخذ صـور الشعارات والأقـوال والأمـانى. وهل تصدر مثل هـذه الأعمال الأدبية العظيمـة فى عربيتهـا الفصحى، وهذه الآراء اللغويـة المبدعـة إلا عن مخلص لهذه اللغة وأهلها، غيـور عليها، حـريص على بقائهـا؟ يفهم معنى المحافظـة على اللغة فهما علميـا عميقا يستند إلى الوقائع، والأسلوب العلمى، والنظر إلى المستقبـل على نحو ما سنبينه فى الباب الرابع إن شاء اللـه. وقد يكـون من المناسب أن نـذكر هنا قـوله: «إن نظـريتى فى الدفـاع عن العرب والمسلمين ألا أرد على الأجنبى فأقول أنت مخطىء، ولكـن بقولى إن ما عنـدكم أكثر مما عنـدنا فيما ينتقد».

وكثيرا ما تعجب الناس : مـا الذى دفع كامل حسين إلى أن يهتم هذا الاهتمام بالعـربية لغة وقواعد ومعاجم ونحوا وصرفا، وأن يكون لـه هذا العطاء الفكرى الفصيح الشامخ فيها؟ وأظن أن الجواب عن هذا السؤال يكمن فى وطنية هذا الرجل.

وقـد أحببت أن أطمئن على نصيب رأيى من الصحة، فسـألت أستاذنـا الدكتـور مصطفى الشكعة: هل تعتقد أن الدكتور كامل حسين كأديب أضاف شيئا إلى اللغة؟ فقال لى: بلاشك من كتب شيئا يعد من الأدب العالمى ـ يقصد قرية ظالمة ـ فقد أضاف إلى لغته وخصوصا وهى لغة

غير عالمية. وكـان كامل حسين نفسه يكرر القول بأن أحـدا لن يستطيع أن يأتى بعمل ذى بال إلا أن يكون ذلك بلغته الأصلية.

□

وكثيرون من رواد نهضتنـا فى العصر الحاضر أخذوا يقـرءون فى الثقـافـة الأجنبية مـا أن تهيأت لهم اللغة التى تساعدهم على ذلك، أما كامل حسين فلم يحدد لقراءته لغة ما مع أن لغته الإنجليـزية كـانت أقـوى منها عنـد الآخرين بفضل دراستــه فى الإلهاميـة وفى مدرســة الطب وقراءاته، ولكنه أخذ ـ على حد تعبير أستاذنا الدكتور حسين فوزى ـ يتوغل فى العربية.

ولا نستطيع أن نقول بغلبـة ثقافتـه العربيـة، كما أننا لا نستطيع أن نقـول بغلبة ثقـافته الأجنبية تلك التى كـانت مثلا رائعـا للثقافة الغـربية عند المثقفين العـرب بما قرأ ودرس وفهم وامتدت إليه تلك الثقافة من عصور متباينة فى الفكر الغربى.

أضف إلى ذلك اهتمامه بالثقـافات الشرقية الأخرى قديمهـا وحديثها، فكان يقرأ فى الـديانة الهندوكية والكـونفوشيسية. ويتبين لك بوضـوح مدى الإلمام الواسع لدى هـذا الرجل بتاريخ الأمم والشعوب والحضـارات إذا قرأت كتـابه (التحليل البيـولوجى للتـاريخ)، وهو قـد ألقاه محاضرة سنـة خمس وخمسين وتسعمائة وألف، فما بالـك بما أصاب من الثقـافـة بعد هـذا التاريخ.

□

قرأ كـامل حسين فى فلسفة أغطنيوس وتـوما الإكوينى بقـدر ما قرأ فى الغـزالى والفارابى، وتبحر فى التاريخ والفلسفـة وعلوم الدين وتاريخ الطب وعلوم العـربية، ودرس معجمات اللغة دراسة لا تقل عن دراسة المتخصصين، وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور: «قل أن نجد من يقبل على الثقـافة إقباله ومن يحب القـراءة حبه، فلا تكاد تذهـب إلى محاضرة عامة فى علم أو أدب أو فلسفة إلا وتـراه فى مقدمـة المستمعين، ولا يكاد يظهـر كتاب قيم فى العـربية أو الإنجليزيـة أو الفرنسية إلا ويسـارع إلى قراءته». وكـانت لمكتبته مـزية فريـدة، ذلك أن كامل حسين لم يقتن يومـا كتابـا ليحتفظ به فيها وإنما ليقـرأه أولا ثم إنه قـد يحتفظ به فيهـا. هذا التنوع فى الثقافة والامتداد بها امتـدادا لا نهائيا فى غير مجال التخصص وهو النابغ فيه يجعل

من كامل حسين نموذجا لرجالات عصر النهضة، كما يقول أستاذنا الدكتور حسين فوزى، فكامل يمثل الشخصية الحضارية (الهومانزم) التى تؤثر فى عصر من العصور وتؤشر إلى نهضة أو إحياء.

وفى تأبينه له أمام الاتحاد العلمى المصرى، قرأ الدكتور حسين فوزى ترجمة حرة لعبارات تتضمن حكم الشاعر بولتسيانو على صديقه الكونت «جوفانى بيكوديلا ميراندولا»، وهو من رجال القرن الخامس عشر، بعد ما حذف منها ما يشير إلى اهتمام الكونت بالإسلام وتساءل: أليست هذه صفات كامل حسين؟

□

تمتع كامل حسين بعضوية نادى محمد على (نادى التحرير الآن)، وكان هذا النادى يضم النخبة البارزة من رجال مصر بالإضافة إلى رجال العائلة الملكية، ولم تكن عضوية ذلك النادى فى ذلك الوقت بالشىء القريب المنال وإنما سهلها عليه الدكتور على باشا إبراهيم، وكان كامل حسين يجتمع بلطفى السيد يوميا فى هذا النادى. ويصف أستاذنا الدكتور إبراهيم بيومى مدكور مجالس لطفى السيد التى جمعت بينه وبين كامل حسين فيقول: «وكم كانت ملأى بالأدب والحكمة والعلم والفلسفة والتوجيه والإصلاح.. وتمر بنا أمور لها شأنها وقل أن نفكر فى تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضى وعدة المستقبل. وما أشبهها بمجالس (الإمتاع والمؤانسة) إلا أنها لم تجد أبا حيان معاصرا يعنى بتدوينها، وكان صوته فيها مسموعا، وكلامه عذبا، وتعليقه واضحا، ونقده سمحا. وكان حديثه فى هذه المجالس يدور غالبا حول الأدب واللغة والإصلاح والتجديد».

كان كامل حسين صديقا للطفى السيد ولعبد الحميد بدوى الذى كان صديقا لأخيه الصادق بك ولطه حسين، وكان لارتباطه بهذه الأسماء الثلاثة اللامعة شأن كبير فى حياته، وعندما وقف يؤبن طه حسين وهو آخر الثلاثة لحاقا بالرفيق الأعلى، قال: «عرفت لطفى السيد فوجدت الحكمة، ورجاحة العقل، وسداد الرأى، والسمو الخلقى. وعرفت عبد الحميد بدوى فكان الذكاء الوهاج، والعلم الواسع العميق، ويكفينى أن رجلا مثل ظفر الله خان رئيس محكمة العدل الدولية أخبرنى شخصيا أنه كان يعد عبد الحميد بدوى الأب الروحى له، ثم عرفت طه حسين فوجدته جمع إلى فضائل صديقيه هذين قوة فى العزيمة لا تزيدها المقاومة إلا شدة،

وصلابـة فى الرأى حين تتحول المقـاومة إلى مناوأة، حتى إذا صرح لـه الشر وأصبحت المناوأة عداء سـافرا وجدت لـه قوة خارقـة، جمعتنى به صداقـة من نوع نادر بعـدنا بها عن صخب الحيـاة وعن مشـاكل السـاعة حتـى حين تكون ملحـة، وكنـا نعكف على الهروب من الحيـاة المحمومـة التى يحياها الناس حـولنا وكأنا نريـد بلقائنا أن نجد ــ على الأقل فيما يتعلق بى ـ السكينة والتأمل والإيحاء».

ونحن مع أستاذنا الدكتور بـول غليونجى فى أن «كامل حسين مع لطفى السيد وطه حسن ثـالث ثلاثـة ختم بهم عصر ارتفع فيه الفكـر العربى والآداب العـربية إلى سـدرة المنتهى (كما ارتفع الشعر العـربى الحديث بشوقى وحـافظ ومطران) بل وربما امتـاز كامل بعـدما تنجلى رؤية التاريـخ بمرور الزمن بتنوع الموهبة، وإن كـان تواضعه يأبى عليه أن يجعـل نفسه ندا لهما بل كان يكتفى بأن يعد نفسه من مريديهما».

□

كان طه حسين يرى أن الشخص الحقيقى الذى تستطيع الاعتماد عليه فى إنشاء جامعة هو كامل حسين، لهذا اختاره طه حسين عندما كان وزيـرا للمعارف ليكون مديرا لجامعة إبراهيم (عين شمس الآن).

ولم يكن للجامعة من معنى الجامعـة حظ كبير، فقد أنشئت تجميعا لبعض المعاهـد العالية المتفرقة آنذاك. كانت الفكرة أساسا من إنشاء هذه المعاهد بجانب الجامعة المصرية التركيز على الدراسات العلميـة المهنية، ولكنها تحولت ـ عنـدما ثار طلابها يطالبـون بمساواتهم بخريجى الجامعة ـ إلى جامعة عين شمس وتكونت الجامعة على النحو التالى:

١ ـ كليـة العلوم: من شعبة العلـوم والرياضة بكليـة المعلمين بالأورمان، واختير الـدكتور كامل منصور عميدا لها.

٢ ــ كلية الآداب: مـن شعبة الآداب بكليـة المعلمين بـالأورمان، واختير الأستـاذ إبـراهيم نصحى قاسم (المؤرخ) عميدا لها.

٣ ـ كلية الزراعة: المعهد الزراعى بشبين الكـوم، وعميدها المرحوم أحمد عبداللطيف النيال، وكان عميد المعهد منذ عام ١٩٤٧.

٤ ـ كليـة الطب: فرع كلية طب قصر العينـى بمستشفى الدمرداش بـالعباسية، وعميـدها المرحوم الدكتور محمود أبو بكر الدمرداش.

٥ ـ كلية التجارة: المعهـد العالى للتجارة بالمنيرة، وعميدها المرحـوم عبد اللطيف حسين منذ عام ١٩٥٣.

٦ ـ كلية التربية: معهد التربية بالمنيرة، وعميدها الدكتور عبد العزيز القوصى.

٧ ــ كلية الهنـدسة: المعهـد العـالى للهندســة التطبيقية بـالعبـاسية، وعميـدها الاستـاذ عبدالوهاب كامل منذ عام ١٩٥٣.

٨ ـ كلية البنات: المعلمات بالزمالك، وعميدتها قاسمة فهمى.

٩ ـ وكـانت الكلية الـوحيدة التى أنشئت استكمالا للجـامعة هى كليـة الحقوق، وعميـدها المرحوم عثمان خليل.

وعين الأستاذ مصطفى نظيف وكيلا للجامعة.

وقد حفلت الفترة الأولى من حيـاة الجامعة بالمشكـلات المتعددة فى النواحى المختلفـة المالية والإدارية والمتعلقة بهيئات التدريس (وكانـت ترقياتهم على ١٣ درجة)، ومع أن هذه المشكلات لم تكن تترك مجالا أمام كامل حسين للتجديد إلا أن كامل حسين كان له الفضل الأكبر فى خلق كيان الجامعة ومنشـآتها وكلياتها حتى صار لجامعة عين شمس ـ برغم هـذه الظروف ـ خط واضح متميز خاص بها تـرتفع به إلى مستوى الجامعات الحقيقية برغم عمـرها القصير، وقد ساعـد كامل حسين فى وضع نظـام الإعداد للـدرجات الجامعيـة وإدخال مقـررات دراسية فى الـدراسات العليـا بحيث أصبح الماجستير دراسـة وبحثـا. وكان فى مجلس الجامعـة يستقبل الأفكار الجديدة ويقلبها بشىء من التؤدة والاتزان.

وعرف عنه ـ وهو مـدير للجامعة، يفض منازعاتها ـ مراعاته لـلاعتبارات النفسية الكامنة وراء تلك المنازعات، وجاء قراره فى واحـدة من تلك الحالات تحليلا نفسيا لنفسيات المتنازعين.. وكان مما يحز فى نفسه أن تتدهور بعض الخصومات داخل الجامعة إلى أسلوب يقلل من وقار العلم.

ولما ظهرت مسألة نصاب أعضاء هيئات التدريس فى عهد إسماعيل القبانى وطلبت الوزارة البيانات، وعد كامل حسين العمداء والأساتذة العاملين معه بعدم الرد على خطاب الوزارة، لكنه طلب منهم إحاطته بالبيانات حتى يدافع بها عن الجامعيين إذا ما اقتضى الأمر.

ولم يسترح كامل حسين إلى البقاء فى هذا العمل الإدارى، وكان يشعر بأنه ليس مديرا للجامعة، بل مديرا للمستخدمين، فانتهز أول فرصة تمكن فيها من ترك الجامعة وقدم استقالته وقبلت فى يناير عام ١٩٥٤.

□

وفى سنة ١٩٥٧ حصل كامل حسين على جائزة الدولة فى الأدب عن كتابه «قرية ظالمة» (ولم تكن الدولة قد بدأت بعد فى منح جوائزها التقديرية)، وفى سنة ١٩٦٦ منحت الدولة جائزتيها التقديريتين فى العلوم إلى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ الدكتور محمد نجيب حشاد، ولأول مرة فى تاريخ هذه الجائزة يفوز كل من العالمين فى أول مرة يرشح فيها. كما منح شاعر الشباب أحمد رامى التقديرية فى الآداب، والدكتور حسين فوزى التقديرية فى الفنون، والدكتور محمد عوض محمد التقديرية فى العلوم الاجتماعية، وكان الدكتور عوض عضوا مع الدكتور كامل فى المجمع وقد رشحه المجمع لنيل هذه الجائزة، وفى الجلسة التالية لفوزهما بالجائزة هنأهما أعضاء المجمع وقال الدكتور محمد عوض: «ولو كان للمجمع - يقصد مجمع اللغة العربية - أن يرشح لجائزة العلوم لما وجد أفضل ولا أعظم من الدكتور كامل، وهذا الرجل وحده فى الكرة الأرضية الذى يجمع بين جائزتى العلم والأدب. ولقد كان لى الشرف أن أكون مقرر لجنة الأدب التى رشحته لجائزته، وقد أثبت أن العلم والأدب صنوان، وأنك لكى تكون عالما محققا وباحثا عظيما كالذين أراهم حول هذه المائدة يجب أن تكون أديبا وأن تكون ملما باللغة خير إلمام».

ثم قال الدكتور عوض: «والسر فى فوزنا معا بالجائزة هو أننا نجلس متجاورين هنا حول هذه المائدة، فمن شاء أن يحصل على الجائزة فليحضر ليجاور الدكتور محمد كامل حسين، وبذلك يفوز أعضاء المجلس دائما».

وقد عبر الدكتور كامل حسين للصحفية عواطف عبد الجواد على صفحات الجمهورية عن أنه بالرغم من حصوله على جائزة الأدب قبل حصوله على جائزة العلم، فإنه يحس بالسعادة كلها فى حصوله على جائزة العلم «لأن العلم بالنسبة لى هو الأساس، أما الأدب فهو هواية».

ولم يكن الدكتور كامل يجد غرابة فى حصوله على الجائزتين لأنه كان يعتقد أن الأصل هو الوصول إلى الحقائق بالأسلوب العلمى، حتى تلك الحقائق التى تختص بالمعنويات. ونحب أن

نصحح ما اشتهر من أنه حصل على جائزتى الدولة التقديريتين فى العلوم والآداب فنقول: إنه منح جائزة الدولة التقديرية فى العلوم، وجائزة الدولة فى الأدب.

□

وكانت الأمم المتحدة قد قررت بناء على اقتراح البانديت نهرو فى سنة ١٩٦١ أن تجعل عام ١٩٦٥ عام التعاون الدولى، ووضعت لذلك برنامجا خاصا يبدأ بسبع محاضرات عن «التعاون الدولى» تلقى على الهيئة فى نيويورك، ودعا السكرتير العام المستر يوثانت لإلقاء هذه المحاضرات سبع شخصيات يمثلون الاتجاهات الفكرية الكبرى فى وقتها وهم:

١ ـ ألبرتو كمارجو رئيس جمهورية كولومبيا الأسبق.

٢ ـ جبريل مارى داريو سفير السنغال فى باريس.

٣ ـ إدجار فور رئيس وزراء فرنسا الأسبق.

٤ ـ محمد كامل حسين.

٥ ـ الله كريم بروهى وزير العدل الباكستانى الأسبق.

٦ ـ ديمترفتش مليو تشيكوف نائب رئيس أكاديمية العلوم السوفيتية.

٧ ـ والتر ليبمان الكاتب الأمريكى.

وأعد كامل حسين خطابا جامعا بالإنجليزية، وواجهته مشكلة كيف يقرأ خطابه بصورة لائقة؟ ولم يكن يستطيع القراءة إلا إذا وضع النص قريبا جدا من عينيه، وسجل كامل حسين خطابه على جهاز تسجيل صغير وضعه خلف بعض الكتب وجعل فى أذنه سماعة صغيرة يستمع بها إلى حديثه فى الجهاز ثم يعيده على الحاضرين، فإذا ما صفقوا ضغط على زر الإيقاف حتى ينتهوا من تصفيقهم، وتعجب الحاضرون من ارتجاله خطبة طويلة فى غير لغته عميقة المعانى لم يتنحنح فيها أو يتلعثم مرة واحدة دون أن يعتمد على نص مكتوب.

□

كان الدكتور كامل حسين رجلا مثاليا، وكـان لا يغتفر لنفسه ما قد يغتفره للناس ـ أو على حد تعبيره فى وصف لطفى السيد ـ لم يكن يأخذ الناس بما أخذ به نفسه من الصرامة، وحدثنى غير واحد من المحيطين به أن كتابات الدكتور كامل حسين عن الأخلاقيات والمثاليات والضمير وصفاء النفس لم تكن إلا تعبيرا عما يمارسه حقيقة فى حياته.

وقد ولج كامل حسين الحيـاة فى جل صورها فى نطاق من مثالياتـه، فكان له من ذلك خبرة بالحياة والأحياء قل أن نجد عند أضرابه خبرة تدانيها.

«وكان كامل عملاقا قياسا بالخلق العادى، ولكن أحدا لم يشعر بسموه الفكرى والإنسانى، وإن كان حجمه الحقيقى يبدو فى كل كلمة يتفوه بها وفى كل سلوك يسلكه»، كما يقول أستاذنا الدكتور غليونجى. وقال لى أستاذنا الدكتور محمد عبدالحليم العقبى: إنه «طيلة ثلاث سنوات، كنت ألتقى فيهـا بكامل حسين نعـد كتاب (طـب الرازى) مـرتين كل أسبوع، لم يغتب كـامل حسين إنسانا كائنا من كان، ولا ذكره بسوء، ولا صدرت عنه أى إساءة».

وكانت القفشات اللغوية والملح النابعة من سرعة الخاطر من ملامح كامل حسين، كان حاد الفؤاد، يكشف للعبارة المألـوفة مدلولا جديـدا لم يفطن إليه أحد. وكما يقول أستاذنـا الدكتور بول غليـونجى: «كان لا يتنـاول النقد إلا بروح النكتـة اللطيفة المصطبغـة بلون من الأدب أو الفلسفة. وكان ذهنه فى هذا كما كان فى كل زاوية من زوايا حياته، مثالا من التوائم التام الخالى من الانفصـام الفكـرى الـذى يتسم بـه كثير من العلماء والفـلاسفـة وهم يفكـرون فى واد ويعيشـون فى واد آخـر، وينطقـون بلغـة فى خـلال حيـاتهم الفكـريـة غير لغتهم فى حيـاتهم الدنيوية».

□

كان قليل الكلام، شديد الاتزان، عف اللسان، هادىء الصوت، رقيق الابتسامة، لاذع النكتة دون أن يجرح بها أحـدا، وكـان «ذكى الملامح والبصر والـوجـدان، زكـى السمت والنفس والضمير، رضى الخلق والشمائل، نبيل السجيـة والطبع، قـوى القـرين والتجلـد» كما تقـول الدكتورة بنت الشاطىء.

وكان حييا: ألقـى الدكتور عمر فروح بحثـا فى مجمع اللغة العربية عـن المدارك القديمة فى اللغة، وأشار إلى المدارك الجنسية وأعرض عن ذكـر أمثلتها الكثيرة، فقال الأستاذ محمد بهجة الأثـرى: نحن فى مجمع اللغة وأرى أن لا حيـاء فى أن يسمى الأستاذ الأشيـاء بأسمائها. فـرد

الدكتـور كامل وقال: «قال الأستـاذ العقاد: لا حياء فى الأدب، ويقول الأستـاذ الآن: لا حياء فى اللغة، فما الشىء الذى بقى الحياء فيه؟ ورأيى أنه لا ضرورة لذكرها».

وكان يكره الفضائل المرهقة ولا يؤمن بها. يقصد بالفضائل المرهقة أن تطلب من الناس ما ليس فى إمكانهم، كأن تطلب من الصديق تضحيات فى سبيل الصداقة، والمرحوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله كان يرى فى ذلك سر الهدوء النفسى وحب الناس اللذين تميز بهما الدكتور كامل «وكيف بـه وهو لا يحمل عتابـا، هل يحمل كرها؟». وكـان مثالا فى الرزانـة يحركه عقل فاحص، وتسانده فلسفة فى الحياة وفى كل أمر يدور حول صاحبها وتضع كل رأى فى موضعه حسب ميزان العقل وتبعا لمكانه.

وكـان كامل حسين ــ والكلام لأستـاذنا الكبير محمـد شوقى أمين ــ: «كبير العقل.. كبير النفس، اتسع عقله لكثير من ألـوان المعرفة، وهتفت نفسه بجـوانب شتى من الإصلاح العلمى واللغـوى، وجمع بين الأدبين أدب النفس وأدب الـدرس»، فكان كما عبر عـن نفسه، «أبعـد مـا يكون عن أن يمس إحساس إنسان إن من قريب وإن من بعيد». وكان له بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وفـاء ومتانة خلق عجيبتـان قلما تظفر بأيهما فى هذا العصر. ويـوم أن انتهت مدة رئاسته للمجمع العلمى المصرى وأبى عليه الأعضاء إلا أن يجددهـا، وكان قانون الجمعيات فى ذلك الوقت قـد صدر وتضمن إجازة تجديد الـرئاسة، أبى كامل حسين وقال قـولته الشهيرة: «التقليد الراسخ أقـوى من تقلبات التشريع».. فدل على احترام رائع للتقاليـد العلمية التى كثيرا ما نادى بوجودها فى البيئات العلمية المصرية.

□

وكانت فى كامل حسين صفات المعلم، فما بخل على إنسان مهما كانت علاقته به بعلم، وكان ينتهز الفرصـة ليعلمك شيئا.. فى الطب.. فى السياسـة.. فى الأدب. فإذا ألقـى إليك القول شعرت بالقيمة التعليمية التى يحملها قوله.

ونحن مع أستاذنا الـدكتور أحمد عمار حين يقول: «والعصر الذى عـاش فيه كامل حسين يمثل مرحلة دقيقة من مراحل النهضة الحديثة فى مصر، إذ حفل هذا العصر بجملة من الدعوات إلى الانبعاث العلمـى والتقدم الحضارى لملاحقـة الركب الماضـى إلى أمام. ولكأنما الأقـدار قد هيأت لكامل حسين أن تتمثل فيه عصارة تلك الحقبـة بأفضل ما فيها من قيم ومثل وأهداف..

وما كان له أن يبلغ هذا الشأو منها لولا ما أتيح له من المواهب العقلية، تلك المواهب التى جعلت منه مثالا فريدا فى البحث العلمى والتوجيه الاجتماعى».

وحين يقـول: «إن كامل حسين يـؤمن بأن شرف الحيـاة هو الإخـلاد إلى صـومعة المفكـر والتعبد فى محرابه والتصوف فى خلواته». ألم تكن كلماته الأولى فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة هى قوله:

« سادتى : لعلكم تغفرون لى ما أشعر به مـن زهو حين أجد نفسى بين هؤلاء النفر الكرام من العلماء والمفكرين وقد تفضلوا فاختـارونى لهم زميلا. ولا أعرف أحدا لا تستخفه الغبطة ـ حتى تبلغ به هذا القدر من الزهـو المباح ـ حين يصيب حظا من هذا الشرف العظيم. والتشريف فى غير ميدان الفكـر قد يرفع قدر المرء عنـد الناس، لكنه فى مجال الفكـر تشريف حق، يعظم به قدر المرء عنـد نفسه، مثله فى ذلك مثل الفروسيـة قديما فى ميدان الخلق كـلاهما يطهر النفس، ويسمو بها سمـوا يعصمها من الابتـذال، فلا يجمل بها بعـده ما كـانت تتحرج منـه من قبل، والتسامى عقـلا أو خلقا أمر نادر فى الحياة الحديثـة، فهى عنيفة ملحة، شغلنـا عنفها وألهانا إلحاحها عن التفكير فى غير ما يعـرض لنا من شئونها يوما بعـد يوم، وفيها من الصخب المعنى والابتذال المرير، والاضطـراب، والقلق، ما لا طاقة للنفس البشرية بـه، فهى فى حاجة إلى الهدوء والاطمئنـان والاستقرار، أمـور نلتمسها فـلا نجـدها إلا فى الحيـاة الفكريـة حين تخلص من شوائب الشهوات الجامحة، والرغبات العاجلة، والتهالك على المنفعة القريبة».

نعم كان الـدكتور كامل حسين رجل استقـلال وانفراد، ذا عقل يتوقـد، وقريحة تستجيب وقلم يعينه بالإبانة والإفصاح.

□

أما إيمان الـدكتور كامل، فكـان من ذلك النوع الذى يقـوم فى النفس على أساس راسخ من العلم والعقل والاستنتاج والاستنباط والمقـارنة بين الأديان، وكان شديد الاطـلاع على الثقافات الدينية الأخـرى وصاحب آراء فى فلسفتها، كما سنبينه فى فصل آخر بـالتفصيل.. وكان تفتحه لكل العقائد والأفكار يحمل بعض المتزمتين على الضيق به.

وكان على صدق عقيدته الإسلامية منجذبا بصفة خاصة إلى السيد المسيح دون التسليم ـ طبعا ـ بألوهيته، وكان يكره التعصب فى الأديان، وكان حريصا على زيارة الأماكن المقدسة لدى

اليهود والمسيحيين والمسلمين، وبلغ به ذلك الحرص أن زار دير سانت كاترين على جمل، إذ لم تكن هناك وسيلة حينذاك غير الجمل. وألقى محاضرة فى الكنيسة التى كانت قائمة فى ميدان الشهيد عبدالمنعم رياض بالقاهرة هاجم فيها فكرة التثليث فى المسيحية مع أن عددا كبيرا من الرهبان كانوا يستمعون إلى محاضرته، ولما احتدت عليه واحدة من المسيحيات الحاضرات بسبب مهاجمته التثليث لم يفقد كامل حسين أعصابه ورد عليها قائلا: «لست أنا وحدى الذى أهاجم التثليث، ولكن نصف المسيحيين يشاركوننى الرأى!».

نعم كان له من الشجاعة فى إبداء آرائه الدينية ما جعله يتحدث فى تليفزين روما عندما استضافوه عن «الصلاة فى الإسلام». وقد جمع الدكتور كامل حسين إلى إيمانه الكامل العقل الكبير الذى ساعده على فهم إيمانه بحيث لم يخلط بين إيمانه وبين عقليته العلمية. ولم يكن يخلط فى إيمانه بين العقل كعقل والإيمان كإيمان، فكان يرى أن التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء على نحو ما سنفصل فيه القول فى فصل آخر.

وكان يمارس الرياضة البدنية بانتظام، وفى اعتدال، فكان إذا نزل بلدته ارتدى الزى الرياضى وقطع المسافة من سبك الضحاك إلى بنها — اثنى عشر كيلومترا - ماشيا على خط السكة الحديد ثم يعود راكبا. وحدث ذات مرة فى أثناء الحرب العالمية أن شاهده خفير نظامى من أولئك الخفراء، فصمم على أنه جاسوس من الفرنجة الذين يجيدون العربية ويخادعون بها المصريين، وأشهر بندقيته فى وجه كامل حسين ووضع يده على الزناد وهم بقتله لولا أن الله سبحانه وتعالى ألهم كامل حسين أن يسأل ذلك الخفير: أليس لك عمدة؟ وهنا عاد إلى ذهن الخفير أنه ليس الحاكم بأمره فى هذه المنطقة، فتراجع وذهبا إلى العمدة، وكان صديقا لكامل حسين.. ترى كم كانت مصر تخسر لو لم يلهم الله كامل حسين ذلك السؤال؟!

وإلى فترة قريبة من وفاته كان يذهب إلى النيل يبتغى النزهة فيركب مركبا مع بعض أفراد العائلة يقضى به وقتا بين السماء الزرقاء والمياه الصافية.

□

أبعد كامل حسين نفسه عن الأضواء أو كما يقولون «كان بعيدا عن الجماهيرية»، ولم يكن فى ذلك بدعا بين أقرانه قادة الفكر وأعلام العلم فى مصر فى عصرنا هذا، ومن ذا الذى يعرف للدكتور عمار فضله على اللغة والأدب، أو للدكتور العقبى فضله على تاريخ الطب؟ ولولا شهرة

هؤلاء العمالقة فى تخصصاتهم الطبية لندر أن تجد من يعرفهم. أولئك قوم رضوا من الحياة أن يرضوا ضمائرهم ونفوسهم، فلما أرضوها هانت عندهم الأضواء.

وفى مارس سنة ثلاث وسبعين (١٩٧٣) أصدرت الهلال عددا خاصا عن (أطباء أدباء)، وكان الموضوع الأول فيه «الطبيب محمد كامل حسين أديبا» للأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، وفى هذا دلالة على مكانة كامل حسين بين الأطباء والأدباء الذين يتحدث عنهم العدد، وهم: ابن سينا ــ الدكتور أحمد عمار ـ الدكتور محمد شرف ـ د. أحمد زكى أبو شادى ـ د. أحمد عيسى ـ إبراهيم ناجى ـ وذلك بالإضافة إلى الأطباء الأدباء فى العراق وفى الأندلس وفى الأدبين الإنجليزى والفرنسى الذين تحدث عنهم العدد بصفة مجملة.

لم يسمح الدكتور كامل حسين لنفسه أن يفرغ ذات يوم، ومع هذا فلم يكن ليقصر فى أمر ما من الأمور التى شغلته أو شغل نفسه بها، وكان السر فى ذلك تنظيمه لوقته وتقديره لقيمته، وما بالك به يستغل الوقت القليل الذى يُحضر له فيه المريض فى الرد على خطاب أو إعداد مذكرة.

وكان له مزاج طابعه الاعتدال فى كل شىء.. فى مأكله، ومشربه، وملبسه، وإنفاقه، ومنزله.. فكان أنيقا بلا تعمد ولا تطرف، ولم يكن يغرم بالديكورات، وإنك لتجد عيادته خلوا منها، ولا بالسطحيات ولا بالأفكار أو الأعمال التى تكون السطحية طابعها المميز، ولم يكن يحب الثراء ولا الغنى. وكان رجلا عمليا يحب السيارة الفولكس واحتفظ بسيارة من ذلك النوع بالإضافة إلى سيارته التاونس حتى وفاته.

□

وكان كامل حسين فى حياته الشخصية مثال الاستقامة، فلم يكن يدخن ولم يعاقر الخمر، وكان يبكر فى استيقاظه، ويبكر فى نومه إذ لم يكن من هواة السهر ولا ما يتعلق به. ولم يتزوج كما لم يتزوج أخواه من قبل، وكان لارتباطه الشديد فى شبابه بأخيه الصادق بك وانشغالهما بأمر المحاورات العقلية بعض السبب فى انشغاله عن الزواج فى حينه. وكانت لهم شقيقة وحيدة تزوجت وأنجبت وهى صغيرة، وتوفى عنها زوجها وهى صغيرة أيضا، فانضمت إليهما بأولادها، فكان لهما بها تعويض عن حياة عائلية يحتاج إليها الإنسان فيلجأ إلى الزواج. وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا بعض ما يتعلق بهذا الموضوع.

سئل الدكتور كامل حسين «هل هو من أتباع مذهب أبى العلاء»؟ فأجاب: «هناك إحصائية حديثة مفادهـا أن عدد السعداء فى العالم الثالث من الازواج ٧٪ فلهذا أخـذت بالأحوط». وذكر مرة أخـرى فى جلسة مع بعض الأصـدقاء أنـه بسبب بيتين من شعر شكسبير قـد أحجم عن الـزواج ولكنه لم يفصح: أى بيتين هما. ومـرة ثـالثة قـال: «إن الإنسـان يولـد ويتعلم ويعمل ويتزوج وينجب ويمـوت، وأنا لم أتزوج حتى يتأجل الموت خطـوتين». وعندما سألـه محمود عوض عن ذلك أجابـه: «ليس لدى تفسير أقدمه لك، وأفضل ألا نتحدث فى هـذا الموضوع»، أما أستاذنا الدكتور محمد عبدالحليم العقبى، فيرى أن عدم زواجه لم يكن عداء للمرأة وإنما ضنا بوقته على الزواج، وكان الدكتور كامل يشجع الشبان على الزواج.

□

كانت علاقـة كامل حسين بأخيه الصادق بك علاقـة وثيقة من الحب فى وقار، والاحترام فى عطف، وكان ارتباطهما فوق المعقول ارتباطا يـدهش له كل من عاصر كاملا أو عاصر الصادق بك حتى يجد نفسه يعاصرهما معا كوحـدة واحدة. وقد أراد الدكتور حسين فوزى أن ينبهنى إلى أن أتأمل فى أخـلاقهما التى وصلت إلى درجـة عظيمة من السمـو فقـال: انظر لقـد سماهما والدهما باسمين صدقا عليهما: «الصادق والكامل».

وكان الدكتـور بارا جدا بأقاربـه وذرية أخته، وكان يحرص حتى آخـر أيامه على أن يشرح لهم ما غمض عليهم فهمـه من دروسهم، وكانت أبوته حيـة ـ على حد تعبير أستاذنـا الدكتور الشكعة ـ فكان يتابع أمينة بنت الأستاذ أمين الخولى كما روت والدتها الدكتورة بنت الشاطىء صديقـا وأستاذا راعيـا فى دراستها للماجستير، فلم يكـن يخطئه يومـا أن يطل عليهـا صباح مساء، وأعطاها يوم راحتـه الأسبوعية ضيافة وصحبة يتذاكران ويطالعـان ويتدارسان جديد البحوث فى الفلسفة والـرياضيات ملتمسا لها من هـذه الجولة الفكرية فى (الـوادى المقدس) ما يحفظ لها إرادة الحياة، وملتمسا فى صحبتها ومحاورته معها ما يجلو نظريته الثاقبة فى (وحدة المعرفة)، إلى أن توفيت فى السابع عشر من أغسطس سنة أربع وسبعين وتسعمائة وألف، ومن يومها تهيب زيارة منزلها.

لم يفرط أحـد ممن صادقـوا كامل حسين فى صـداقته، حتى أولئك الذيـن تشغلهم تبعات الحكم والسياسة، وكان وزراء الصحة المتعاقبين من تلاميذه المفرطين فى حبه، وهيأت الظروف له اتصـالا بعديد من رجـال الثورة والحكم، فعـرف محمد نجيب وهو مـدير للجامعـة، وكان

لكمال الدين حسين مصاهرة وقرابة مع عمدة قريته، فكان يأبى عليه الاستقالة، وكان الدكتور إبراهيم بدران والدكتور عبده سلام من تلاميذه المفرطين فى حبه، وعاصره الدكتور مصطفى كمال حلمى فى المجلس الأعلى للجامعات فتوثقت بينهما الصلة. وكذلك استمع إليه الدكتور عبدالقادر حاتم فى المجالس القومية فكان يكبره، وعرفه حسين الشافعى فى أخريات حياته فتوثقت بينهما الصلة.

□

ربأ كامل حسين بنفسه عن جو السياسة والحكم والأحزاب، وإن لم يمنعه هذا من أن يعايش أحداث الوطن التى تعاقبت عليه بعقله ووجدانه، ويتأثر بها ولها تأثرا شديدا. وروى أنه كان يحرم على الطلبة الجامعيين الانتماء إلى الأحزاب، وفرض عقوبة صارمة على من يخالف هذا الأمر، معللا ذلك «بأن أفهامهم البريئة تقصر عن فهم أساليبها الملتوية ومسالكها الوعرة». ونذكر هنا قولة له جاءت عرضا فى بحثه (اللغة والعلوم): «ولا ينتظر من السياسيين أن يتفقوا، فإن الاتفاق مناقض لطبيعة عملهم».

وكان يعانى فى عينيه من قصر النظر، وقد أجريت له أكثر من عملية فى الخارج، وكانت مشكلته فى السنوات الأخيرة حين حال ضعف بصره دون مواصلة القراءة أن يجد وسيلة يتابع بها أمهات المؤلفات فى العالم، فكان يقرأ له، وكان يستعمل أجهزة التسجيل فيستمع إلى الكتب المقروءة على شرائط، وكان حريصا على أن يقرأ ويتابع. وفيما عدا ذلك تمتع كامل حسين بصحة جيدة إلى ما قبل وفاته بشهور، إذ أصيب بما أعياه وأعيا الأطباء معرفته، وكان نوعا من الهبوط فى وظيفة الكبد على الأرجح، وكان قد أصيب فى صغره ببلهارسيا لم يتم علاجها، وظل رغم مرضه حريصا على حضور اللجان، وشهده الأستاذ محمد زكى عبدالقادر فى لجنة اللغة العربية بالمجلس القومى للتعليم وهو لا يكاد يعرف كيف يتثبت فى جلسته ولكنه كان ثابتا فى علمه وعقله وفكره وطريقة إدراكه.

□

وفى سنة ١٩٤٥ أصبح كامل حسين عضوا عاملا فى المجمع العلمى المصرى (Institut

d'Egypte) فى شعبة البيـولوجيا، ولما رشح رئيسـا للمجمع قبل الدكتور أحمد ريـاض تركى، وكان رئيسا للمجمع قبله، الترشيح فى منصب نائب الرئيس لما علم أن الدكتور كامل حسين هو المرشح للرئاسة، وفى سنة ١٩٤٦ اختير عضوا مراسلا لأكاديمية الجراحة فى باريس، وفى نفس العام زميـلا للجمعية البريطـانية لجراحـة العظام. واتصل كـامل حسين بـالجمعية الـدولية لجراحة العظام والإصـابات وضم إليها جراحى العظـام المصريين، وكان أول من مثل مصر فى اجتماعات مجلس إدارة الجمعية، وظـل كذلك حتى عام ١٩٧٠ إذ استقال احتجـاجا على قرار الجمعية باختيار إسرائيل مقرا لانعقاد مـؤتمر الجمعية سنة ١٩٧٢ بعد أن لم يستطع وأد هذا القـرار، لكنه رأى ألا تقطع الصلـة بالمجتمع الـدولى وعين خلفا لـه يوالى رسـالته فى حضـور اجتماعات الجمعية ومتابعتها والاتصال به.

وفى سنة تسع وأربعين (١٩٤٩) أسس الجمعية المصريـة لجراحة العظام وظل رئيسا لها، ولما أبى إلا أن يتنازل عن الـرئاسة اختير رئيس شرف لها مـدى الحياة، وأهـدى مكتبتها قبل وفـاتـه مجموعـة كبيرة من كتبـه الطبيـة تجدهـا الآن فى مكتبـة كامل حسين بـالجمعيـة فى الإسكندرية.

□

وفى الثالث من مـارس سنة اثنتين وخمسين(١٩٥٢) انتخب كامل حسين عضوا عـاملا فى مجمع اللغة العـربية فى الجلسة السادسة عشرة مـن جلساته فى الدورة ١٨ وكان انتخـابه من رابع مرة بأغلبيـة عشرين صوتا، وكـان مجموع الحاضرين أربعة وعشرين عضـوا. وهو بهذا «السابع والخمسون» بين الخالدين، فإذا علمت أن ثلاثة وأربعين من الخالدين عينوا على أربع مرات (١٩٣٢، ١٩٤٠، ١٩٤٢، ١٩٤٦) وجدت أن كاملا كان هو العضو الرابع عشر المنتخب، أى الذى رغبت أغلبية الأعضاء فى وجوده معهم، ويعد كامل حسين خامس طبيب يدخل مجمع اللغة العربية بعـد الدكتور على باشا إبراهيم (١٩٤٠) والدكتـور على توفيق شوشة (١٩٤٢) والدكتـور محمد شرف (١٩٤٦)، والـدكتور أحمد عمار (١٩٤٩). أمـا الكرسى الـذى شغله كامل حسين فى المجمع، فهو الكـرسى العاشر الذى شغله لأول مـرة الأستاذ أحمد السكندرى (١٩٣٣ ــ ١٩٣٨) ثم الأستـاذ أحمد حافظ عـوض (١٩٤٢ ــ ١٩٥٠) واستقبلـه الدكتـور إبراهيم بيـومى مدكور فى الجلسة السـادسة والعشرين فى التاسع عشر من مايـو سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف (١٩٥٢)، وفى نفس الجلسة بـدأ الدكتـور كامل نشـاطه فى المجمع

مشتركا فى المناقشات التى دارت فى جلسة المجلس الخاصة والتى عقدت بعد انتهاء مراسم الاستقبال، وفى الجلسة التالية تقرر ضم الدكتور إلى لجنة المعجم اللغوى الوسيط. وفى الدورة التالية وهى الدورة التاسعة عشرة كانت نسبة حضور الدكتور كالآتى: حضر ١٨ جلسة من جلسات المجلس واعتذر عن عدم الحضور فى ٥ جلسات وتغيب عن أربع جلسات، وقد أردت بهذا أن أدلل على اهتمام كامل حسين باللغة والمجمع اللغوى الذى لم يحل بينه وهو فى قمة العمل الإدارى ومتطلباته مديرا للجامعة وبين حضور نسبة كهذه تعد خيالية فى مثل ظروفه.

وفى الجلسة الثانية للمجلس فى الدورة الحادية والعشرين تقرر ضمه إلى لجنة الطب، وفى الجلسة السادسة للمجلس فى نفس الدورة اختير عضوا بلجنة شكلت لمراجعة أعمال المجمع. وفى الجلسة الثالثة عشرة للمجلس فى الدورة الرابعة والعشرين عرض رئيس المجمع على الأعضاء اقتراح لجنة الأدب التى انعقدت فى صباح ذلك اليوم أن ينضم إليها الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ محمد شفيق غربال والأستاذ حامد عبد القادر فووفق على ذلك. وفى الجلسة السابعة للمجلس فى نفس الدورة كلفه المجمع بأن يبلغ المجلس الأعلى للعلوم رغبة المجمع فى أن يكون نشر كتاب «القانون» ضمن مشروعات السنوات الخمس، واختير الدكتور كامل حسين مع الدكتور أحمد عمار لتمثيل المجمع فى المؤتمر الطبى العربى التاسع والعشرين الذى عقد فى المدة من الرابع والعشرين إلى الثامن والعشرين من مايو عام ١٩٦١.

□

واختير الدكتور كامل حسين مع الدكتور طه حسين لعضوية اللجنة العليا للإشراف على المعاجم التى تصدرها وزارة الثقافة.

واختير الدكتور كامل حسين عضوا فى الأكاديمية المصرية للعلوم سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف (١٩٦٨)، ولما كانت الرئاسة تسير فى الأكاديمية طوعا للسن فقد اختير نائبا للرئيس سنة إحدى وسبعين ورئيسا سنة اثنتين وسبعين. وطلب إليه فى المجمع المصرى للثقافة العلمية أن يتحدث فى تاريخ الطب ولم يساعده بصره على ذلك فعهد إلى زميله الدكتور العقبى فحاضر وكامل يستمع إليه.

وكان من حظ مجالس العلوم المختلفة التى توالت نشأتها مختلفة أسماؤها (ابتداء بالمجلس الأعلى للعلوم وانتهاء بمجالس البحوث) أن يكون كامل حسين عضوا فيها يرعى الحركة العلمية، ويعمل على إقامتها على أسس وقواعد راسخة ويعنى فيها بتعريف مفهوم العلم

والمنهج العلمى وعلاقتهما ببعض، وتعد محاضرته «البحث العلمى» ضمن وثائق المجلس الأعلى للعلـوم والتى نشرها فى الجزء الثـانى من كتابـه «متنوعـات» دستورا حقيقيـا للبحث العلمى وأصوله وقواعده ومراتبه. وقد اختير الدكتور كامل حسين ضمن لجنة عهد إليها إنشاء متحف لتاريخ الطب. كما اختير عضوا فى اللجنة التى عهد إليها بـدراسة الاعتراف بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.

□

أما فضلـه على تاريخ الطـب والعلوم عند العـرب، فيكفى أن نشير إلى أن كامـل حسين هو الوحيد الذى كتب عن الرازى كتابة عالم، فتحدث عنه من جميع النواحى العلمية فكان تكريمه تكريم رجل عارف.. وكان كـامل حسين من الأوائل الذين نبهوا إلى فضل العلماء العرب، فكتب فى مجلة جمعيـة تاريخ العلوم عن (ابن رشـد) وامتد فضل كـامل حسين على تاريخ الطب إلى قدماء المصريين، فنشر بردية أدوين سميث بعد تـرجمتها إلى العربية عن ترجمة أدوين سميث الإنجليزية وقدم لها بمقدمة أثبت فيها لهذه البردية قيمتها العلمية العظيمة فى طب العظام. كما كان الدكتور عضوا مبرزا فى الجمعية المصرية لتاريخ العلوم.

وقد ظل كامل حسين عضوا بمجلس جامعة عين شمس حتى وفاته يشارك بآرائه السديدة فى صنع أجيال الجامعيين، واختير فى الثـلاثين من مايو سنـة سبعين (١٩٧٠) عضوا بمجلس جـامعة الأزهـر فكان لها من وجهـات نظره الثـاقب حظ كبير. واختير رئيسا لمجلس البحـوث الطبية منذ الثامن من إبريل سنـة ثلاث وستين (١٩٦٣). وكان كامل حسين لفترة طويلة من حيـاته عضـوا بالمجلس الأعلى للجـامعات، والمجلس الأعلى لـرعايـة الفنون والآداب والعلـوم الاجتماعيـة، وكان لـه فيهما آراء سديـدة ناضجـة كثيرا مـا أخذ بها عنـدما اتجهت النيـة إلى الإصلاح.

ولما أنشئت المجالس القـومية المتخصصـة اختير عضوا فى المجلس القـومى للتعليم، وكان حريصـا على أن يبدى آراءه فى التعليم العام وتـدريس اللغة العربيـة حرصه على إبـدائها فيما يتعلق بالتعليم الطبى والجامعى.

□

وفى يـوم الأحـد السـادس عشر من ربيع الأول سنـة سبع وتسعين وثـلاثمائة وألف (١٣٧٧هـ) من الهجـرة الموافق السـادس من مـارس سنـة سبع وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية (١٩٧٧م)، انتقل كامل حسين إلى جوار ربه فى هـدوء كما عاش حياته فى هدوء، فنعته إلى الأمة الجامعات، وهيئـات البحث العلمى، ومجامعه ووزاراته، وكبار الأطبـاء، ومجمع اللغة العربية، والنقابات، والجمعيات الطبية.

وقد قرر مجمع اللغة أن يكون موضوع المسابقة الأدبية لعام ١٩٧٨/٧٧ «الدكتور محمد كامل حسين عضو مجمع اللغـة العربية مفكرا وأديبا»، وهـذه هى المرة الأولى التى يكون فيها موضوع مسابقة المجمع حياة عضو من أعضائه.

وأقامت نقابة الأطبـاء حفلا لتأبين الدكتور كامل حسين بدار الحكمـة مساء السبت الثالث والعشرين من إبريل سنة سبع وسبعين وتسعمائة وألف، تحدث فيه الدكتور عبدالعزيز السيد وزير التعليم العالى الأسبق وعضو مجمع اللغة العربية، والدكتور إبراهيم بدران وزير الصحة السابق، والدكتور مصطفى كمال حلمى وزير التعليـم السابق، والدكتور حمدى السيد نقيب الأطباء، والدكتور أحمس الحمامصى أستاذ جراحة العظام.

وقد خصص مجمع اللغـة جلسته الثالثة والثـلاثين لتأبين الفقيد بقاعة الجمعيـة المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع يوم الخميس الثامن والعشرين من إبريل سنة سبع وسبعين وتسعمائة وألف، وقـام بـالتأبين الـدكتور إبـراهيم بيـومى مـدكـور رئيس المجمع والدكتور أحمد عمار نائب رئيس المجمع، وألقى الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش عضو المجمع قصيدة شعر فى تأبين الفقيد قال فيها:

خلـت المجـامـع من أديـب مصقـع	ونعى النعـاة حكيمنا فى المجمع
وغـدوت أبحـث فى الوجـوه عن الـذى	قـد كان مـلء عيوننا والمسمـع
سـر لـه فى خلقـه أفضـى بـه	لمن اصطفى من عالم متضلـع
وإذا قـرأت لـه سبـاك يـراعـه	وإذا شفاك عرفت سر المبضـع
وتقـول إن جـاءتك مـنه رسـالـة	عبد الحميـد تـرى أم ابن مقفـع؟
هو كابن سينا فى الشفاء وكـابن رشـ	ـد والغزالى فى الخـطاب المشبـع
أفـكاره أزواجـه وبـنـاتـه	وبنـوه مرضـاه وثبـت الأصبـع
بوركـت يا كـف الأديـب الألمعـى	وسلمـت يا كـف الطبيـب اللوذعى

لهفى عـلى رجـل يبيت عـلى الـثرى بلـــغ الثريـــا فى سمـــو الموضــع

لكنهـــا ســـنن الحيـــاة تـــواتـــرت فغـــدوا ولـيس لغابر من مرجــع

واستطرد الـدكتور الدمرداش إلى حكمـة الحياة والموت فى بقية قصيدتـه التى بلغت واحدا وأربعين بيتا.

وبدأ الاتحاد العلمى المصرى سنّـة جديدة فى الاحتفال بـذكرى علمائنا الـراحلين، فأقام فى يوم الأربعـاء السابع من ديسمبر سنـة سبع وسبعين وتسعمائة وألف الاجتماع الأول لتخليد ذكرى علمائنا الـراحلين بتأبين المغفور لهما المرحومين الدكتور محمـد كامل حسين، والأستاذ يونـس سالم ثابـت، وقد ألقى كل من الـدكتور حسين فـوزى، والأستاذ محمد شـوقى أمين، والدكتور أحمس الحمامصى كلمة فى تأبين الفقيد، وألقى الدكتور إبراهيم الدمرداش قصيدته وألقى الأستاذ الغزالى حـرب قصيدة فى تأبين الفقيد، أعقبها بكلمة. أما جـامعة عين شمس فقد قررت إطلاق اسمه على أكبر مدرجات الجامعة، وشكلت لجنتين لتخليد ذكراه.

الباب الثانى

محمد كامل حسين
مفكِّراً

يقــول المستشرق الفرنسـى جـاك بــرك إنــه أحصـى عشرة مفكرين فى العــالم العــربى على المستوى العالمى منهم كامل حسين. أما الأمم المتحـدة، فإنها دعت كامل حسين فى عام التعاون الدولى سنة ١٩٦٥ واحـدا من «سبع شخصيات يمثلون الاتجاهات الفكـرية الكبرى فى الوقت الحاضر». والأستاذ فـؤاد مسلم، وهو رجل عـايش البيئات الفكريـة العالميـة، يقول: إن «اسم كامل حسين كـان علما على الفكر المصرى المعاصر فى الأوســاط الدوليـة». ولا يختلف اثنان فى مصر ـ من الـذين يؤخذ برأيهم ــ على أن كامل حسين من أعلام المفكـرين المصريين، فإذا كان الأمر مع غير كامل حسين فإن شقة الخلاف تتسع. وقد قيل إن كامل حسين كان مفكرا قبل أن يكون أديبا، وعندى أن هـذا لا يوفيه حقه فلم يكن كامل حسين أديبا إلا لأنه كـان مفكرا مبدعا توسل بالأدب إلى عرض فكره.

□

وتفكير الدكتور كامل حسين ـ كما ستبين عنه فصــول هذا الكتاب ـ تفكير إنسانى، يحدوه الإخاء والتكافل، وتتغلب عليه النزعات الإنسانية، بل وتتوجهه هذه النزعات إلى السمو بالإنسان حيث ينبغى له أن يسمو.

والإنســانية فى تفكير الـدكتور كـامل ليست تلك الإنسانيــة التى تمثل «نهاية اليـائس» أو «الفــردوس المفقود» فى تفكير كثير من هــؤلاء الذين اصطلح على تسميتهم بــالمفكرين، ولكنهـا «المنبع» الذى يروى وينمى أفكار الرجل، وينطلق بها فى المجال الإنسانى الرحب.

وهو تفكير آمن لا تـرهبه نزعـة داخلية أيما كانـت تلك النزعة، ومهما كـانت سيطرتها على صـاحبهـا، حتى أن تلك النـزعـات إلى العـدل، والحريـة، والخير، والحب، والجمال، والقيم الإنسانيـة، لا تدفع كامل حسين فى سبيل الـدعوة إليها إلى الالتواء بفكـره، فهو مؤمن بـالفكر المحض وأثره فى الحياة والسلوك الإنسانيين، مؤمن بأن يظل الفكـر خالصا لوجه الفكر، وغنى عن التبيين أن تفكيرا مثل هذا لا ترهبه تلك النزعات الداخلية قمين بألا ترهبه سلطة خارجية أيا كانت الصور التى تتمثل فيها هذه السلطة الخارجية، فما عرفنا فى كامل حسين المفكر رهبة من بطش الـرأى العام، ولا خـوفا من الـرأى الحاكم، ولا ازورارا عن الحق فى أمر من الأمـور حين يحمى الباطل فى هذا الأمر ذوو الجاه والباه.

□

أما وصف تفكير كـامل حسين بأنه تفكير علمى، فليس تـرتيبا على كونـه عالما بقـدر ما فى التفكير نفسه من سمات العلمية، ولو أننا أردنا أن نضرب مثلا للتفكير العلمى عند كتابنا العرب ما وجدنا خيرا من تفكير هذا الرجل مثلا حيا لهذا النوع من التفكير.

والعلمية فى تفكير كـامل حسين لا تقف عند حـد الجو العلمى الذى يـدور التفكير فى فلكه، وإنما هى فى طريقة التفكير، وبراهينه.

□

وليست الـواقعية فى فكر الـرجل هى البعـد عن الغيبيات، فهـذا منهج فى الواقعيـة ينتهجه الملحـدون، ومن هم قريبـون منهم فى اتجاهـاتهم الدينيـة. ولا هى بـالإذعان للـواقع المستتر المستقـر، والخضـــوع للنظم المستتبـة. وإنما هى «واقعيـة» التغيير، التـى تضع فى الاعتبـار ديناميكية الزمن وإستاتيكية القيم، وتردد النشاط الإنسانى بين الصعود والهبوط.

□

وأصل المرونة فى تفكير الدكتور كامل أنه تفكير أصيل، حى، متحرك يواجه متطلبات الموقف بما اختزن من طـاقة على مواجهة المواقف المختلفـة، لا بما هيأته له الخبرة السابقـة من حلول جاهزة.. هو إذن يبنى الأفكار السامقات ولا يشيد سابقة التجهيز.

□

وفى تفكير الدكتور كامل بعد ذلك خصلتان عظيمتان:

الخصلة الأولى هى المسئوليـة، فهو شاعر بمسئوليته إزاء القضـايا التى يتناولها، لا يهرب من المشكـلات منتظـرا أن تأتى حلـولها من السماء، أو فى زمن لاحق، أو بعـد تغيير الأوضـاع القائمة، وهو لا يـذهب بتفكيره إلى برج عال ثم يدعى أن هناك زمنا طويـلا أمام الإنسانية كى تصل إلى هذا البرج، وإنما يضع كامل حسين فى حساباته كل السلبيات القائمات ثم يواجه هذه السلبيـات، فتذهب هـذه المواجهة ببعض هـذه السلبيـات وتضع بعضها الآخـر فى أحجامهـا الحقيقية.

□

أما الخصلة الثانية فهى «الابتكارية»، وقـد يُظن أن الابتكار يتعارض مع الأصالة، والواقع أن الابتكار ليس إلا صورة من صور الأصالة، وفكر كامل حسين خير دليل على هذا الرأى.

وبهاتين الخصلتين: الابتكـارية، والمسئـولية وضع تفكير كـامل حسين صاحبـه على رأس هؤلاء الذين يستطيعون تحقيق التقدم، والرفاهية لمجتمعاتهم عن طريق الفكر.

□

لم يكن كامل حسين المفكـر موسوعى التكـوين يتكون فكـره من قطع متجاورات من العلم والأدب واللغة، وإنما نبع تفكيره وإنتاجه من ثقافة متصلة لا انفصام فيها.

وكـانت فى فكره أصـالة لم نعهـدها فى كثير من أعـلام عصرنا الحديث، فلم يكن (كما قـال

أستاذنا الدكتور عبد العزيز السيد) «يخبر ما يقرأ ثم يخرجه مرة أخرى مختلفا فى الشكل لا فى المضمون كما يفعل كثير ممن يـدعون المعـرفة، ولكنه كـان يتمثل ما يقـرأ أو يسمع من أفكار ومعارف كما يتمثل الجسم السليم الغذاء فيحيلـه إلى جزء من تكوينه ثم يخرجه شيئـا جديدا فيـه الصدق والعمق والأصـالـة. لم يكن كـامل حسين إذن من رواد الأفكـار، ولكنه كـان من صناعها.

□

وكان الجمود الفكرى أكره شيء إليه، فكان يحرص على أن يثير عمليات الارتباط الذهنى فى تفكير المستمع أو القارئ حتى يجعلـه يرتب أفكاره ويصل بها إلى نتائج حتى وإن كـانت هذه النتائج هى المعتقدات القديمة نفسـها.

ولم يكن يقبل أمـرا من الأمـور على علاتـه مهما يكن هـذا الأمـر، وما فعلـه كـامل حسين بالموضوعات الـدينية واللغة وبحوثه ومقالاتـه ودراساته (وبخاصة الأمور الثـابتة والمستقرة فيهما التى يجد الناس الحرج فى أن يمسوها من قريب أو بعيد) خير شاهد على ما نقول.

□

كان كامل حسين يطبق التفكير العلمى التجريبى الاستقرائى على كل ما يصادفه فى الحياة، وكان يؤمن أن هذا التطبيق سيرتفع بلا شك بمستوى النتائج التى يحصل عليها، فكان يقيس النظـر إلى أمـور المجتمع والحيـاة بمقيـاس علمى.. وهـذا يكفى لاتهامـه عنـد بعض النـاس بالعلمانية، ولكنه لم يكن كذلك، فقد كان يعرف للعقل حدوده، وإن معرفته لهذه الحدود لتظهر واضحة جلية فى ثنايا فصول كتابه «قرية ظالمة».

□

وكان كامل حسين يعنى بوضوح الفكرة، ويعتقد أن الفكرة الواضحة وإن تكن خاطئة خير من الفكرة الغامضة وإن تكن صـوابا، وفى هذا يصفه الدكتور مدكور بأنـه كان ديكارتيا أكثر من ديكارت نفسه.

الفصل الأول

نظرية وحدة المعرفة

وقد آن الأوان لنتناول نظريـة «وحدة المعرفة». وقبل أن نعرض للبناء الجديـد للمعرفة عند كامل حسين والـذى يقوم على نظرية تفـاضل القوانين، سنتناول الفصـول الأولى من الكتاب وهى التى تتعلق بالمعـرفة، وتعريفه لها، وتعليلـه لاضطرابها، ثم ننتقل إلى ما كتبـه عن جهاز التفكير، وصفاته، ثم نـذكر تقسيمه لمذاهب التفكير إلى خرافى علمى وفلسفى دينـى، ثم تعريفه للحقيقـة، وحـديثه عـن أنواعهـا، ثم ننتهى من الفصـول الأولى إلى ذكـر رأيـه فى بعض الآراء والمسلمات القديمة، أو بعبارة أصح تعليله لهدمه هذه المسلمات.

ثم نذكـر قواعد نظريـة تفاضل القوانين التى يقـوم عليها البناء الجديد للمعـرفة، ونفصل القول فى القوانين والأشياء، والقـوانين العليا والدنيا، والنظام العام للكـون والمعرفة والفجوات فيه، ثم نورد بعض الحلول التى أوجدتها النظرية للمشكلات القديمة.

☐

المعـــرفة:

هى مطابقـة بين نظامين: نظام الكون، ونظام العقل. وتشـابه هذين النظامين ليـس فرضا يحتاج إلى بـرهان، ولكنه جـوهر إمكـان المعرفة. وعلى الـرغم من أن النظام الكـونى أزلى ثابت مستقر، فإن المعرفة فى الواقع مفككة، وفيها شوائب كثيرة ليس أصلها خلافا بين النظامين.

وإنما أصل هذا الاضطراب ثلاثة أمور:

(أ) أن العقل حين أخذ نفســه بالبحث فى أسرار هــذا الكون لم يبدأ حيث يجب البـدء، فقد بدأت المعرفــة بالإنسانيات، ثم أتبعتهــا بعلوم الحياة. ثم بالماديـات، ومن هنا نشأ الاختلاف، فالنظــام الكونى يبـدأ من أسفل إلى أعلى، ونظــام المعرفة بـدأ من أعلى إلى أسفل، وعلــة هذا أن الكشف عن قوانين المادة يحتــاج إلى أجهزة دقيقة معقدة لم تكن فى متنــاول الإنسان عند أول عهـده بالتفكير، فى حين أن جهــاز الكشف عن الإنســانيـات هو التفكير الخالص، وهــو ميسر للإنسان منذ أول الأمر.

وكان طبيعيا أن ينشأ فى أذهان المفكرين ما نسميه بالحقيقة المنطقية، أى تلك التى تعتمد فى إثبـاتها على المنطق وحده، وهــذا هــو مكمن الخطإ الأول الذى أصــاب الفلسفــة، فقد تعــددت المذاهب التى أريد بها تصوير الواقع، ومع ذلك لم يكن لأحد أن يعرف أيها يطابق الواقع.

(ب) أن علمه لم ينم نموا طبيعيا .

(جـ) لم يقدر للعقل أن يلم بأشتات هذا العلم فيراه جملة واحدة.

□

جهـــاز التفكير :

هو العقل، وفيه خصائص ثلاث:

(أ) **لا يطيق الفوضى:** وهذا الخوف من الفـوضى سبب من أسباب الـرغبة القـوية التى تدفع العقل إلى تنظيم كل ما يعرض له، بل إن هذه القوة التنظيمية غريزية فيه، والدليل على ذلك أن قواعد اللغات منطقية من قبل أن يعرف أهلها شيئا عن النظام الذى تقوم عليه، وتنظيم حياة الناس خلقيا واجتماعيا واقتصاديا يبدأ قبل أن يتبينوا خطر الفوضى فى هذه الأمور.

(ب) **لا يحتمل الفراغ:** ومن ثم فهو يحاول أبـدا أن يكون علمه كافيــا لتفسير ما غمض عليه، والاتزان العقلى لا يتم للإنسان إلا إذا كان علمه مهما قل يملأ فراغ عقله.

(جـ) **لا غنى له عن تجسيم المعنويات:** فهو يمثل الإيمان بالعبادات، ويصور الجمال، ويتغنى بالحب، وقد لا يكون الإنسان إلا جهازا يحول المعنويات إلى ماديات، ويدرك المعنويات فى الماديات من حوله.

ولهذا كله، فإن العقل لا يستقر حتى يجد نظاما يـرتاح إليه، فإن وجده كان خيرا، وإلا فلا مانع من اختراع نظم مصطنعة لا تقوم على أساس من الواقع، وهذا هو أصل الخرافات.

□

مذاهـــب التفكـــير :

ويقسمها الدكتور كامل حسين إلى :

(أ) **خرافى علمى:** موضوعه ربط الأشياء بعضـهـا ببعض، وكشف العلاقات بين الأسباب والمسببات.

والخرافات أول العلم، والعلم خرافات ثبتت أصـولها، وقوام هذا المذهب الخرافى العلمى هو قدرة العقل على تنظيم ما يعلم وحاجته إلى هذا التنظيم.

وجوهر التفكير عنـد البدائيين ربط الأشياء بعضها ببعض، فإذا رأى أحـدهم رجلا يموت، ونجما يهوى، ربط عقله بين هذين الأمـرين، فتراه يعتقد أن موت هذا الـرجل إنما يرجع إلى هذا النجم الذى هـوى، وعلى هذا النحو تنشأ الخرافـات، والأمر فى الخرافات ليس أمر فـائدة تعود على البدائيين من وجودها وإنما هى شىء لا مناص منه فى أول عهود التفكير.

والفرق بين الخرافة والعلم فرق نسبى كالفرق بين البرودة والحرارة، فهو فرق فى درجات التحقيق فى مذهب فكرى واحد.

هذا التفكير مـداره السببية يبدأ بأوائل الأمور وينتهـى بأواخرها، وخير ما فيـه أن المعقول فيه يوافق الواقع وبذلك فالحق فيه أوضح.

وموضوع هذا النوع من التفكير تحقيق العلاقات القائمة بين الأشياء.

(ب) **فلسفى دينى:** يبدأ بأواخر الأمـور ويفسرها تفسيرا كاملا، وهو يعد قضـاياه حقا مطلقا، إذا وافقها الواقع فالواقع صواب، وإن خالفها فالواقع خطأ إلى أن يصوبه التأويل. ومن آثـار هذا المذهب: الـدين والأخـلاق، والفلسفة، والاجتماع. وقـد يكـون المحدثـون على حق فى تهاونهم بهذا المذهب، فوجه الصواب والخطأ فيـه صعب التحقيق، ومعايير الحق مختلفة، وفى أكثر أنظمته تناقض واضح وإن تكن كلها معقولة.

وخصائص العقل لا تؤثر فى الحقائق نفسها، وإنما تحدد صورتها فى نفوسنا. فهذا النظام قائم سواء أفهمناه على وجه أم على آخر، أم لم نفهمه، ولكن فهم نظام العقل يحدد صورة هذا النظام فى المعرفة، كما تحدد خصائص جهاز التصوير الصورة التى يلتقطها لما يكون أمامه.

□

البراهين على الحقيقة :

الحقيقة هى وضع كل ظاهرة مادية أو معنوية موضعها من النظام الكونى، ولابد من إثبات الحقيقة بنوع من أنواع البرهان.

والبرهان: إمكان إخضاع العلاقة بين موضوعات البحث لنظام رياضى ثابت مهما يكن تعقيده.

أما المذهب الفلسفى الدينى، فالبرهان فيه برهان نفسى، ومقياس الحق فيه الإلهام والشعور النفسى بأن ما يعتقده المرء هو الصواب. وكما أن الفلاسفة يميلون إلى الغض من قدر البرهان النفسى فى إثبات الحقائق الدينية لأنها لا تقوم على المنطق، فإن العلماء يميلون إلى الغض من قدر التفكير الفلسفى لأنه يقوم على المنطق وحده لا على الواقع. «والحقيقة أن الدين يملأ فراغ النفس بما لا تستطيعه الفلسفة، فهو أكثر منها شمولا وأقدر على تناول ما نجهل حقيقته». وإذا كانت الفلسفة أقل من الدين تحقيقا لغاياتها، فهى أقل من العلم قدرة على تناول الحقائق الواقعية، وهكذا يخلص الدكتور إلى القول بأن الدين والعلم هما طرفا المعرفة، والبراهين النفسية والمنطقية كافية لإظهار ما هو خطأ ولكنها لا تحدد الصواب لكثرة المذاهب الصحيحة عقلا ونفسا.

وعلينا أن نقيم بناء المعرفة من جديد على أن يكون أساسه ما نعرفه معرفة كاملة من نظام الماديات، وهذا أمر ممكن وإن لم يكتمل علمنا بتفاصيل هذا النظام بعد، والأمر فى ذلك مثل الأمر فى المثلث إذا عرفت قاعدته وزاوياته أمكن معرفة الكثير من خصائصه، وإن لم يكمل رسمه. وإنى أعتقد أن علمنا بالماديات والحياة بلغ الحد الذى نستطيع معه أن نقيم هذا البناء الجديد للمعرفة. ولابد قبل إقامة البناء الجديد للمعرفة من هدم كثير من الآراء القديمة مهما تكن عزتها على المفكرين، ومهما يكن وضوح صوابها، ولا شك أن الزمن قد أضفى على الكثير من المذاهب القديمة قدسية ليس من السهل أن نتغاضى عنها، ولكن هذا الهدم ضرورى إذا أردنا أن نقيم بناء جديدا للمعرفة.

الأخطـــاء القـــديمة :

(أ) العلة الغائية :

يقوم هــذا المذهب على تحديد أغراض بعينها تــراد لذاتها، وعلى أن هذه الغايــات تؤدى على نحو ما إلى تهيئة الأسباب التى تنتهى إليها.

ولم يتبين أحد كيف تعمل الغــايات نفسها على خلــق الوسائل المسببــة لها، وعلم المفكرون هــذه الصعوبــة فأوجدوا لها حلــولا مختلفة كلهــا تحاول أن تكشف عن قوة تعمل على تهيئــة الأسباب لبلوغ الغايات.

أما رجال الدين فرأوا أن الله بقدرتــه يعمل على أن يكون العالم كله وسيلة لتمجيده، وعمل الخير.

وعلماء الإنســانيات يــرون هذه الغــايــة فى قوة النظم الاجتماعيــة، وهى عند العلماء بقــاء الجنس، ومواءمة التركيب الجسمى للبيئة.

وهم سواء فى تمكن مذهب العلة الغائية منهــم جميعا، يضعون الغاية أولا، ثم يبحثون عن النظام الــرائع الذى أدى إلى تهيئة أسبابها. ومــا بيناه من أن العقل بدأ تفكيره بأواخــر الأمور يبين لنا طبيعة نشأة هذه المذاهب.

وعندنا أن هــذا المذهب يجب أن يعدل عنه تماما، جملة وتفصيلا، وألا يلجأ إليــه أبدا. فهو خلط من ناحية المنطق، لأنــه يقوم على اتخاذ التوافق بين أمرين دليلا على أنهما خلقــا ليتوافقا، وعلى أن أكثــرهما تعقيــدا خلق فى أبسطهما الصفــات التى تــوافقــه. وهــو عقيم من النــاحيــة الفلسفية، لأنه يضع للمعــرفة حدا لا تتعداه هو هذه الغايــات، ويجعل البحث مقصورا على ما دون ذلك.

وقد أدى مــذهب العلة الغائية إلى عجــز تام فى الفلسفة الدينيــة عن تفسير وجود الشر، وفى الفلسفة عن تفسير وجود الفساد، وفى العلم عن تفسير وجود الأنواع وتعددها.

وأمــا كونــه خطأ من الناحيــة العلميــة، فواضح من أن أحــدا لم يستطع حتى الآن أن يبين الكيفية التى تستطيع بها غاية ما أن تخلق الوسائل التى تؤدى إليها.

وأما أنه عقبــة فى سبيل فهم الكون فهما عقليا تاما، فذلك واضح لأنــه أصبح حجر عثرة فى سبيل الــوحدة فى التفكير لأن الغــاية التى تفسر العــالم كله بما فيــه من تفصيلات متعــددة لم تعرف بعد.

والمذهب الذى ندعو إليه يرى أن هناك قوانين، وأن بين هذه القوانين أفضليات، وأن نظامها يؤدى إلى الغايات، وليست الغايات سببا فى هـذا النظام، فالخير مثلا ليس غاية وإلا لكان الشر محالا، وإنما وضع الله للكون نظاما محكما ينتهى إلى غايات لا مفر منها فيها الخير والشر.

□

(ب) التفكير الثنائى :

يقصد به التقسيم إلى حار وبارد، رطب ويابس، خطإ وصواب، وهو تفكير طبيعى أصله أن الإنســان جعل نفسه مــركز العــالم، ثم وضع الأشياء كلهــا عن يمينه ويســاره. والفهم الحق لطبيعة الأشياء يقضى على مثل هذه التنظيمات التى تقوم على المقابلة بين صفات عارضة، ولن يستقيم التفكير حتى نتخلص من اعتبار الإنسان مقياسا تقاس به الأمور، وعندما تعرف حقيقة الأشياء وقوانينها فستزول أكثر مظاهر هذا التفكير.

وإذا فهمنــا النظــام العقلى والكـونى فهما حقــا فقـد يصبح مـن الممكن أن نقيس الخطأ والصــواب كما تقــاس الحرارة والبرودة على أنهما درجـات مختلفـة لتأثير واحـد على النفس البشرية.

«وما العين إلا جهاز لقياس موجات الضوء، وما الأذن إلا جهاز لقياس سرعة ذبذبة الهواء، وما الذوق إلا جهاز لقياس تركيز أيونات الهيدروجين، وما الجلد إلا جهاز لقياس سرعة ذبذبة الجزئيات».

□

(جـ) الزمن :

كنه الزمن غامض كل الغموض، ولن نستطيع أن نتصوره مجردا عن الأشياء وإنما نفهمه فى الواقع بتقدير أثره فى الأشياء، أو أثر الأشياء فيه، أما فهمه مجردا فلم يستطعه الإنسان بعد ولا نحسبه يستطيعــه فى المستقبل. ولا نعنى بالزمن ذلك الـزمن الرياضى (البعـد الرابع) ولا الزمن الفيزيائى، وإنما نعنى الزمن التاريخى.

وفرض العلماء أن الكائنات العليـا هى آخر الكائنات ظهورا، فرض لا دليـل عليه، فالتطور زيـادة مطردة فى التعقيـد التركيبى للكـائنـات، وليس ضروريا أن نقيس التعقـد زمنيـا، ولعل التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب فيها من صفات.

والإنسان يـدرك الأبعاد الثلاثـة إدراكا مباشرا، ولا يدرك البعـد الرابع إلا تقديـرا، ولا مفر عنده من إدماج هذا البعد الرابع فى الأبعاد الثـلاثة على نحو ما، وإذا كان الكون ذا أبعاد أربعة، فالإنسان لا يستطيع أن يعرفه إلا كما تعرف النملة سطح الكرة، وهذا التصور الناقص يؤدى حتما إلى تشويه فى المعرفة كذلك التشويه فى خرائط الكرة الأرضية حين ترسم على سطح مستو يكون لها أوجه كثيرة من الحق، ولكنها مشوهة تشويها يجعل «ألاسكا» مثلا أبعد ما تكون عن «سيبيريا» وهى فى الـواقع أقرب مـا تكون إليها، وهـذا لا يمنع من أن تكون صـورة الكون فى العقل الإنسانى دالة على كثير من الحقائق الصحيحة.

□

الحـقـيقــة:

الحقيقة دينيا هى ما أنزل الله على عباده، والمذهب الدينى فى تعريفها أكثر المذاهب استقرارا وكمالا. ولكن الكمال نفســه خلق فيه هنات أهمهـا أن التفكير الدينى لم يستطـع تعيين صفات الذات العلية العليمة القديرة إلا بما هو إنسانى، والحقيقة عند الفلاسفة غاية يبلغونها بالتفكير يصدر عنها الصـواب، وليس التحليل وسيلة لبلوغ الحقيقة، وإن يكن وسيلة نـاجحة فى بلوغ الحقـائق الصغيرة التفصيليـة. والتفكير الفلسفى جعل الإنسـانيات مفتـاح الحقيقـة وهى لا تصلح لذلك، فالحقيقة ليست غاية محددة، وإنما هى معرفة علاقة شىء بآخر، وقد يكون هذا الفهم متواضعـا ولكنه وحده لا يؤدى إلى الإلمام بـالصورة الكاملة للقـوانين الكونية، وكلما زاد علمنا بحقيقة شىء من الأشياء قلت عنايتنا بالتعاريف.

وإذا كـانت التعاريف تصلح لتـوضيح نظـام العقل، فهى لا تصلح لفهم طبيعة الأشيـاء. والحقيقة عند العلماء علاقة محددة بين شيئين، حتى إذا كثرت العلاقات إلى الحد الذى يجعلنا نعلم جميع العلاقـات بين جميع الأشياء، أصبحت المعرفـة بالحقيقة كـاملة، وتحديد العـلاقة المعروفة بـالسببية هو مكمن الضعف فى تعريف العلماء للحقيقة، فالسببيـة علاقة بين شيئين

ولكنها من أنواع كثيرة، ولكل سبب سبب أعمق منه وعنـدى أن السببية يجب أن تكون مباشرة أو ملاصقة.

والبناء الجديد للمعرفة يقوم على نظرية تفاضل القوانين.

□

قواعد نظرية تفاضل القوانين :

(أ) الأشيـاء وقـوانينها شيء واحـد لا وجـود لأحـدهما بدون الآخـر، والأشيـاء تجسم لقوانيها، والقوانين هى التى توجد الأشياء.

(ب) القـوانين العليا أكثـر تعقيدا من الـدنيا، والأعلى هـو الذى لا يعمل إلا فيما عمل فيـه الأدنى.

(جـ) القانون الأعلى ليس له أثر فى تغيير عمل القانون الأدنى.

(د) يعمل القانون الأعلى فى تاريخ حياة ماهـو أدنى منه، دون أن يغير من قوانين هذ الذى هو أدنى.

وهذا الأثر الذى يعمله هو القضاء والقدر.

(هـ) يستطيع الشىء الأدنى أن يعرف وجود مـا هو أعلى، ومن المستحيل عليه أن يعرف كنه ماهو أعلى منه من القوانين، والأشياء.

(و) فى كل طبقة من القوانين، وبين الطبقات المختلفة تدرج يجعلها منتظمة تنظيما هرميا.

(ز) كل شىء وقانونه ينظر إلى ماهو أعلى منه على أنه إله قادر قاهر لا يسأل عما يفعل.

□

ملخص النظام العام القائم على نظرية «هرارشية» القوانين :

(أ) فى الأصل (وهو تعبير تـركيبى، أما فى الأول فهـو تعبير زمنى) كان هنـاك شىء واحد

جتناه فى الصغر لـه خاصية القدرة على الاتحاد مع أشباهه على نسب مختلفـة، فكان البروتون والإلكترون.

(ب) استمرت قوة الاتحاد بين البروتونات والإلكترونات، فكانت الذرة هى نتيجة القوانين الذرية، وسبب وجود القوانين الكيميائية.

(جـ) استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشباه بين الذرات، فكان الجزىء الذى هو نتيجة القوانين الكيميائية، وسبب وجود القوانين الفيزيائية.

(د) كل اتحاد تم فى طبقـة من هذه الطبقـات كان نتيجـة لقوانين هـو دليلها ومجسمهـا، ويخرج من هذا الاتحاد شىء جديد يخلق طبقة جديدة من القوانين لم يكن لها وجود.

(هـ) من هذا يتبين أن القـوانين المغناطيسية الكهربية أدنى من قـوانين الذرة، وهذه أدنى من قوانين الكيمياء، وهذه أدنى من قوانين الفيزياء، والسبب فى هذا الاعتبار أن الأعلى من بينها لا يعمل إلا فيما سبق أن عمل فيه الأدنى، فالقـوانين الفيزيائية لا تعمل إلا فيما سبق أن عملت فيه القوانين الكيميائية.

(و) ثم كانت فجـوة فى الطبيعة، والفجوات محتملـة، إذ لم يكن على الطبيعة أن تـوجد كل الاحتمالات الرياضية للاتحادات المختلفة فى كل طبقة.

(ز) فى كل طبقة مـن القوانين والأشياء الماديـة كان ازديـاد التعقيد سببا فى قلـق تركيبى، ولهذا كان الإشعاع فى الذرات المعقدة القلقة.

(ح) اختصت ذرة الكربـون لسبب خاص فى تـركيبها بقـدرتها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسع المدى، إلى أقصى حد، فكانت الجزيئات الضخمة المعقدة، وهذه الجزيئات تصبح لتعقيدها قلقة التركيب مثل الذرات القلقة ذات الإشعاع.

(ط) كانت المركبات التى تتكـون منها المادة الحية نتيجة طبيعية للتعقيـد البالغ فى تكوين جـزيئاتها، ثم اتحدت هـذه المركبات فكـانت الخليـة التى اكتسبت صفات الحيـاة: المقاومـة، والمرونة، والتكيف، وهى سر تأثر الخلية بما يحيط بها دون أن تفقد بذلك شخصيتها.

(ى) اتحدت الخلايا فكانت الكائنات، وظلت هذه محتفظة بصفاتها الحيوية.

(ك) اتحاد الخلايـا نـوعـان، تكـاثـرى واستكمالى (Consummation and Summation) فالتكاثـرى أغلب فى حياة النبات، وهو الـذى أدى إلى وجودها، أما فى الحيوان فـالتكاثر محدد بالاستكمال، أى «وقوف التكاثر عند حد تكوين الأعضاء».

(ل) وكما أن التعقيد البالغ حد القلق فى الجزىء خلق فيه صفـات جعلته يقبل قانونا أعلى هو التكيف والمرونـة، فكانت الحياة، فكذلـك التعقيد فى الحيوان خلق فيه صفـات جعلته يقبل قانـونا أعلى هـو المعنويات فكـان الإنسان، فـالمعنويات هى النتيجـة الطبيعية لتعقـد العضو العصبى فى الإنسان وهو المخ، ومن ثم كانت الذاكرة والعقل.

(م) والمعنويات ثلاثة: **العلم** وقد تكفل بـه المخ كجهاز إلكترونى، **والجمال** وهو نظام فى الأشياء يجعل أثـرها موافقـا لنظام حـواس الإنسان فيجلب هذا التجـاوب بينهما لنا السرور، **والفضائل** وهى نظام فى الأشياء يجعلها تتجاوب ونظام العقل.

(ن) ومن صفات الحياة الملازمة لها الكبح، وهو قـدرة الكائن على الامتناع عن عمل ما مع مقدرته عليه.

(س) والله بالنسبة للإنسان، كالإنسان بالنسبة إلى النحلة مثلا، حين يهيىء لها الإنسان الراحـة والغذاء ويعفيهـا من جهد صنع الشمع، كل ذلك عن علم وقـدرة، وفهم، وإرادة، فهى تعلم بوجود شىء عـال مريد دون أن تستطيع تصور الإنسان، وكذلك الإنســان يدرك وجود ذات علية، عالمة، قادرة، مريدة تعمل فى حياته، ولكنه لا يستطيع أن يتصورها.

☐

القوانين والأشياء :

عرفنا أن الأشياء وقوانينها أمر واحـد لا وجود لأحدهما بدون الآخر، وقد ضل الناس حين قسموا الصفـات الإنسانيـة إلى معنوية، ومـادية، أو حسبـوهما منفصلين وأخذوا يـدرسون قـوانين الحياة منفصلـة عن قوانين الطبيعيـات، وبلغ ذلك غايتـه عند من يـؤمنون بتنـاسخ الأرواح، فـالجسم يبلى لأنه مـادة والروح تبقى لتعـود يـوما إلى حيـوان آخر، إنســان أو غير إنسان.

القوانين العليا والدنيا :

اختص الإنسان بقدرتـه على تقبل المعنويات وهى عنوان الإنسانية، وجهـاز هذا التقبل هو العقل، وهذا الجزء من عمله يختلف عن عمله، من حيث هو جهـاز التفكير، وهو ما تناولناه من

قبل، فـالعقل يلقى على الأشياء ضـوءا ينيرهـا فتتبين حقيقتها وهـو لهذا عضـو المعنويـات. ووظيفتـه من هذه الجهـة أنه يمثل القـوة الفنيـة التى يقع منها تجسيم المعنـويات فى صـورة حسية، وأن عليه التأثر بما حوله من الماديات وتحويلها إلى معنويات، وهذا التأثر **هو العاطفة**.

فالجمال يـوجد حين يتجـاوب نظام شىء مـا ونظام العضو الـذى يدركـه فتكون بينهما (هارمونية) تحدث اللذة.

وهذا هو التفسير العلمى للفضائل، والفنون، والحب، وهى مميزات الإنسان الكبرى.

وأعلى قوانين الكـون هى القوانين الخلقية وبخـاصة نـواهيها، وهى التى تثبت أن الضمير حين يدعـو الإنسان إلى الإحجـام عن عمل ما يرغب فيـه ويقدر عليـه إنما يمثل أرقى صفة فى الوجود، وهذا هو سر التحريم فى الأديان، وهذا هو موضع الضمير من القوانين الكونية.

وإذا فهمنا أثـر القوانين العليا فى القوانين الـدنيا، أمكن لنا بسـهولـة ويسر أن نفهم القضاء والقدر على أنه ذلك الأثر.

□

سقف المعرفة :

يقصد بسقف المعرفة أن الشىء الأدنى يستطيع أن يعرف وجود ما هو أعلى ولكنه لا يعرف من صفاتـه إلا ما يتعلق بقـانونـه هو (أى الأدنى) ومن المستحيل أن يعـرف كنه مـا هو أعلى، وبعبارة أخرى أن معرفة الأدنى محدودة بسقف هو سقف المعرفة.

□

الربوبيـــــة :

شرحها فيما قبل بالعلاقة بين النحل والإنســان، فإن النحلة لا تستطيع أن تفهم حكمة هذه الأعمال، ولها أن تعدها إرادة مطلقة لقوة عالمة قـادرة، غير مقيدة بنظام أو قانون، تملك القدرة على إبادتها، كما استطـاعت من قبل أن تحسن إليها، ومن ثم فهى تخشاهـا. وهذا شرح علمى موضوعى للربوبية يطابق رأى رجال الدين.

الفجـــــوات :

(أ) الفجوة الأولى: المادة والحياة :

لنا فى تاريخ علمنا بالموجات الأثيريــة عبرة تدلنا على أن وجود الفجوات لا يمنع وحدة النظم والقوانين المختلفة. وقد ظن الناس قديما اختلاف الحياة تماما عن الجماد، فلما حضرت البولينا تبين لهم أن الكيمياء الحيوية، لا تختلف عن كيمياء الجوامد، ثم أسرفوا فى الظن فحسبوا الحياة مجرد كيمياء عضــوية. نعم أصل الحياة كيميــائى فيزيــائى، ولكنها بتعقيدهــا خلقت قوانين جديدة هى قوانين الحياة. والقول بــالقوة الحيوية أو الطبيعية غموض ليس من العلم فى شىء، ثم كان لعلمى الوراثة، والأجنة التجريبى أثر فى تحديد النظريات الحديثة للحياة.

ويعترض كــامل حسين على علماء الــوراثة حين جعلــوا الجينــات أصــلا لصفات بعينهــا، فالطــول ليس صفة تــورث، وإنما الذى يحدد الطول هــو عدد مرات انقســام خلايــا النمو فى الإنسان.

وكــذلك يرى كــامل حسين أن قــول علماء الأجنــة إن تاريخ الجنين يعيــد تــاريخ الجنس، تصــوير للــواقع لا مسوغ لــه، وهو عنــده ليس إلا كقــول من يجد فى مركب مــا هيدروجينــا وأكسجينا فيقول بأن أصله كــان ماء. وضلال البيولوجيين فى نظريــات التطور أنهم حسبوها عملية زمنية، فقالوا إن أبسط الكائنات أقدمها، وأرقــاها أحدثها ظهورا، ولو كان عامل التطور كما يقولون به لكانت الحياة اليوم نوعا واحدة راقيا كاملا متغلبا على كل ما عداه.

وكل ما يــدل عليه التطور فى حقيقــة الأمر، هو أن هنــاك تصاعدا فى التعقيــد يتبعه كمال فى التركيب، وتوافق أتم بين الكائن الحى وبيئته.

وهــذا القلق الحيوى المنظــم، هو سر صفــات الحيــاة التى نشهدهــا، فــالتكيف ليس تغيرا سطحيا يعرض للفرد ليقيه ضررا، أو ليصلح من تركيبه تبعا لبيئته، بل هى علاقة معقدة تمتد إلى أصول الخلايا وخواص تــركيبها، ويكون التكيف نتيجة تأثر الحيوان بما حــوله ومقاومته لهذا التأثر.

أما التكاثر فهو يزيد حجم الكائن الحى حتى يبلغ حدا، لا يتفق ونظام تركيبه فينقسم، ولو فهمنا انقســام الخلية فإن كثيرا من التساؤلات حول الحيــاة ستصبح مفهومة معقــولة. ولعل ترتيب محتويات الخلية ساعة الانقسام شبيه بترتيب الذرات فى الشريط المغناطيسى.

أما التركيب النهائى للكائن فهو يتوقف على العوامل التى تؤثر فى الخلايا النهائية عند انتهاء نموها، ولكنه يتأثر إلى حد ما بالظروف المحيطة بهذه الخلايا.

وهكذا نستطيع أن نعبر الفجوة الأولى بين المادة والحياة على جسر أن ثمة صفات خاصة فى ذرة الكربـون جعلتها تقبل التعقيد الكيميـائى البالغ الـذى سمح بوجود الجزئيـات الضخمة القابلة للحياة.

□

(ب) الفجوة الثانية بين الحيوان والإنسان :

وسنعبر هذه الفجوة على جسر القوة الخاصـة التى تتمتع بها خلايا الجهاز العصبى، ومع أنه لم يثبت بعد أن عمل المخ إلكترونى صريح، فإن فسيولـوجيا المخ تقوم من غير شك على قوة إن لم تكن إلكترونية فهى قريبة منها.

والعلم البسيط النـاشىء عن التركيب الخلقى لجهـازنا العصبى هـو **الإلهام**، والمعقد هو **الذكاء**، ولنا أن نتسـاءل هل يسمح تركيب المخ لـه أن يقوم بـوظائف الـذاكرة والخبرة والعلم والحكمة والإرادة؟ ثم بـالحب وتقديـر الجمال والأخلاق والإيمان والضمير؟ أو بعبـارة أخرى ماهى عـلاقة فيسيـولوجيا المخ بسيكـولوجيـا العقل؟ وقد يكـون فى تفسيرنا لحدوث السرور علاقة بهذا البحث، فإن الحواس إذا أدركت أمرا منظما صادف نظـامه توافقا فى نظام الأعضاء الخاصة بـه أحدث ذلك فيها حركـة منظمة تنتقل إلى مسالك المخ فإن وافق نظام المؤثـر نظام المسالك، تم تسجيل هذا المؤثر على نحو منظم، وعندئذ يحدث السرور وهو تفسير محتمل يرى منه أن النظام هو أساس معرفتنا للجمال، وهو ما نجده واضحا جدا فى الموسيقى.

وتفاعـلات الحياة فى الخلايا تخلق تيـارات تسلك المسالك التى مهـدتها الطبيعة أولا والتى مهدتها العوامل الخارجية ثانيا، ثم هى تغير من هـذه المسالك أيضا على قدر قوتها أو ضعفها، وتوافقها أو اختلافها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة داخل المخ. هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والإرادة. وبنفس الطريقة تسلك التفـاعلات الصادرة مسالك التفاعلات الواردة. ومـا الفضائل إلا هذه الأعمال التى تسلك مسـالك موائمة، ويستريح إليهـا الإنسان. ومما يؤيد هـذا الرأى أن أكثر الفضائل تدل عليها أعمال مصدرها فكـر منظم، فالصدق نظام، والكذب فوضى.. وهكذا.

وكل ما نـريده بهذا هـو أن نثبت أنه ليس من المستحيل أن يكـون هناك أصل طبيعى (ولا نقول مادى) للأخلاق. وأوضح ما يكون قانون الكبح، هو ما يكون فى الجهاز العصبى بوجود

نوعين من الأعصاب (Sympathetic and Para-sympathetic) أحدهما مهـدىء والآخر منبـه. وعليه فإن كل أعمال الإنسـان يجب أن تؤخذ على أنها ليست من عمل الإرادة وحدهـا إذا قويت قـام الإنسان بها وإذا ضعفت امتنع، وإنما أعمال الإنسـان كحـركة القلب تـوازن بين الإرادة الفاعلة، والكبح. وفي هذا النظام ضمان لحسن مواجهة الظروف دون تعرض للخطر.

وقانـون الكبح في المعنويات هو الضمير، وهـو أرقى القوانين الإنسانيـة، إذ إنه لا يعمل إلا بعد عمل الإرادة، وهـو أمر طبيعى حيوى ثـابت. وعلى هذا فإن المخ يفرز الـذكاء، والذكـاء هو القـدرة على استيعاب أكبر عـدد من المؤثرات الخارجيـة واختـزانها وإيجاد مسالك إلكترونيـة تربطهـا بعضـها ببعض وبـالعقل، وهو أثر الحيـاة الداخليـة التلقائية داخـل المخ وهـى تتأثر بنظامه الداخلي، والضمير وهو قانـون الكبح وهو عمل طبيعى للمخ تنشأ عنه قوة الامتناع عن المحرمات وعما يعتبر خطيئة.

وهكذا، فإن في المخ جماع الصفات الإنسانية الخاصة التى أصبح بها أرقى الكائنات، ولعلنا نكون بذلك قد بدأنا أول الطريق لإيجاد الأصل الطبيعى للأخلاق وهو ما بحث عنه الفلاسفة. وقد صادف العقل (المعرفة) فكانت وظيفة من وظائفه توغل فيها، واستعذب نتائجها، وأصاب بها الفوائد.

□

(جـ) الفجوة الثالثة بين الإنسان والله :

لماذا لا يكون الإنسان هو القوة العليا للكون؟ لأن أعلى قـانون (شىء) هو الذى لا يؤثر فيه قانون آخر أعلى منه، فهل الإنسان كذلك؟

إن علم الإنسان التام بما هو أدنى منه لا يقوم دليلا على أنه يستطيع أن يعلم شيئا عما هو أعلى منه، بل على أنـه أعلى ما يعـرف من الكائنـات. أما أن وجـود الله فرض لا داعـى له لفهم الكون، فمردود عليه بأن المسـألة ليست مسألة فرض بل حقيقة واقعة، فـالحيوان الذى يذبح قربـانا لآلهة البـدائيين، ليس في حاجة إلى فـرض وجود الخرافـات لفهم ما يـدفع الإنسان إلى ذبحه، وهى مع ذلك موجودة، وإنما يكون الأمر عنده أمر قضاء وقدر.

وصفات الله عند الإنسان محدودة بما هو في متناول العقل الإنسانى، وسنضرب مثلا لذلك

صورة الظل، ما هى إلا صورة الإنسان حين تعمل فيه الشمس، وليس فيها ما يدل على صفات الشمس.

□

ونستطيع الآن أن نقول إن نظرية وحدة المعرفة قد استطاعت أن تفسر ما هو غامض ومجهول ومعقد بما هو واضح ومعروف من الأمور البسيطة نوعا. وهذا بالطبع لا يقودنا إلى القول بأنها مجرد نظرية تصويرية، أو شارحة للعلاقات والأمور المعقدة بتمثيلها بأمور أقل منها تعقيدا. فلم يكن هذا هو غاية النظرية، ولكن النظرية فى فروضها وتفسيراتها، وأمثلتها استطاعت أن تفسر ما هو غامض ومجهول ومعقد بما هو واضح ومعروف من الأمور البسيطة نوعا، وفضلا عن الفائدة المباشرة من ذلك فى فهم الغامض وتبسيط المعقد فإن اتساق الأمور الغامضة والبسيطة معا ولو عند التمثيل لها بعضها ببعض يدل دلالة ما على وحدة المعرفة.

□

وتتميز نظرية وحدة المعرفة بالخصوبة، فهى تساعد على حل مشكلات عديدة ما زلنا حتى وقتنا هذا الذى بلغت فيه المعرفة حدا كبيرا «من العلم فى حاجة إلى حلها حلا عقليا لا نتكلفه لها. ومن هذه المشكلات القضاء والقدر». وتساعد نظرية وحدة المعرفة على أن تسقط من المعرفة ما يكون فيها من آراء تخيلية لا يراد بها إلا ملء كل فراغ فى نظام المعرفة.

وقد ذكرت النظرية أن من خصائص العقل الذى يعد جهاز التفكير أنه لا يطيق الفراغ ومن ثم فهو يحاول أبدا أن يكون علمه كافيا لتفسير ما غمض عليه، ثم قالت إن وجود الفجوات أمر طبيعى، إذ لم يكن على الطبيعة أن تملأ الاحتمالات.. ولا ريب أن هذا يساعد مساعدة كبيرة على قيام العلم ـ فى جميع صوره ـ على أسس لا تحتمل الاختلافات التى تؤدى به إلى صورة غير علمية على الإطلاق.

وبنظرية وحدة المعرفة يمكننا أن نتعمق الظواهر الكونية إلى حد أبعد كثيرا مما وصلنا إليه من قبل، ذلك أننا وجدنا منهجا كاملا نستطيع أن نجد فى فروضه المختلفة وترتيباته المنطقية ما

يساعدنا على هذا الفهم والتعمق وترك البحث فى الظواهر إلى الجوهر الحقيقى، وهو ما تعنى بالبحث عنه وحدة المعرفة عند عرضها للأمور وترتيبها لها. وعندى أن مطابقة نظرية وحدة المعرفة للواقع هى أعظم مزاياها، وهى فى الوقت نفسه موطن الضعف فيها، لا من حيث قيمتها كنظرية وإنما من حيث «التطبيق»، فنظرية وحدة المعرفة لمفكرنا الكبير لا تحقق هدفا أيا كان غير الهدف العلمى الفكرى.

أما النظريات الفكرية الأخرى التى تكون أساسا لأغراض أو أهداف معينة فإنها لابد أن تأخذ صيغة ما كالتحليل المادى والحتمية التاريخية.. إلخ.. فى هذه الصيغة تبرز لنظرية أو لأخرى راية يُلتف حولها ويقاد بها. أما نظرية وحدة المعرفة فترمى إلى تقنين الواقع وإصلاح منهج دراسته.. وإذن فماذا يجعل ذوى المطامع أو أصحاب الهدف يلتفتون إلى مطابقة الواقع وهم لا يريدونه؟ وفضلا عن ذلك فإن هذه النظرية تتصل أولا وأخيرا بالعلم، ولهذا فهى تستعصى على من يريدها سلاحا سياسيا أو اجتماعيا وتبقى بمنأى عن ذلك كله.

وواضح أن عظمة النظرية العلمية الفكرية، تكمن فى هذا الارتفاع، وكذلك يكمن موطن الضعف فيها وهو بعدها عن التطبيق والذيوع. وليس فى هذا ما ينقص من قدر نظرية وحدة المعرفة، فغايتها كما يقول المؤلف «الإصلاح المنهجى» بترتيب أجزاء المعرفة ترتيبا يطابق الترتيب الطبيعى للقوانين الكونية بدءا بالماديات ثم تقام عليها قوانين الحياة وعلى قوانين الحياة تقام قوانين الإنسان، وبهذا تصبح المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات.

□

وقد رفعت النظرية من قدر الإيمان حين جعلته أكبر المعنويات الإنسانية وأشملها وجماع النظام العقلى كله لأنه يدل على نظام فى التكوين العقلى.

وتعرضت النظرية لمشكلة إثبات وجود الله فحلتها حلا عقليا مقبولا حقا، وهو فى الوقت نفسه لا يقود إلى مفاهيم خاطئة. فقد حرص الدكتور كامل حسين على أن يؤكد أنه إنما يفسر المعنويات تفسيرا طبيعيا، وقد نفى كثيرا أن يكون تفسيره تفسيرا ماديا، وقد نجح فيما يتعلق - ولو بالناحية اللفظية — أن يسير على هذا الخط إلا عندما قال: «أما قول المؤمن إن النفس والضمير أمور لا يمكن فهمها من تركيب الإنسان، فيرد عليه أنه من الممكن تفسير ذلك ماديا، وهى محاولة إن لم تكن ناجحة فقد ثبت أنه ليس مستحيلا». وقد يكون ورود هذا التعبير فى كلام الدكتور مقصوداً به إلى أنه من الممكن عند غيره.

وللدكتور كامل حسين فى هـذه النظرية مفاهيم قد لا تكون صـائبة تماما مائة فى المائة، إذا طابقناها بالتعريفات، فلو نظرنا إلى المستحيل عنده لوجدناه ينتفى بمجرد المحاولة، وإن كانت خاطئة، وهذا فى الواقع ينتفى معه الاستبعاد ولا تنتفى معه الاستحالة.

ونظريـة وحدة المعـرفة نظريـة «مفتوحة»، بمعنـى أنها تتقبل التطور الطبيعى الحادث فى المستقبل ولا ترى فيه شذوذا، بل إنها ترى أن زيادة العلـم بناحية من نواحى البحوث العلمية تبين لنا نظـاما لا شك فيه، فـالعالم كله وكـذلك المعرفـة مجموعة من الأشيـاء المنظمة تنظيما يختلف بساطة وتعقيدا حسب طبيعة هذه الأشياء من التكوين، ولا يشذ عن ذلك عقل الإنسان ولا ضميره.

ولا يقول بنظـرية وحدة المعرفـة إلا «طبيب»، وواضح جدا أن طريقة تنظيم الأفكـار فيها، وطريقـة النظر فى الأمور واستنتـاج صورة عـامة للحالـة عموما مع عـدم معرفـة كل الأجزاء والترتيب العقلى لـلأعـراض المختلفـة، ورد الأعراض إلى سبـب غير ظاهـر، وإن بـدا أن هـذه الأعـراض مـرتبطـة بعضهـا ببعض ارتبـاط السبب والمسبب، كل هـذا تفكير طبى أكلينيكى. والواقع أن تفكير الدكتور كامل حسين فى «وحدة المعرفـة» جاء من حديث الناس عن الذاكرة فى المخ أنها تشبه التسجيل الإلكترونى فوجد فى هذا حلا فسيولوجيا لعقدة المعنويات. وكان يقول عن كتابـه إنه ليس بحثـا فلسفيا ولكنه «فكـرة برقت لى تتبعتها بمعلـومات كلهـا مستقاة من أصولها العلمية».

الفصل الثانى

معركة العقاد حول وحدة المعرفة

بدأت معركة العقاد وكامل حسين فى يوميات الأخبار بمقال تحت عنوان: «اقتباس أم توارد خواطـر» يوم الأربعـاء الرابع عشر من نـوفمبر سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف (١٩٦٢) بسـؤال وجهه عبـد العـزيـز البدرى من ميت غمـر دقهليـة يسأل فيـه عن تشابـه بين آراء الفيلسوف ألكسندر صمويل أبى الفلسفة المثاليـة التجريبية وبين آراء الدكتور كامل حسين فى وحدة المعرفة.

وقال العقاد: إن التشابه تام خصوصـا بين ما كتب الدكتور وما كتب ألكسندر صمويل فى كتابه Space, Time and Diety أى المكان والزمان والربوبية، وقد نشره سنة ١٩٣٤. كذلك فإن بعض آراء هـذا الفيلسوف التى تـدور حـول بحث الجمال والفن مفصل فى كتـابه الآخـر عن «الجمال وصور من القيم الأخرى».

وقد لخصنا ــ أى العقاد ــ من مذهب الفيلسوف فى كتابنا عن الله الذى ألفناه قبل ستة عشر عاما ص ٢٥٢ ــ ٢٥٤، الجانب الذى يتناول الربـوبية وصفات المادة. وعدنا فى كتـابنا عقائد المفكرين إلى بيان مذهبه وعقيدته ببعض الإيجاز. ثم قـال الأستاذ العقاد فى النهاية: أما السؤال عن توارد الخواطر، فالأستاذ المؤلف أولى منا بالإجابة عنه.

□

وفى الصفحة الثالثة من «الأخبار» يـوم الأربعاء الحادى والعشرين من نوفمبر تحت عنوان «الدكتور محمد كامل حسين يرد على اتهام الأستاذ العقاد»، قال الدكتور ما ملخصه:

(١) لا أظن العقاد جـادا، فهو لم يقم الدليل بـل ترك الأمر إلىّ، مع علمـه بأن البينة على من ادعى.

(٢) أصالة كتابى، وأمانتى العلمية فوق الشك.

(٣) المعنيون بالعلـوم فى شغل عن أن ينقلوا معلوماتهم عن ملخصـات، ولو كان الملخص هو الأستاذ العقاد.

(٤) لـو كان الأمـر يتعلق بى ما عنيت بـالرد، فـالاتهام لا يقوم على وقـائع محددة، ولكن المسألة ذات وجوه تتعلق بالحياة الفكرية عندنا، ويحسن أن توضع الأمور فى نصابها.

(٥) والأستاذ العقـاد رفعنى فوق نفســه إذ جعلنى ندا لـرجل يقـوم هو بتلخيص كتـابه، سـوى بين كتابى وكتـاب فيلسوف يـراه من أعظم الفـلاسفة، ومن ثم فإن كتـابى وفلسفتى جديران بتلخيص الأستاذ العقاد وإشادته إذا ثبتت أصالة كتابى.

(٦) وهى ثابتة من غير شك، فبنـاء الكتاب يسير فى تسلسل منطقى علمى، وليس فى منطقه ثغرة. وقد يتبين أن المذهب الفكرى الذى يقوم عليـه الكتاب خطأ كله، ولكنه لا يمكن الطعن فيه بأنه منقول، وأسلوب الكتاب وترتيبه لا يدعان مجالا للشك فى أنه أصيل.

(٧) والأستاذ العقاد صادق الحس فى الشعر والأدب، ولكنـه ليس كذلك فى البحوث العلمية وما يقوم عليها، وصدق الحس فى العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة، وقد خانه الحس حين ذكر أن التشـابه تام بين كتابى وكتـاب من يلحقه إليه لأن الفرق بين المذاهب العلميـة قد يدق على من لا يحسن العلم به. وسأسـوق أمثلة تبين أن ما يدعيه الأستاذ العقـاد من تشابه، ليس إلا نتيجة عدم تبصره بحقيقة مذاهب التفكير العلمية:

(أ) فما رأى الأستاذ فى رجل يقول إن التشابه تام بين شوقى فى قصيدته:

قفى يا أخت يوشع..

وبين معلقة عمرو بن أم كلثوم :

ألا هبى بصحنك ......

وأن(شوقى) سرق قصيدته من المعلقة، لأن القصيدتين تتفقان وزنا وقافية؟

ألا يرى الأستاذ العقاد أن ذلك الرجل لا عهد له بالشعر؟

(ب) ومـا رأى الأستـاذ العقـاد فى رجل يقول: إن رفـائيل سرق صـورة ليـونـاردو، لأن الصورتين تصـوران العذراء وطفلهـا؟ ألن يكون رد العقـاد على هذا الرجل: اذهـب وتعلم نقد التصوير!

(جـ) ومـا رأى الأستاذ العقـاد فى الرجل لا حس لـه فى الموسيقى يرى التشـابه تـاما بين جميع الأوبرات؟

(د) وماذا يرى الأستاذ العقاد فى جهل رجل يظن التشابه تاما بين جامع السلطان حسن، وجامع قايتباى، لأن فى كل منهما قبابا ومآذن ومنبرا ومحرابا؟

ألا يرى الأستاذ العقاد فيهما جميعا نقص حس فى الأمور التى يتناولها الناقد؟

(٨) وأصالة العقاد فى الشعر والأدب حملته على أن ينقل إلى ميدان العلوم الفلسفية أسلوبا فى النقد لا يصلح للعلوم، وذلك أن بضـاعة النقد القائم على دعـوى السرقات الأدبية لا تنفق فى سـوق البحوث العلميـة ومـا يقوم عليهـا، والمشتغلـون بالعلـوم لا يـؤمنون بهذا الأسلـوب ويفضلون أن يتركوه للأدباء والقدامى منهم بالذات، وبخاصة من ينقدون الشعر العربى (وله صفات خاصة قد تجعل النقد بدعوى السرقة مقبولا فيه). أما فى العلوم فلا يمكن أن يكون هذا سبيل النقد الحق لأن كل نظرية علمية تقـوم على حقائق سابقة، ولم يقل أحد إن هاكسلى سرق من داروين لأن كليهما أثبت التطـور، أو أن تـوينبى سرق من شبنجلـر على تشـابـه آرائهما، والعلوم تبحث عن الحقيقة، وهى ثابتة.

(٩) والتفاضل بين البحوث يقـوم على نجاحها فى إثبات الحقيقة، وعلى الطـريقة المؤدية إلى هذا الإثبات، وعلى إيجاد مـذهب مستقيم متكامل يضم أشتات القوانين الطبيعيـة، والإنسانية والسماوية، ويحدد عـلاقاتها. وليرجع الأستاذ العقاد إلى كتـاب وحدة المعرفة يجد فيـه شرحا وافيا لهذه المسألة.

(١٠) ألا يعلم الأستاذ العقاد أن كتب التوحيد تؤدى كلها فى آخر الأمر إلى إثبات وجود الله؟ فهل كل منهـا مسروق من الآخر؟ وهل الأمـر كذلك فى كتب التطـور والنسبية؟ ويجب أن يعلم الأستـاذ العقـاد أن أكبر ما يشغل المفكـرين فى العصر الحاضر هـو البحث فى الأســاس المادى للمعنـويات، وستكتب مئـات الكتب فيه وسترد عبـارات الزمـان والمكان والتطـور، والوراثـة والـربوبيـة، فهل ورود هذه العبـارات يجعل التشـابه تـاما بينهـا وبين الكتاب الـذى تشرف بتخليص العقاد؟

على أنى لم أعثر على معلومات عن هذا العلم من أعـلام الفلسفة الإنجليزية، ودائرة المعارف

البريطانية لا تعرفه. ولا أدرى هل هو فيلسوف لجأ إلى العلوم ليثبت نظرية، أم هو أصلا عالم طبيعى امتد بـه التفكير الطبيعى إلى أن شمل المباحث الفلسفيـة، وهما مذهبان مختلفـان جدا مهما يكن التشابه فى الموضوعـات واللغة. وكتاب (وحدة المعرفة) من النـوع الثانى مثله فى ذلك مثل كتب جوليـان هاكسلى، وهنرى بـوانكاريه، فهـو أصلا كتاب علم أراد مـؤلفه أن يثبت أن المذهب العلمى يمكن أن يهدينا إلى الحق إذا امتد إلى ميدان الفلسفـة والدين. وإذا كان صمويل هذا من الفـلاسفة فمذهبـه أبعد ما يكون عن مـذهبى، بل إن كتاب (وحدة المعـرفة) ينعى على الفلسفـة أشياء كثيرة، والفـرق بين المذهبين دقيق، ولا يخفى على ذوى الحس العلمى المرهف. وكتابى كل لا يتجـزأ، ويجب أن يقرأ من الأول إلى الآخر، وأن يـدرس بعناية، وإغفـال أى جزء يصعب تتبع الجزء التالى، والغالب أن العقاد (كما يفعل الأدباء حين ينقدون قصة أو رواية) قرأ فصلا عن (الـربوبية) وظن أنه بـاب قائم بذاته، وفاتـه أنه ليس إلا طبقا لنظام مـذهبى معقد سابق عليه، ولو أنـه قرأ الكتاب كله لرأى فيه أشياء لا يمكن أن تكـون قد صدرت عن صمويل لأصالتها، ومن ذلك نظرية القوانين والأشياء، وتفاضل القوانين، وعلاقة القوانين العليا بالدنيا، والتفسير العلمى للقضاء والقدر، ولا أظن أحدا سبق إليه.

وتساءل الدكتور: مـا للعقاد يزج بنفسه فى ميادين لا يحسنها؟ وقـال: إن العقاد ذو ثقافة واسعة ولكن تقديره لثقافته العلميـة مبالغ فيه جدا. والعصر الحاضر يرى أن يبلغ الناس أوج الثقافة عن طريق ألتخصص لا العكس، وقد كنا فى الماضى نقنع بالعلم التحصيلى، وكان الناس يظنون أن العالم هو الذى قرأ أحسن ما كتب الغربيون، ولكننا نحرص الآن على أن يكون علمنا أصيلا، وشتان بين العلم بـالتحصيل والقراءة والعلم بالممارسة والخبرة. وقـديما عاب الناس حتى فى العلوم النظرية أن يكون الإنسان صحفيا لم يلق العلماء. ومن طبائع الأشياء أن يكون العلم بالاطلاع أمرا يزهو به المطلع لكثـرة ما حصل وقرأ، على حين أن العلم بالخبرة وهو وحده العلم المنتج يجعل صاحبـه مهموما لكثرة مـا يجهل. الأول يدعو إلى الغرور والثانـى يدعو إلى التواضع.

وختم الدكتور رده برجـاء العقاد رجاء حارا أن يقرأ وحدة المعـرفة قراءة درس واستيعاب، فقد يرى أن يلخص هـذا الكتاب كما لخص كتاب صمويل. «ولعلـه سيشرح فلسفتى فى كتابه عن نفسه، وهـو الكتاب الذى سيظهر قريبـا والذى سيكون عنوانـه من غير شك: التواضع». يشير بذلك إلى أن العقاد لخص فلسفة صمويل فى كتابه عن الله.

□

وفى اليوم التالى (الخميس الثانى والعشرين من نوفمبر) فى نفس المكان من جريدة «الأخبار» تحت عنوان «مثل فى التواضع والخبرة بالدراسة» رد الأستاذ العقاد على الدكتور كامل، فقال:

«إننا سئلنا عن نقل فأحلنا عليه، مجاملة له وإبقاء على كرامته. ونقل بعض فقرات من كلام الدكتور كامل عليه. ثم عقب بقوله:

«فنحن من النـاس الذين لا يحسنـون التفرقـة بين المذاهب العلمية»، ولم نمارس المبـاحث الفكرية كما مارسها الدكتور كامل، وهو طبيب عظام. ونحن نحتاج إلى التواضع لفهم فلسفته، وقد ألفنا عشرين كتابا منذ عشرين سنة فى الفلسفة الإلهية، وعقائد المفكرين، والفلسفة القرآنية وابن سينا، وابن رشـد، وبـاكون، والحكم تناولنـا القديم والحديث». ثم استنكر على الـدكتور ادعاءه على كتاب يزعم أنه لم يقرأه أنه يستحيل أن تكون فيه تلك الآراء التى لا يجوز أن تخطر على بـال أحد. ثم قـال عن الدكتـور كـامل إنه لا يحسن البحث والـدعوى، ولا يحتـاج إلا إلى التواضـع، ولا ينبغى لـه أن يخوض فى الفلسفة لأنها غريبة عن تجبير العظـام، وإنه لم يمارس البحث طويـلا ولا قصيرا، وإلا لعرف صمويل وليس من الفـلاسفة المعاصرين من هـو أشهر منه فى عالم الثقافـة الأدبية، وقد عرفته دائرة المعارف ص ٥٧٦ جـــ ١. وذكر العقاد أجزاء من دائرة المعارف عن صمويل ألكسندر وتلخيصها لمذهبه. ثم قال إن الصفحات من ٣ ـ ١٦١ من كتاب الدكتور كامل تحكى مذهب هذا الفيلسوف. وعاد إلى مهاجمة الدكتور فوصفه بأنه ليس طويل الدراسة للمبـاحث الفكرية، وأنه ليس بالرجل الـذى يعلمنا أدب التواضع، لأن المتواضع يذكر الحيـاء الواجب حين تحدثه نفسه بـاحتقار هذا الصمويل «بغير ذنـب جناه غير فلسفته التى يتعالى بها الهمام، وليس الـدكتور محقا فى بحثه ولا تمحيصه لأن البـاحث المحق لا يدعى على دائرة معارف تملأ الأرض أنها خالية من ذكر الفيلسوف وهى تنوه بشأنه هذا التنويه. ولا نريد بعد أن نتعلم على يد الدكتور درسا فى التواضع لأننا قد نحس بعد مقالاته أننا فى حاجة إلى درس آخر يعوزنـا إلى الآن، ذلك الدرس هو الكبرياء التى كان ينبغى أن نتعلمهـا ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم أخبر منه بما يـدرسون، ولعله يراجع برنامج الـدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هذا البحث فى اليوميات التى لا يستحيل أن تبصره يومئذ بمواضع التبصير».

□

ويوم الإثنين الموافق السادس والعشرين من نوفمبر طلعت جريدة «الأخبار» بموضوع فى صفحتها الثالثة:

«الدكتور زكى نجيب محمود ينضم إلى الأستاذ العقاد فى اتهام الدكتور محمد كامل حسين.. أقسم بالله أننى ضربت كفا على كف!». وكان مما قاله الدكتور زكى:

«لو قال الدكتور كامل إنه استوحى ذلك الكتاب لقلنا قد يكون كذلك. أما أن ينكر كل علاقة له بالكتاب وصاحبه فأمر يستحيل تصديقه. ولا عبرة لنا بمكانة ألكسندر فذلك لا شأن له بالموضوع، فقد يكون أتفه التافهين، وربما عنّ لأحد أن يأخذ عنه، بل ربما كانت العلة فى السكوت عن ذكر المصدر الأصيل هى أنه فى رأى الناقل مصدر مظلم مجهول قد لا تراه الأبصار.

وذكر الدكتور زكى أنه منذ ثلاث سنوات فى ندوة إذاعية حول هذا الكتاب، شكر للدكتور كامل أنه (قدم) هذه المادة لقراء العربية.

□

وفى اليوم التالى (الثلاثاء الموافق السابع والعشرين من نوفمبر) تحت عنوان: «الرعب عند بعض المفكرين!!». «الدكتور محمد كامل حسين يرد على الدكتور زكى نجيب محمود».

تحدث الدكتور كامل حسين فقال: إنه ما يزال يرى أن الجدل حول أصالة الكتاب جدل عقيم وأنه رد على أهم ما فيه، ولولا أن الأخبار طلبت منه الرد على الاتهام الجديد ما فعل. أما الدكتور زكى فأظنه كان فى الإذاعة موضوعيا فى رده حين ذكر أنه لا يفهم كيف يكون الإيمان نتيجة طبيعية لتكوين المخ الإنسانى، وليته عاد إلى مثل هذا النقد الموضوعى ولم ينزلق إلى دعوى السرقة الأدبية. والمسألة هى أزمة التفكير الأصيل، فبعض المفكرين عندهم رعب من التفكير الأصيل، لا يحاولون إلا أن يكون لهم سند من اسم مشهور، فإذا حاول غيرهم هذا التفكير غضبوا أن يكونوا مسبوقين، وكل جديد عندهم غير مقبول، وليتهم يحاولون التفكير المستقل الأصيل الصادق. واعتبر الدكتور كامل المسألة منتهية وقال: «ليكتب من يشاء، ما شاء، كل على قدر صدقه وعلمه أو حسده وادعائه».

وقال العقاد لـ «الأخبار» فى نفس (العمود) إنه سيتناول فى يوميات الغد (النقل) فى كتاب

الـدكتـور كامل، وسيـذكـر مـا يثبت أن اسم الكتـاب نفسـه مستعار من كتـاب الفيلسـوف الإنجليزى. «أما الرعب فهو شىء يفهمه الدكتور لأنه لم يستطع أن يفهم أننا كنا أصحاب رأى مستقل فى مذهب الفيلسـوف الإنجليزى حين شرحناه منـذ ١٦ سنة». ثم تعجب من أن يسمع الدكتـور كامل حـديث الدكتور زكـى يشير فيه إلى كتاب صمـويل ألكسندر، ثم يقـول إنه لم يسمع بهذا الصمويل.

□

وفى اليوم التـالى الأربعاء الثامن والعشرين من نـوفمبر ، كتب الأستاذ العقاد مقالا طـويلا تحت عنوان «مثل من التحقيق والخبرة للدراسة العلمية» أخذ يسرد فيه أقوالا من كتابى كامل حسين، وصمويل ألكسندر ويطابق بينها.

□

ثم إن الدكتـور كامل حسين قـرأ ما كتب صمويل ألكسـنـدر وقارن بين كتـابيهما، وخرج بمقال مفصـل نشره فى (المجلة) فى ينايـر سنة ثـلاث وستين وتسعمائة وألف (١٩٦٣) تحت عنوان «حول وحدة المعرفة» وسنعرضه فى النقاط التالية:

(١) قال الدكتور فى البداية إنه لم يدع يوما من الأيام أنه فيلسوف أو مغرم بالفلسفة.

(٢) وكرر قوله إن المشتغلين بالعلوم لا يألفون هذا النوع من النقد.

(٣) ثم ذكر أنه رأى أن يتـولى المقارنة بين الكتابين فى جو هادىء فينبـه إلى ما جاء فى كتاب (ألكسندر) من حلول فلسفيـة لمسائل تناولها كتاب (وحدة المعرفـة) ويقارن بين الأسلوبين فى البحث، وهذا هو الأمر الأول.

أما الأمر الثانى فهـو ذكر ما ورد فى وحدة المعرفة ولم يـرد فى كتاب صمويل ألكسندر على قدر علمه به،

والأمر الثـالث هو القـول فى الجزء المتشابه من الكتـابين، وسنعرض لآرائه فى هـذه الأمور الثلاثة.

□□ أما الأمر الأول، فإن ألكسندر رجل فلسفة يعنى بالمغزى والقيم، أما البيولوجيا فتعنى بوسيلة التطور و (الميكانزم) التى يتم بها. وألكسندر قد جعل للجمال فلسفة عالية، أما أنا فقد جعلت الجمال والحب عملية فسيولوجية مخية إلكترونية، وحديث ألكسندر عن الخير والشر والأخلاق حديث طويل لأنه فلسفى، أما وحدة المعرفة فقد ردت المعنويات إلى شىء محتمل أساسه هو فسيولوجيا المخ. واستشهد الدكتور لكل من هذه المقارنات بعبارات مطولة من الكتابين.

□□ .. وهناك أمور وردت فى وحدة المعرفة ولم يرد لها ذكر فى كتاب ألكسندر ومنها:

(أ) البحث فى أسباب تفرق أجزاء المعرفة.

(ب) بعض الأمثلة المتعلقة بتاريخ المعرفة (كمثل الرجال الثلاثة على حافة كبيرة وفى وسطها شجرة باسقة يغطيها الماء) وهو مثل ضربه الدكتور ليبين به كيف يكون الإدراك ناقصا عند كل من الثلاثة حتى آخرهم الذى استطاع أن يصل إلى أكثر مما وصل إليه زميلاه.

(جـ) نظرية الهرم المقلوب وصفا للمعرفة.

(د) تناول العقل من حيث هو جهاز التفكير والبحث فى صفاته التى تتعلق بالمعرفة لا فى كنهها.

(هـ) تقسيم مذاهب التفكير إلى خرافى علمى، ودينى فلسفى.

(و) الحملة على «العلة الغائية».

(ز) رفض أن يكون مبدأ «تنازع البقاء والبقاء للأصلح» هو السبب فى التطور.

□□ أما فيما يختص بالجزء المتشابه من الكتابين، وهو الأمر الثالث، فقد قال الدكتور:

(أ) أعتذر عن جهلى بصمويل ألكسندر.

(ب) دعواى أنى لم أعرفه ليست ناشئة عن الرغبة فى دعوى الابتكار، ولكنها الواقع.

(جـ) أكبر التشابه هو استعمال تعبير (هيرارشية القوانين) وهى كلمة قديمة معروفة يتعلمها البيولوجيون من أول يوم فى دراستهم الأولى.

ولم تكن الإلكترونيات فى كتابى ألكسندر وأوسبنكى قد بلغت ما بلغته اليوم (وهو ما وضح

فى وحدة المعرفة)، وعلاقة هيرارشيتى القائمة على الذرة والإلكترونات بهيرارشية ألكسندر القائمة على النسبية كالعلاقة بين النسبية والجاذبية، والنسبية تشمل الجاذبية وهى أثبت أصولا وأخصب.

وأنهى الدكتور كلمته بقوله: أليس خيرا من ذلك كله أن ندع كتاب «وحدة المعرفة» ومؤلفه، فليس هو آخر كلمة فى الموضوع؟ وأن يتفضل أحد مفكرينا فيبدى لنا رأيا أصيلا فى المعرفة؟ وهل يمكن توحيدها؟ وهل يكون هذا التوحيد عن طريق النسبية كما فعل ألكسندر، أم عن طريق الذرة والإلكترونيات (كما فعلت)، أم عن طريق ثالثة يكشفها لنا ويكون له من الأمة خير الثناء.

□

ثم أخرج العقاد كتابه «يوميات» ونشر فيه بالطبع مقالاته الثلاث التى دخل بها معركة «وحدة المعرفة». وفى حديث صحفى أجراه محمود عوض مع الدكتور كامل حسين، ذكر محمود عوض الدكتور كامل بمعركة العقاد هذه، فقال الدكتور كامل: من العجيب أن من يريد الرد على صمويل ألكسندر لا يجد غير كتابى، وعلى كل فقد انتهت المعركة وقتها إلى اقتناع العقادبخطئه. فراجعه محمود عوض قائلا: إن العقاد أعاد نشر رأيه فى كتابه (يوميات). وسأله: هل أنت متأكد يا دكتور من أنه تراجع؟ فقال: نعم، وتقابلت مع العقاد بعد ذلك فى اجتماعات ومناسبات مختلفة، وكان الحديث وديا ولم يعد العقاد إلى فتح هذا الموضوع.

وكتب عامر العقاد فى كتابه «معارك العقاد الأدبية» يرد على قول الدكتور كامل فقال: «لم يعتذر العقاد حيث لا مجال لاعتذاره لأنه سجل أن الدكتور قد أخذ الكتاب بأفكاره وتبويبه تماما، وقد تدخل الدكتور زكى يوم ذاك وأعلن رأيه إلى جانب العقاد، وسياق المنطق كما هو معروف لا يعنى - لو أخذنا بزعم الدكتور - إلا أن العقاد قد تراجع عن رأى، فما هو هذا الرأى الذى تراجع عنه العقاد؟ وهل تراجع عن أن الدكتور أخذ من صمويل، والأخذ ثابت؟ أم عن ماذا؟ هذا مجرد سؤال للتاريخ وللحقيقة وللمؤرخين من كتاب الأدب المعاصر» .

وقد أبدى الأستاذ عامر العقاد سؤالا نود أن نوفيه حقه من الإجابة بالإشارة إلى بعض الظروف التى أحاطت بمعركة العقاد:

(١) لا نستطيع أن نقول بوجود هذا السائل من ميت غمر، وأرجو أن نعيد النظر فى صيغة

السؤال التى أخذ منها الأستاذ الكبير عبارة وجعلها عنوان اليوميات «اقتباس أم توارد خواطر».

(٢) ومما يزيد فى شكنا أن الأستاذ عامر العقاد نفسه قال فى كتابه معارك العقاد الأدبية: «وبعد أن قرأت الرسالة على العقاد قال لى: إن صاحب السؤال من القراء الجادين وإن التشابه تام بين الأفكار فى كتاب الدكتور كامل وبين قواعد مذهب ألكسندر. ويبدو أن صاحب السؤال من التلاميذ الأشقياء الذين يريدون أن يوقفوا الدكتور مواقف محرجة عن طريقنا، ونحن لا نملك تجاهل السؤال لأننا مطالبون أمام الحقائق العلمية بالرأى القاطع فى هذه القضية. هذا من ناحية، أما الأخرى فإن الدكتور كامل زميل لنا بالمجمع وصديق، وفى هذا موقف حرج لنا إن نحن اتهمناه علنا بسرقة أفكار الرجل الآخر».

(٣) فى عرضه للمعركة أبان الأستاذ عامر العقاد عن أن العقاد أخذته الحمية فى ردوده على الدكتور كامل لأن الأمر تعلق بعلمه (أى علم الأستاذ العقاد) و... من صفاته الشخصية.

(٤) لم يكن الدكتور كامل يرد إلا بعد درس وتمحيص، ولم يتناول اتهامات العقاد تناولا علميا إلا بعد بدء المعركة بأكثر من شهر عندما نشر مقاله ـ حول وحدة المعرفة ـ فى عدد المجلة يناير عام ١٩٦٣، وهو المقال الذى لم يرد عليه العقاد فيما نعلم.

(٥) وكان الأستاذ العقاد يتناول القلم فيكتب رده، ويخرج رأيه إلى الناس فى اليوم التالى، وإن منهم من لم يكمل بعد قراءة رد الدكتور كامل.

(٦) لم يكن هناك ما يسوغ دخول الدكتور زكى نجيب محمود إلا أن يكون ذلك المسوغ نفسيا. وخاصة أنه لم يضف جديدا إلى الموضوع، وإنما كرر اتهام العقاد، وضرب كفا بكف، ثم فلسف لنا كيف نختار من نسرق أفكاره!

(٧) اتهم الأستاذ العقاد الدكتور بالسرقة والنقل، وقد رد الدكتور كامل حسين بأن هذا لا يعنى المشتغلين بالعلوم إنما يعنيهم منهج البحث. وظل الأستاذ العقاد سائرا على نفس الطريق فى إثبات النقل ولم يناقش فى منهج البحث مع إيماننا أنه كان يستطيع ذلك، أما الدكتور كامل فلم يمض فى الدعوة إلى مناقشة منهج البحث فحسب، ولكنه رد على العقاد دعوى النقل فى مقال علمى.

(٨) كان الأستاذ العقاد جدليا ولم يكن الدكتور كامل كذلك. وقد اعترف الأستاذ العقاد للدكتور كامل فى تعقيبات كثيرة فى مؤتمرات ومجالس مجمع اللغة العربية بفضله على البحوث

اللغوية والدراســة وما إلى ذلك مما اضطرته ظروف المعركة أن يحاول نفيـه عن الدكتور، وقد اعترف الدكتور للأستاذ العقاد بصدق الحس فى الشعر والأدب.. و... و.. فى مجاله، ولا أرى فى قوله (إن ثقافة الأستاذ العقاد العلمية مبــالغ فيها..) مبالغة ولا بعدا عن الحقيقة. وقد لا يكون الأستاذ العقاد هو المبالغ فى ثقافته العلمية، ولكن المبالغة أصابتها على كل حال.

(٩) أما أن صلحا قـد تم بين العملاقين فأمر لا ريب فيه. وقد حدثنى الـدكتور العقبى أنه طلب إلى الدكتور أحمد بدوى زميلهما فى المجمع أن يصلح ذات بينهما، وقد فعل.

(١٠) وبعد ، فنحن مدينــون لعبد العزيز البدرى بفضل كبير! ولعل الأستاذ عـامر العقاد يعلم أن أمورا كثيرة كانت تستأهل اعتـذار العقاد وامتناعه، وأمر «النقل» لا يعـد أمرا من هذه الأمور، وإنما كان «لافتة» للاتهام، وبالطبع فإننا لا نستطيع أن نزيل لافتة الاتهام لأن أمره قد خرج من أيدينا وأصبح ملكا للتاريخ.

الفصل الثالث

الوادى المقدس

سنة ثمان وستين (١٩٦٨) أخرج الدكتور كامل حسين كتاب «الوداى المقدس»، وطبعته له دار المعارف، ونشره فى أوساط محدودة وذات مستوى فكرى معين، وكان حريصا على أن يعرف رأى هؤلاء فيه، وقد نشر فى الفرنسية، وترجمه الأسقف بيشوب كراج الأسقف الإنجليزى للشرق الأدنى إلى الإنجليزية، وراجع كامل حسين الترجمة، وقد رأت النسخة الإنجليزية النور عن قرب. وقد قلنا عن «وحدة المعرفة» إنه يقدم نظرية جديدة فى فلسفة المعرفة، هى نظرية وحدة المعرفة. وسوف نقول فى الفصل التالى عن «التحليل البيولوجى للتاريخ».. إنه نظرية جديدة فى فلسفة التاريخ، هى نظرية التحليل البيولوجى. ولكننا لن نقول عن «الوادى المقدس»، وهو كتاب يتعلق بفلسفة الديانات، إنه الكتاب المقدس لدين جديد، وإن كان يعرض فلسفة دينية جديدة على نحو ما سنتبينه فى هذا الفصل.

يضم هذا الكتاب تسعة وستين فصلا (٦٩) فى سبعة أبواب هى: الوادى المقدس، التطهير، التطهر عن طريق الدين، الهدى والضلال، الحقائق الأبدية، الحرمان، الضباب. وسنمس هذا الكتاب مسًّا رفيقا فى عرض سريع يراعى ترتيب الكتاب، وهو عرض لا يغنى عن قراءته، وإنا لنرجو أن يشوق إليها.

□

الباب الأول (الوادى المقدس) :

«الوادى المقدس هو البقعة من الأرض، والقطعة من الزمن، والحال النفسية التى تسمو

فيها فوق طبيعتك، وطبيعة الأشياء وضرورات الحياة وحدود العقل. هو حيث يكون إيمانك بما تؤمن به إيمانا خالصا لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف. هو حيث يملك عليك هذا الإيمان عقلك كله، وإرادتك كلها. هـو حيث تقف خاشعا فى غير رهبة، خـاضعا طواعية للمثل التى تـرضاها لنفسك، وإن لم يشهد عملك رقيب، لا يحملك على مشقة ذلك إلا الإيمان وحده، لا ترجو على ما تعمل جزاء ولا شكـورا. هو حيث يحتـوى قلبَك حب عميق خال من كل غل أو حقـد..». وهكذا يمضى مفكرنا الكبير فى سرد تعريفات وصفية ومحددة للوادى المقدس.

ثم هو يحدثنا أن أحلام الخير تتحقق للمرء فى الـوادى المقدس، الذى هو أيضا المأوى الذى يقى من عواصف الشر، ويمضى فى هذا الفصل فيحدثنـا عن (الرجل الأعلى) الذى يرغم الناس على الخضوع لإرادته العالية، فيقول عنه: إنه لا يزيده المجد إلا ظمأ.

ثم يقول «وليس النجـاح فى هذه الـدنيا مانعـا من التطهر، وليس التطهـر عائقـا عن بلوغ النجـاح الـدينى، ولكن الجمع بينهما عسير، وإذا لم يكـن لك مفـر من الاختيـار بين النجـاح والتطهر فخير لك أن تختـار التطهر»، ويعلل لك تلك الخيرية. ويبين لك خطأ الـذين يرون أنهم فى غير حاجـة إلى التطهر، والذين يحسبون أن الحيـاة الحيوانية أصل يمكن الاكتفـاء به، وأن التطهـر طارىء عليهـا، «والـواقع أن النزعـة إلى التطهـر طبيعيـة فى الإنسان، بل هى عنـوان إنسانيته». ثم ينصحك ألا تنساق وراء ما يقنع به هؤلاء أنفسهم حين يقولون إن الشر من طبع الإنسان، وإنــه لا يدفعـه إلا شر مثله أو أقوى. فيقـول: «هذا التوهـم أصل من أصول الشر»، «أوليس الشر سوء ظن متبـادل؟ وقد تكون لـه أسباب عميقـة ومصادر قويـة، ولكنه ليس إلا سوء ظن على كل حال».

□

ويبدأ الفصل الثـانى بتقرير أن الشر ليس من صنع الإنســان، وليس فيه ما يجذبنـا إليه، وإنما هو فساد فى العلاقات بين النـاس، ثم يحثك على الجهاد فى سبيل التطهر، وأوله ألا تفسد هذه العلاقات فتقيم الاطمئنان فى ضميرك فيتحقق لك بذلك السلام بينك وبين نفسك. «فأملك فى الإنسانية يبدأ بتحقيقك أملها فيك، ولا يفتن فى عضدك ألا يقدر الناس خيرك، فإنه لا يعفيك شىء من أن تبدأ بنفسك فتطهرها قبل أن يدهمك الناس بالشر».

ويقول لك فى الفصل الثالث: إن التطهر ليس معنى خـالصا ولا هو عمل خالص، وإنما هو

معنى فى النفس يتمثل أعمالا، وهو مـا تحمله الأعمال من مغزى تتأثـر به فى النفس وأنت تبنى حياتك عمـلا فوق عمل، والأعمال الطيبـة لا يتم بها وحدهـا طيب الحياة إلا أن تكـون حياتك صادقة، أى متسقة وقوانين النفس البشرية، «فإذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوِّم عوجَها ما تكون قد حققت من أعمال طيبة، وليس فى ذلك مـا يدعو إلى اليأس، فالطهر لا يفسده بعض الشر حين تعمله عرضا أو تعمله مرغما».

وإذا أردت أن تكون حياتك طيبـة صادقة فاعلم أن الحياة الصـادقة تقوم على السلم بينك وبين نفسك، ويحققه **الإيمان**، وبينك وبين الأقـربين ويحققـه الحب، وبينك وبين العـالمين ويحققه **الخير**. فالإيمان والحب والخير تـؤدى إلى الطهر، كما قـد تكون نتيجـة له، وفى مجال النفس تختلط الوسائل والغايات.

والإيمان هو أقوى هذه الأمور فى تطهير النفس، وهو وحده الذى لا يضل به أحد، فإن ضل بـه بعض النـاس فليس ذلك من أثر الإيمان، وإنما يـأتيهم الخطأ من سوء فهمهـم لمغزى مـا يعملون، يحسبونه من الإيمان وهو إلى الشر أقرب.

«ويـدلك على أن الإيمان يكفى وحده لتطهـر النفس مـا تـراه من طهر الأتقيـاء والمنقطعين للعبادة، فالطهر فيهم أكثر منه فى كبار المحبين أو كبار الحكماء»، «وقد تظن أن التطهر فى كبار الأتقياء والمنقطعين للعبادة عمل لا يفيد منه أحـد سواهم، وفى هذا الرأى ظلم لهم فهم إذ يبنون حياتهم على الطهر لا يريدون إلا السلم النفسى».

وحبك الأقـربين لا يطهـر النفس إذا كان الـدافع إليـه بيـولـوجيا كما تحب الطير إنـاثهـا وصغارها، أو اجتماعيا حيث يتقارب الناس ويتحابـون رغبة فى بلوغ مزايا لا تتحقق بغير هذا التساند.

□

ثم يحدد غـاية الحيـاة فيقول: إنها أن تطمئن نفسك إلى سلم شـامل، «وعلى الإنسان وقـد أوتى نفسـا تستطيع أن تستشف المغزى الـذى تحملـه الأعمال ألا يغفل هذ المغـزى». «ولكل إنسان مزاجـه الخاص يحدد له ما هو المعروف وما هـو المنكر». والعبرة فى الخطيئة إذن تتعلق بالأثـر السىء الذى يتركه عمل ما فى نفس فـاعله، ولأن الطبيعة البشرية متشـابهة، فإن هناك شبـه إجماع على أن بعض الأمور سلـم على النفس، وبعضـها حـرب عليهـا، وهذا هـو **الحلال**

والحرام. ولأنك إن لم تطمئن إلى شيء فتطهرك به قليل، فهو لا يجبرك على أن تخضع للفضيلة من حيث هى أمر وإنما «يكون حينذاك سبيلك إلى التطهر أن تعلم أن فى نفسك جهازا خاصا يتأثر ببعض الأمور تأثرا فيه مرضاة لها، وأن أمورا أخرى تسبب لها الأذى والقلق، وأن واجبك لنفسك أن تتبع الأولى وتأبى الآخرة، وسيدهشك أن تجد توافقا يكاد يكون تاما بين الأمور التى تراها معروفا، والأمور التى تراها منكرا، وبين ما أمر الله به ونهاك عنه».

والتطهر طبيعى فى النفس البشرية، أصله استقطاب فطرى فيها، وغايته الوادى المقدس. ولا مفر لك من إقامة السلم بينك وبين نفسك على نحوٍ ما قبل أن يستقيم الأمر بينك وبين الناس. أما قولك إن هذا من ظلم الحياة، وقسوة الزمن، وتحكم القدر، وتخبط الحظ، فغموض يدعو إلى الحيرة والقلق، وما الحياة والزمان والقدر والحظ إلا تعبير عن العلاقات بين الناس. وهذا الغموض فى علاقات الناس أصل من أصول الشر بينهم. وقد تظن أن الشر من طبع الجماعات، وأن أحدا لا يستطيع وحده أن يغير من هذه النزعة فى الناس حين يجتمعون، والواقع أن أكثر الشر يحمل عبأه فى آخر الأمر رجل واحد يستطيع أن يتجنبه، فالقنبلة الذرية لا تلقى بنفسها على الناس، وإنما يلقيها عليهم رجل ذو عقل، وله وحده فى آخر الأمر القول الفصل. والشر الكامن فى القوة إنسانى محض، بل الشر كله من عمل الإنسان لأنه يستطيع تجنبه.

وكثير من الناس يرون أن التطهر النفسى ليس ذا أثر بعيد فى تحقيق السلم بين المرء وجماعته، وهم يصيبون برأيهم هذا نجاحا كبيرا، ولكن الفساد يدب فى هذه العلاقات عاجلا أو آجلا، فإذا أصابك شيء من ذلك فأنى لك حينذاك أن تستثنى هذه العواطف، وكيف يتحقق لك سلم ما إذا ما فقدت السلم الاجتماعى، ولم تجد فى قرارة نفسك سلما داخليا عميقا ينجيك من مرارة الإخفاق وقسوة اليأس؟

□

والسبل إلى الوادى المقدس متعددة، والمتطهرون أخوة، والعوامل المطهرة هى الإيمان والحب والحكمة، ومن العبث أن يحاول الإنسان أن يتطهر بما ليس من طبعه أن يتأثر به، ومن الخطإ أن نحدد للناس طريقا للتطهر نرغمهم عليه، وخير ما فى الإيمان الإيمان، وخير ما فى الحب الحب، وخير ما فى المعرفة المعرفة، مهما يكن ما تؤمن به، ومهما يكن ما تحب، أو من تحب، ومهما يكن موضوع ما تعرف.

وليس الخير شيئا محددا، وإنما هو كل ما ترضى عنه نفسك رضاء تاما، حين لا يؤثر فيها عامل خارجي من أى نـوع يكون. والشر هو ما تعملـه ثم تلتمس عذرا عنه، وأكبر المذاهب التى اهتـدى بها الناس إلى الخير، وأسهلهـا فهما، وأوضحهـا محجة، وأقـربها فعـالا، وأدناهـا إلى النجاح، هو **الدين**، وقوامه الإيمان بالغيب أى بما لا يقوم عليـه برهان حسى من رؤية أوسع، والخير من معدن الإيمان بـالغيب، ففضله على الشر فضل لا يقـوم عليه بـرهان حسى دائما. وليس عجيبا أن يكون الوئام تاما واضحا.

أما طـريق الحب والجمال، فهما سبل أخرى وعـرة المسالك، ضيقـة الدروب، غير مأمـونة النجاح، ولكنها على كل حال تؤدى ببعـض الناس إلى الخير، ولها أهلها الذين لا يهتدون إلا بها، وقد تكون ممن لا يتطهرون إلا بما يتفق والعقل، وهذه أضيق الطرق وأصعبها.

أما العلم فلم يهتـد به أحد بعـد، ولكنى لا أشك فى أننا سنجـد بعد أمد قـد يطول أو يقصر منفذا إلى الخير عن طريق العلم.

□

«وجدير بالأديان الكبرى ألا تختلف اختلافا كبيرا، فكلها تصدر عن أصل واحد هو الإيمان بالغيـب إلى غايـة واحدة هى بلـوغ الوادى المقـدس، وسبيلها واحد وهـو التطهر ولكـن أهلها اختلفوا». وليس فى أمـور العقيدة حق وباطـل، وليس هناك حق منفصل عن الإيمان، والإيمان جزء لا يتجزأ من الحق كأنه البعد الرابع الذى لا يتم الإيمان إلا به.

أما علة الخلاف بين أهل الأديـان فهو اختلاف التركيب السيكولوجى للنـاس، وموقفنا من الله لا يكون إلا خوفا، أو حبا، أو أملا، وفى نفس كل متدين شىء من هذه الأمور الثلاثة، ولكن إحدى هذه العواطف تغلب على غيرها فى النفس الواحدة تبعا لمزاجها الخاص بها.

□

ويقسم مفكرنا المتدينين تقسيما سيكولوجيا فيقول:

«فإن كنت ممن يدفعهم إلى الخير خوفهم من الله، وخشيتهم من عدله حين يبطش بالظالمين

والخاطئين، وإن كنت ممن يمنعهم من الشر أن اللـه يعلم ما يسرون ومـا يعلنون وأن عـدله لا يخطىء، إذا كنت من هؤلاء فأنت موسوى مهما يكن الدين الذى تدين به.

وإن كنت تشعر فى قـرارة نفسك أن الذى يدعـوك إلى الخير حبك الله، وحبك النـاس الذين يحبهم الله، وإذا كنت تـرى أن تجنب الناس شرك لأن اللـه يحبهم كما يحبك، وأنك تفقد حبك الله حين تؤذى أحبابه وهم الناس جميعا، فأنت عيسوى مهما يكن الدين الذى تدين به.

وإذا كان الـذى يدفعك إلى الخير أملك فى اللـه، والرغبـة فى الجزاء الأوفى والنعيم المقيم، وإن كنت تشتاق إلى القرب من الله قربا يكفل لك النعيم السرمدى والسعادة الخالدة فأنت إسلامى مهما يكن الدين الذى تدين به».

ويصف الـدكتـور تقسيمـه هذا بأنـه أقـرب إلى فهم الـواقع، من تقسيم النـاس إلى يهود ومسيحيين ومسلمين. ثم يستطـرد فيقـول: «ومن المسيحيين من هم مـوسـويون يـؤكـدون الخوف من الله فيتبعـون أوامره ويقدسـونها حرفيا، بل منهم من يـرون أن عليهم أن يحملوا الناس على العقيدة الصحيحة ولو بالقتل والتعذيب. هؤلاء موسويون نفسيا، ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إنهم يوشعيون وهم يحسبون أنهم مسيحيون.

ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم، كالخوارج الذين كانوا يؤمنون بالعدل مهما يكن فى تحقيقـه من قسوة، يطيعـون أوامـر اللـه كما يفهمونها ولـو خـالفت زمـام الدين مخالفـة صريحة».

ومن المسلمين من هم عيسـويون فى طبيعة مـزاجهم، فالشيعـة يشعرون بأنهم فى حـاجة نفسية إلى شهيد يقدسونه، يعتقدون أنه مات فى سبيلهم، فهم يحبونه حبا يدفعهم إلى حب من يحبون هذا الشهيد.

□

الباب الثانى (التطهر) :

الإنسان حيوان يجاهد أن يتطهر، وجهاده هذا مـوضـع تميزه على كل ما عداه من الكائنات. والتطهر قانـون النفس البشرية الأكبر، وليس التطهر عـرفا بين الناس، ولا ترفا عقليـا، بل هو قانـون نفسى قائم له أصـوله، وغايـاته، ووسـائله، ولو لم يغفل النـاس هذا الأصل النفسى

للتطهر ما اضطربـوا فى فهم نفوسهم ونزعاتهم. والتطهر مظهر من مظاهر قـانون كونى عام هو الاستقطاب. والاستقطاب يقوم على أمرين:

الأول: وجود قوة كونيـة قادرة فعالة (كافية) للتأثير فى الأشياء المهيأة لقبـول أثرها، هذه القوة تتجه بالمستقطب إلى القطب، وهى خارجة عن الشىء المستقطب.

الثانى: هو وجود صفة فى الشىء المستقطب تجعله قابلا للتأثر بالقوة الموجهة إلى القطب.

والاتجاه المبـاشر بين القطب والمستقطب هو محور الاستقطـاب. وهكـذا يمضى الدكتـور كامل حسين فى شرح قواعد الاستقطاب، فهـو فى الجماد: استقطاب الإبرة المغنطة، وفى النبات نموه رأسيـا إلى السماء، وفى الحيوان هجـرة الطير. ثم يخلص إلى أن أغلب حـالات الاستقطاب التى نعرفهـا يقينا يكون فيها القطب أمرا كـونيا عاما، ولا يتغير، وهـو دائما خارج عن الشىء المستقطب، وكـذلك محور الاستقطـاب يظل ثـابتـا، وإنما يكـون التغير فى صفـات الشىء المستقطب وفى ما يحيط بـه من قوى يشتد بها استقطابـه أو يضعف، ويستقيم بها اتجاهه أو ينحرف عن محوره الطبيعى. كذلك حياة الإنسان لا تتم من حيث إن الإنسانية هى ما يرتفع به الإنسان عن الحيوان إلا بعاملين: قـوة عليا خارجة عن الإنسان تهديه إلى مـا تتم به إنسانيته، وصفة فطرية فيه تهيئه لهذا التأثر.

ثم يعـرض المذهبين اللذين يصـدر عنهما رأى الناس بعضهم فى بعض، فـالذين يسيئـون الظن بالإنسان هم الـذين يرغبون فى هدايتـه بتأكيد الغايات العليـا، وتحديد سبل الصعود إلى هذه الغايـات، فهم يؤكدون أن المعصية واقعـة إن لم نعمل على اجتنابها، وأن الظلم واقع ما لم نكبح جماح الظالمين. والذين يحسنون الظن يصدرون فى رأيهم عن دراسة النفس الإنسانية فى حالتى العصيـان والطاعة، وعن تفهم العـوامل التى تحملها على الخير والتى تـدفعها إلى الشر. وكلا الرأيين صـواب، والخلاف بينهما يرجع إلى اختلاف النقط التى يبـدأ منها تفكير أصحاب كل رأى، هؤلاء يبدءون من الله، ويصلون إلى الإنسـان، وأولئك يبدءون من الإنسان، وليس ما يمنع أن يصلوا إلى الله، والـذين يرون أن العصيان أصل فى الطبيعة البشريـة يدعون إلى الخير عن طريق الطاعة، أما الذين يظنون أن الإنسان طيب بطبعه، يريد الخير بفطرته إلا أن يحيد به عن الحق عامل من عـوامل الشر، فيرون أنه أهدى للناس أن تقـوى فيهم دوفع الخير، وموانع الشر، وأن نبين لهم عوائق الخير، ودوافع الشر، فيكون تطهرهم عن علم وفهم.

□

الباب الثالث (التطهر عن طريق الدين) :

يبدأ هذا الفصل بتقرير أن التطهر هو ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة، ولم يعرف الناس فى تاريخهم الطويل شيئا أقوى من الدين فى تطهير النفوس، وعن طريقه بلغت النفس الإنسانية أقصى ما بلغته من سمو، والتدين هو استقطاب النفس لقطب الخير المطلق وهو الله.

والدين على ذلك ظاهرة كونية نفسية، والبحث فى التطهر بالدين يشمل مباحث ثلاثة، فى طبيعة النفس الإنسانية، وفى القدرة الإلهية، وفى الإيمان من حيث هو الصلة بين الله والإنسان. أما الطبيعة البشرية، فهى فى أول أمرها غفل حتى إذا اهتدت فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا، والنفس الإنسانية بفطرتها تستهدى الخير، وأكثر الناس طيبون بطبعهم، والأعمال السيئة لا تدل دائما على سوء فى طبيعة فاعليها، أليس من طبع النار أن تضىء، ثم يحدث أن تكون مصدر دخان، ولا يدل ذلك على طبعها؟ واهتداء النفوس فطرى خلقى، أما ضلالها فمكتسب يأتيها من عوامل خارجة عنها طارئة عليها. والعيب الخلقى فى النفوس لا يكون إلا ضعفا فى قدرتها على الاهتداء، ومظهر ذلك النفس الهامدة. وأصحاب النفوس الهامدة يعملون الخير حين يعملونه على غير هدى، ويتجنبون الشر حين يتجنبونه غير واعين، وهم لا يحفلون بمغزى ما يفعلون، وهم يظنون أنهم فى غنى عن أن يتعهدوا نفوسهم بما يقوى استهداءها أو يروضها على الخير، يحسبون أنهم يستطيعون أن يهتدوا بالعقل وحده. وهذا الظن خطأ قديم لأن الطبع هو الذى يحدد أسلوب الناس فى الحياة، وأغراضهم منها، وليست الغايات هى التى تحدد طباع الناس «ذلك أن التكوين السيكولوجى لكل إنسان ثابت دائما، والعقل لا يغير من هذا التكوين شيئا، ولا عمل له فى الواقع إلا أن يعين على تنفيذ ما تتجه إليه النفس بما ركب فيها من طباع».

وفهمك لله تطور على نحو يشبه التطور الذى حدث فى فهم البشرية كلها لله، فقد عرفته طفلا على أنه كلمة ترددها اتباعا لأوامر صدرت ممن هم أكبر منك سنا وعلما، حتى إذا بلغت السن التى يدرك فيها عقلك المجردات تخيلته كائنا أعلى، منزها عن صفات المخلوقات جميعا، والتنزيه يجعل القدرة الإلهية من أمور الغيب بعد أن كانت حاضرة محسوسة عند البدائيين، والناس يختلفون فى موقفهم من الغيب بين مؤمن، ومتشكك، وملحد، والذين يعجزون عن فهم القدرة الإلهية كلها دفعة واحدة يستطيعون حين يبحثون أمر هذه القدرة أن يقصروا بحثهم على ما تتطهر به النفس، ولا يكون هذا عيبا وإن كان نقصا. وليس صحيحا ما يظنه بعض الناس من أن الخير فى نفوسهم، وأنهم يهتدون إليه بعقولهم، هؤلاء ينسون أنهم لم يعرفوا الخير إلا بعد أن عرفته الإنسانية قرونا طويلة عن طريق استقطابنا لله.

والإيمان قوة كامنة فى النفس السوية ترجع إلى طبيعة تكوينها، وهو أصل الصلة بين الله والناس، أى بين القطب والنفس المستقطبة. وهو يعرف الإيمان فيقول: «والإيمان هو أن تؤمن بأن أمور الغيب تجرى على نحو يمكن الاطمئنان إليه، وأن تثق بأن ما لا تعرف يسير على نظام يشبه ما نعرف لأن الاطمئنان إلى ما نعرف ليس إيمانا بل هو ثقة». والنفس البشرية لا مناص لها من أن تؤمن بشىء، والذين لا يؤمنون بشىء أصلا قليلون وهم المشوهون نفسيا الذين يعرضهم إلحادهم إلى اضطراب نفسى عميق، وعدم الإيمان مصدر أكثر الأمراض النفسية، وضعف الإيمان أكبر أسباب القلق النفسى».

«وقد تسمى ما تؤمن به عقلا أو علما وقد تظن أنك تؤمن بالطبيعة، كل هذه تعابير مختلفة عن شىء معنوى غيبى على نحو ما، تؤمن به فلا تضطرب نفسك، والعبرة ليست بما تؤمن به ولكن العبرة ـ على الأقل من حيث صحة النفس ـ تكون بقوة إيمانك، أى بما فى نفسك من قدرة على الاهتداء بما تؤمن به».

«وليكن إيمانك بما تؤمن به قويا. والذين يؤمنون إيمانا قويا بالعقل أو بالطبيعة أقرب نفسا إلى كبار المؤمنين بالله وأقرب إلى الطهر من ضعفاء الإيمان فى كلتا الطائفتين».

ثم نراه وكأنه يخاطب الملحد أو قليل الإيمان، فيقول:

«وسيتبين لك أن نفسك لا ترتاح حقا إلى إيمان شامل قوى إلا حين تؤمن بالله، وأن الخلاف بينك وبين المؤمنين اختلاف فى التعبير عن الإيمان، وهو اختلاف فى المظهر لا يدل على خلاف فى جوهر الإيمان، وأنك فى حقيقة أمرك لا تكفر بالله وإنما تكفر بما يقال لك عن الله».

«والرضا النفسى وحده هو الدليل على أن الاهتداء بالله حق. وخير العقائد ما يتفق وتفكيرك، ومن الخطإ أن تظن أن العقائد هى الإيمان».

□

وهذا فصل يحدثنا عن «العبادات وفلسفتها»، فينتهى إلى أن الحق فى أمرها أنها تؤثر فى النفوس فتجعلها أكثر قبولا للهداية وأكثر قدرة على الاستهداء. وقد يزعجك ما ترى من خلاف بين المتدينين، وقد ترى أن الأصل فى الأديان أن تتفق، فإن اختلفت فذلك لعيب فى المتدينين لا فى الأديان، وأكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى، وقوة

فعالة، ولكن هذا عيب الاجتماع وليس عيبا فى الدين. وبعض المؤمنين يظنون أن الخلاف يزول إذا حملوا الناس على اعتناق دينهم كأنهم يريـدون أن يكون العالم كله على دين واحد، وغيرهم يـرى أن التوفيـق بين الأديان يتم عن طـريق الفهم العقلى لما فى كل دين من تعـاليم ومبـادىء سامية، وصحيح أن أصل الخلاف الجهل، ولكن الفهم العقلى لعقيـدة تخالف عقيدتك لا يؤدى إلى الفهم الروحى، والاطمئنان النفسى إلى هذه العقيدة، فهذا أعمق من الفهم العقلى.

وظن آخرون أن التســامح طريق إلى ذلك، والأصل فى التسامح أن تستطيع الحيـاة مع قوم تعرف يقينا أنهم مخطئون، كأنك تتجاهل عقائد الآخـرين، والدين أعز على الناس من أن يكون تجاهله مؤديا للتفاهم الحق. أما نظرية الوادى المقدس فقد تؤدى إلى التفاهـم المنشود، إذ هى لا تحملك على التســاهل فى شىء من دينك، ولا على احتقار عقيـدة غيرك، وهى وحدهـا التى تعلم الناس أن التدين يبـدأ من نقطة واحدة هى النفس الإنسانية، وينتهى إلى غايـة واحدة هى الله، وأن التطهر به يتم بعد ذلك على اختلاف طباع النفوس المتطهرة.

«والدين ليس مسئولا عما ارتكب الناس باسمه فى تـاريخهم الطويل»، ثم يعرض الدكتور كامل حسين لما يزعج بعض من نشئوا على التفكير الحديث مما يقول به المؤمنون، فيقرر أن ما تراه غير معقول فى معتقدات المتدينين قد يكون ضروريـا لصحة نفوسهم وأنه قد لا يكون لهم عنه محيص.

□

«لتؤمن بما تعتقد أن نفسك تتطهر به، ودع لغيرك أن يتطهـروا كما تريد نفوسهم، فإنك لا تدرى ما ينقص النفس ولا ما هى فى حاجة إليه لاستكمال حياتها السوية. وليس عيبا فى التدين أن المتدينين يختارون دينهم طبقا لبيئتهم ونشأتهم فهذا أمر طبيعى»، وكل ما عدا الله لا وجود له بالنسبة إلى النفـس، وإن كان له وجود فى الحواس. والذين لا يعرفـون الله لا يهتدون حقا، وإنما يهتدون بحـواسهم اهتداء ناقصـا وحياتهم كلها ضبـاب لأن حواسهم لا تخترق حجب الغيب، ولا ترتفع إلى ما فـوق العقل والذكاء. والتعبير عن الأمور الغيبية يحتـاج إلى رمز يقربها من لغة الـدنيا، والرمز ضرورى للتقريب بين أمـور الغيب وأمور الدنيا، ولكنـه ليس ضروريا لفهم النفس أمورهـا الخاصة بها. على أن الإسراف فيه يخرج به عن غايتـه حين يظن البسطاء أنه حقيقـة واقعة، وأنه ومـا يرمز إليـه شىء واحد، والإسراف فى الـرمز يشل التفكير السليم، والإسراف فى الرمز فى التعبير عن الغيب مرهق للنفس، غير مقبول عقلا.

ومما تقوى به نفسك التأمل فى أمور الغيب وهــو نوع من التعبد لا يقدره الناس حق قدره، ومن عوامل الهدى أن تتعود العمل الصالح. وليس هناك تناقض بين ما تأمر به صحة النفس، ومـا تأمر بـه صحـة الجسم، والهدى لا ينهى عن شىء فيـه صحة الجسـد، وإنما ينهى عن الفوضى، والنظام أصل فى التكوين النفسى، وهـو أصل فى التكوين الجسمى، والفوضى أصل الاضطراب فى الحالتين. وقد يكون الزهد نتيجة لتطهرك ولكنه ليس شرطا له. والبعد عن الناس يباعد بينك وبين عـامل قوى من عوامل الضلال، ولكنك فى غنى عـن هذا العنف على نفسك، لو هذبت رغباتك وأخضعتها للتطهر وليس هذا مستحيلا.

وقد لا يعجبك أمر بعض المتطهرين دينا فيصرفك ذلك عن التدين، تحسبه لا ينتهى إلى غير هذه الحال، وقد لا يعجبك ما تراه فى حياتهم من السلبية، وأكثرهم يعنى بتجنب الشر أكثر من عنايته بعمل الخير. فاعلم أن التدين عند غير المتطهـرين أصله إيمان مزعزع فيه ضعف يحتاج إلى تقويته بـالإسراف والشطط، أما التدين عند المتطهـرين فأصله إيمانك إيمانا بالغـا قويا بما تؤمن به، وفى هذا الإيمان خير لك ولمن حولك.

ثم يبين الحد الفاصل بين الحماسـة التى قوامها الإخلاص، وبين التعصب الـذى يقوم على التوهم، فيقول: فالحق هو كل ما كان الدافع إليه حبك شيئا بعينه حبا خالصا، والباطل هو كل ما كان الدافع إليه كرهك شيئا بعينه كـرها شديدا وإن كان ما تكره شرا. وحب الخير لا يؤدى إلا إلى الخير، وكره الشر قد يؤدى إلى الخير فى أول الأمر ثم تغلب عاطفة الكره، وقد يكون العنف الـذى حمل المؤمنين فى تـــاريخ البشريـــة على تعـذيب مخالفيهم دليـــلا على ضعف فى ثقتهم بعقيدتهم.

□

الباب الرابع (الهدى والضلال) :

الهدى أن تظل فى صراطك المستقيم، وهـو الخط الـذى يصل بينك وبين اللـه رأسـا فى غير اعوجاج. والضلال أن تحيد عن فطرتـك، فتخرج عن الصراط لأى غرض مهما كان جميلا، لأنه ينتهى آخـر الأمر حتما إلى غير اللـه. وأول الضـلال حيرة بين أمـور تستقطبها، وهـو الشرك، وآخره أن تأتم بغير الله صراحة وعمدا، وهـو أبشع مظاهر الكفر. «فأول الضلال أن تسير مع الركب وأن تستنير ما يعمله الناس من حولك، تسعى إلى مـا يسعون إليه، عاملا على أن تتفوق

عليهم فى ما يتنـافسون فيه، وهـو داء الأذكياء. وآخره أن تقـود الركب وتسـوقهم إلى عمل ما يحبون، وأنت تظن أنك تحملهم على عمل ما تحب، وأنت فى الواقع فريسة لرغباتهم وشهواتهم، حبا فى بقائك مقدمـا فيهم وهو داء الجماعات». وقد تهتدى النفوس وهـى ضعيفة ومقدساتها بـاطلة كما هى حـال البدائيين، وقـد تضل نفوس قـوية مقـدساتها حق كما حـدث فى محاكم التفتيش. وليس للهدى والضلال معيار إلا المعيار النفسى البحت.

□

ومن الشرك ما هـو ظاهر، ومنه مـا هو مقنع. والشرك الواضح يكون بعبـادة الأوثان ومن السهل التخلص منه، ولم يعد له شأن فى العصر الحاضر. واللـه لا يأمر بالشر أبدا، وإنما يأمر بـالخير والسلم والحب، وكل مـا يحملك على غير ذلك شرك باللـه ولـو حسبتـه طاعـة. والحد الفاصل بين الهدى والضلال ألا يضار أحد بعمل تعمله.

ومن العوامل الضالة فى هداية الناس أن يتبعوا رجالا بعينهم يطيعونهم فى ما يأمرونهم به. وفى كل عصر رجـال فيهم قدرة بـالغة تؤثـر فى من حولهم فتحملهـم على الطاعة مختـارين أو مرغمين راضين أو كـارهين. وليس اتباعك رجـلا صالحا ضمانا لـك أنك تسير دائما فى طريق الخير إلا أن يكون متبـوعك نبيا معصوما. وليس عجيبـا أن ينقطع خبر السماء، لأن كل وسيلة يمكن أن يهتدى بها الناس على اختلاف مشاربهم قد أوضحهـا الأنبياء إيضاحا تاما، وليس فى الناس من يحتـاج فى اهتدائه إلى معتقدات جـديدة أو إيمان جـديد. وإنما يحتاج النـاس فى هذا العصر إلى فهم جديد، وتعبير حديث عن المعتقدات التى بينها الأنبياء من قديم الزمان.

رضاؤك عن نفسك هو السعادة، ومن الطبيعى أن تقابـل ما يعمله الناس لك بالمثل، ولكنك إذا أردت أن تسمو فـوق هذا فلك أن تأخذ بمذهـب الخد الأيسر، أما تهذيب ما تعمله بـالناس فأمره إليك، ويكون ذلك بامتناعك عن إيذاء غيرك، إلا أن يكون فى ذلك دفاع عن نفسك وهذا أمر نادر.

□

ثم يحدثنا مفكرنا الكبير عن تطهير الجماعات، فيقرر أن أحدا لا يستطيع حتى الآن أن يجد

سبيلا إلى تطهير الجماعات، والأديان التى تطهر بها الإنسان إلى أكبر حد لم تنجح فى تطهير جماعات المتطهرين بها مهما يكن إخلاصهم لدينهم قويا. وحين يجتمع الناس يؤثر كل منهم فى الآخر، ويكون الانحراف عن الصراط المستقيم أمرا محتوما. ولا يمنع الجماعة من الضلال أن يكون كل فرد فيها مهتديا لأن الاستقطاب الجماعى لا قانون له، ولا يمكن العمل على أن تتجه الجماعة كلها إلى الخير. وهداية الجماعة أمر بعيد إلا بالقوة، والقوة تؤدى عاجلا أو آجلا إلى الظلم أو الضلال، والوقاية من أثر الجماعة فى الناس لا يكون إلا بالحيلولة بينها وبين القدرة على افتراس مخالفيها، ولا يكون هذا إلا بتغيير عظيم فى النظام الاجتماعى كله. وقد يباح لك أن تضل مع الناس، ولكنه لا يباح لك أن تضل بالناس. ولا يدعوك أحد أن تنكص على عقبيك حين تقدم الجماعة التى تنتمى إليها على أمر فيه عليك خطر فهذا لا يليق. والحيرة بين الضمير والواجب هى أكبر المشكلات النفسية، ولن يحلها إلا الفهم الحق للجماعة: طبيعتها، وحدودها وحقوقها.

وقد يكون من أنجح الوسائل للتوفيق بين الفرد وضميره، وبين واجبات الجماعة أن نعمل على الحد من سلطان الجماعة، ويكون ذلك بتقليم أظفارها وحماية الفرد من سطوتها.

□

ثم يبحث الدكتور كامل حسين فى الأمور التى يرتبط بها الناس حين تتكون فيهم جماعة، فهذا البحث فى نظره أقرب الوسائل إلى الإصلاح. وأول النور أن نجعل للروابط ذات المغزى النفسى القول الفصل فى تقسيم الجماعات التى لها علينا حق «الولاء» فنقسم الناس إلى متطهرين وغير متطهرين، وإلى مهتدين وغير مهتدين، وإلى مؤمنين وغير مؤمنين، ثم نقسم المتطهرين إلى من سبيلهم إليه التدين، أو الجمال، أو العلم، ونقسم المتطهرين دينا كما بينا من قبل إلى من يقودهم إلى التطهر، الخوف من الله، أو الحب له، أو الأمل فيه. هذه أمور ذات مغزى سيكولوجى، أما الروابط الأخرى مثل الوطن، والتاريخ، فليس لها مغزى عميق، إلا من حيث أثرها فى التقريب بين الطباع الإنسانية المتشابهة فى تكوينها السيكولوجى حين يجمعها وطن واحد، أو تاريخ واحد.

هذا التقسيم النفسى أقرب إلى الحق من التقسيم القومى إلى أوطان، أو الاجتماعى إلى طبقات، وعلى هذا يكون ولاؤنا للجماعات التى تربطنا بها روابط ذات مغزى سيكولوجى

أصيل. على أن الولاء لأى أمر يجب أن يكون له حدود لا يتعداها، تلك هى **حدود الضمير**. ومما يزيد فى طغيان الجماعة انتماء قـوم كثيرين لها يشعرون بأن حياتهم خلو من كل ما يجعل لها قيمة، فهم يـدخلون الجماعات، يلتمسون فى ظلها بـريقا ينفعهم ويستمدون منهـا سلطانا لا يستطيعونه وحـدهم، والجماعة تزيد فى طغيـانهم وهم يزيدون جماعتهم شططـا، يريدون أن يبلغوا شيئا من فتـات النفوذ والقوة التى تكون للناس مجتمعين، ولو قـدر الناس أن ينقسموا جماعـات تربط أفـرادها عـلاقات وثيقـة ترجع إلى تـوائم نفسى عميق لاستقرت كل جماعـة بأهلها، ولكان ولاء الفرد لجماعته ولاء ثابتا دائما كاملا، **والولاء** صفة جميلة محببة إلى النفس والعبرة فيه تكون بقدرته على تطهير النفس، فإن لم تتطهر بالولاء فارجع إلى نفسك لتتبين أين ضلت بك الطريق، واعمل على أن تعدل عن طريق الخطإ الذى قد تكون وقعت فيه بجهالة وأنت لا تريد إلا الهدى، وأصعب مـا فى الحياة فى هذا العصر أن تختار أى أنواع الـولاء الواجبة عليك أجدر بك، وأيها يستحق منك التضحية والإخلاص. وسبيل الهدى التى يراها الدكتور كامل فى هذه الحيرة أن تجعل ولاءك للـواجب محدودا، وأن تجعل هذه الحدود بحيـث لا تتعدى ولاءك لضميرك بحال من الأحـوال. وهو يدعو إلى التفـريق بين الولاء للواجب والـولاء للضمير، وهذا التفريق وإن كان عسيرا مرهقا إلا أنه قد يعين على البت فى سلوكك فى عظائم الأمور.

□

ثم يبحث عن أعماق النفوس ويقسمهـا أربعة أنواع: فهى إما أن يكـون أصل طبعها الهدوء التـام، أو الكبح الهادىء ، أو الاندفـاع المتـزن، أو الاندفـاع العنيف. وتفـاصيل القول فى هـذا التقسيم تجدهـا فى فصل «التقسيم السيكـولـوجـى للنـاس». والـدين والجمال والعلم قـوى تـوجيهية وليست قـوى محركـة، وليس بينها تنـاقض ولا تعـارض، ولكل منها حـد يجب ألا تتعداه، فالدين يهدى، والجمال يرضى، والعلم يعلم. ويحدثنا الدكتور بعد ذلك عن أن الجمال الحسى فى جوهره تنظيم لما هو كـائن فى الطبيعة على غير نظام، والجمال المعنوى تنظيم لأمور معنوية، ومنه الإيمان فهو تنظيم للأمور الغيبية.

والمتدينـون يسرفون حين يقولـون إن حب الجمال أصل كل ضـلال، وإن نـزعة النفس إلى اللذة والسرور تدعـوهم عاجلا أو آجلا إلى تخطى حدود الطهـر، ويقيمون الحجة على ذلك بما نراه فى كبار رجـال الفنون من شطط. وهذا القول خطأ من نـاحيتين: الأولى أنهم يقيسـون أثر الجمال فى النفـوس بما نراه فى نفـوس صـانعيـه، وعلينا أن نقـدر حب الجمال بأثره فى نفـوس

المتذوقين، والثانية أن المتدينين يرون أن الطهر أعمال بذاتها يجب أن نعملها، وأعمال أخرى يجب أن نجتنبها، والواقع أن الطهر ليس نوعيا وأن أصله اتجاه نفسى صحيح. وعشاق الجمال قصروا بلا شك فى تأكيد الجمال النفسى الذى يقترن بالحب الحسى فيكون به سمو نفسى عظيم.

وينتهى هذا الباب بقول مفكرنا: «ومن المهام التى يجب أن يضطلع بها العصر الحديث أن يثبت الأصل السيكولوجى للدين، والأصل الفسيولوجى للأخلاق».

□

الباب الخامس (الحقائق الأبدية) :

فى دنيا النفس حقائق أبدية وهى أمور عليا، ثابتة، دائمة. عليا لأنها بمعزل عن الضعف الإنسانى، ثابتة لا يرتفع إليها الفساد الذى يحدثه التغيير، دائمة لأن الزمن لا يعمل فيها، وليس شىء أحب إلى النفس من أن تؤمن بحقائق لها صفات السمو، والثبوت، والدوام. ولعل الوادى المقدس لا يكون إلا هذه الحقائق الأبدية حين تطمئن إليها النفس اطمئنانا تاما. ولعل أكبر ما يعنى الإنسان هو أن يهتدى إلى حقائق من هذا الطراز، وأن يطمئن إليها بقلبه كله لا يخامره فى صحتها شك.

وهناك طريقان يؤديان إلى إيمانك بالحقائق الأبدية إيمانا فعالا: أن تؤمن بأن الله أصل الهدى، وأن نفسك غايته، أو أن تؤمن بأن نفسك أصل الهدى، وأن الله غايته، ولك أن تختار أى الطريقين أقرب إلى نفسك، وكل حقيقة تؤمن بها إيمانا نفسيا خالصا يقوم على توافق بينها وبين تكوين نفسك هى بالنسبة إليك حقيقة أبدية، وسترى أن أصدق تعبير عنها هو أن نقول إنها سماوية مهما يكن رأيك فى هذا التعبير، فهذا خير لك من إنكارك لها، لما فى هذا الإنكار من خطر على السلم بينك وبين نفسك.

ويؤكد الدكتور المعنى الذى سبق أن أشار إليه من أن القول بأن الله أصل الهدى، أو القول بأنه غاية الهدى، كلاهما قول حق يؤدى إلى اهتداء النفوس، ولك أن تؤمن بكليهما أو أن تختار أيهما أقرب إلى نفسك.

□

ويعطى مفكرنا فى تفسير قوله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ (البقرة: ٢١٣) مفهومين أولهما فهم الآية على أنها تاريخ واقعى، وثانيهما فهمها على أن النفوس التاريخية: يتمثل فى تاريخها تاريخ الناس ثم يكون من الناس أفراد فيهم قوة بالغة على الاستهداء يتجهون إلى الله فى عزم وثبات ويؤثرون فيمن حولهم تأثيرا قويا، يحمل هؤلاء على أن يتجهوا إليهم فيتجهوا بذلك نحو الله. ثم يقول: «وليس بين هذين الفهمين للنبوة تناقض، فكلاهما يعبر عن حقيقة أبدية واحدة».

يعرض هذا الفصل الخلاف بين المسلمين والمسيحيين فى التكفير والفداء، ويقول: «والمسلمون لا يروقهم الفداء ولا يؤمنون بالتكفير عن الذنوب بما يقع على غير المذنب، وعندنا أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا نستطيع أن نتطهر بما لا نؤمن به، وهذا هو المغزى العميق لما نشعر به من إنكار للصلب».

ثم يناقش تاريخ العبادة، التى هى علاقة بين العبد والمعبود تختلف فى طبيعتها وقوتها باختلافهما، ويدلل على أن تاريخها يدل على أنها تتطور تطورا واضحا يرجع إلى رقى نفوس العابدين، وسمو تقديرهم لما يعبدون.

وخلاصة رأى الدكتور كامل حسين أن الأديان المنزلة هى التى ارتفعت بالعبادة إلى أرقى درجاتها، جعلت المعبود قوة منزهة عالية هى الله، وجعلت العبادة سبيلا للهداية والسمو. ونحن حين نقول إن الله أرقى المعبودات، وإن عبادته أرقى العبادات لا نقول ذلك اصطلاحا أو جزافا ولكنها حقيقة ثابتة أبدية.

والإلحاد نقص فى فهم البشرية وطبيعتها، وهو نقص يجب أن يعمل الناس على تلافيه، وبذلك وحده تتحقق لهم النفس المطمئنة.

□

وهذا فصل (المثل الأعلى):

والمثل الأعلى عند المسلمين: النفس المطمئنة.

والمثل الأعلى عند المسيحيين: النفس المحبة.

والمثل الأعلى عند الموسويين: النفس العادلة.

والمثل الأعلى عند البوذيين: النفس المتخلصة.

وعلى الـرغم من أن هذه المثل العليـا تختلف اختـلافا بينـا، فإنها كلهـا تؤدى إلى الصحـة النفسيـة، إذا ما وافق المثل الأعلى مـا ركب فى نفس المؤمن بـه من طبـاع. واختلاف المثل العليـا السماوية لا يرجع إلى اختـلاف فى هداية الله للناس، ولكنه اختلاف فى قبـول النفس الإنسانية للهداية، وقدرتها على استيعاب كل معانى الخير.

☐

والنفس عضو فى التكوين الإنسانى مثلها مثل العين، وهى العضو الذى من شأنه أن يتأثر بالقوى التى تعمل فينـا من غير طريق الحواس، وهى تنظم أثر هذه القـوى فينا، وتحمينا من الخوف، الذى نشعر بـه إزاء الغيب. والغيب لا تدركه المعرفة لأنه إذا عـرف لم يعد غيبا، ومهما تتسع معرفة الإنسان فهى محدودة بقوة عقله، ولا يدرك القوى الغيبية إلا النفس من حيث هى العضو الذى يتأثر بها.

أما العقل فهـو العضو الـذى من شأنه أن يتأثر بـالقوى التى تأتينـا عن طريق الحواس، والذكاء هو العضو الذى يتناول الأشياء التى نعرفها، وعلاقات بعضها ببعض من غير بحث فى أثرها فى هـدايتنا، والأصل فى النفس أن تهيئ لنا الاطمئنان إلى الغيب، وهى تحمينـا من الرعب الذى يعترينا إزاء ما نجهل، ذلك أن المجهول له أثر مرهق فى أكثر الناس، ويزداد خطر هذا الأثر كلما زاد جهلنا بما يحيط بنـا من قوى لها فى حياتنـا أثر لا نعرفـه. والخوف من الغيب أكثر فى البدائيين منه فى المتقـدمين لكثرة ما يجهلون، ومن المتقـدمين أنفسهم من لا يخلصون من هذا الخوف وإن ظنوا أنهم ينكرون القوى الغيبية إنكارا تاما، وقد لا يكون هذا الإنكار إلا نقصا فى تكوينهم النفسى.

☐

والتقدم العـام فى أمور الإنســان يؤدى إلى تقـدم فى صحة النفس، وصحـة العقل، وصحة الذكاء، ولكنهـا ليست أمورا متلازمة، وقد يجمع الإنســان بين عظم النفس، وقوة العقل، وحدة الذكـاء، ولكن هذا أمـر نادر جـدا، واجتماعها فى نفـر قليل لا يدل على أنها أمـور متشابهة، أو متلازمة أو متعلقة ببعضـها. **والطهر شىء لا تفاضل فى تقديره، والإنسان فى وقت بعينه لا**

يكون إلا متطهرا أو غير متطهر، ولا يمكن أن تكون حاله من الطهر على قدر. وهذه الصفة ــ غير الرياضيــة ــ فى أمــور النفس تجعل البحث فيهـا عسيرا، على من نشئــوا على أن الرياضيات أصل كل علم ثابت.

والبحث فى أدواء الإنســان يجب أن يتناول مــا يعترى هذه الأمــور الثلاثــة: النفس والعقل والذكاء من عيوب تقعد بها عن أداء عملها أداء كاملا.

فالنفس تتأثر بالحرمان، والعقل يصاب بالملل، أما الذكاء فأكثر عيوبه النقص.

وأكمل الحب حبك لله، إذا كان من أثره فيك أن تحب من يحبهم الله، وهم الناس جميعا.

□

وليست الأخلاق إلا الصورة النفسية لقــانون الكبح الذى هو قانون عــام فى أكثر الكائنات الحية، وقــد يعيش الإنسان دون أن يكــون على خلق قوى، ولكن حالــه عند ذلك تكــون كحال القلب الذى قطع عنه عصب الكبح. هذا القلب يــؤدى عمله من غير شك، ولكنه يصاب من جراء ذلك بالإرهاق، ونقص فى القدرة على مقاومة الصدمــات، وعجز عن التمتع بالراحة التى يهيئها له عصب الكبح. ثم هو فوق ذلك أقل قدرة على «التكيف» من القلب الطبيعى.

ومن الناس من تنقصهم الثقة بكفايتهم فيتضخم فيهم الغرور، ومنهم من ينقصهم السمو النفسى الصحيح فيتضخم فيهم التعالى والكبرياء.

والفرق بين النشــاط الأجوف والنشــاط الحق أن النشاط الذى ينشــأ عن الحرمان لا ينتج خيرا، ولا يسد النقص الذى يكون بصاحبه، ولا يؤدى إلى الرضا النفسى، كحال الغدة الدرقية، والنفس المطمئنة فى غير حاجة إلى الغرور.

والملل قليلا مــا يعترى النفوس، فأثر الدعــاء والصلاة فى نفس المؤمن يظل قويا أبــدا برغم تكراره يوما بعد يوم، وهى ظاهرة لا نراها فى غير الأمور النفسية العميقة، برغم أن الملل ظاهرة عامة فى الكائنات الحية، وأوضح ما تكون فى الإنسان.

أما إعراض الناس عن التطهر واستخفافهم بالدعوة إليه، فمرده إلى الملل، حين تظل أساليب الــوعظ والدعــوة إلى الخير على نمط واحــد، وإذا آمنت، وأحببت، وعــرفت فقد أوتيت الحكمــة: **﴿ومن يــؤتَ الحكمة فقــد أوتى خيرا كثيرا﴾**، (البقرة: ٢٦٩). والــوادى المقدس هــو جماع

الإيمان، والحب، والمعـرفة، وهـو موضع الحكمـة، ومكـان الطمأنينة، وسر السعـادة. ومع أن مفكـرنا يـدرك أن النفس لا تتعلق إلا بأمـر الغيب، والإيمان به، وأن هـدايتهـا عامـة لا تتعلق بالأحداث ذاتها، إلا أنه دعا إلى البحث فى أمرها لأن الحياة لا تستقر إلا أن يكون لها أصل ثابت، لا يغير منه الزمن شيئا، وليس فى حياة كل منا شىء أثبت من النفس. ومن عمل النفس المطمئنة المؤمنة أن تهيىء لحياتك جوا جميلا هادئا، تنمو فيه حسناتك على خير وجه، كما تنمو الزهور فى الجو الدافئ المعتدل نموا يزيد بهجتها وجمالها.

□

الباب السادس (الحرمان) :

وقد أفردنا لدراسة (الحرمان) فصلا خاصـا من هذا الكتاب تناولنا فيه هذا الباب. وفصل (الحرمان) فى الجزء الثانى من «متنوعات» ولهذا فاننـا نستأذن القارىء أن يراجعه فى موضعه من هذا الكتاب.

الباب السابع (الضباب) :

تصدر أعمال الناس أو يحسبون أنها تصدر عن حسن تقديرهم للمستقبل، وهم يقدرونه قياسـا على الماضى، كما يتصورونه، ثقـة منهم بأن سنن الكون واحـدة، وأن علمهم بالماضى على حق، وأنهم يعـرفون أسبـاب الأحـداث الماضية يقينـا، ثم يستخلصـون من ذلك قواعـد يحسبونها صادقة كل الصدق، ويحسبـون أنهم بها يقدرون المستقبل قدره. ولكن هل للناس أن يثقوا بالعقل، هذه الثقة المبالغ فيها؟ أو ليس مـن واجبهم أن يعرفوا حدوده، ومواطن قوته، وضعفه، وخطئه؟

ثم يتحدث كامل حسين عن القوة المبصرة فيقول: «ويحد من قدرة العقل على معرفة الأشياء أن تكون من البعـد أو الدقـة بحيث لا يستطيع أن يتبين حقيقتها، أو أن يكـون فى الأمور، التى يتناولها غموض يمنعـه أن يتبين دقائقها، وهو فى هذا أسـوأ حالا من العين، لأن العين تدرك أن بينها وبين معـرفة المرئيات ضبـابا، ولكن العقل لا يعـرف ما يحول بينه وبين الصـواب، وهو يظن أنه يعرف معرفة واضحة».

□

ليس الخطأ أن نحتكم إلى العقل، ولكن الخطأ كل الخطإ أن نسرف فى الثقة به فنتعدى حدود طاقته ونحمله ما لا قبل له به.

وكثيرا مـا يقع أحدّ النـاس ذكاء، وأصـوبهم حكما فى أخطـاء واضحة لا يقع فيهـا من هم دونهم ذكاء وعلما.

والسبب فى ذلك هـو إسرافهم فى الثقة بقـدرتهم على معرفـة المستقبل، ولو عملـوا فى حدود الدائرة التى ينيرها لهم العقل، ما وقعوا فى هذه الأخطاء.

وقد يقال إن التشكيك فى قدرة العقل على معرفة الصـواب يعوقنا عن اتخاذ قرارات حاسمة فى أمور الـدنيا، وأنه يـدعو إلى الإحجام، والحذر، ولا يدعـو إلى الإقدام والشجاعـة. وليس هذا صحيحا، فأنت تستطيع أن تكـون شجاعا مقداما فى حـدود ما تبصره واضحا وضوحـا تاما. وأنت تستطيع بعـد مران يسير أن تعـرف حدود عقلك دون عنـاء أو تردد. قـدر للإنسـان أن يعيش فى هذه الحياة الدنيا يكتنفه الضباب من كل جانب، وأن يكون له عقل يضىء ما حوله إلى مدى يختلف باختلاف نوره، ولكنه على كل حال نور محدود.

وكان خيرا لـلإنسان لو راض نفسـه على التفكير الخاص بمن يعيشون فى الضبـاب، يقدر خطوه على حذر ، لا يتخطى عقبة إلا إذا أبصر ما وراءها واضحا، كأنه يراه رأى العين.

وليس له أن يقدر المستقبل البعيد أبدا، أو أن يبنى على هـذا التقدير أعماله. إلا أن للإنسان حياة أخـرى غير حياة الضباب هذه التى هى سلسلـة من القرارات يتخذهـا، وهو فى حيرة من أمرها أصواب هى أم خطأ؟

هذه الحياة هى حياة النفس، وهى حياة ثابتة عميقة مشرقة جميلة، يرى معالمها واضحة فى غايـة الوضوح. «هذه هى حيـاة الوادى المقدس، حيث كل شىء يشرق عليه نـور الإيمان، فيه يجتمع المتطهرون على اختـلاف نزعاتهم وفيـه ترى الحسنـات يذهبن السيئات». وفيـه ترى لحسناتك شأنا، يجعلك بها فخورا، ولو أمام نفسك وحدها.

«يبدأ الناس حيـاتهم الدنيا وهم فى طريـق واضحة مشرقة مستقيمة، ثم يغـريهم ما يرون على جانب الطـريق من أشجار عاليـة، يرونها مثقلـة بالثمار، يرون ذلك من خـلال الضباب، فيخـرجون عن طـريقهم تدفعهم إلى ذلـك رغبتهم فى الاستزادة من المعـرفة بها، والاستمتـاع بخيرها، حتـى إذا جاءوهـا لم يجدوا فيها مـا كانوا يـؤملون، ويحاولـون العودة إلى الطـريق المستقيم والوادى المقدس، وأكثرهم يضلون عنه.

وهم يعيدون بذلك خطيئة آدم، وهى خطيئة لا يكاد أحد من أبنائه ينجو منها منذ خلق الله الأرض ومن عليها.

□

وإليك الآن خاتمة الكتاب بتمامها :

«تحدثت إليك طويلا، وعرضت عليك أمورا كثيرة تتعلق بنفسك، ولم أقف لأسأل من أنت؟ أما وقد انتهيت من هذا الحديث فأحسب أنى فى الواقع كنت أتحدث إلى نفسى.

على أنى أرجو أن يكون هناك من يصلح له هذا الحديث، كما أظن أنه صلح لى».

□

ونبدأ من حيث انتهى الكتاب وهو ما أثبتناه بنصه فى الفقرة السابقة، نبدأ لنتسائل هل هذا الكتاب سيرة ذاتية لفكر صاحبها تعرض هموم وهواجس كامل حسين؟ هل هو تاريخ حياة إيمانه ونفسه؟ أم أن الوادى المقدس كتاب للقارىء قبل أن يكون عن المؤلف؟ وهل أفكار الوادى المقدس أفكار للتداول، أم أنها معبرة عن مفكر فحسب؟

والوصول إلى إجابة عن هذا السؤال صعب عسير، وفيما عدا أنه تقرير حقيقة فهو لا يفيد البحث فى كثير ولا قليل. وفى الوادى المقدس آراء يحاول بها صاحبه أن يقنع بشىء معين، والأمر فى هذه الآراء ليس له علاقة بالطرف الثانى لعملية الإقناع: أهو نفسه أم القارىء؟ وفيه علم منظم، وتفكير مرتب والأمر فى كليهما لا يحتاج فى نقده إلى البحث عن متلقى هذا العلم، أو المخاطب بهذا التفكير. وفى الوادى المقدس فلسفة، ولا أظن أن المرء يخاطب نفسه بفلسفة، ويخاطب الناس بفلسفة أخرى، مما قد يدعونا إلى البحث فى أمر المخاطب، حتى ندرك أى الفلسفتين تلك. وفى الوادى المقدس لهجة تقديرية هى ألصق بالطبيب من اسمه، هذه اللهجة التقديرية لا يخاطب بها الطبيب الناس فحسب، ولكنه يخاطب بها نفسه أيضا وبالقدر ذاته. والبحث فى هذه اللهجة فى الوادى المقدس لن يغير من تقديرنا لتلك (اللهجة التقديرية). وفى الوادى المقدس دعوة إلى السلم بينك وبين نفسك، وبينك وبين الأقربين، وبينك وبين العالمين، وهى دعوة يدعو إليها المرء نفسه كما يدعو إليها الأقربين وكما يدعو إليها العالمين.

والأستاذ فتحى رضوان يحسب أننا إذا تناولنا الكتاب على أنه (سيرة ذاتية) فسيرتفع قدره لما سنجده فيه من أشياء خطيرة، ومصارحات جريئة. وعندى أن الكتاب مرتفع القدر على أى صورة من الصور تناولناه. ويكفى الوادى المقدس مثلا أن يثبت أن الغيبية رقى فى الفكر الدينى، وأنه لابد من الإيمان بقوى غير مدركة فوق المرئى والمسموع والملموس. ويكفيه أن يثبت أن الإلحاد رد إلى الوراء فى مسيرة هذا التقدم الإنسانى وليس رقيا رافضا. ويكفيه هذا ليكون عند رجال الدين كتابا عظيما، ويكفيه عند الإنسانية ودعاتها ليكون كتابا عظيما أنه يجمع الناس جميعا ليلتقوا على الفكر، «التقاء جميع البشر الذين يؤمنون». ويكفيه عند المحدثين والمشتغلين بالعلوم، أنه كتاب يصور الحقائق العليا على أنها امتداد طبيعى للحقائق الدنيا.

□

وكتاب الوادى المقدس يجعل للأخلاق أساسا فسيولوجيا وللإيمان أصلا سيكولوجيا، ويدعو إلى التطهر على أنه القانون الطبيعى للنفس البشرية لا تستقيم إذا حادت عنه. ولو مضينا نعدد كيف يكون هذا الكتاب عظيما عند كل طائفة وبكل مقياس ما وجدنا إلى ذلك سبيلا.

وأوضح ما فى الكتاب هو ذلك الارتفاع اللانهائى بقيمة النفس الإنسانية، وأظن أن هذا الأمر واضح جدا فى عرضنا للكتاب، ولكننى مع ذلك أجدنى مشوقا إلى الإشارة إلى أربعة أمور:

(١) إلى **«المقياس النفسى»** ذلك المقياس الذى يجعلك مفكرنا تقيس الخير والشر به، حيث يقول: «الخير هو كل ما ترضى عنه نفسك رضاء تاما حين لا يؤثر فيها عامل خارجى، من أى نوع يكون، والشر هو ما تعمله ثم تلتمس عذرا عنه فتقول هذا عمل لم أكن لأعمله لولا كذا وكذا».

(٢) وإلى **«الرضا النفسى»** حيث يقول: «والرضا النفسى وحده هو الدليل على أن الاهتداء بالله حق».

(٣) وإلى **«المعيار النفسى»** حيث يقول: «ليس للهدى والضلال معيار إلا المعيار النفسى البحت».

(٤) وإلى **«البرهان النفسى»** حيث يقول: «والبرهان النفسى هو وحده البرهان الذى تثبت به صفات الله».

والكتاب دليل واضــح على سمة فكريــة بارزة فى كـامل حسين هى «التجديـد»، فهو يقلب الرأى المرة تلو المرة ولا يقف عنـد رأى ارتآه من قبل دون أن يناقشه مــرة أخرى، ومن ذلك أنه كــان قد أبـدى من قبل رأيــا مضمونــه أن الترهيب أكبر دليل على الأنــانيــة، وعاد فى (الــوادى المقدس) ليقول: «وقد تظن أن التطهر فى كبار الأتقيـاء والمنقطعين للعبادة عمل لا يفيد منه أحد ســواهم، وفى هــذا الــرأى ظلم لهم فهم إذ يبنــون حيــاتهم على الطهــر لا يــريــدون إلا السلم النفسـى».

وفى حــديثنا عن «قــريــة ظــالمة» الذى سيرد فى فصل تــال قلنــا : كأن المؤلف أراد أن يلقى المسئولية على الجماعة فى حــادث الصلب ولم يبد فى حينها رأيا كالذى أبــداه هنا فى رأيه الأكثر نضجًــا حين يقول فى «الــوادى المقدس»: «وقــد تظن أن الشر من طبع الجماعات، وأن أحــدا لا يستطيع وحده أن يغير من هــذه النزعة فى الناس حين يجتمعون، والــواقع أن أكثر الشر يحمل عبأه فى آخر الأمر رجل واحد، يستطيع أن يتجنبه، فــالقنبلة الذرية لا تلقى بنفسها على الناس، وإنما يلقيها عليهم رجل ذو ضمير، وله وحده فى آخر الأمر القول الفصل».

□

ولا أرى الدكتور كــامل حسين حين يقول: «وفهمك لله تطور على نحو يشبــه التطور الذى حدث فى فهم البشريــة كلها لله»، إلا متأثــرا بقول البيــولوجيين: «إن تاريخ حيــاة الجنين يعيد تاريخ حيــاة الجنس الحى» برغم أنه لا يــوافقهم على قولهم هــذا. ويذكرنى هــذا بأنه لا يسلم بالتحليل النفسى سيكــولوجيــا، ولكنه لا يأبى أن يستخدمــه فى نقده الأدبى. وحــديث الوادى المقدس حــديث مسلم متدين ملتزم، روح الحديث تقول لــروحك ذلك، والنص أيضا ينص على ذلك فى بعض المواضع، مثل قــولــه فى حــديثــه عن (عقيــدة التكفير والفــداء فى المسيحيــة): «والمسلمون لا يروقهم الفداء ولا يؤمنون بــالتكفير من الذنوب بما يقع على غير المذنب، وعندنا أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا نستطيع أن نتطهر بما لا نؤمن به، وهذا هو المغزى العميق لما نشعر به من إنكار للصلب».

□

ويقول الأب جـوميه إن الكاتب مقتنع بأنـه على الرغم من الاختلافـات التى تفرق مختلف المجموعات من المؤمنين، فإنـه يوجد أساس واحـد يجتمع عليه كل البشر ذوو الإرادة الحسنة، وهدف كتـاب الوادى المقدس إذن هـو تقديم مكـان هذا الاجتماع. ولهذا السبب يركـز الكاتب بشدة على الوجوه النفسية من المسألة، ويتجنـب اختياريا كل اعتبار عقائدى، وسبيله الموصل إلى هذه الغاية هـو الاقتناع بأن القوانين النفسية العامة تستطيع أن تتغلب على مـا يبدو وكأنه اختلاف فى المواقف الدينية.

تريد نظـرية الوادى المقدس أن ترشـد الناس إلى أن كل الديانات تبـدأ من نقطة واحدة هى النفس الإنسانية، وأنها جميعـا ترنو إلى نفس الهدف وهو الله جل جـلاله، وفى الطريق تختلف التفاصيل تبعا لحماس كل فرد.

ثم يستلفت الأب جوميه النظر إلى أننا نجـد فى هذا العمل بعض الآراء فى الإسلام «والمكانة العلميـة للكاتب تسمح لـه بذلك»، ومع أن مفكـرنـا مقتنع تماما وبعمق بأن الإيمان جـزء من طبيعة الإنسان فإنـه يؤثر عدم تحديد مـوضوع الإيمان، فالمهم بالنسبة لـه هو الإيمان فى حد ذاته، وليس موضوعه أو مادته.

وأحب لك أن تستمتع معى بالحكمـة البالغة فى قـول مفكرنا الكبير: «فلتـؤمن بما تعتقد أن نفسك تتطهر به، ودع لغيرك أن يتطهروا كما تريد نفوسهم، فإنك لا تدرى ما ينقص النفس ولا ما هى فى حاجة إليه لاستكمال حياتها السوية». وهو قول على إيجازه وعلى تعارضه إلى حد ما مع آراء الداعين إلى الإيمان على صورة معينة يحمل من قوة الحجة ما لا يحمله قول آخر.

وقد استلفت أستاذنا الدكتور العقبى نظرى إلى تسمية الدكتور كامل حسين لأتباع موسى بالموسويين ولأتباع عيسى بالعيسويين ولنا بالمسلمين لا المحمديين، وقال: إنها أول مرة يسمى فيها أتباع الديانات الثلاثة هكذا، وهى تسمية لها مغزى عميق يدركه المسلمون الذين يعرفون من دينهم «الإسلام» الذى جاء به محمد ولا يتعلقون به إلا من حيث هو إنسان نبى.

□

وقد كان الدكتور كامل حسين حريصا فى الوادى المقدس كما حرص فى (متنوعات) من قبل على أن يهاجم المنحى القائل بمنـاقضة العلم للدين (وقـد بينا هذا بـالتفصيل فى فصل تال من هذا الباب عنوانه «القرآن»).

و «الظلم» الذى خصّه الدكتور من قبل بدراسة عن معناه فى القرآن الكريم وبقصة (أى الطريقين أهدى) له نصيب أيضا فى (الوادى المقدس). فأنت تبلغ واديك المقدس، بحب الضعيف لا بكره الظالم، والمظلوم أقوى من الظالم إذا استطاع أن يصل إلى واديه المقدس عندئذ سيرى نفسه أعظم خلقا وأعلى قدرا «ويكفيك هذا السمو دون أن تثور فيك عاطفة مرذولة كالانتقام أو الثأر من الظالمين، فالظلم والانتقام سلسلة من الشر مفرغة لا فكاك منها». ونستطيع أن نقول إن مقاومة الظلم فى الوادى المقدس مقاومة سلبية «باللجوء إلى الوادى المقدس لتجد فيه الشفاء من القلق واليأس.. وهل يتصور أن يقاوم الظلم قوم يائسون قلقون؟»، وهذه المقاومة التى يحدثنا عنها الوادى المقدس سبيل بالطبع من سبل مقاومة الظلم. وقد عرف العالم من غاندى مقاومة الظلم مقاومة سلبية، وهى سبيل شبيهة بما يدعو إليه الوادى المقدس، ولكنها على أية حال ليست السبيل الوحيدة إلى مقاومة الظلم. والعنف يخالف مذهب المؤلف مخالفة صريحة فيما يتعلق بمقاومة الظالمين، ولكن الدكتورة سهير القلماوى (ولها قدرة على إدراك ما لا ندركه) تقرر أن العنف فى مقاومة النفس هو قوام التطهر عنده فهو أدعى إلى فعاليتها.

□

والكتاب بعد ذلك كله محرك للفكر، أو مثير له، أو موقظ أيها تشاء أو أيها أحسست أو أيها فعل بفكرك، وأسلوبه علمى تجريبى مستنتج. وأدق وصف له أن نقول إنه من كتب الدكتور كامل حسين، أو إنه من دراساته، أو إنه عرض لنظرية من نظرياته، وهو فى كل ذلك ممتع من حيث استطاع أن يمزج بين الحقيقة العلمية والخبيئة البشرية والتأمل الفلسفى، من حيث ذلك كله، ومن حيث لا ندرى أن نعبر عنه وإن أدركناه وأدركه الناس جميعا معنا.

وقد تساءل الأستاذ فتحى رضوان: أليس فى حب الأم لطفلها كل ما يتطلبه الداعى إلى الوادى المقدس أو المتحدث عنه بقوله: «حيث يحتوى قلبك حب عميق خال من كل غل أو حقد لا يعتريك معه قلق أو ندم ولا يصيبك فيه خيبة أو يأس». ونحن نجيب الأستاذ رضوان: بلى، ولكن الدكتور كامل عاد فى كتابه بعد صفحات عندما فصل القول فقال: إن حبك الأقربين لا يطهر إذا لم يكن فيه ما يسمو على الناحية البيولوجية كحب الطير لإناثها وصغارها.

□

وعالم كامل حسين عالم فسيح أفسحه التسامح، وهو لا يطرد الملحدين من عالمه الدينى بل يضفى عليهم صفة الإيمان فهم يؤمنون بالله ولكنهم يطلقون عليه اسما آخر كالعقل والطبيعة، والاختلاف فى التعبير عن الإيمان اختلاف فى المظهر لا فى الجوهر، وهو يردد فى واديه المقدس كلمته السابقة التى وردت فى إحدى المواقف فى قرية ظالمة (على لسان زوجة رجل الاتهام): «إنك لا تكفر بالله وإنما بما يقال لك عن الله».

وقد عبر الوادى المقدس عن نفسية صاحبه، فهو يؤمن إيمانا خالصا بالله على النحو الذى يؤمن به المسلمون، وبرسول الإسلام وسنّته وجوهر الإسلام، ولكنه لا يقبل الدين التقليدى بقضه وقضيضه على حد تعبير الأستاذ فتحى رضوان: فهو «كتاب يكشف عن نفس صاحبه فى صراحة وصدق، ويطلعك على ما يعانيه فى غير مداراة ولا اعتذار ولا كذب».

الفصل الرابع

التحليل البيولوجى للتاريخ

تاريخ الإنســانسة الطويل حــافل بالفترات المتشابهة فى سماتها وخصائصهـا، وإن بعدت مكانا أو زمانا، ثم إن هذا التشابه لا يقف عنـد حد، ولا تحكمه فى ظاهره قاعدة. وإنك لتجد أمة من الأمم تبدأ من حيث انتهت غيرهـا، وتلحظ التقدم الحضارى يبلغ قمته عنـد قوم ثم ينحدر عندهم ليبلغ القمة عند آخرين، وينتصر هؤلاء على أولئك ثم يعود أولئك فينتصرون على هؤلاء.

وأصبح أولـو العلم بـالتـاريخ، وقـد صــارت لهم قـدرة على التخمين بمستقبل الحيـاة فى صورها المتعددة عند أمة من الأمم، لا يدعون فى ذلك علما بالغيب ولا بالباطن ولا إلهاما، وإنما يقولون لك إنها الأيام أو إنها الحياة، وهو تعبير مبهم يكتنفه الغموض من جل نواحيه.

وقد حاول عظماء المفكرين فى العصور المختلفة أن يتبينوا فى التاريخ تلك القوة الخفية التى تملك زمامه، أو بعبارة أخـرى بحثوا فى ماهية القوى التى تحرك الأحداث على هـذا الوجه الذى تتحرك عليه، ونشأت لنا من هذه المحاولات نظـريات عديدة سكن بعضها فى الكتب حتى فقدت القدرة على الحراك، وسكن بعضهـا رءوس الذين هيأت لها الأحداث أن يلعبـوا بأزمة الحوادث فيغيروها متأثرين بتلك النظريات.

ومن أبرز هذه المذاهب، مـذهب (المادية التاريخية) لماركس، وقـد تحول هذا المذهب بنسبة غير قليلة من البشر تحولا خطيرا، ومـذهب (التحدى والاستجابـة) لتوينبى، ومـذهب (وحدة الصور التاريخية) لشبنجلر. وسنجد أنفسنـا فى هذا الفصل مع مذهب لا تقل قيمته العلمية ـ على أسوإ الفروض ـ عن هذه المذاهب الشهيرة، وإن قلـت قيمته العملية لأنه لا يتيح لنفسه أن يوجه الأحداث وجهة ما.

ذلك هـو مذهب التحليل البيـولوجى للتـاريخ للدكتـور محمد كـامل حسين، وقد ألقـاه فى محاضرة فى جمعيـة الدراسـات التـاريخيـة فى فبراير سنـة خمس وخمسين وتسعمائة وألف (١٩٥٥)، ثم أخرجه فى كتاب يحمل هذا الاسم.

□

والفقرات التالية تعرض لنا لمحات سريعـة خاطفة عن بعض آراء الدكتور كامل حسين التى يقوم عليها هذا المذهب، وقد راعينا فيها ترتيبه فى العرض حتى يبدو عرضنا فى النهاية أقرب إلى «التلخيص المخل» لهذا الكتاب الذى يصعب تلخيصه بسبب التركيز الشديد فى أفكاره.

□

ذهب الدكتـور كامل حسين إلى تعـريف التاريخ بأنـه أثر الـزمن فى كائن حى بعينـه، هو الإنسان من حيث هو إنسان.. ثم قرر أن الزمن والإنسان وهما عنصرا التاريخ فيهما متغيرات كثيرة تجعل قـوانينهما معقـدة إلى أبعـد حد، والـزمن لا يعمل فى الجماد، ومن هـذا استطـرد الدكتور إلى أن الحياة قـد لا تكون إلا الصفة الخاصة التى تجعل الشىء قابلا للتـأثر بالزمن. والتاريخ يعمل عمله فى الإنسان على ثلاثة أوجه:

□ الحياة الداخلية ـ حياة الأفراد: (الطباع والغرائز) ولا أثر للزمن فيها.

□ الحياة الخارجية ـ حياة الجماعات: (مظـاهر النشاط الاجتماعى الإنسانى) وأثر الزمن فيها دورى تعلو وتهبط على التوالى.

□ الحياة العقلية ـ التفكير والعلوم: وأثر الزمن فيها التقدم المطرد.

□

وينتقل الدكتور إلى عوامل التفوق التى نالت بها الأمم امتيازات فى التاريخ فيذكر أنها:

١ ـ عامل التفوق الجسمى .

٢ ـ الشخصية والخلق .

٣ ـ التفوق فى المال .

٤ ـ التفوق فى العلم .

٥ ـ التفوق العددى .

ويقسم الدكتور كامل حسين التاريخ السياسى والقومى إلى عدة عهود، ويطبق هذا التقسيم على إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا على النحو الذى يبينه الجدول الآتى:

العهد	انجلترا	فرنسا	ألمانيا	روسيا
١ ـ العبودية التامة للفرد	إليزابيث ١	لويس ١٤	فردريك الأكبر	بطرس الأكبر
٢ ـ العصر الذهبى تحت حكم الفرد	شارل ١	لويس ١٦	غليوم ٢	نيقولا ٢
٣ ـ الضعف بعد العصر الذهبى	البورتيان	الثورة الفرنسية	جمهورية فيمار	١٩١٧
٤ ـ الثورة: أول نجاح للجماعة على الفرد	كروميل	نابليون	هتلر	ستالن
٥ ـ الفرد يستعيد نفوذه		١٩٤٨	؟	؟
٦ ـ الثورة الثانية: التغلب النهائى على نفوذ الفرد	الحياة البرلمانية	نابليون ٣ الجمهوريات	العهد الحاضر	العهد الحاضر
٧ ـ ضعف بعد الثورة الثانى لا يبلغ حد عودة الفرد				

□

وعندمـا يطبق الدكتور كـامل حسين تقسيمه هذا على تـاريخ الفنون يكون أثـر الزمن فى الفنون على النحو التالى :

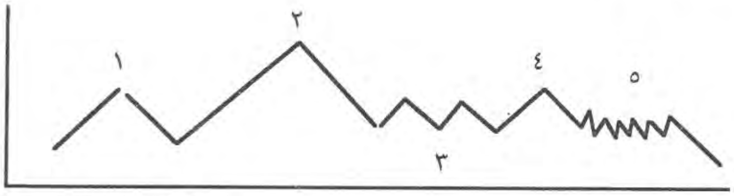

١ ـ الرواد. ٢ـ العمالقة.

٣ ـ الكلاسيكية الأولى (المقلدون). ٤ ـ الكلاسيكية الثانية.

٥ ـ مذاهب صغيرة متعددة.

ويخلص الدكتور إلى أن أهم ما فى حياة الأفراد هـو الغرائز والحياة الداخلية، ولهذا فإن أثر الزمن فيهم قليل جدا، وأهم ما فى حياة الجماعات هو الفنون والحياة الخارجية وأثر الزمن فيها دورى.. وأهم ما فى حياة المدنيات هو العلم والحياة العقلية، وأثر الزمن فيهما مستمر..

□

ونستطيع أن نقـول إن فكرة هـذا الكتـاب سارت على عـرض تـاريخ الأفراد والجماعـات والمدنيات عرضا يتيح استنتـاج أثر الزمن فى كل منها من ناحية، ومن النـاحية الأخرى: عرض تاريخ الحياة الداخلية (الطباع والغرائز) والحياة الخارجية، والعلم والحياة العقلية عرضا يتيح استنتاج أثر الزمن فى كلٍ أيضا.

ثم المناظـرة بين العرضين الأول والثـانى، تلك المناظـرة أو قل المزاوجة التى بـدت منطقية تماما والتى خلص منها الـدكتور إلى استنتاج ما ذكرناه فى الفقرة الأخيرة مـن عرضنا للكتاب، ولا يخلو الكتـاب مع ذلك من آراء سـديدة وأفكـار مبتكرة تعـرضنا لها عند حـديثنا عـن فكر الدكتور.

وعلى حين أن هذا الكتاب قد ألقى كمحاضرة إلا أن ذلك لا يمنع إطلاقا من أن نعبر عنه دائما «بالكتـاب»، لا نعتمد فى تسويغ هذا على أنـه طبع ككتاب بل إن «التحليل البيولـوجى للتاريخ»

كتاب بالدرجة الأولى أو قل إنه كتاب ألقى فى محاضرة، وقد استطاع مفكرنا الكبير فى محاضرته هذه أن يتناول المادة التاريخية تناولا كليا عاما دون أن يضل وسط تفصيلاتها، أو يتشعب مع جزيئاتها، فتم له بذلك أكبر عامل فى نجاح تحليله.

وقد يكـون من المناسب أن نعرض لعنوان الكتـاب أو (اسم النظرية) بـالتحليل وبالتعليل، فهـذا الكتاب يبـدأ من منطلق واضح هـو أن **التاريخ يتنـاول حياة الإنسـان من حيث هو إنسان** ويمضى يبحث أثر الزمن فيما هو **إنسانى بحت**، ومن هنا كان الشبه بعلم البيولوجيا الذى يتناول أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والتكاثر والانحلال والفناء والتطور.. إلخ. ثم إن هناك تشـابها بين القوانين البيولـوجية والتاريخيـة من نواح عديـدة، فكلاهما كما تقول أستاذتنا الدكتورة بنت الشاطىء:

(١) احتمالية تصدق على الأعداد الكثيرة والحقب الطويلة.

(٢) لا تنفى السببية الملاصقة.

(٣) لا تحتم الجبرية.

□

والكتاب حافل بـالآراء المتميزة والفروض الخصبة، ولاشك فى أنه أثار أمـورا مهمة، وحرك قواعد ساكنـة، ونشط عقولا راكدة، وصحح مفاهيم خاطئة، وقد أعانت العقليـة الطبية مفكرنا على شىء تهيأ لمذهبه معه الارتفاع إلى منزلة كبيرة فى النـاحية العلمية، وذلك الشىء الذى كان نتاج هذه العقليـة هو تفاديه جمع التـاريخ كله على نمط واحد، فنراه يفـرق بين حياة الأفراد، وحياة الجماعات، وحياة المدنيات، ويفرق بين حيـاة الغرائز وحياة الفنون،وحياة العلوم، حتى نتجت عندنا **تسعة قوانين** كانت أقرب إلى الصواب بكثير جـدا من قانون واحد، كما فعل غيره ممن تناولوا التاريخ جملة ليطلقوا عليه حكما شاملا.

ولم يكن كامل حسين يهدف إلى أن يخرج بحكم عام شـامل يجبر عليه التاريخ، وإنما كان يهدف إلى أن يحلل التاريـخ تحليلا يخرج له بـه سر هذا التـاريخ.. والكتاب ينبئنـا بأن الحياة العقلية ستكـون لها **الغلبة** على سـواهــا، وسيصبح لها **النصيب الأكبر** فى تكييف تـاريخ المستقبل.. وهو ما نلحظه يوما بعد يوم خلال أكثر من عشرين سنة هى عمر الكتاب.

وقد تبين للناس جميعا ما قرره الكتاب من ثبات طبائع الإنسان وغرائزه ثباتا غريبا برغم كل التوقعات التى ظنوها تجىء أثرا للزمن.. ولا نعرف غير الدكتور من نفى سلطان الزمن على الطبائع والغرائز إلا جوهر الأديان السماوية..

والكتاب بعد ذلك مثال للرصانة بلا ادعاء وللوقار المترفع عن الضجيج، والتهريج، والإعلان، وللفكر الأصيل الناضج الذى يؤمن بالعلم، ويرى المستقبل له، ومثال للإنسانية الخيرة المصفاة، وللحس المرهف، وللعلم المبدع يستمد قوته من الصدق والجمال، كما تقول أستاذتنا الدكتورة عائشة عبدالرحمن.

الفصل الخامس

فى التاريخ المقارن:
« محنتان متشابهتان »

نشر هذا البحث فى مجلة «الكـاتب المصرى» ثم فى الجزء الأول من (متنوعات) ثم كفصل فى كتاب *(الذكر الحكيم)..

أمـا المحنتان المتشـابهتـان فهما محنة خلـق القرآن عنـد المسلمين، ومحنـة التجسد عنـد المسيحيين، والـدكتور يـرى فيهما خير مثال لـوحدة التطـور التاريخى (التى أخـذ بها بعض المفكرين، وعلى رأسهم شبنجلـر فى كتابه «اضمحـلال الغرب»، وأنكرهـا آخرون مثل فيشر فى كتابه تاريخ أوربا. وهو بالإضافة إلى ذلك يـؤمن بأنه «لو آمن الناس بوحدة التطور التاريخى عن علم واطمئنان لزالت الوحشة بين المدنيـات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلا، ولسهل على الناس أن يلتقوا فى صعيد واحد حين يعلمون أنهم كانوا يسيرون فى طريق واحد».

ولا يفوت الـدكتور أن يطمئننـا إلى أن المحنتين كلتيهما أبعد عن التفكير الحديث من أن تثير عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أى أثر يزعج إيمانهم أو يمس شعورهم بحال ما.

أوجه الشبه من الناحية الفكرية :

١ ـ كـانت عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين تتمثل فى الإيمان الطـاهر النقى البسيط الذى لا يشـوبه التفكير الـدقيق فى ظاهرة مـا، ثم لم يلبث الناس أن بحثـوا وتفلسفوا ولكن إيمانهم كان لايـزال قويا فلم يقـدهم بحثهم إلى الكفر وإنما التمسوا الهدايـة عن طريق التأويل، وتبين بعد قليل أن بعض هذا الإيمان يجب أن يضحى به حفظا لقدسية البعض الآخر، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة.

٢ ـ رأى كبـار العلماء والأتقياء من المسلمين ومعهم الجمهـور أن مما يمس قداسـة القرآن

القول بأنه مخلوق، واحتجوا بأنه لم يرد على ذلك نص، لا فيه، ولا عن النبى ولا عن الصحابة، فالقول به جرأة على العقيدة الصحيحة.

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن إيمانا صادقا بأن الاتحاد بين ثانى الثالوث وبين نفس إنسانية وجسم بشرى كان اتحادا حقيقيا دائما، وكان ذلك رأى المسيحيين الشائع حتى أوائل القرن الخامس الميلادى، وكان تقديس مريم من أهم مظاهر الإيمان الصحيح.

٣ ـ كان من المسلمين من حكموا العقل مع الإيمان، وهم المعتزلة، فهالهم أن يشركوا مع الله شيئا فى قدمه، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم.

وكذلك كان بين المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالإله أن يكون قد أقام تسعة أشهر فى جسم مريم، وأن يكون قد خرج من أحشائها كما يخرج الناس، وأبى الأتقياء أن يتصوروا الطهارة الإلهية قابعة فى جسم أدنى غير طاهر، ولم يؤمنوا بأن الله الذى يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه فى جسم مريم، وهالهم أن يكون الله قد عذب وصلب، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح الأبدية قد لقى حتفه فوق جبل كالفارى.. ورأوا أن يفرقوا بين طبيعتى المسيح:

(أ) فمنهم من آمن بأن المسيح رجل عادى، فلما عمده يحيى فى نهر الأردن حلت فيه الروح القدس فى صورة حمامة، فلما سلمه الحاكم الرومانى إلى اليهود تركته هذه الروح العالية يتألم ويعذب ويصلب.

(ب) ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالأجسام، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش، فهو فوق العيوب الجسدية وأن الشكل والمادة فيها كلاهما إلهى.

(جـ) أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة إلهية إنسانية، لما ورد فى التوراة من أن الله خلق الإنسان على هيئته.

٤ ـ وكان من المسلمين فريق رأوا واجبا عليهم أن يبتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة، فأسرفوا فى تقديس القرآن حتى قالوا: إن نطقنا به قديم وإن حروفه قديمة، وهو شطط لا يسوغه إلا شدة الرغبة فى مقاومة الآراء غير المألوفة.

وكذلك قام بين المسيحيين من أنكر أن المسيح ولد وكبر، وقالوا إن ما رآه الحواريون لم يكن إلا شبحا جعله الله القادر على كل شىء فى صورة إنسان ليلقى إلى الناس تعاليمه، وإن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلا على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس، واعترض عليهم بأن مثل هذا الخداع لا يليق بالواحد القهار. ولكنهم كانوا يرون كما رأى الكثيرون بعدهم أن الخداع لهداية الناس مباح.

٥ ـ وفـريق رأى أن كلام اللـه يجب أن يطلق على شيئين مختلفين، كما هو الشـأن فى كلام الناس: الكـلام النفسـى وهو القائم بـذاته وهو الأزلى القديم، أمـا القرآن المكتوب المقـروء فهو حادث بلا شك.

وكذلك كان بين المسيحيين من آمن بفصل السيد المسيح عن ربهم، وكـانوا يحترمون مريم على أنها أم المسيح، وكان يؤذيهم أن تسمى أم الله.

٦ ـ واشتد الجدل بين هذه الفرق وأصبح الجدل بين المسلمين منحصرا فى القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول، وقتل الناس للفرق بين هذين اللفظين.

وانتهى عند المسيحيين إلى: هل المسيح من طبيعتين أو فى طبيعتين؟ وقتل النـاس للفرق بين حرفى الجر اللـذين لا يستطيع الإنسـان فى هذا العصر أن يجد فى الفـرق بينهما ما يسـوغ هذا العداء الحاد، ثـم وضع رجال الكنيسة الحد الفـاصل بين الحق والباطـل وبين الكفر والإيمان، وإن كان هذا الفرق أحد من السيف.

□

أما أوجه الشبه من الناحية السياسية فواضحة :

١ ـ حاجة الداعين إلى عقيدة معينـة إلى استعمال القوة السياسية لحمل الناس على الإيمان بها، فقد اشتـد المأمون فى استعمال القـوة فرأى أن من لم يقل بخلق القـرآن فهو مـرتد ويحل قتله، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه.

ومع أن الإمبراطور لم يبـدأ فى حمل الناس على عقيـدة معينة أول الأمر، إلا أن البطـارقة فى القسطنطينية والإسكنـدرية كـانت لهم قوة سيـاسية كبيرة، فكـان القديس كيرولس بطـريق الإسكندرية يستخـدم عماله فى الضغط على الحكام المدنيين، وطرد اليهـود من المدينة لكفرهم، وذبح أتباعه فتاة وثنية كانت تعلم الفلسفة فى الإسكندرية، وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من المحار داخل الكنيسـة.

أما نسطورس بطـريق القسطنطينية، فقد استمد قوتـه من الإمبراطور، فقال له عنـد توليه الحكم: أعطنى الأرض خالية من الكفار وأنا أعطيك مملكة السماء، وبعد خمسة أيام أحرق ديرا لمخالفيه فى العقيدة.

٢ ـ سرعان مـا انقلب الخلاف الدينى البحت إلى خلاف على النفوذ الـدنيوى. فمثلا غضب الواثق على أحمد بن نصر ودعا إلى قتـاله لقوله بخلق القـرآن، وإن كان كثيرون يرون أن سبب ذلك أكثره يرجع إلى ثورة أحمد بن نصر وخروجه عن الطاعة.

أما عند المسيحيين، فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جدا فى كل أدوار الخلاف، وتدخل رجـال قصر الإمبراطور فى المعـركة واشتركـت فيها أسرة الإمبراطـور ينصرون إحدى العقـائد اليوم، وينصرون الأخرى غدا. ولم يأنف كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب فى ترجيح رأيه على رأى عدوه، بل قبّل على نفسه أن يعلن فى غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح وهو ما لم يكن يؤمن به، ليتمكن من حمل الإمبراطور على الانتقام من عدوه.

٣ ـ أصبح الجمهـور المؤمن الساذج عـاملا قـويا فى النزاع فى الحالتين، فكـان نفوذ عـامة الشعب عند المسلمين فى جانب المحدِّثين والسنِّيين، ووجـدوا بطلهم فى أحمد بن حنبل لصلابته، واتجهت أنظار رجال الـدولة إليه، ولم يستطع المعتصم أن يقتله كما قتـل غيره لالتفاف الناس حوله، ولـو قتله لكانت فتنة، واضطـر إلى إخراجه من السجن بعـد أن ضرب وعذب لأن الناس اجتمعوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان، ولعله أعجب هو أيضا بشجاعته وثباته.

وكان للجمهـور عند المسيحيين دور حاسم جـدا فى هذا النـزاع الدينى، وكان أكثـر الناس مخلصين للعذراء لا يريدون أن يعتنقـوا مذهبا ينقص من جلالها. وواضح أن التعمق فى بحث طبيعة المسيـح لا يوافق بسـاطة إيمان الجماهير، فصاحـوا فى مجمع أفيسوس الثـانى أن من قسم المسيح «فليقسمه الله، ولتمزق أعضاؤه، وليحرق حيا».

٤ ـ ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمـون إلى تجريح مخالفيه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم إنه كان يسرق الطعام بالأنبار، وعن آخر إنه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التـوحيد، وأن يـرضى رجال الـدين فى أحد المجـامع المقـدسة أن ينسبـوا إلى رجال الـدين من مخالفيهم أمورا مخجلـة، فقالـوا عن أحدهم إن له عشيقـة، وإن بيته كان مفتـوحا للعـاهرات وتوسلوا بذلك إلى عزله ونفيه.

٥ ـ سياسة المجـامع وعقدها لحسم النزاع بالمناقشـة: وحدث فى كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هذه المجـامع خاضعة للقوة، قـوة السلطان تارة، وقوة الجماهير والأتبـاع تارة أخرى، فالمأمون دعا وجـوه المحدِّثين ومخالفيه فى الرأى وأمرهم أن يقولوا بقـوله، وقد وافقوا على ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقـاوموا السلطـان، وخاصـة أن العقل والحجـة كانـا فى جانبـه، وهذه الحادثة فتت فى عضد المحدِّثين والعامة وأحزنتهم، ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون

على رأيه خضوعا للسلطان، وكان يقول إنهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل.

أما إمبراطور القسطنطينية، فقد دعا إلى مجامع كثيرة، وتاريخ هذه المجامع طويل، والذى يهمنا منه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشة فى هذه المجامع لم تكن الحجة والإقناع، وإنما كانت القوة والمال وعدد الأتباع، ووقعت حوادث عنيفة جدا فى هذه المجامع التى وصفت بعد بأنها مقدسة، فحدث فى مجمع أفيسوس الثانى أن بطريق الإسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضربا أدى إلى موته بعد أيام، وأحاط الجنود بالقسيسين الحاضرين فهرب هؤلاء تحت الكراسى ووراء المنبر ووضعوا إمضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالطعن على بطريق الإسكندرية.

٦ ـ كان لموت الأمراء أثر ظاهر فى تاريخ الحركتين، فلما مات الواثق وبويع المتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن، ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة، وقيل للفريقين: إذا كان قد وسع النبى والصحابة أن يسكتوا عن ذلك وسعكم ما وسعهم.

وفى القسطنطينية حدث أن وقع الإمبراطور من فوق فرسه ومات، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون إلى منتصرين، وغالى هؤلاء فى الانتقام من أعدائهم وساموهم العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم.. وقال الإمبراطور: الله يشهد إنه غير مسئول عن هذه الفوضى، وحمل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب أنطاكية على التصافح فتصافحا خشية وحذرا لا عن التسامح القلبى الذى تدعو إليه المسيحية.

وكذلك حدث عند المسلمين عندما انتصر الحنابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيلهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا فى حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف.

□

والحقيقة أن تحليل الدكتور للمحنتين المتشابهتين ينم عن علم واسع بتاريخ الدينين والمذهبين وفلسفتهما وفلسفة التاريخ، كما ينم عن قدرة فائقة فى التحليل، والتأمل، والفهم، وربط الأحداث. والبراعة (الطبية) تظهر عندما يرجع الدكتور الأعراض والمظاهر إلى أسبابها الحقيقية، ولا يقف أمام الأعراض ليربطها بعضها ببعض ربط السبب بالمسبب، وهو ما نبهنا إليه وكررنا القول به أكثر من مرة.

والدراســة بعد هــذا دراسة رائدة فى التاريخ المقــارن، وقد تكــون أعظم برهــان على صحة نظرية التطور التاريخى، ولا أغــالى إذا قلت إنها من حيث هى برهان تفوق البراهين التى برهن بها أصحاب النظرية أنفسهم على صحة نظريتهم.

وكأنى بكامل حسين حين قدم هذه الدراسة كان يستشرف الأوقات الصعبة التى سيمر بها وطنه حين يتنازع الجدل أقواما من أهله حول كثير من الأمور المتعلقة بالدين، وهو لهذا يضرب المثل بفترة من أحلك فترات الاختلافات الفكرية فى أمــور العقيدة وما قاد إليه التعصب للآراء فى هذه الاختــلافات، وإنى لأرى أن إطلاع أكبر عدد من الشبــاب على مثل هذه الدراسات بمثــابة خطوة مهمــة فى طريق هداية جمهــور المثقفين إلى خطورة الخطوات التى يستدرجــون إليها فى الخلافات المذهبية التى ترتفع لها رايات تبدو وكأنها رايات الحق والصواب.

الفصل السادس

حياتنا الفكرية المعاصرة

كانت الحياة الفكرية فى مصر المعـاصرة من أهم الأمور التى تشغل بال كامل حسين (إن لم تكن شغلـه الشاغل) حتى إنـه جعل النصيب الأكبر من كلمتـه التى ألقاهـا فى حفل استقبالـه عضوا بمجمع اللغة العربية للحديث عن (الحياة الفكرية فى مصر الحديثة)، مع أن العادة جرت على أن تكون مثل تلك الكلمـة كلها حـديثا عن (العضـو السالف)، وكان كـامل حسين لا يفتأ يدعو إلى الاستقلال الفكرى، وإن دعوته هذه لتتخذ صـورة الدعوة المباشرة يدعو إليها أدباءنا أو تأتى ضمنا فى كلماته وكتبه ومقالاته.

وسنعرض الآن الآراء التى وردت فى :

☐ خطبته فى حفل استقبـاله عضـوا بمجمع اللغة العربيـة، وقد وضع لها عنـوان (الحياة الفكرية فى مصر الحديثة) عندما نشرها فى الجزء الثانى من كتابه (متنوعات).

☐ كلمته فى تأبين الدكتور طه حسين فى الحفل الذى أقامه مجمع اللغة العربية.

☐ مقدمة الجزء الثانى من كتابه (متنوعات).

☐ كلمة له فى (المجلة) يوليو سنة ١٩٦٩.

وسنبدأ بتلخيص حديثه عن «الحياة الفكرية» الذى ورد ضمن كلمته فى حفل استقباله:

أريد أن أحدثكم عن الحياة الفكرية فى مصر الحديثة، فـإنى ممن لا يزالون يؤمنون بالفكر المحض وأثره فى الحيـاة العامة، وأكثـر الناس على أن المحدثين يفضلـون العمل على الفكر، وأن

الغلبـة اليوم لما سميناه الماديات، وأننـا فقدنـا الإيمان وهجرنـا الأخلاق واختلط علينـا الخير والشر.. إلخ. ولا أريـد دفاعا عـن المحدثين ولكنى أقـول إن هذه آراء مبسطـة لا تصدق إلا على ظاهر الأمور، وأصل الخطإ فيها ما طرأ من تغيير على مكان الفكر فى حياة الناس، وعلى الصور التى تتمثل فيها الأخلاق.. فقديما كانت حياة كل قوم أبوابا متفرقة كل منها قائمة بنفسه وكان الفكر المحض أرفعها شأنـا، أما اليوم فحياة كل قوم وحـدة عقلية متصل بعضـها ببعض. وإن يكن الفكر قد خـرج من عزلته، ونزل عما أسبغته عليه من مجد قـديم فإن ذلك لم يزده إلا قوة لتغلغله فى شتى أمورنا، والناس فى عصرنا هـذا لم يفقدوا الإيمان وإنما شكوا فيما يؤمنون به، ولم يهجروا الكثير من الفضـائل الفردية التى عكف عليهـا الأولون إلا ليستبدلـوا بها فضائل اجتماعية، ولم.. إلا.. إلخ. كل ذلك تحول فى المعنويات لا إنكار لها، وقد يكونون مخطئين ولكنى أعتقد أن عصرنا عصر إيمان وأخلاق، وإن تغير لونها، فمن الملحدين من هم أحرص الناس على عقيدة، وأشدهم دفـاعا عن مبدإ، ولا أشك فى أنهم حين يبلغون الغايـة فى مكانهم سيعلمون أن ما أنـزل على النبيين هو الحق، لأن العقل البشرى كان حينـذاك أكثر قبولا للمبادىء السـامية وأكثر إحساسا بها منه فى أى عصر تلاه، وكثيرون يظنون أننا سائرون إلى انحلال خلقى تام، وأحسب أننا على النقيض من ذلك نسير صوب الكمال، ويجب علينا أن نظل نعنى غاية العناية بالمعنويات وبالفكر وبما يدق عن المحسوسات فإن مستقبل البشرية إلى الكمال لا إلى الانحلال.

□

«لا يزال الفكر المحض أكثر قوة فى العالم، ولن تحدد الحروب والدمار تاريخ النصف الثانى من قرننا وإنما يحدده ما يتم بين المدنيات المختلفة اليوم من تواؤم أو اختلاف، وفى العالم اليوم مدنيات كبرى لا تـزيد على الخمس، ولا شك أن أهلها سيبلغـون ما بلغه الغربيـون، فالمساواة سنّـة العالم الحديث، وقـد بلغنا مـن المساواة بين الأفـراد الشىء الكثير، وبدأت المسـاواة بين الدول، أما المسـاواة فى التفكير فستكون من عمل المستقبل القريب، فالـزمن يعمل على المساواة والناس يعملون على التساوى».

«وإذا كانت المدنيـات كلها ولت وجهها شطر المدنيـة الغربية فإن ذلك ليس إعجـابا بها أو خضوعا لقوتها، بل يرجع ذلك إلى أن طبيعة التفكير البشرى فى جـوهرها واحدة، وأن كل ثقافة لا يقف بها النمو ستجد نفسها على نهج يؤدى بها إلى مـا يشبه المدنية الغربية». ولا يفرق بين المدنيـات شىء مثل اختلافهـا فى النمو، وأصعب مـا فى هذا التسـاوى التواؤم بين العقليـات، وتقارب التفكير، ويكون ذلك بالتحول أو الاندماج أو المسايرة على أساس المساواة.

فأما التحول فمحال عند أكثر الباحثين لأن الفكر أثبت أصولا وألصق بالطبع من أن يتحول طواعية واختيارا.. وآخرون يرون الاندماج ممكنا واستعاروا صفة ذلك من علم البلورات، وغير هؤلاء رأوا الأمر أبسط مـن ذلك وعندهم أن الفرق بين المدنيات المختلفة مع شـدته لا يمنع من التفاهم بينهـا إذا بلغت درجة من النمـو واحدة، وأن كثيرا من الفـروق زمنى، فبعض المدنيات كانت أسرع من غيرهـا نموا، ولمصر فضل السبق فى هـذا المضمار، فقد كانت فى طليعـة البلاد التى حاولت اللحاق بالمدنية الغربية ومن أكثرها توفيقا. وإذا كان اليابانيون قد أصابوا نجاحا أسرع، فذلك لأن مـدنيتهم تختلف عن المدنية الغربية فى تصـوراتها، وموضوعاتها، وعقـائدها اختلافـا شديـدا، فلم يقع بينهما تصادم عنيف، أما مصر فقـد كانت مسرحـا لصراع قوى بين مدنية فتيـة طاغية، وبين مدنية عـريقة وقف بها النمو زمنا، وكان لهذه المدنيـة رأى فى أكثر ما يعرض له التفكير الغربى من شئون، وكان على هذا الرأى أن ينتصر أو ينهزم أو يتحول.. وفيما فعلته مصر منذ قرن ونصف القرن درس للبلاد التى تعمل اليوم على اللحاق بالمدنية الغربية.

□

ويعرض كـامل حسين لتاريخ اتصـال مصر بالفكر الغـربى، فيذكـر أن الحدث الذى دفع مصر إلى الدخول فى التاريخ الحديث هو تلك الحملـة الفرنسية القصيرة الأمد البعيدة الأثر، ثم إننا أخذنا نجرع من الحضارة الغربية جرعـا قويا نروى به ظمأ شديدا. وأهل البدو وهـم أعلم النـاس بالظمإ يقـولـون: الجرع أروى والرشيف أنقع. وبعض خصـائص التفكير الحديث فى مصر يرجع إلى طباع فينا وبعضها يرجع إلى هـذا التاريخ، فنحن فى بلد فيه النور القوى والظل الحاد، وفيه الجدب والخصب متجاوران، ومن هنا كان ما فينا من التفكير بالنقيضين، فالقول عندنا إمـا حق أو باطل، والأمر إما خير أو شر.. ومن دقـة الحس أن نميز بين درجات من الحق والخير متقاربات، **فليس فى الحيـاة شر مطلق ولا خير بحت**. ومثل هذه الأحكـام النهائية ضعف فى التفكير، وقديما كانت الحقيقـة أمرا ثابتا ولكنهـا اليوم أمر يختلف تقديـره فنجد له أوجها متعددة تبعـا لاختلاف وجهات النظر، ومن الهرولة التى هى من الصفـات الواضحـة فى التفكير المصرى ماهو واضح من فقـدان التعاصر، فهذا مفكر ممتاز يغلب عليـه طابع المفكرين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، وهذا كاتب يغلـب عليه طابع الشعراء فى القرن التاسع عشر.

وإنى أقدر مـا أخرجه المفكـرون والأدباء والعلماء فى مصر أخيرا غايـة التقدير (والكـلام سنة اثنتين وخمسين) ولكنى أجـد فيه صفـة غـريبة، فما زال أكثـره يشبـه الأصداء تتجـاوب من مواضع مختلفة، ولا يستطيع أحد أن يجمع بين الأصداء فيجعل منها قطعة موسيقية.

وحسب المفكر أن تكون آثـاره متسقة مع روح عصره اتساقا يزيـد فى التراث الفكرى لذلك العصر، وليس عليه أن تكون أعماله من أروع الأعمال وأعظمها، فـالمجد الفكرى عند أى قوم لا يقوم على الأعمال الخالدة وحدها.

□

وفى تأبينه لطه حسين قال الدكتـور كامل: «لا يعجبنى أن أرى من كبار مفكرينا من يعكف على كتابات من هذا النوع أو ذاك (كالوجـودية) لا يصدرون إلا عن تقليد للغربيين بعد أن بين لنا طه حسين طريق الجمع بين الثقافتين».

وكان كامل حسين يرى أنه على كتابنا أن يـأخذوا أسلوب الحضارة الغربية لا مادتها، ففى عدد المجلـة «يوليو سنـة تسع وستين» بعد أن تحدث الـدكتور عن «الشعر العـربى» قال إنما دعانى إلى نشر هذه الدراسة ما دار من نقاش حول (ترجمة جوته لبعض الأبيات من قصيدة ـ تأبط شرا) «وليسمح لى أصدقائى فى المجلة أن أعتب عليهم فى أمر آخر، فيخيل إلى أنهم يمثلون فئة ممتازة من المفكرين والأدباء المجددين والتقـدميين، وعندى أن أدباء هذه الفئة على ما فيهم من مواهب ضلوا طريقهم حتى أصبح عملهم لا يفيد الثقافة المصرية المعاصرة إلا قليلا، ومنهم من يفخر بأنه يكتب عن فولتير مثلا كما يكتب الفرنسيون، وليس فى هذا فخر للمؤلف المصرى. وهذه الدراسـات فى أحسن حالاتها لا تزيد على المحاضرات التى تلقى فى الجامعـات هناك، وقد تكون فيهـا فائدة بيداجوجيـة لمن لا يعرف، ولكنها ليست مفخرة للمـؤلف عند المواطنين، ولا ترفع من قدر التفكير المصرى عند الغربيين وهم أشـد إعجابا بالمؤلف المصرى الذى يدلهم على وقع فلسفة فولتير أو شعر راسين على المصريين وأثر ذلك فى بيئة تختلف عن الفرنسية تماما.. «وعندى أن حـظ الأمة فى المجدديـن التقدميين أسوأ مـن حظها فى المحافظين الـرجعيين، وليس هناك تفاضل فى التبعيـة، والذين يتبعون سارتـر ليسوا أرقى من الذين يتبعون أسلـوب بديع الزمـان، وليسوا أكثـر منهم فائدة فى تقـدم الثقافة العـربية، وأرجـو أن أرى المجلة تـدعو إلى تأصيل الأدب فيكون قـائما على تطور صـادق، ويجب أن نقلع تماما عن التقيـد بأحدث الآراء وأحدث المذاهب الأدبيـة وأحدث الأجهزة وأحـدث البحوث العلمية التى لا تكـون لها جذور فى حياتنا العقلية». وصدق الدكتور كامل حسين.

الفصل السابع

التعاون الدولى والسلام الدولى

كان الدكتور كامل حسين من دعاة السلام العالمى، وكان يستند فى دعوته إلى تفكير جدى، وكان يلقى المحاضرات فى مركز تطوير العلوم التابع لليونسكو (بجامعة عين شمس) على الأجانب الذين يأتون إلى هذا المركز، فيتحدث إليهم عن وسائل تحقيق السلام العالمى حديثه عن الشئون الثقافية والتيارات الفكرية فى حياتنا المصرية.

وكان الدكتور كامل حسين واحدا من سبعة من كبار المفكرين فى العالم الذين دعاهم يوثانت السكرتير العام للمنظمة الدولية إلى إلقاء المحاضرات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام خمسة وستين.

وقد نشرت جامعة عين شمس الكلمة التى ألقاها الدكتور كامل حسين بالإنجليزية، ونشرت «المجلة» فى إبريل سنة خمس وستين ترجمة للكلمة قام بها الأستاذ عبد الرازق يسرى. وسنعرض فى الفقرات التالية أهم الأفكار التى ضمتها هذه الكلمة:

(١) التعاون الدولى هو العمل الإنسانى العظيم الذى حققه عصرنا، ولم يكن لغير عصرنا أن يحققه.

وهو انتصار لهيئة الأمم، فهى صاحبة الفكرة بأكملها وهو أهم طريق يبشر بالسلام العالمى، ذلك الهدف الذى افتقدته الإنسانية كل هذا الزمن الطويل ويبدو أنه أصبح الآن قريب المنال.

(٢) ثم تحدث عن المشروعات التى تشترك فيها عدة أمم وقسمها إلى ثلاثة أنواع:

(أ) **إنشاء محطات القوى الكبرى،** وهو نموذج لما ينبغى أن يكـون عليه التعاون الدولى، فنجاحها مؤكد وفوائدها لا يتطرق إليها الشك وكرامة البلاد لا تجرحها المعونة المقدمة لها بأى وجه من الوجوه، فضلا عن أن مواهب أهل البلد وكفايتها ينتفع بهما إلى أقصى حد.

(ب) **المعونة الفنية** التى تقدم للناس فى أنحـاء الأرض جميعًا، واقترح أن تترك كل منظمة رعاية المشروعات الصغيرة للسلطات المحلية، فهذا يزيد من فرص نجاحها مما يساعد على دعم الثقة فيها وهى ضرورية.

وعبر عن رأيه فى أن تعطـى الأسبقية للمسائل التى حلـت عقدتها علميا، وضرب المثل لـذلك برأيه فى مقاومة الأمراض.

ونبه على تجنب النتائج السريعة، ودعا إلى اتباع سياسة طويلة المدى. أما الأمم التى استقلت حديثا، فالجامعة أمر حيوى بـالنسبة لها، فهى تواقة إلى تعلم العلوم وإلى تنمية تكنيك التفكير العلمى، وهذا ما تحققـه الجامعة، بالإضافة إلى توفيرهـا عددا ضخما من أصحاب المهن الحرة لاسيما التعليم.

وتطـرق بـه الحديث إلى البحث العلمى، فـذكـر أن البـاحثين فى مثل هذه الـدول حـديثـة الاستقلال محتاجون إلى المعونة الدولية للحصول على الأجهزة غالية الثمن حتى يؤدوا دورهم على وجه مرض.

ثم تحدث كامل حسين عن الأنماط السيكولوجية فى تصنيف الأعمال الإبداعية وهو حديث أفردنا له موضعًا آخر من هذا الباب (فى الفصل السابع عشر).

وينبغى أن يخلو التعاون الفكرى من كل أثر للتحيز، وقد أشار البعض إلى أن التاريخ يمكن أن يكتب بطـريقة لا تبرز الصراع بين الأمم وهــى فكرة ممتـازة، ولكن مثل هـذا التاريـخ قـد لا يستسيغه أحد، فالثقافة لن تكون لها قيمة ما لم تكن شخصية بوجه ما.

(جـ) **المعونات لإسعاف المنـاطق المنكوبة:** وعنده أنـه لم يحقق النتائج المنتظـرة منه بسبب الألم النفسى. والواجب فى مثل هـذه المعونات «أن تكـون طبيعية جدا إسهـاما فى إيجاد إحســاس عام بـالخير فيقتنع النـاس بأنهم يعيشون فى عـالم طيب يتعـاون فيه النـاس وقت الشدائد». وهذا يـؤدى إلى إحساس عالمى أفضل بكثير من عرفان الجميل المحـدود الذى يقوم بين أمتين.

(٣) وتحدث عن **الأثـر المتبادل بين العلـم والتعاون الـدولى** فقال: إنـه لولا استخـدام

الأسلوب التكنـولوجى الحديث على أكمل وجه ما أمكن أن ينشأ التعـاون قط، وكذلك فإن العلم قد أفاد من التعـاون الدولى، إذ زادت ثقة الناس به لما أصابه من نجـاح، والعلم بطبيعته عالمى، وليس هناك مـن شىء يضارعه فى قـدرته على تحقيق التفـاهم الدائم بين النـاس على اختلاف مشاربهم، وكلما ازداد انتشاره وتغلغل فى حياتنا ازداد التفاهم بين الناس. «ومن سوء الحظ أن وجهة النظـر الداعيـة إلى نشر العلم لا تؤيـدها الأمم جميعـا، فالسيـاسة التى تبـدأ بالخلاف وتنتهى بالتراضى لا يتوقع من أصحابها مشاطرتنا، فالساسة لا يرون العلم إلا وسيلة لإيجاد القوة التى يمكن أن يستخدموها أو أن تستخدم ضـدهم، وهم لا يكادون يهتمون به باعتباره أحسن وسيلة لتحقيق التفاهم العالمى».

«ولا داعى لبناء سياستنـا على الفرض القائل بأن الطبيعة البشريـة لا تنطوى على مبادىء سامية صالحة للاستعمال العالمى، فليس هناك من عيب فى الطبيعة البشرية وإنما مأساتنا أننا لم نستطع أن نبتكر نظـاما اجتماعيا سيـاسيا يـرفع مستوى الأخلاق الجماعيـة إلى مستوى الأخلاق الفردية».

(٤) وهناك مجمـوعتان من الالتـزامات تتحكم فينـا: الأولى التزامـاتنا تجاه الـدين وكبار المصلحين بأن نسمو على ما بقى فينا من غرائز، والثانية التزاماتنا تجاه المجتمع وهى التزامات عملية محضة لا تهتم إلا قليلا بالأخلاق والضمير، وعندما تتصارع هذه الالتزامات فإن أغلبية الناس تفضل أن تطيع التزاماتها الاجتماعية وإلى هذا يرجع سلوك المجتمعات، فهى لا تتأثر إلا بمصالحها الذاتية كما تعبر عنها الالتزامـات الاجتماعية. «وسيطرة الالتزامات الاجتماعية على الناس من القوة بحيث إنها تحول أفضل غرائزنا إلى حوافز قوية للنزاع المرير. وإنه لمن المحزن التفكير فى أن أنبل الطوائف البشرية ـ وهى عاطفة التضحية بالنفس لإنقاذ الآخرين ـ تعبر عن نفسها بقتل الآخرين ممن يجيش فى صدورهم نفس هذا الشعور النبيل».

(٥) ثم فـرق بين «منع الحرب» و «إقـرار السـلام»، فقـال: إن الأول سيـاسى والثـانى اجتماعى سيكولوجى، وقد نجحت الأمم المتحدة فى الأول «ولم تنشأ أية نظرية سياسية جديدة خاصـة بمنع الحرب اللهم إلا فكرة قوات الطـوارىء الدوليـة ولكنها ليست وسيلة عـالمية لمنع الحروب جميعا.. ومـازالت النظريات السياسيـة القديمة الخاصة بمنع الحرب تخامـر أذهان الناس برغم أنه من الواضح أنها قد أخفقت».

(٦) وتعرض للحـديث عن «تـوازن القوى» (وقد ذكـر من قبل أنـه أكبر مقومـات نشوب الحرب) فقال: إن اختراع سلاح جديد أقوى من سواه كان كافيا لإقناع إحدى الدول بأن الميزان

مال لصالحها فكانت الحرب لظاهرة العدوان تعلن لأتفه الأسباب حتى يضمن المتفوق الفوز.

(٧) وعن فكرة «الأمن الجماعى» التى سيطرت على التفكير السياسى فترة من الزمن قال: «إنها أدت إلى نتيجة واحدة هى إقحام عدد من الناس أكبر من ذى قبل فى المعركة».

(٨) أما الدعوة إلى «نزع السلاح» فإنه «لا يمكن أن يكون مقدمة للسلام فى نظر الرجل العادى، والمشكلة القديمة تتلخص فى أنه إذا كانت لديك الثقة فلا لزوم لأن تنزع سلاحك».

«ومعاهدة التجارب النووية المحدودة هى القشة التى تبين الاتجاه الذى ينبغى أن تكون الريح آتية منه لا أكثر، غير أنه لسوء الحظ لا يمكن حتى التسليم بأنها تبين من أين تهب الريح بالفعل».

والحقيقة أن نزع السلاح لا يمكن اتخاذه نقطة البدء فى حملة من أجل السلام العالمى، وإن كان سيتحقق بطريقة طبيعية عندما تتوطد أركان السلام.

(٩) وأما التسامح فلم يعد «يصلح أساسا للمودة بين الناس، فهو يعنى ضمنا أن كل جانب يعلم علم اليقين أن الجانب الآخر مخطىء ولكنه مستعد أن يتغاضى عن هذه الحقيقة ويتحملها».

وعبر عن أمله فى «أن تكون هناك ثقة متبادلة بين الناس أكثر كثيرا من مجرد التسامح»، «ومعرفتنا الآن بالأجناس والثقافات كافية لإقناعنا بأن هناك رجالا مستقيمين معقولين لهم مبادىء سامية فى كل مكان».

«وهناك طرق كثيرة تؤدى للكمال والاستقامة اللذين ليسا حكرا خاصا بأى جنس أو ثقافة».

(١٠) ولو درسنا التمييز «دراسة تحليلية لتبين لنا أن أسبابه ليست غائرة الجذور على الإطلاق، بل إنها سطحية جدا».

«واختلاف التقاليد والعادات وآداب المائدة والثياب كثيرا ما تسبب الشعور بالتميز وكثيرون لا يطيقون مثل هذه الخلافات».

ثم عبر عن رأيه فى التمييز، فقال إنه «ليس هناك إلا تصنيف واحد للناس، فهناك الطيبون الذين يحبون ويساعدون، والخبيثون الذين يكرهون ويؤذون، ولو أن نظامنا الاجتماعى كان أفضل ما وجد من الخبيثين إلا عدد قليل».

(١١) وعاد إلى الحديث عن فكرة توازن الرعب وسياسة الردع فقال: «وقد يكون صحيحا

أن الخوف من الحرب النووية منع وقوعها ولكن كم كلفنا ذلك من ثمن؟ إن الجنس البشرى لا يمكن أن يعيش دائما تحت سيف التهديد بالإبادة فى ربع ساعة».

(١٢) وتوجه إلى السياسيين بالحديث معبرا عن أمله فى أن يخففوا حدة التوتر العالمى السياسى حتى يمكن تحقيق التعاون، وأن يتجنبوا المصادمات حتى يستقر السلام.

(١٣) وتنبأ بأنه بعد عشرين سنة سيكون التعاون الدولى قد تطور إلى زمالة بين الأمم فى كل ما هو عظيم وجدير بالاهتمام والعمل الاجتماعى، وسيكون الأمر فى العمل للكفاية لا لجنس القائمين به فى المقام الأول، ولن يحدث ذلك حتى يتعاون الناس على العمل المجدى الناجح.

(١٤) وختم تلك الكلمة القيمة بقوله: «ألا نستطيع أن نعمل على تحقيق صورة المستقبل هذه؟ ونحن نكل إلى من واجبهم منع الحرب هذا الأمر، أما نحن أنصار التعاون الدولى فسنكرس جهودنا لتعهد سيكولوجية السلام».

الفصل الثامن

الإيمان بالله
ومعنى الشرك

سنتناول فى هذا الفصل آراء الدكتور كامل حسين التى وردت فى :

(١) «قرية ظالمة» فى (موعظة الجبل) .

(٢) «الذكر الحكيم» فى فصلى التنزيه، والشرك .

□

أكبر أركان الإسلام فى نظر الدكتور هو تنزيه الله، وهو أعظم ما يفرقه عن الأديان الأخرى حتى ما كان منها قائما على كتب منزلة. وفى فصل طريف من كتابه الذكر الحكيم يتناول علاقة اليهود بالله، فيذكر أن فى العهد القديم عبارات غريبة يعبرون بها عن بعض ما كان بين الله ونبيه موسى من حديث، وفى هذه العبارات تعارض صريح مع التنزيه. ويتناول علاقة المسيحيين بالله حين قربوا الله منهم بالتجسد، وقربوا أنفسهم من الله بتقديس التجسد، وأن الله افتدى خطيئة آدم وأبنائه بما تعرض له المسيح من عذاب، وأن هذا العذاب من أجلهم، يستحق منهم العبادة، وهم يعتقدون أن حبهم للمسيح يجعلهم يحبون من يحبهم المسيح، وهم الناس جميعا وأن الله يتألم حين يرتكب العبد ذنبا أو خطيئة.

ثم يعلق الدكتور على هذه العقائد من منطق إسلامه فيقول:

«ولكن المسلمين لا يستطيعون أن يقروا المسيحيين عليها لسبب واحد، هو أنها تتعارض مع

التنزيه الواجب عليهم لله، وكل ما يمس التنزيه من قريب أو بعيد يعد عندنا شركا، وهو ما لا يغفره الله أبدا». ويستلفت الدكتور نظرنا إلى معنى إسلامى سام، يتعلق بتنزيه الله حيث يقول: «والمسلمون يقولون إن الإنسان يستطيع أن يسمو إلى أعلى الأخلاق فى ظل التنزيه، وأن الله وهو فى أعلى عليين ليس بعيدا عن الناس، فهو يصل إليهم بالوحى، وهم يصلون إليه بالصلاة والدعاء»، هذا المعنى الإسلامى العظيم نجده فى قوله تعالى: **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾** (البقرة: ١٨٦).وهكذا فإن «السمو النفسى يتحقق فى ظل التنزيه بالطاعة المطلقة، والتنزيه نفسه يجعل انطلاق النفس الإنسانية إلى الخير أقرب وأسهل».

ويرى الدكتور أن التنزيه يحتم علينا أن نفسر الآيات التى ينسب فيها إلى الله ما فيه إيذاء للناس على أنها أسلوب القرآن الخاص، وأن العقاب ينزل بالمذنب نتيجة طبيعية للذنب، وأن الشر من عمل الناس لعصيانهم، والله يهدى إلى الخير دائما ويثيب عليه من هم أهل للثواب.

□

وفى فصل له عن الشرك فى كتابه (الذكر الحكيم) يفرق الدكتور كامل حسين بين نوعين من الشرك:

(١) الشرك بمعنى أن يجعل الناس لله أندادا يعبدونهم من دونه أو معه، سواء كان ذلك أصناما أو قوى طبيعية، أو حيوانات، أو بعض الناس، وهذا النوع من الشرك بدائى وعنده أنه لا يلبث أن يتخلص منه الناس حين يرقى تفكيرهم عن البدائية، ولو قليلا. وهذا الشرك لا نراه اليوم إلا نادرا، وإذا قيل إن بعض الناس لا يزال يعبد البقر فهذا تجوز فى التعبير، فهم لا يعتقدون أن البقرة خلقت الكون ولا يلتمسون منها الهداية، وإنما يكرمونها لصفات يرونها فيها كالوداعة، والخاصة منهم يأنفون أن يؤذوا حيوانا مسالما كالبقر كلها خير للإنسان.

(٢) الشرك بأن يضع الإنسان شيئا معنويا كان أو ماديا فوق أوامر الله: وهو يحدثنا عن الأوثان فى موعظة الجبل، فيقول على لسان أولئك الذين عاشوا منذ عشرين قرنا وكأنه يعبر عما يعبده الناس فى زمننا: «فمن الأصنام التى سيعبدها الناس، ويقدمون حياتهم قربانا لها: المبادىء: الكرامة، القومية، الوطنية، الولاء، الحرية، الشجاعة، التضحية، الصالح العام. وستبلغ بهم عبادة هذه الأوثان أن يقتلوا أنفسهم دفاعا عن أعلام جيش، أو حدود دولة، أو ردا

لكرامـة ملك، وقد لا يكون فى عبـادة هذه الأوثـان ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمـر الله، وعند ذلك يكون الخضوع لها، وعبادتها من دون الضمير كفرا أو شركا وضلالا».

وهو يقـول: إن من يعبد الدين نفسـه عبادة تحمله على أن يتخطى حـدود الضمير فيؤذى الناس فى سبيل حماية الدين، يكون قد أشرك بالله، وسيضل الناس حين يعتقدون أن الجماعة أعظم من الفرد، وأن خيرهـا أعظم من خير الفرد، وأن نفعها يسوغ الإغضـاء عن ضمير الفرد، وإنما الجماعة صنم يدعوكم إلى عبادته مَنْ تنفعه هذه العبادة، يزينون لكم أن الجماعة تسعد وإن لم يسعد أفرادها، وهو وهم يقول بـه مَنْ يعنيه أن يشقى عدد كبير من الناس ليسعد عدد قليل منهم. «إن الصـالح العـام لأخطر الأوثـان وأشـدها ضررا حين يعبـد فيطغى على أوامـر الضمير».

والشرك على الصورة الثانية منتشر جدا، بل لعله يـزيد انتشارا بين المعاصرين، ومن أمثلته وضـع العدالة الاجتماعيـة فوق أمر الله بعدم القتل، وقتل الأبـرياء فى سبيل تحقيق مجد أمة أو ثرائها، أو رفع مستوى معيشتها.

«والذين يقتلون غيرهم فى سبيل القضاء على الهرطقـة لن يغفر الله لهم، ذلك لأنهم يدعون أنهم يعـرفـون من الحق مـا لا يعـرفـه إلا اللـه، وكم من فئـة ظنت نفسهـا على الحق، وقتلت مخالفيها، ثم تبين بعد ذلـك أنهم هم الضالون. والقتل حقيقة واقعـة يحرمها الله ولا يجوز أن نفعل حقيقة واقعة محرمة فى سبيل نصر فكرة لا سبيل إلى الجزم بـوجه الحق فيها، ولو كانت حقا مـا جاز لأحد أن يخالف أمر اللـه فى سبيل تحقيقها». وهذا هـو الفهم الحديث للشرك عند الدكتور كامل حسين.

ثم يبحث مفكرنا فى علة مـا يقرره قوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرَك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** (النساء: ١١٦)، فيرجع سبب ذلك إلى أن الله لا يريد منا إلا التقوى، وهو يستنتج ذلك من قوله تعالى: **﴿لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾** (الحج: ٣٧)، والشرك فيه مساس بالتقوى، والتنزيه الواجب لله علينا يمنعنا أن نعتقد أنه يكره منا الشرك من حيـث إن فيه مساسـا بعظمته وإنما يكـره منا الشرك لما فيه مـن أذى يلحق بنا لشركنا»، ثم يقول الدكتور: «وقد يعترض على ذلك بقوله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** (الذاريـات: ٥٦)، ومن الواضح أن الـلام هنا للغـاية لا للسببيـة، والله حين خلق الكون فأحسن خلقـه أراد أن يجعل من مخلوقـاته من يـدرك جمال هذا الخلق وحكمتـه وهو الإنسـان، ومن تمام الكمال فى الخلق الكـونى أن يكـون فيه من يـدرك جمالـه». ولاشك فى أن

التعليل الـذى أورده الدكتور لعقـاب الله على الشرك تعليل منطقـى مقبول، ولكن هنـاك أمورا كثيرة فيها مساس بـالتقوى دون الشرك يغفرها الله، وعلى هذا فليس مســاس الشرك بالتقوى هـو الذى يجعل اللـه لا يغفـر أن يشرك بـه، وإنما السبب فى ذلك غير هذا، وقـد لا يكـون ذلك السبب إذا أردنا الدقـة فى التعبير، إلا (الشرك بالله) نفسه وليس هـذا من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء.

□

ثم يتعرض الـدكتور لعقاب الله على الشرك فى الـدنيا (وأفكاره هنا هى صـدى أفكاره فيما يتعلق بالجزاء) فيقول: «فالله لا يعاقب فى هذه الدنيا على الشرك إلا بنتائجه الطبيعية من فساد الحال النفسية، وفســاد العلاقـات بين الناس بعضـهم وبعض لأن مخالفـة التراحم بين الناس نـوع من الشرك يؤدى إلى التبـاغض والشحناء». والتنـزيـه والتوحيـد (وهما الأمران اللـذان تعرضنا لهما حتى الآن) «عاملان قويـان جدا فى اطمئنان النفس الإنسانية». والمغزى النفسى لقوله تعالى **﴿إن الله لا يغفر أن يشرَك به﴾** (النساء : ٤٨) أن يروض كل إنسان نفسه على أن يظل فى حدود أوامر الله الواضحة المحكمـة ولا يدع لعمل ما أن يجعله يتعدى هذه الحدود فإن اضطر إلى ذلك بـدافع من منفعة عاجلـة فليطمئن إلى أنه قد ينجـو من أثر هذا الـذنب، إذا كان مطمئن النفس مستقرا فى إيمانه بالله ولا يتم له ذلك إلا بالتوحيد والتنزيه».

الفصل التاسع

الإيمان بالتنزيل وباليوم الآخر

□□ الإيمان بالكتب السماوية:

عـرف عن الدكتـور كـامل حسين رده الأمور إلى أصـولها الطبيعيـة حتى إنه كـان يفضل التفكير بهذه الطريقة العقلية على المنطق. ومن الطبيعي أن ننتظر ممن يفكرون بهذه الطريقة أن يقولوا عن كتب اللـه المنزلة إنها غير طبيعية، فيذهبون بـذلك إلى إنكار الكتب السماوية، مع أن الإيمان لا يتم إلا بها، إلا أننـا سنجد الـدكتـور كامل حسين في الفقـرات التاليـة مـؤمنا حقـا بالتنزيل، وصاحب نظـرية واضحة وواثقة تدعو إلى الإيمان باللـه لأنه أمر طبيعي فهو يجعل الإيمان بالتنزيل حدا فاصلا بين نوعين من التدين نوع لا يعرف التنزيل ولا يدعيه، ونوع آخر يقوم أصـلا على الإيمان بالتنزيل. والفـرق بين هذين النـوعين من التدين عنده «جـوهرى من حيث أثر كل من العقيدتين في النفس الإنسانية».

وهو لا يعد الأديان التى لا تقوم على التنزيل أديانا، بل «يصح أن تسمى مذاهب عقائدية». وانفراد الأديـان المنزلة وحـدها بأن أملت على البشر حقيقـة الغيب هو الذى جعل هـذه الأديان ترتفع إلى أرقى تطورات الفكر الدينى، حيث جعلت لله التنزيه التام وجعلته هاديا لنا.

ثم يتناول الدكتور أثر الإيمان بالتنزيل في العقيـدة، فيذكر أنه هو السبب في أن أهل الكتاب «أرسخ عقيدة وأوسع أفقا من غيرهم من أصحاب المذاهب التى لا تقوم على التنزيل». والإيمان بالتنـزيل أمر طبيعى عند النفـوس المهيأة له وهـو خير وسيلة تؤدى إلى اطمئنـان النفوس من حيث إن مصدر العقيـدة هو صاحب الغيب»، «وهـذا الاعتقاد يذهب بـالقلق النفسى وهو لب الأديان الذى تقوم عليه».

وهكذا يثبت الدكتور أن الإيمان بالتنزيل أمر طبيعى لأسباب ثلاثة:

(١) إنه غاية التطور فى التفكير الدينى الذى يبدأ بالخوف والرهبة من الظواهر الطبيعية ثم لايزال الإنسان يرقى فى تفكيره الدينى حتى يبلغ غاية التنزيه والتوحيد للمعبود الأعلى الذى لا يتصل بنا بحكم تنزيهه إلا من طريق التنزيل من جهته، والعبادة، والدعاء من جهتنا.

(٢) إنـه يحقق جـزءا مهما مـن حيـاة كل إنســان، فحيـاة الإنســان طبقــات لكل طبقـة خصـائصـها:

فالطبقة الحيوية البحتة لا يختلف فيهـا الإنسان عن غيره من الحيوان، إلا أننا أكثر تعقيدا وأصعب تحليلا وخاصة فيما يتعلق بجهازنا العصبى.

وطبقة الحياة الإنســانية الدنيا، وهى التى تتناول علاقــة الإنسان بما يحيط به وبغيره من الناس، ومـا ينفعنا ومـا يضرنا، وكيـف نسيطر عليها، هــذه الطبقة يتنـاولها الذكـاء، والعقل، وكلاهما فيه مـا يؤهله لذلك. وبـرهان الصدق فى هاتين الطبقتين يقـوم على المشاهدة والخبرة والمقارنة.

أما الطبقة الثالثة وهى الإنسانيات العليا كالإيمان والحب والفضائل، فمنها ما هو منطقى، وماهو نافع، ولكن العقل والمنفعة لا يصلحان مصدرا لهذه الإنسانيات العليا، «ولا نزاع أن خير سند لها أن تكون صادرة من قوة عليا مـريدة تهدينا إلى الصواب فى هذه الأمور، ومن الصعب أن نتصور صدورها عن غير هذه القوة» وهذا السند يتمثل فى التنزيل.

(٣) إنه هو الوسيلة الوحيدة لمعرفتنا الغيب على نحو ما قدمنا فى فقرة سابقة.

□

ويرد الـدكتور الصعوبة التى يجدهـا الناس فى الإيمان بالتنزيل إلى سـوء فهم التنزيل على حقيقته، فـالناس يودون أن يعرفـوا كنه ما يؤمنـون به، فبعضـهم لا يرى فى نفسه حـاجة إلى الإيمان بالتنزيـل، وغيرهم يمارون فى معرفة صفة التنزيـل الحق، ولا يجدون معيارا يقيسون به الصدق والكذب فى أمر التنزيل. «على أن عجزنا عن فهم كنه التنزيل وطريقته يجب ألا يمنعنا من الإيمان بـه، فنحـن لا نفهم كنـه النـور أو الحرارة، ولا يمنعنـا ذلـك من الاستمتـاع بهما والاطمئنان إليهما».

والإيمان بالتنزيـل كل لا يتجزأ: «والذى يؤمن إيمانـا حقا بالتنزيل يجب أن يؤمـن به كله، والشك فى ما أنـزل على أحد من الأنبيـاء يدعـو إلى الشك فى التنزيل كلـه. فالكتب المنـزلة التى تصدر عن وحى من الله يجب أن تعد صادقة».

«والكتب المنزلـة لا يمكن أن يكون بينها تناقـض، فإذا كان بها خلاف، فهذا يـرجع إما إلى الصفات العقلية عند من أنزل عليهم الكتاب، وإما إلى تحريف فيها وقع عمدا أو عن غير قصد».

□□ الإيمان بالآخرة :

يجعل الدكتور الإيمان بالآخرة نتيجة حتمية للإيمان بـالتنزيل، «والذين يؤمنون بالتنزيل يؤمنـون بالآخرة حتما لأن الكتب المنـزلة كلها تـؤمن بالبعث». والمؤمن بعد ذلك عنـده حر فى اثنين: فى النحو الذى يرتضيه عقله للإيمان بـالآخرة، وفى تصوره للآخرة. وهو يجعل المقياس فى هذين نفسيا:

□ «الإيمان بالآخرة يصح أن يكون على أى نحو يرتضيه عقل المؤمن».

□ «ووصف الحياة الآخـرة تفصيلا إنما هو تقـريب لها من أذهان النـاس، والحديث عنها يقوم على ما تستطيع فهمه من أمرها وليس حتما على المؤمن أن يتصورها كما يتصورها غيره، بل عليه أن يتصورها كما تهديه إليه نفسه وعقله».

□

وهكذا نستطيع أن نجد كامل حسين وقـد اكتمل لديه الفهم العقلى والعلمى الكامل لجوانب الإيمان كما يحددها الدين الإسلامى، وهو يصدر فى كل مـا يقدمه لنا من فكر عن إيمان عميق يجتمع إلى تفكير سليم وإدراك صـائب لكل حقائق الحيـاة والتاريخ والنفس البشريـة، وهو لا يبشر بأفكاره حين يقـدمها لنا على هذا النحو المتكـامل، ولكنه يعيد تقديـم حقائق الإيمان بلغة العصر الحديث حيث وصل الفكر الإنسانى إلى مـدارك متقدمة فى الحكم على الأمور، وليس من شك أن كامل حسين قد قدم بـافكاره التى تعرضنا لها فى الفصول السابقـة زادًا فكريًا متميزًا للبـاحثين عن الحق. وسوف نجـده فى الفصل التـالى يخطو فى نفس الاتجاه خطـوات متقدمـة ورائدة وهو يتناول فكرة النبوة من زوايا جديدة وبرؤى مستنيرة وواثقة.

الفصل العاشر

النبـــوة

فى حديثه عن الإيمان بـالتنزيل ذكر الدكتور كامل حسين أن عجب النـاس لنزول التنزيل على رجل منهم لا يختلف فى ظاهر أمره عن غيره ممن حوله، هو ما حدا بالناس إلى عدم تصديق الأنبيـاء. «والـواقع أن الفـرق بين الأنبياء وغيرهم فـرق كبير وعميق يقـوم على أن النبى فيـه استعـداد نفسى خاص لتلقى أمـور الغيب، والأنبياء يتأثـرون بـه أكثر مما يتأثر بـه عامـة النـاس»، والأمر فى ذلك كـالأمـواج الأثيريـة لا يدركهـا إلا جهـاز استقبال خـاص يحولها إلى مسموعات ومرئيات. والأنبياء يتلقون الأوامر العليا ثم يحيلونها إلى أقوال وأعمال يدركها عامة الناس فى سهولة. وعندما عرض الدكتور (قصـة الذبح) فى كتابه الذكر الحكيم قال: إن المغزى التنزيلى لهذه القصة أنها تدل على صفـات النبوة فى أرقى مظاهرها دلالـة بسيطة، عظيمة الأثر فى النفس. وفسر ذلك فأعطى بتفسير تعريفه الكامل للنبى حيث يقول:

«فالنبى رجل فيه من سمـو النفس وصدق الإيمان، ما يجعله على ثقة تـامة من أن خلجات نفسه لا تكون إلا عن وحى من الله، وأنها لا يمكن أن تكون إلا خيرا وإن خفيت علينا حكمتها، هذا الإيمان بأن الشر لا يجوز عليـه هو سر النبوة من حيـث هى صلة بين الله والنـاس، وهذه الثقة بأن نفوسهم أكبر من أن يقع لها الشر وهو الـذى يحمل الأنبياء على الاعتقاد بأن رؤياهم وإحساسـاتهم تصدر عن وحى من الله، فإذا شـاب هذه الثقة شائبـة من شك سقطت النبوة عمن يعتريه مثل هذا الشك وأصبح كغيره من الناس، وتذهب عنه ثقة الناس به، وهذا ما يحدث

فعـلا لأصحاب الـدعوات الكـاذبة حتى حين يكـونون من أفـاضل الناس وحتى حين تكـون دعوتهم صالحة».

□

ويتحـدث كـامل حسين عن إبـراهيم عليـه السـلام من حيث هـو عنـوان النبـوة فى أرقى مظاهـرها، فيقـول: «إبراهيم الخليل مثل أعلى لـلإنسانيـة من حيث هو عنـوان النبوة فى أرقى مظاهـرها، يعرف من الخير ما لا يعـرفه الناس وهو أبـو الأنبياء، كما كان أبا لأكثـرهم نسبا، وليس ما يمنع أن تكون طهارة النفس شيئا يـورث ويكتسب، وإذا كان إبراهيم فى قصة الذبح هذه مثـلا أعلى للنبوة من حيث هى طـاعة مطلقـة لأوامر اللـه فإن إسماعيل يمثل غايـة الثقة بصدق الأنبيـاء، فهو لم يخضع لأمر أبيـه لعلمه أنه نبى طـاهر، والناس إذا شكـوا فإن الكدر العالق بـالنفوس البشريـة يدفعهم إلى أن ينـزلقوا إلى الشر. والذى يجب أن نتـدبره هـو موقف الناس الذين يمثلهم إسماعيل فى هذه القصة، مـن نبى لا شك فى طهارته وصدقه يهم أن يعمل عملا تأبـاه عقولهم وطبعهم، كما هو الحال فى ذبـح الابن. هنالك تعترى الناس حيرة شـديدة حين يرون نبيا لا شك فى نبوته يعمل عملا لا شك فى بعده عن العقل. هل تكون النبوة الصادقة أصلا ويكون كل مـا يصدر عنها صوابا أو خيرا، فإن لم يكن فى ظاهـره كذلك وجب تأويله، أم تكون أعمال النبى هى برهـان نبوته إذا كانت بعيدة عن الخير كان للنـاس أن يشكوا فى صدق نبوته؟ هذه مشكلـة تثيرها قصة الذبيح، وقد خرج القدمـاء من ذلك باعتقادهم أن النبى يثبت صدق نبوته حين يأتى بأعمال خارقة لا يستطيعهـا غيره، وأنه متى ثبتت هذه النبوة بما يأتيه من معجـزات وجب تأويل كـل عمل يعملـه على أنـه خير لا نـزاع فيـه، ولكن كثيرا من النـاس وخاصة المحدثين يجدون هذا التأويل صعبا عليهم لبعده عن تفكيرهم وعقولهم».

□

«وكأنى بإسماعيل كـانت عقليته من النـوع الأول رأى أن يصدق أبـاه فيما أمره اللـه وأن يخضع لهذا الأمر. ولو كان من المحدثين لثار وغضب وقال لأبيه: إن ذلك لا يمكن أن يكون أمرا من الله بل هـو أمر كله شر، وإن تنفيـذه يشوب نبوتـه. والمشكلة على هذا النحـو خطيرة جدا تعرض على نحو مـا لأكثر الناس، وإن لم تبلغ من الوضوح ما تـراه فى هذه القصة، وقليل من

الناس من لهم طهارة نفس تقرب من طهارة إبراهيم، وقليل من الناس من تبلغ حسن نيتهم ما بلغه إسماعيل، وما يحدث للناس فى الحياة المألوفة أقل حدة من ذلك، وإن كان الجوهر واحدا، هذا الوجه من قصة الذبح هو الوجه الإنسانى العام، وخلاصة البحث إلى أى مدى يجوز للرجل الطيب أن يطيع ما يظنه أمـر الله حين تكون الطاعة مصـدر ألم وأذى لغيره من الناس؟». وقد استطردنا فى الاستشهاد بكلام الدكتور كـامل حسين إلى هذا التساؤل لأن إجابته عليه تتصل اتصالا مباشرا بفهمه للنبوة، أما جوابه فهو:

«إنه لا يجوز للرجل الطيب أن يتخطى حدود الخير كما يوحيه إليه ضميره، وإن ظن أن هذا من أمر الله، فالله لا يأمر إلا بالخير، ذلك أن أحدا من الناس لن يكون فى طهر إبراهيم، ولا أظن أحدا حتى من كبـار الصـالحين من يؤمن بـأن دوافع عمله لا يتطرق إليهـا الشك، فإذا شابت نفس الإنسان شـائبة من الشك مهما تكن صغيرة فعليـه أن يعلم أنه لم يعـد خليقا بـالثقة فى نفسه، وليعلم أن ما يظنه أمرا من الله لا يمكن أن يكون حقا إذا خالف ضميره».

«والرد على هذا التساؤل : متى يجوز للرجل الطيـب أن يتعدى حدود الخير فى سبيل إطاعة ما يظن أنه أمـر الله؟ الرد على ذلك أنه لا يجوز ذلك لأحد إلا أن يكون نبيـا معصوما لا يتطرق إلى قلبه الشر بحال من الأحوال»، وهكـذا تجده بعد هذا الحوار الممتع **يثبت للنبى ما لا يثبته لغيره من البشر من تعـدى حـدود الخير فى سبيل إطاعـة مـا يظن أنـه أمر اللـه**، وهذا الاختصـاص ليس مرجعـه إلى كون النبى (نبيـا) فحسب وإنما إلى صفات فى النبى لا يبلغهـا البشر الآخرون فى نفوسهم.

الفصل الحادى عشر

القـــــــرآن :

سنتناول تحت هذا العنوان بإذن الله عـرض آراء الدكتور فى القرآن وإعجازه والتى وردت فى مواضع كثيرة:

□ الفصل الأول من الجزء الأول من المتنوعات وعنـوانه «القرآن». وقد كتبه الـدكتور كامل حسين بالفـرنسية عام ١٩٣٣ لما رغب إليـه أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصريـة، وكان فرنسيا، فى تفهم الأثـر الذى للقرآن فى المسلمين، إذ لم يتبينه عنـد قراءته مترجما، فلما أدرج الدكتـور هذا الفصل فى المتنوعـات طلب إلى القارىء أن يـذكر أن الحديث إلى غير مسلم وأنه قصر بحثـه على الناحية الأدبية الموضـوعية التى يستطيع أن يسلم بها غير المسلم.

□ «إعجاز القرآن» وهو فصل فى كتاب الذكر الحكيم.

□ «التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء» وهو الفصل الثانى من الجزء الثانى من المتنوعات، وقد أعاد الدكتور نشر هذا الفصل فى كتاب الذكر الحكيم.

□ فصل «الدعوة إلى الإيمانْ».

□ فصل «الأمثال».

□ فصل «المحكم والمتشابه».

□ فصل «قصة الذبح».

والفصول الأربعة هذه ضمها كتابه الذكر الحكيم.

وللدكتـور كامل حسين فى تفسير الإعجاز القـرآنى نظرية سماهـا (قوة التعبير) يعنى بها «تلك القوة الخاصـة التى تكون للألفـاظ أو العبارات، والتى لا تأتيهـا من ذات الألفاظ ولا من المعنى، وإنما تأتيها من المطـابقة بين العمل الفنى وبين مـا يعبر عنه». والدكتـور يدلل على أن الإيمان لم يكن سببا فى الإعجاب بـالقرآن، وإنما كان الإعجاب بـالقرآن سببا فى إيمان من آمن وحيرة من كفـر. ويرد الـدكتـور على العيـوب التى وسم بها (كارليل) القـرآن ــ وهى نقص الترتيب» وأنه لا يسير على نظام منطقى معقول، وانعدام التسلسل الفكرى المنظم فيه، والتكرار الذى لا غـاية له ــ فيقول: إنه ليس فى العصر الجديـد من المنطق أو الذكـاء ما يزيـد على ما فى القرآن، أمـا هذه النظرة عنـد هؤلاء المفكرين فمـردها إلى طبع المفكرين فى القـرن التاسع عشر، وطبعهم خير أمثلـة «التركيـز الـذاتى»، فطبيعــة عملهم محدودة، أمـا عصر القـرن العشرين فالتفكير فيه يغلب عليـه طابع النسبية، وبهذا فستزول هذه التهمة عن القـرآن (وهو ما حدث بعد ذلك).

والقرآن بعد ذلك وقبله تعبير تام كامل عن «الروح العربى البدوى الصحراوى»:

(١) فمن ناحيـة الزمن: حياة الصحراء بطيئـة بطبيعتها والسرعة فيها غير طبيعيـة، وكلنا نشعر بأن القرآن أجمل ما يكون حين يقرأ مرتلا على مهـل، ولو قرىء قراءة صامتة سريعة ما استطاع القارىء أن يستوعب كل أثره فى النفس. وكلنـا نرى الخطباء يتدفقون فى خطبهم حتى إذا ما اقتبسوا آية من آيات القرآن وجـدوا أنفسهم مضطرين إلى الإبطاء حتما حتى يتم للآيات كل رونقها.

(٢) وهناك صفة زمنيـة أخرى تحتاج إلى إيضاح هى أن الزمن لا يمر بـالإنسان على حال واحد، ولعل أطـول وقت فى حياة الصحراء هو الـذى يقضيه المسافـر قبل أن يصل إلى المنعرج التالى، على حين أن الرحلة الطويلة فى مجموعها سهلة الاحتمال.

والقرآن فيه من هـذه الروح الشىء الكثير، فهو كتاب كبير وفيه آيـات كثيرة يشبه بعضها بعضا، وهو مع ذلك سهل الحفظ، والـذين حفظوه حرفا حرفـا كثيرون، ولم يتهيأ لكتاب آخر مهما يكن فيه من التنسيق والترتيب أن يحفظ بهذه السهولة والدقة.

(٣) «ومن صفـات الصحراء أن طـرقها تعلـو وتهبط وتلتوى وتستقيم وأهلهـا مع ذلك لا يضلون الاتجاه الذى يسيرون فيه، وتراهم أحيانا يحيدون عن الدرب الواسع إلى دروب ضيقة هى أهـدى لهم إلى غايتهم. والقـرآن الكـريم تتتـابع آياتـه قصصـا ووعظا وحكما وتشريعـا، والعربى فى كل ذلك لا يخطىء غايته الكبرى وهى تمجيد الله وطاعته.

ولنتدبـر سورة القمر من الناحيـة الأدبية التعبيرية وحدهـا، فهى تعبر عن روح الصحراء خير تعبير، وفيها من المطابقة بين ألفاظها وأسلوبها مـا يشعر بالقوة والصرامة، وأكثرها وعيد ونذر وترهيب. وليس فيها إلا آيـة واحدة فى آخرها خالية من التذكير بالعقـاب. والراء الساكنة (عند أكثر القراء) لها وقع شديد عند من يتأثرون بالروعة الأدبية. وهناك سورة أخرى تختلف اختلافا تاما عن سورة القمـر وهى سورة الرحمن التى تليها مباشرة. ولست أدرى هل يشعر كثيرون بما أشعر به حين تتلى سـورة الرحمن. كأنى أرى نفسى فى واد ممتد مستطيل خصب تحيط بـه الأشجـار من الجانبين متسقة كأنها النخيـل فى انتظام تـام فى واد خصب رطب بـه طراوة ونعيم. والسـورة كلها على العكس من سـورة القمر فيهـا الحديث عن النعيم والخيرات وفيها ذكر الفـاكهة المحببة، وحين تذكـر جهنم لا يكون ذكرها مصحـوبا بالرهبـة والوحشية العنيفة التى نـراها فى الـوعيد فى سورة القمـر. وكأن سورة الرحمن واحـة خصبة تتلـو شدة الصحراء، وكثيرا ما نـرى هذه الواحات الجميلة تعبيرا ومعنى فتخفف من قسـوة الوعيد التى تسبقها أو تليها».

□

أما مـا يراه غير العرب فى القـرآن من عدم قيام آياتـه على ترتيب تاريخى أو مـوضوعى أو منطقى، فيرده الدكتور إلى أنهم قد يقيسونه بـالكتب الدينية الأخرى كالتوراة والإنجيل مع أن هناك فرقا جوهريا، فالتوراة والإنجيل سرد لوقائع بعينها يتعظ بها القارىء، وهى أشبه بكتب السيرة عندنا، وما يرد فيها من آيات قرآنيـة وأحاديث نبوية، وليس كذلك القرآن، فأكثره وعظ وهداية، حتى إذا وردت فيه قصص كان السرد التاريخى المنظم كما فى سورتى مريم ويوسف، ولو أن القرآن نزل مرتبا ترتيبا تاريخيا كما يود المفكرون من غير العرب لما وافق أعماق النفس الإنسانية، ولما كان فيـه هذا التعبير القوى عن روح العرب وحياتهم. والقرآن بتعـاليمه الدينية يهدف إلى الـوعظ والحديث إلى النفس، يهديها إلى الحق. وسبيل الوعظ المبـاشر يتمثل فى الحكم والأمثال، وهى تركيز للخبرة الإنسانية، وبلورة لها، وليست تحليلا لها، ولا تفسيرا للعلاقة بين السبب والمسبب، والمدنية العربية من دون غيرها تمتاز بهذه القدرة على التركيز والبلورة، أو ما يسمى فى الطبيعة بالقوة الجاذبة. والمؤمنـون يعلمون أنهم لا يملون التكرار لأن الملل ليس من صفـات النفس، وإن كان من أوضح صفـات العقل الذى يعتمـد فى عمله على مـا يرد إليـه من

حواس، هى أشد ما يكون إحساسا بالتعب والملل. والتكرار أهم عناصر الجمال، «ولا أعلم مثلا آخر للسجع غير القرآن يصح أن يعد عملا أدبيا موفقا».

□

أما ما يعاب على القرآن من بساطة التفكير، وبساطة العواطف والأمثلة، وهو رأى المفكرين الذين يظنون أن ذلك قد لا يقنع المعاصرين بوجود اللـه وقدرته، فيرد عليه الدكتور بقوله: «وكأنهم (أى المفكرين) ينسون أن الذى لا تقنعه الحجج البسيطة والأمثلة البسيطة بوجود الأمور الروحية لن يقنعه بها شىء آخر. وأنهم فى الواقع يطلبون البرهان على وجود الله قبل تحديد صفاته، وقد بينا من قبل أن الإيمان بالصفات هو الإيمان بالوجود فى الأمور الإلهية، وأن هذا لا يتم على الترتيب الذى يتبعه العقل فى العلم بالأمور المحسوسة. والغاية الكبرى من التنزيل تمجيد اللـه، والدعوة إلى التوحيد، والتنزيه، وما يؤدى إليه ذلك من الدعوة إلى الخير، والنهى عن المنكر، والتحريض على ذلك بالترغيب والوعيد بعد البعث، وليس فى هذا شىء يحتاج إلى تعقيد فى التفكير، أو مهارة فى الاستنتاج المنطقى. من هذا يتبين أن الترتيب التاريخى أو المنطقى أو الموضوعى لم يكن ليحقق غايات الوعظ، والهداية، لأنه لا يتفق والتعبير عن النفس الإنسانية وأعماقها».

□

ويرى الدكتور كامل حسين أنه من التقصير فى حق العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم أن نقصر بحثنا على إعجازه البلاغى، وروعة بيانه، وهو أمر خاص بالعرب لا يستطيع المسلم غير العربى، ولا يستطيع غير المسلم أن يقدر هذا الإعجاز، وقد يحمل ذلك بعض المغرضين على أن يستهينوا بالقرآن حين يرون أهله لا يقدرون فيه إلا حسن البيان، وجمال العبارة، ولا يليق بالكتب المنزلة أن نقيم قدسيتها على ما فيها من تشبيهات رائعة، واستعارات جميلة. ومع ذلك فلا يجوز لنا نحن العرب أن نغفل درس هذه الناحية الأدبية البحتة لإعجاز القرآن، فهى ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ الآداب العالمية، ذلك أن العربى تأخذه نشوة روحية خاصة حين يستمع

إلى آيات القرآن. نشوة لا يعدلها إلا أثر الموسيقى الرائعة فى من يتذوقونها فترفعهم إلى درجة من السمو النفسى لا يبلغونها بدونها.

وخلاصة القول أن الإعجاز الأكبر للقرآن الكريم فى نظر الدكتور هو «هدايته للناس فى أمور دينهم ودنياهم هداية ناجحة استطاع بها البدو الوثنيون أن يرتقوا إلى أعلى مراتب البشرية»، ثم إن معجزة القرآن فى مجال النفس واضحة فى «قوة تعبيره عن أعماق النفس البشرية وعواطفها التى لا تكون على ترتيب منطقى أبدا». ثم هناك الإعجاز الأدبى البحت القائم على قوة تعبير القرآن عن روح أهل الصحراء، ومن هنا كان أثره البالغ على كل من له أدنى حظ من الذوق العربى»، والتوافق العجيب بين هذه النواحى الثلاث، وقوة تعبير القرآن عن كل منها يفسر لنا تأثر العرب بالقرآن تأثرا لا نجد له مثيلا فى تاريخ الآداب العالمية. وهل يعجب أحد بعد ذلك أن يجمع العرب على أن القرآن لا يمكن أن يحقق ذلك كله لو لم يكن وحيا من الله. «والقرآن هو الغاية التى بلغها الأدب العربى فلم يشعر العرب بعده بالرغبة فى أى عمل فنى آخر».

□

ولما أراد بعض المفكرين أن يفسروا القرآن تفسيرا علميا، ثار الدكتور كامل وسماها بدعة حمقاء وقال: إن هذه النزعة ليست إلا دليلا على تأصل الفكر البدائى فى عقول بعض الناس حتى مَنْ يكونون قد نشئوا على التفكير الحديث، وقد سبق لكثيرين فى القرون الوسطى أن قالوا إن فى التوراة والإنجيل أسرارا عميقة بعيدة الأثر، وتساءل الدكتور: «كيف يريد هؤلاء أن يظل القرآن هاديا للناس إذا دأبوا على تأويله حسب تغيرات العلم الحديث وهو سريع التقدم والتغير؟ أليس من الحق أن نعد هذا تحريفا للكلم عن مواضعه فيكون بذلك معصية وإثما؟!»..
وإذا أحسنا الظن «فلعل شيئا من هذا الشعور بالحاجة إلى تقوية الإيمان بالربط بينه وبين العلوم هو الذى حمل هؤلاء الأفاضل على القول بأن العلم الحديث مذكور فى القرآن».
«والقائلون بهذا ظنوا أن أحدا لن يتعرض لهم حين يكون الأمر متعلقا بإعجاز القرآن، فالمسلم يرى حرجا كبيرا فى تفنيد قول يراد به إثبات هذا الإعجاز خوفا أن يمتد الشك فى البرهان إلى الشك فى الإعجاز نفسه، ولكننا نعلم أن القضية الرابحة لا يفسدها شىء مثل الدفاع الفاسد».
فإن أسأنا الظن بهؤلاء قلنا لعلهم يبغون أن تعرف عنهم الغيرة على الإسلام، والتفقه فى أسرار القرآن التى خفيت على غيرهم ممن لا يرتقون إلى مثل علمهم وإيمانهم، وهذا سبيل يسير فى

بلوغ غاية شريفة دون جهد كبير من غير طريق الحق». وعلى هذا فالقـائلون بهذه البدعة بين أمرين:

فإما أن يكونوا جاهلين بالعلم وبالقرآن، وإما أن يكونوا مخادعين للناس.

والدكتور يعتقـد أن القرآن هدى للناس فى عموم إيمانهم، ولا شأن له بـوسائل تحقيق هذا الإيمان وتفصيلها.

ثم يتعرض للتفسيرات التى يسوقها هؤلاء:

(١) قول طبيب كبير إن حركة الأجسام الصغيرة جدا المعلقة فى الماء تسبيح فيتساءل: وهل الكرة بين اثنين وعشرين لاعبا فى الملعب تسبيح؟

(٢) وكقول أحد أساتذة العلـوم فى الجامعات فى تفسير قوله تعالى: **﴿وما يَعزُب عن ربك من مثقـال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغـرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتـاب مبين﴾** (يونس: ٦١): إن شيئا لا يكـون أصغر من الذرة إلا أن يكون جزءا منهـا **بعد تفجيرها**. **ويعلق** الدكتـور كامل: وهل لو عرب العلماء العـرب كلمة atom أكان يضيع علينـا هذا الكشف العلمى؟ وإنما تعنى الذرة ما يرى فى شعاع الشمس الداخل من النافذة.

(٣) وكقول قاض كبير إن النسبية موجودة فى القرآن الكريم بدليل قوله تعالى: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾** (الواقعة: ٧٥). والنسبية معادلة رياضية صعبة جدا وليست مواقع النجوم إلا تطبيقا لبعض وجوهها. فهل تدبر الآية يؤدى إلى كشف النسبية؟

ومـا هـذه التفسيرات إلا ضرب من التفكير المقلوب! ونستطيـع أن نقول على غـراره إن أبـا نواس كان يعرف (المناعة) عندما قـال: «و داونى بالتى كانت هى الداء». ويسمى الدكتور هذا التفسير، التفسير الحرباوى للقرآن الكريم «والحرباوية تكون فى التفكير كما تكون فى الخلق». ويختم مقاله (بـدعة حمقاء) بقولـه: «هذه بدعة سخيفـة ونرجو أن نكون قـد وأدناها إلى غير رجعة».

□

وفى تفسيره للآيات (٢١ ــ ٢٤) من سورة البقرة فى كتابه الـذكر الحكيم (ص ٤٦ ـ ٤٩)، وصف الدكتور كامل حسين الحجج التى يـدعو بها القرآن إلى الإيمان بأنها «بسيطة واضحة لا يصعب على أبسط الناس فكرا أن يتدبرها فيهتدى إلى سخف عقيدته الوثنية»، فالقرآن يدعو

الوثنيين إلى أن يعبدوا الله لأنه خلقهم فدل بذلك على قدرته، ولأنه غمرهم بنعمه فله عليهم فضل عظيم. وكيف يجعلون له أندادا من أصنام لم تخلق شيئا ولم تنعم عليهم بشىء؟ وهذه دعوة يجب ألا ينكرها أحد. فإذا أصر الكافرون على ألا يعبدوا الله مع وضوح الحجة على ذلك فقد يكون إصرارهم على الكفر مرجعه إلى شكهم فى صدق ما أنزل الله على رسوله، فإذا كان ذلك ما يمنعهم من عبادة الله فما عليهم إلا أن يجمعوا شهداءهم من دون الله ويتضافروا جميعا على أن يأتوا بسورة من مثله، فإن لم يفعلوا وأصروا مع ذلك على كفرهم فليؤمنوا بالله اتقاء للعذاب الشديد الذى أعده لأمثالهم من الكافرين. ويقول الدكتور: «هذه الآيات جماع كل وسائل الإقناع، وهى أربع: العقل أو التنزيل أو الخوف من العقاب أو الأمل فى الثواب. فالعقل يجب أن يحمل الناس على الإيمان شكرا له على نعمة الخلق، مثل ذلك كما تقول: اشكر الأمير الذى أنعم عليك، وأنت تعنى بذلك اشكره من أجل نعمته عليك».

والوسيلة الأخرى لإقناع الناس بالإيمان هى أن الله أرسل إليهم رسولا أدق منهم حسا وأرقى نفسا. هذا الرسول يرى ما لا يراه غيره من العلم بالعلويات. «**ويكون اتباع الرسل أمرا واجبا على من يحس بالرغبة فى الهدى دون أن يكون قادرا على الاهتداء بطبيعته وحدها**».

«والوسيلة الثالثة لإقناع الوثنيين بالإيمان إذا لم يكونوا قادرين على الاهتداء بالعقل أو التنزيل هى أن يطلب إليهم أن يعبدوا الله خوفا من عقابه «**والخوف من عقاب الله أقل دوافع الإيمان قدرا**».. ولبعض المفكرين كالمعرى وباسكال رأى فى ذلك خلاصته «أن الإنسان يجب أن يؤمن خوفا من العقاب فإن كان هناك عقاب فى الآخرة فإنهم ينجون منه بهذا الإيمان، وإن لم يكن فى الآخرة عقاب على الكفر فلا ضرر عليهم من ذلك. وهذا عندى أضعف الإيمان لأنه إيمان لا تتطهر به النفس، ولا تسمو به على ضرورات الحياة والشهوة الجامحة».

«والوسيلة الرابعة لإقناع الناس بالإيمان هى ما يعدهم به الله من ثواب فى الآخرة».

□

ويتخذ الدكتور كامل حسين من عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثل القرآن دليلا على صدق التنزيل سواء كان عدم فعلهم عجزا عن محاكاته أو صرفا من الله عنها. وهو لا يميل إلى القول بالصرفة لأنها فى رأيه لا تجوز نسبتها إلى الذات العلية. وهو لا يوافق على الرأى القائل

بأن الله يرسل رسله بمعجزات من جنس ما تفوق فيه قومهم ليكون ذلك أبلغ فى إقناعهم «لأن هذا كله لا داعى له فى إثبات قوة التحدى». ويرد على ما فى الاستشهاد لذلك:

(١) فهم يقولون إن المصريين كانوا متفوقين فى السحر فجاءهم موسى بعصاه، ولكن المصريين كانوا مبرزين فى غير السحر وتفوقهم فى السحر مشكوك فيه لأن السحر باطل والباطل لا يكون فيه تفوق.

(٢) وقالوا إن الطب كان متقدما بين اليهود فى عهد عيسى، وهذا غير صحيح ولم يقل به أحد، بل تدل الدلائل كلها على أن الطب كان حينذاك ضعيفا حيث وقع بعد أن اضمحل الطب اليونانى وقبل أن يزدهر الطب فى عهد جالينوس.

ويرجع الدكتور نشأة هذه الآراء إلى ما سار عليه الأولون من قصر إعجاز القرآن الكريم على الناحية البلاغية.

«والواقع أن عظمة القرآن أوسع مدى من أن تكون بلاغية فقط، ولعله أن يكون أوقع فى النفس أن نذكر أنه نزل على قوم لم يعرفوا من قبله كتابا، وأنه جاء العرب بدين كامل علمهم فيه من أمر الله وتنزيهه ومن أمر الثواب ما لم يكن لهم به عهد، ولم يعرفوا شيئا عن التشريع فجاءهم بتشريع لا ينقصه شىء، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن أنباء الأولين فجاءهم منها بالشىء الكثير فيه عظة وحكمة وعلمهم الأخلاق السامية والآداب الخاصة والعامة، ولم يعرفوا شيئا من ذلك قبله». وهذا أبلغ فى الدلالة على صدقه من القول بأن التحدى انصب على الإعجاز البلاغى وحده. وإعجاز القرآن عند الدكتور لا يأتى من تفصيلاته فحسب، ولكنه ظاهر واضح منه كلية. «والأقدمون درسوا القرآن دراسة دقيقة فاحصة عنوا فيها أشد العناية بالتفصيلات وأرى أن مثلهم فى ذلك مثل الرجل الذى يقطع من الجبل قطعة يدرس بلوراتها بالمجهر فيدهشه جمالها وهى جميلة حقا من غير شك ولكن ذلك لا يدله على شىء من عظمة الجبل وروعته».

□

وفيما يتعلق بقصص القرآن يرى الدكتور كامل حسين «أن ما جاء فى القرآن من قصص يجب أن يظل مجملا إذا أجمله القرآن، مفصلا إذا فصله. وكل ما عدا ذلك يعد تعديا على قدسية القرآن الكريم وافتراء عليه»، ويبدو أن هذا الرأى لم يكن (عاما) عنده وإنما كان يعنى به ما يتخرص به الكتاب عند الحديث عن القرآن الكريم أو التعرض له بالتفسير. أما تناول موضوع

«القصة القرآنية» تناولا فنيا، فهو لا يدخل عنده فى هذا النطاق. وسنرى أنه فى قصته (ماء مدين) يفصل فى القصة أمورا تركها القرآن مجملة بل ويخالف النص القرآنى فى هذه التفاصيل.

□

وفى تفسيره لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا مَّا بعوضةً فما فوقها﴾ (البقرة: ٢٦)، يعرض للأمثال فيقرر أن أكثرها بسيط غاية البساطة واضح كل الوضوح وهو أسلوب معروف فى الكتب السماوية كلها. ويرد على اعتراض البعض بأن هذه البساطة لا تتفق مع جلال الموضوعات التى تضرب لها الأمثال، وهذا البعض لا يقتصر على الذين غرتهم الفلسفة بقوة حجتها وعمق بحوثها ودقة منطقها، بل إن من العرب - مع بساطة تفكيرهم من كان يقول مثل هذا القول - ويرد على هذا الاعتراض فيقول: هذا الاعتراض خطأ أصله أن المعترضين لم يقدروا أن الغرض الأول من الكتب السماوية هو هداية الناس كافة، وأن الحجج البسيطة أشد أثرا فى النفس من الحجج المعقدة لعمومها وشمولها ووضوحها للناس جميعا وسهولة فهمها. ولا يقف عند القول بذلك بل يمضى به منطقه فيقول: «والذين يطلبون البراهين المعقدة فى أمور الإيمان لا يخطئون لأنها ليست ضرورية لصدق الإيمان، بل قد يكون الإيمان أقواه أبسطه». ودليله على ذلك آية البعوضة (البقرة) فهى تبين لنا أن الأمثال البسيطة تزيد فى إيمان المؤمنين، فإن ضل بها أحد فذلك لأن فى طبعه الضلال».

وخلاصة رأيه فى الأمثال أنها تهدى مَنْ هم مهيئون للهداية ولا يضل بها إلا من تكون نفوسهم غير قابلة للاهتداء، وهؤلاء هم الفاسقون.

□

وفى تفسيره لقوله تعالى ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ (آل عمران: ٧)، يشرح لنا الدكتور الفرق بين الآيات المحكمات والآيات المتشابهات فى مفهومه:

(١) فالفرق ليس نوعا فى القدر ولا فى وجوب طاعة المسلم المخلص لها جميعا فى معتقداته وأعماله.

(٢) والآيات المحكمة بمثابة المبادىء العامة عند المحدثين يجب أن تطاع طاعة عامة ولا يباح للمسلم أن يتأول معناها، فهى واضحة صريحة والمسلم الذى يخالفها يكون آثما من غير شك.

(٣) الآيات المحكمات هى التى تتعلق بأصول العقيدة كالآيات المتعلقة بالتوحيد والتنزيه والرحمة والتقوى واجتناب ما حرم الله والإيمان بالغيب والآخرة وقيام الساعة.

(٤) الآيات المتشابهات هى التى يهتدى بها المؤمنون الصالحون فى عموم هدايتها ويباح لكل مسلم أن يفهم مغزاها على قدر ما يكون فيها من خير للناس على ألا يكون فى اختلاف الناس إزاء أوامرها خروج على المبادىء الكبرى للإسلام وعلى ألا يكون فى تأويلهم إياها ما يدعو إلى الفتنة وهو ما يبغيه مَنْ فى قلوبهم زيغ.

(٥) والآيات التى تتعلق بالوصف الواقعى للجنة والنار وخلق آدم وعصيانه وخروجه من الجنة وآيات الجن والشياطين من المتشابهات التى يباح للمسلم أن يتصورها على قدر فهمه وعلمه، ولا يطعن فى إيمانه أن يخالف فى ذلك غيره لأن الغرض منها عموم الهداية وليس حتما على المسلم أن يؤمن بواقعيتها تفصيلا إذا كان ذلك يصعب عليه عقلا. والأمور الغيبية لا يمكن تقريبها من أذهان الناس إلا إذا كان التعبير عنها باللغة التى نعرفها فى هذه الدنيا، ومع ذلك فالموعظة فى هذه الأمور أبدية لا يستغنى عنها إنسان ولا ينقص من إيمان المؤمن أن يفهمها على نحو يبلغ به مغزاها.

والتشابه فى هذا النوع راجع إلى قصور فهم الإنسان عن أن يدرك حقيقة الغيب إلا تقريبا بقدر ما تسمح به وسائل التعبير.

(٦) وهناك نوع آخر من التشابه هو تلك الآيات التى تتعلق بالأوامر التى فرضت طاعتها على المسلمين فى حوادث بعينها وقعت فى عهد نزول القرآن الكريم كوقعة بدر وأحد وحنين.

وهذه الأوامر واجبة الطاعة حرفيا فى الحوادث التى نزلت بسببها الآيات حتى إذا انقضت هذه المناسبات أصبحت الآيات واجبة الطاعة فى عموم هدايتها لا فى تفصيل أوامرها، وهذا هو التشابه.

ومن هذا النوع :

(أ) قوله تعالى: **﴿ومن يولهم يومئذ دُبُرَه إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾** (الأنفال: ١٦). فأبو عبيدة فى وقعة الجسر فهمها على أنها من المحكمات فثبت أمام أعدائه لا يريد أن يولهم دبره خوفا من أن يكون فى رجوعه عصيانا لأمر الله، وحدث

من جراء ذلك أن قتل من المسلمين خلق كثيرون حتى تغير لون ماء النهر من كثرة ما سال فيه من الدماء، أما عمر فقد فهمها على أنها من المتشابهات وقال فى ذلك «رحم الله أبا عبيدة لو تحيز إلىّ لكنت فئته».

(ب) قوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ (الصف: ٤)، فإنما أمر المسلمون بذلك لأن هذا الأسلوب فى القتال كان خير أسلوب لتحقيق النصر حينذاك فإن تغيرت أساليب القتال وجب على المسلمين أن يتبعوا ما يكفل لهم النصر.

(جـ) قوله تعالى: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ (البقرة: ١٩١)، وهو أمر موقوت بالحال التى تألب فيها المنافقون والمشركون من أهل الجزيرة ويهود المدينة على المسلمين، فلما اطمأن المسلمون أمروا أن يجنحوا للسلم إن جنح إليها الأعداء وعند ذلك ظهر التسامح الذى هو أصل من أصول الإسلام.

وعلى هذا الفهم يكون القرآن الكريم صالحا لهداية الناس فى كل زمان ومكان، وتكون آياته كلها واجبة الطاعة عند المسلمين، وتكون الآيات المحكمات واجبة الطاعة، كذلك فى تفصيل ما جاء من أوامر ونواه. وتكون الآيات المتشابهات واجبة الطاعة فى عموم هدايتها لا فى تفصيل أوامرها، ولا يكون المسلم آثما إذا تأولها على ألا يكون التأويل مخالفا للمحكمات.

□

أما ما قيل فى تفسير المتشابهات بأنها المنسوخات فلا يتعرض الدكتور للنسخ فيما يتعلق بالأحكام ولكنه لا يرى أن الآيات المتعلقة بالعقيدة يمكن أن يقع عليها النسخ وإذا أراد الله أن يبدل آية مكان أخرى فذلك لأن الأولى كانت موقوتة بزمن أو حادث بعينه.

وهدى القرآن عند الدكتور أمر مفروغ منه. «وسيجد كل إنسان فى آيات القرآن الكريم ما يهتدى به، والقرآن لم يترك أسلوبا من أساليب الهداية إلا عرضه على الناس ليختار كل منهم ماهو أقرب إلى طبيعته».

ولعلنا بعد هذا العرض لهذه المفاهيم القيمة المتعلقة بالقرآن نستطيع أن ندرك مدى عظمة الفكر الإسلامى عند هذا الرجل.

الفصل الثانى عشر

منهجه فى دراسة القرآن فى كتابه «الذكر الحكيم»

«والناس فى عصرنا هـذا أقرب إلى التشكك منهم إلى الإيمان. وليس أدعى إلى الشك من جعل التنزيـل بعيدا عن عقلية النـاس غريبـا عليهم، والإصرار على تفسيره تفسيرا لا يشفى غليلهم، فإن هذا يزيد فى قلق المؤمنين ويقوى الشك عند الملحدين».

«والتفسير يكون أهدى للناس حين يبين لهم رأى التنزيل فيما يشغلهم، والذى يشغلهم هو البحث فى طبيعـة الإيمان، وأثر العقـائد فى النفس المؤمنة وإيضـاح مـوقفهم من الله ومـوقف الإنسان من الجماعة التى ينتمى إليهـا، وهم يريدون أن يجدوا فى القرآن الكـريم ما يدلهم على دوافع الخير وموانع الشر وما يعينهم على التوفيق بين ضميرهم وحياتهم. وهذا ما حرصت على أن أبينه فى هذه الدراسـات».

□

كتاب «الذكر الحكيم» هو دراسات فى القرآن الكـريم لم يتعرض فيها الدكتور كامل حسين لما تعرض له المفسرون القـدماء.. ولم يحاول فيها شرح غوامض الآيـات. ولم يبحث فيها شيئا من علوم القرآن. وإنما عنى فيها ببحث الموضوعات التى تسيطر على الفكر فى عصرنا هذا دون أن يتطرق ذلك التطـرق الذى كـان يكرهه لإخضـاع القرآن بصورة أو بأخـرى للاكتشـافات العلمية الحديثة، وهو ما ينهى عنه فى مقاله (التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء).

ويمكننا أن نلخص أغراضه من هذه الدراسات على النحو التالى:

(١) تقديم دراسة للقرآن للمسلمين ممن نشئوا على التفكير الحديث تقرب من القرآن من أفهامهم.

(٢) تقديم شرح للمسلمين من غير العرب، ولغير المسلمين، يفهمون به القرآن من حيث هو كتاب منزل غرضه الهداية والوعظ، ومن حيث هو أصل العقيدة الإنسانية. وأكمل تعبير عن خصائص النفس المسلمة.

يصدر كامل حسين فى كتابه «الذكر الحكيم» عن اقتناع بأن «أول واجب على المفكرين المسلمين أن يبينوا لغير المسلمين أن معجزة القرآن الكبرى هى ما حققه من نجاح فى إخراج الأمة العربية فى سنوات قليلة من وثنية بدائية إلى أسمى درجات الإيمان، وكانت وثنيتهم لا تمتاز حتى بجمال أصنامها ولا برقة الشعر الذى يحيط بها، كما كانت الحال عند الإغريق. ونقلهم من هذه الوثنية إلى أرقى مراتب التنزيه هو أمر يحتاج إلى سمو فى الفكر وعلو فى النفس لم يكن للعرب أن يبلغوه من دون القرآن الكريم.

□

وهو يفهم القرآن الكريم ويفهمه بثلاثة أساليب: التأويل، والتأمل، والتدبر، ويسير على هذا المنهاج فى تفسيره لكل الآيات التى فسرها فى كتابه الذكر الحكيم:

(١) **التأويل:** وهو ما جرى عليه المفسرون من شرح الآيات وبيان معانيها، وما يتعلق بذلك من أسباب النزول وأوجه الدقة فى الآيات بيانا وإعجازا. وهو لا يكثر منه عند تناوله إذ إنه موجود فى التفاسير القديمة على خير وجه.

(٢) **التأمل:** وهو بيان مغزى التنزيل وحكمة اختيار الأحداث التى وردت فى آياته مما يكون فيه مواعظ، وعبر، واهتداء، وميدانه استخلاص ما تحتوى عليه الآيات والقصص من هداية للمتأملين.

(٣) **التدبر:** وهو بيان أثر التأمل فى نفس كل إنسان، وفى النفس الإنسانية عامة، وهو المغزى العالمى الشامل، وهو أعمق من التأمل وأوسع مدى، وهو ما تدركه القلوب المتفتحة على

الخير والتى لا تكون عليها أقفالها. وهكذا فإن **التأمل عمل عقلى، والتدبر عمل قلبى نفسى،** وفيه إيضاح لما ألهم الله النفوس من فجور أو تقوى.

«فلكل قصة معناها الأعم الأعمق، وسنرى أن ذلك أوضح ما يكون فى قصص الأنبياء»:

(١) فقصة آدم تمثل عاقبة العصيان وما يجره، وتمثل التوبة وحدودها.

(٢) وقصة قابيل وهابيل تمثل بلوغ الشر غايته، وتبين كذلك ما يعترى النفس الإنسانية حين يتحكم فيها الغيرة والحقد.

(٣) قصة نوح بيان لأمر الرجل بعيد النظر وحاله مع قومه الذين لا ينتصحون برأيه.

(٤) ولوط يمثل الرجل الطيب بين المجرمين المجاهرين بالإجرام الداعين إليه.

(٥) وقصة إبراهيم تمثل غاية الطاعة، ولم يعرف عنه أنه أتى عملا لم يكن فيه خير لغيره، وحياته خير مثال لحياة الذين يتعرضون للأذى فى سبيل الدعوة إلى الحق.

(٦) وصاحب موسى يمثل النفس الطاهرة التى تعرف ما لا يعرفه غيرها فيكون سلوكها غريبا حين يحكم عليها العقل وحده، وهكذا...

□

ويمضى الدكتور كامل فيفسر لنا سورة الفاتحة ويبين كيف أن الفاتحة هى أول القرآن، ولم قصرت على علاقة الله بالإنسان لا تتناول شيئا غيرها، ثم يعرض العلاقة بيننا وبين الله، ومكانة الإنسان من الكون كخليفة لله فى هذه الأرض.

ثم يقول إن القرآن لم يؤكد صفة من صفات الله مثل ما أكد وحدانية الله ورحمته، ويبين علاقة ذلك بحسن إسلام المرء.

ويتناول «كنه رحمة الله» فيقارن بين موقف أصحاب الديانات الثلاث منها، ويشرح معنى العبادة فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إياك نعبد و إياك نستعين**﴾ (الفاتحة: ٥) ويمتد بتفسيره إلى معناها فى الديانات الأخرى.

حتى إذا أدركه قوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا**

الضالين﴾ (الفاتحة: ٧) تحدث عن الأنواع النفسية الثلاثة التى ذكرتها الآية للعلاقة بين الله والناس.

وهو يفسر المغضوب عليهم بأنهم «هم الذين حرمهم الله نعمة الإيمان فلا يكون من طبعهم أن يدركوا الفرق بين الخير والشر وبين الخبيث والطيب»، أما الضالون فهم «الذين فى طبعهم الإيمان ثم ضلوا طريق الهداية إلى الخير».

□

وهكذا يمضى الدكتور فى تفسير آيات من القرآن الكريم يتعرض فيها لموضوعات تشغل الفكر الإسلامى فيمتعنا ويشدنا معه إلى فكر إسلامى مستقل ممتاز.

فيتعرض فى فصول كتابه إلى: التقوى، التنزيل، الهدى والضلال، الذين كفروا، المنافقين، الدعوة إلى الإيمان، التحدى، نعيم الجنة، الأمثال، الفاسقين، خلق آدم، غصيان آدم، بنى إسرائيل، يهود المدينة، السحر، إبراهيم الخليل، قصة الذبح، المحكم والمتشابه، الشرك، العمل الصالح، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، من دون الله. وفى نهاية الكتاب بعض الفصول التى سبق له أن نشرها فى كتب أخرى، وقد أحسن صنعا حين أضافها إلى هذا الكتاب، لقرب موضوعها من موضوعه. وهذه الفصول هى:

- معنى الظلم فى القرآن الكريم.
- قصة آدم.
- إعجاز القرآن.
- بدعة حمقاء.
- محنتان متشابهتان.

وقد نشر بعضها من قبل فى كتابه «متنوعات» وفى مجلة «الكاتب المصرى»، أما «معنى الظلم فى القرآن الكريم» فقد ألقاه بحثا فى مجمع اللغة العربية، ونشره فى متنوعات، وكتبه بالإنجليزية وأظنه نشر فيها.

□

ولقد قـدم كامل حسين بهذا الكتاب وبدراســاته عملا عظيما إلى محبى القـرآن، وإلى قراء العربية، وإلى الفكر الإسلامى، ولاشك أن فكر كامل حسين فى هذا الكتاب يمثل نوعًا جديدًا من الدراســة الجادة ـ التى لم نعهـدها حتى اليوم ممـن يتناولون مثل هـذه الموضوعـات ـ والتى نرجو أن يتهيأ للفكر الإسلامى من يقومون بمثلها.

بقى أن نشير إلى أن «الذكر الحكيم» اسم مـن أسماء القرآن الكريم الكثيرة والتى وردت فى القرآن نفسه ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**﴾ (آل عمران: ٥٨).

الفصل الثالث عشر

المعنى القرآنى لظلم النفس :

يكمن سر العبقرية الإسلامية عند الدكتور كامل حسين فى معنى التقوى، وهى «المطابقة بين مبادىء الخلق والحياة الدنيوية».

«وعندما ترتكب الإثم فأنت لا تضر غيرك فحسب ولكنك تضر نفسك التى تأصل فيها حب الخير وكره الإثم، وبهذا فأنت تجور عليها أى تظلمها»، وهكذا يستلفت الدكتور نظرنا إلى مذهب خلقى فى الإسلام يدل عليه تعبير النفس.

وعندما يستلفت واحد من المفكرين نظرنا إلى معنى إسلامى فهو لا يبتدعه ولا يجدد فى مفاهيم عقائدية، وإنما يخرج أمرا ما من دائرة الإحساس الداخلى إلى دائرة التعبير اللفظى.

ولاشك أن دائرة التعبير اللفظى أقصر من أن تحيط بدائرة الإحساس الداخلى وإنما تمسها (وهى تدور) من حين لآخر، إن من خارجها وإن من داخلها، ومن هذا التماس تخرج لنا هذه الومضات الفكرية.

وفى الجلسة الرابعة من جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والعشرين لمجمع اللغة العربية، ألقى الدكتور كامل حسين بحثا بعنوان «معنى الظلم فى القرآن الكريم» وأعاد نشره فى كتابيه «متنوعات» (الجزء الثانى) و«الذكر الحكيم»، وقد أحال المجمع بحث الدكتور إلى لجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم، كما ترجم الدكتور هذا البحث إلى الإنجليزية.

وفى هذا البحث لا يقنع الدكتور بتفسير الظلم على أنه وضع الشىء فى غير موضعه، فهذا فى نظره تفسير يسير.

وإنما أحصى الدكتور آيات القرآن الكريم التى وردت فيها كلمة الظلم ووجد أنها أتت:

- متعدية إلى الغير: ثلاثا وخمسين مرة.
- ومتعدية إلى النفس: سبعا وعشرين مرة.
- ولازمة: مائة وسبعا وتسعين مرة.

□

وقد جاء التعبير بظلم النفس فى الدلالة على أمور كثيرة كالشرك والنفاق والعصيان وتعدى حدود الله وإمساك النساء ضرارا والقتل وارتكاب الفاحشة والكفر بالنعمة وإغفال حرمة الأشهر الحرم، وغير ذلك من أنواع الذنوب والمحرمات. وحين تكون لازمة تدل على الشرك والعصيان، كتبديل القول، وكتمان الشهادة، واتباع الأهواء بعد العلم واتخاذ الأنداد من دون الله والافتراء عليه سبحانه وتعالى.

«وظلم النفس تعبير إسلامى خالص فيه دليل على مذهب خلقى يسمو كثيرا على المذاهب الخلقية الأخرى، هذا المذهب يدعو إلى الخلق القويم لأن من يرتكب إثما يكون ظالما لنفسه ولا يليق بأحد أن يظلم نفسه إلا أن يكون به سفه أو خبال».

«وذلك أن التفكير الإسلامى لا يرى أن النفس الإنسانية ضالة بطبعها فهو يقول إنها ظلمت، ومعنى ذلك أنها فى أصل طبعها طاهرة، على خلاف المسيحيين الذين يرون الخطيئة متأصلة فى الإنسان منذ آدم».

«وهذا لا يمنع من أن النفس مائلة بالطبع إلى الشهوات تهم بها وتستعمل القوى والجوارح فى أثرها كل الأوقات، والمراد بالنفس فى سورة يوسف(٥٣) على لسان امرأة العزيز ﴿**إن النفس لأمارة بالسوء**﴾ هو شهوات النفس الجامحة».

ولا يخرج عن تفسير الدكتور للظلم إلا آيتان: آية ﴿**وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ (البقرة: ٥٧، الأعراف: ١٦٠)، على لسان بنى إسرائيل، والدكتور لا يجد غرابة فى أن يقع مثل ذلك القول من بنى إسرائيل الذين كانوا يمنون على الله بإيمانهم.

وقد عقب الأستاذ الشيخ محمد على النجار فذكر تفسيرا هو عندى أقرب إلى الصواب، إذ يقول إنها من باب قول الأب لابنه «إنما تقع تبعة عملك عليك لا على».

والآية الأخرى ﴿**ولم تظلم منه شيئا**﴾، (الكهف: ٣٣) وقد أولها الـدكتور على أنها معنى لغير العاقل.

□

وبحث الدكتـور كامل حسين «معنى الظلم فى القـرآن الكريم» بحث رائد فى هـذا الموضـوع وفى البحوث اللغوية عمـوما، وقد اعتمد فيه على الإحصاء إلى الحد الـذى لا ينبغى أن نزيد عليه عندما نعتمد على الإحصاء. وأخـذ عن المعاجم، وصنف، ورتب، وعمد إلى اللغات الأخرى فبحث عن اللفظ المقابل للظلم فيهـا فوجده «نفى العـدل» والبحث تنقصه دراسة لغويـة تتعلق بجذر الفعل وأصله فى فصيلة اللغات السـامية.. إلخ، وهو نوع من الدراسات لم يكـن للدكتور كامل حسين به عهد.

أما المغـزى الفلسفى والأخلاقى لـدراسة الدكتـور كامل حسين فهـو الأهم بكثير جدًا من الإطار اللغـوى لدراستـه، ولست أجد نفسى فى حـاجة إلى أن أفيـض فى تبيان ما يقصـده من المعانى بتفسيره لمعنى ظلـم النفس على هذا النحو، وذلك أن كتـابات كـامل حسين فى «الوادى المقدس» وفى «الذكر الحكيم» وفى «قرية ظالمة» قد تناولت هذا المعنى بقدر كبير من التفصيل فى مواضـع متعـددة، تناولناهـا نحن أيضًا فى فصول هـذا الباب المتعددة التى هى صـدى لأفكار كامل حسين عليه رحمة الله.

الفصل الرابع عشر

آدم

تعرض الدكتور لقصتى خلق آدم وعصيانه فى أكثر من موضع:

□ ففى كتابه متنوعات جـ ٢ فصل عن «خلق آدم»، أعاد نشره فى كتاب «الذكر العظيم».

□ وفى تفسيره لآيات سورة البقرة فى خلق آدم وعصيانه فى كتابه الذكر الحكيم أيضا فصلان: «خلق آدم» و «عصيان آدم».

□

وخلاصة رأى الدكتور فى هاتين القصتين نجمله فيما يلى:

(١) لا شك عند كامل حسين فى أن آدم لم يكن أول حيوان مشى على رجلين، ولم يكن أول حيوان ناطق، ولا أول كائن ذكى، ولكنه كان أول إنسان من حيث إنه أصبح عالما بالحرام والحلال ذا إرادة، وذا قدرة على العلم.

(٢) أن الله وهب الإنسان قدرة محدودة بالطبع على أن يعلم بعقله ما لا يعلمه غيره، وعلم آدم الأسماء كلها، والعلم بالأسماء أول العلم بالأشياء ومن طبيعة العقل الإنسانى أن علمه بشىء ما لا يتم حتى يعرف اسمه أو يضع له اسما جديدا.

(٣) أن الله وهب آدم القدرة على الاختيار بين الخبيث والطيب، ولم يرد الله له أن يهتدى إلى

الخير دائما لأن ذلك يحرمه صفة الإرادة، وهى إحدى الصفتين اللتين أراد الله أن يخصه بهما، ولم يشأ له أن يمنعه من اختيـار الشر أحيانا حتى تتم له بـذلك متعة الإرادة الحرة، وكان من جراء هذه الحرية أن يصلح فى الأرض إذا أطاع الله، وأن يفسد فيها بعصيانه إذا عصى.

(٤) ثم ندم آدم على ما فعل ودعا ربه أن يتوب عليه فعلمه الله كيف تكون التوبة وعاد إليه إيمانه واطمئنانه، ولعل التوبة أبرز عبرة فى هذه القصة وهى تتعلق بالناس جميعا فى كل عصر وليست مقصورة على آدم وحواء وحدهما.

(٥) ويرى الـدكتور فى سجـود الملائكة جميعا لآدم إلا إبليـس «أن الصفات التى سما بها الإنسان فوق الكائنات جعلت له سلطـانا على كل شىء إلا الشر فقد أبى أن يخضع له ولا يزال له عليه سبيل».

(٦) وتحريم الشجرة «ليس إلا رمزا لكل ما هو حرام».

(٧) «وآدم فى علاقته بالله بعد تـوبته أصبح مؤمنا تائبا وإن لم يستطع التخلص من الشر تخلصا تاما».

(٨) وقصة آدم عنـده «رمز لما يستطيع الإنســان من خير إن أطاع ولما يصيبـه من شر إذا عصى»، وهى رمز لما وهبه الله لنا من علم وإرادة.

□

ونحب أن نورد هنا ما قـاله الدكتور كامل حسين فى تفسير قوله إن قصـة ما رمزية، حيث يقول فى (ص ٦٧) من الذكر الحكيم:

«وأرجو أن يكون مفهوما أن قولى عن قصة ما فى القرآن إنها رمزية لا يعنى أنى أريد بالرمز ما يقـول به أهل الباطن، ذلـك أنى لا خبرة لى بهذا الشعور ولا أجد لـه صدى فى نفسى، وإنما أعنى بالرمز تصوير الأمور الغيبية بالأمور التى نعرفها والتحدث عنها بلغة أهل الدنيا».

□

(٩) ويسوق الدكتور كامل ما بدا لكثير من الناس منذ القرون الوسطى إلى عصرنا هذا من أن آدم وحواء أمرا ألا يقرب أحدهما الآخر. ومن أدلة هؤلاء على ذلك أن الشيطان قال لهما إنما منعتما من أكل هـذه الثمرة حتى لا تكـونا ملكين أو تكـونا من الخالـدين، والتناسل نـوع من الخلود. ثم إنهما بدت لهما سوآتهما وفسر هـذا على أنها أجزاء من جسميهما وأنهما غطيا ذلك بأوراق من شجر الجنة. ويعلق الدكتور على هذا الرأى فيقول: «إنه تأويل مقبول معقول». ثم يضيف «ولا أعلم أن أحـدًا أضـاف إلى ذلك دليـلا آخر من التحليـل النفسى هو أن الغـابـات والشجر فى الأحلام كثيرا ما تدل على الاتصال بين الرجل وأهله».

على أن العبارات التاليـة من كلام الدكتور لا يفهم منها فهما قـاطعا ـ على الأقل فيما يتعلق بى ـ ما إذا كان مؤيدا أو معارضا لأصحاب هذا الرأى حيث يقول:

«على أن هنـاك صعوبـات فى تحديد هـذا الأمر، فـآدم وحواء كـانا يعـرفان مـا يحدث بين الحيوانات فكـان غريبا عليهما أن يؤمرا بـالامتناع عنه، ولعل الذين يؤمنـون بهذا التحديد هم الذين ينظرون إلى العلاقة بين الـرجل والمرأة على أنها شر لابد منه لما فيها من لذة وسرور وميل إلى الجموح والشطط».

«على أن هذا التحريم لا يعين على تدبر الآيات من حيـث دلالتها على حكمة التحريم عموما. وذلك أن أمر الله واجب الطاعة وإن لم يفهم له العبـد سببا، وكل عصيان لأمر الله يعد خطيئة، وتحريم الأمور الضـارة يمكن أن يكون نتيجـة لعمل العقل وحده ولا تكـون له بـذلك الصفة الخاصة للإيمان».

إلا أنه يقول بعد ذلك مباشرة ما يعبر عن فكره ورأيه فى هذا الأمر بخاصة:

«أمر آدم وحواء إلا يقربا شجرة بعينها، والتحريم من كمال النفس الإنسانية ومَنْ ليست له محرمات حرى ألا تكون له مقدسات، ومن النفوس نفوس هامدة لا محرمات لها ولا مقدسات، وهى بذلك بعيـدة عن كمال الإنسانية، بالإيمان ومعـرفتها بالخير والشر تكون بذلـك ناقصة حتما. والتحريم له جـذور فى الكائنات الحية كلها فهى تحجم عن أمور طبيعيـة وهذا الإحجام ضرورى لحفظ قوتها ومنعها من الإسراف الذى يؤدى إليه الشطط حين يمتد زمنا طويلا».

وأول عصيـان لآدم وحـواء أنهما خضعـا لطبيعتهما الـدنيـا تلك الطبيعـة التى تـرغب فى الاستمتاع المطلق دون قيد أو شرط.

ثم حكما العقل فلم يجدا فى عملهما سببا معقـولا لحرمانهما من هذه الثمرة. ومـا كان لهما أن يحكما العقل فى عصيان أمر الله.

وأضلهما حب الاستطلاع وحب التمتع وتحكيم العقل فى غير موضعه، «ولا تزال هذه الأمور الثلاثة مصدر ضلال كل إنسان بالأمس واليوم وغدا».

□

«ومن منطق تنزيه اللـه الذى هو جوهر العقيدة الإسـلامية، لا يجوز للمسلم أن يفهم هذه الآيات على ظاهرهـا، ولا أن يعتقد أنه كان بين الله والملائكة حديث فيه قـول ورد كالذى يكون بين الناس. وليس عليه أن يؤمن بأن الملائكة سجدوا لآدم على النحو الذى نعرفه».

هكذا يـرى الدكتـور، «بل علينا أن نفهم الآيات التى تنسب فيهـا أقوال وأفعـال بعينها إلى الذات العلية فهما لا نتعدى بـه حدود ما يمكن أن نعلمه من أمور ولا نتعدى بـه حدود التنزيه الواجب علينا».

□

ويفهم الدكتـور كامل معنى الخلافـة على أن الله أراد أن يهب أكبر مخلوقـاته صفتين من صفاته: العلم والإرادة، وهما مما لا يتصف بـه الملائكة أو غيرهم من المخلوقات. ومن الطبيعى أن تكون قـدرة الإنسان بعد أن حـاز هاتين الصفتين وسيلـة يستطيع بها أن يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، وذلك محال على الملائكة الخاضعين خضوعا تاما لأمره تعالى.

وليس للقصة شأن بتركيب جسم الإنسان وكيفية تكوينـه وعلاقته بغيره من الكائنات مما سرد الـدكتـور أمثلة لـه من كتب المفسرين فى أول الفصـل. «وعلى هذا يكـون كل مـا روى فى تفصيل هذه القصة تفصيـلا واقعيا أمرا لا يتعلق بالعقيدة، وليس عليه بـرهان، ولم يكن لأحد أن يقول بهذا التفصيل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير».

الفصل الخامس عشر

بعض ملامح الفكر الدينى عند كامل حسين

□□ هل انتشر الإسلام بحد السيف؟

يرى كامل حسين رأيا حصيفًا فى الاجابة على هذا السؤال وهو يقول:

«الواقع أن الذين انتشروا بالسيف هم العرب، ولما كان دينهم الإسلام كان طبيعيا أن ينتشر دينهم فى البلاد المفتوحة رغم ما أباحوه لأهلها من البقاء على دينهم إذا دفعوا الجزية، وكان انتشار العرب وانتصارهم على الأمم المجاورة ظاهرة طبيعية تاريخية معروفة فى تاريخ كثير من الأمم: أمم غنية قوية فيها جلد وطموح اضطرتها الظروف أن تغير على جيرانها فوجدت فيهم ضعفا وانحلالا فكان لهم النصر، ويحدث عند ذلك أن يعتنق المغلوبون دين الغالبين كما حدث للعرب، أو أن يعتنق الفاتحون دين المغلوبين كما حصل للمغول والأمم التى فتحت روما».

أما أمر المؤمنين بقتل مخالفيهم فى الدين فى مثل قوله: **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** (البقرة: ١٩١) فقد كان أمرا مشروطا بعهد بعينه فى ظروف بعينها، وكان خاصا بمشركى الجزيرة العربية وكفارها بعد أن بذلوا جهودهم فى محاربة دعوة الإسلام.

□

□□ المعجزات:

للدكتور كامل حسين آراء فى المعجزات قد يبدو أنها تخالف آراء الجماعة حين يقول: «إذا كان إيمانك بالمعجزات يقلقك فلا تتعرض لها»، ومن هذه الآراء ما ذكره بعد أن قال إن

المعجزات كانت وسيلة الناس قديما فى التفريق بين التنزيل الحق، والتنزيل الباطل، من قوله **بعدم التعويل عليها فى التفريق** حيث يقول:

«ومهما يكن من أمر المعجزات فى العصور السالفة فإن أحدا فى **العصر الحاضر** لا يستطيع أن يقيم عليها عقيدته فى التفريق بين الحق والباطل».

ثم يقول: «**والمحدثون** يجوز لهم أن يعتقدوا أن التنزيل الحق هو الذى يوافق ما فى نفوسهم من حب الخير ويدفعهم إلى الإحساس..».

فمقياس الصدق هنا مقياس نفسى، والرغبة فى الخير طبيعية فى الناس، وإن تكن فيهم صفة واهنة ضعيفة، **فإذا كان التنزيل يقوى فى الناس هذه الرغبة فهو تنزيل حق.**

وهكذا نجده يجعل المقياس فى أمر التنزيل نفسيا، كما جعله فى أمور كثيرة من قبل على نحو ما عرضنا فى الفصل السادس من هذا الباب.

□

وفى عرضه لقصة إلقاء إبراهيم فى النار التى صارت عليه بردا وسلاما، قال كامل حسين:

«ولكن كثيرا من **المحدثين** يجدون صعوبة فى الإيمان بالمعجزات من حيث هى أمر واقع بالفعل ولا يفهمون كيف تكون النار بردا وسلاما على إنسان ألقى فيها، وبعضهم يريد أن يتخلص من هذا الحرج بالتماس تفسيرات علمية ممكنة تجعل المعجزات أمرا طبيعيا، وعندى أن هذا إنكار للمعجزات على نحو ما، ونفى لدلالتها، والقائلون بهذا الرأى لا يختلفون عن المنكرين للمعجزات من حيث تأثرهم بها فى إيمانهم بالأنبياء، ومن الواضح أن المعجزات تتعلق بصدق الأنبياء أصلا وليست إثباتا لقدرة الله، فهى أوضح من أن تحتاج إلى إثبات ولا داعى لهذا كله، وعندى أن الذين يجدون صعوبة فى تصديق المعجزة من حيث هى واقعة، والذين لا يتصورون أن تقف القوانين الكونية الدنيا فجأة لا يغير إيمانهم فى شىء أن يتدبروا مغزاها التنزيلى ومغزاها النفسى، وخير لإيمانهم ألا يرغموا أنفسهم على تصديق ما لا يجدون له صدى فى نفوسهم».

ومنطق الدكتور هذا لا يقتصر على فهمه للمعجزات، وإنما هو يعممه:

«فإنى لا أرى أن نرغم الناس على طريقة بعينها فى فهم القصص القرآنية، والناس

يتساءلون كيف يؤمنون بما جاء فى الكتب السماوية إذا لم يؤمنوا بها حرفيا، وعندى أن الأمر يتعلق بطبيعة المؤمن، فإن كان ممن يتزعزع إيمانهم إذا لم يؤمنوا بحرفيتها فعليه أن يؤمن بذلك، وإن كان ممن فى طبعهم أن يؤمنوا إيمانا خالصا قويا عن طريق فهم مغزى هذه الكتب ومراميها فهو فى حل من أن يقصر إيمانه على ذلك. وقد يقوى الإيمان بالفهم الطبيعى وقد يضعف، والعبرة تكون بالفهم الذى يزيد المؤمن إيمانا. والحقيقة فى الكتب المنزلة هى الحق الذى نؤمن به، وليس الناس سواء فيما يؤثر فيهم فيهديهم ولا يمكن فصل الحقيقة عن الإيمان بها، فالحقيقة فى أمور العقيدة والغيب ليست من نوع قولك «الشمس طالعة» بل هى متصلة اتصالا وثيقا بالإيمان بها».«وآيات خلق آدم وعصيانه حقيقة من غير شك ولكن فهمها يختلف باختلاف العقليات ويباح للمؤمن بل يجب عليه أن يفهمها على النحو الذى يؤدى به إلى الإيمان بها». «ولا يطعن فى إيمان المؤمن ولا ينقص من قدر إيمانه أن يفهم الوقائع فى مثل هذه الأمور فهما يختلف فيه عن غيره من المؤمنين ولو كانوا كثرة بالغة. ذلك أن فهم الواقع نوع من قدرة العقل ونمو علمه».

□

□□ الديـــن:

يخشى مفكرنا على الدين عامل الزمن وعامل الرقى ونمو العقل، وهو لهذا يدعو الدعاة إلى ألا يجعلوا الدين يعرض لما لا يستطيعه العقل، فإن الرقى العقلى يغير من فهم الناس لهذه الأمور ولا يجوز على الدين أن يتغير معها حتى لا يفقد قدسيته.

وهو يدعو إلى عدم ربط اتباع الدين بصلاح أمور الناس فى الدنيا، فإن ذلك قد يؤدى إلى إنكار الناس للدين حين يرون اتباعهم لأوامره يعرضهم للخطر أو يحرمهم متعة من متع الحياة. وللدكتور فى الجزاء نظرية سنعرضها فى فصل تال من فصول هذا الباب. إنما ينبغى أن يُدعى إلى الدين على أنه تعبير عن الإيمان والإيمان جزء لا يتجزأ من تكوين الإنسان وبدونه يظل بالطبع حيوانا.

□

ويرى كامل حسين أنه لا ينبغى أن يضع الدعـاة إلى الدين للناس نظاما يقضى على الظلم، فليس ذلك من عمل الدين، فإن الدين يحكم الضمير، والجماعة لا ضمير لـه، وإنما يؤثر الدين فى النظم والجماعات وسيـاستها على طريقـة غير مباشرة، فهو يـؤثر فى الجماعة حين يـؤثر فى الأفراد، ولو أن الدين وضـع للناس نظاما للحياة، ثم رأى الناس أن يعدلـوا عنه إلى غيره لذهب ذلك باحترام الناس وطاعة الناس لـه فيما هو أخص أموره. ويعرض علينا كامل حسين رأيين، يتعلقان بارتباط المثل العليا بالدين:

(١) أولهما يرى أنه لا ينبغى جعل المثل العليا جزءا لا يتجـزأ من الدين يحمل الناس جميعا عليها، وإنما تظل منارا يهتدى به، فمن استطـاع أن يتبعها مختارا فهو خير له ومن لم يستطع فلا ضير عليه ولا يعد مخالفا للدين، ويؤيـد هذا الرأى بالخوف على الدين فإن من الخطر عليه أن يتهامس الناس فيما بينهم أن أوامره عسيرة لا يقدر عليها إلا القليل، وأن نواهيه تمنع خيرا كثيرا، ولا ترد الأذى إلا نادرا. فإذا أصبحت أوامر الدين من السمو بحيث لا يستطيعها إلا قليل من الناس بعـدت الثقة بينـه وبين الحياة، وضعف أثـره فى إصلاح النـاس، وتجرأ الناس على تعاليمه فلا يقتصرون على ترك الصعب منها بل يتركون السهل أيضا.

(٢) وثانيهما يـرى أن الدين يجب أن يكـون جماع المثل العليا التى يعـرفها النـاس سواء استطاع الناس أن يـوفقوا بين حياتهم وتعاليمه كلها أم لم يستطيعـوا ـ إنما على الدين أن يظل حقيقة ثابتة دائمة سامية. وأنه إذا قيس بما يصلح لقوم بعينهم فى عصر من العصور فإن ذلك يجعله عرضة للأخطار التى تأتيه من الرقى الطبيعى، ومرور الزمن، وتقدم الإنسانية، واتساع العقل، ونمو العلم، وقد تتغير النظم الاجتماعية وقد يسمو شعور الناس بالعدل الاجتماعى إلى ما هو أرقى مما يصلح فى عصر من العصور، عند ذلك تكون أوامر الدين أقل شأنا مما تأمر به القوانين الوضعية، وفى ذلك الخطر كل الخطر على الدين.

□

□□ العقل والإيمان :

هـذه بعض آراء طريقـة أدارها مفكـرنا الكبير بين مـؤمن وفيلسوف غير مـؤمن فى «قريـة ظالمة». فالإيمان هو الإحســاس الذى يستطيع به الإنسان أن يتبين معنويـات ما يحدث حوله ومغزى ما يقع عليه. والمؤمن هو الذى يرى بين المعنويات والماديات صلة، ويؤمن بوجود أشياء لا يتعلق بفهم كنهها وحقيقتها عقلا.

وليس لأحد أن ينكر ما لا يدركه العقل (وهى فكـرة كررها مفكرنا كثيرا) وينبغى للإنسان أن يؤمن بأن هناك قوى تعمل فى حياتنــا لا نفهم كنهها ولا نستطيع أن نفهمها. والحيوان غاية فهمه الإلهام ولما كان العقل فوق الإلهام فإن الحيـوان لا يستطيع بإلهامه أن يتصور العقل أو يفهم كنهــه، وكذلك الإنســان غايــة فهمه العقل ولما كــان الإيمان فوق العقل فإن الإنســان لا يستطيع بعقله أن يتصور الإيمان أو يفهم كنهه:

«والـدليل على أن الإيمان فـوق العقل أن الإيمان لا يكــون إلا فى العقـلاء، أمـا العقل فيكون فى المؤمنين وغير المؤمنين، وهذا يعنى فى الترتيب الطبيـعى أن الإيمان فوق العقل، وهذا لا يعنى أن الأول يمحــو الثانى بل يــدل على أنه قد يكـون فى الإيمان ما لا يستطيع العقل أن يكون حكما فيه».

□

وليست هذه هى كل ملامح الفكر الدينى عند كامل حسين إذ يتغلغل هذا الفكر فى كل أعمال كامل حسين وآثاره الفكـرية، وخلاصة مــا يمكن قوله فى وصف فكره الــدينى أنه فكر مستنير وباعث على الاستنارة، فكامل حسين يتناول القضايا العامة والمسلمات برؤية جديدة تعمق من فهمنا لحقيقة الإيمان والتدين، وهو حريص على كل القيم الــدينية بلا استثناء ولكنه يصدر فى كل هذا عن فكر ثاقب واقتناع وليس عن مجرد الاتباع.

الفصل السادس عشر

بعض ملامح الفلسفة الأخلاقية

□□ التحريم :

يرى الدكتور كامل حسين أن الشرع أراد تحريم كل **شهوة غالبة**، وهذه هى حقيقة التحريم.

وإذا كانت موعظة الجيل (التى أدارها فى قرية ظالمة) قد ركزت على اشتهاء المرأة فليس ذلك إلا مثلا للشهوة الجامحة سواء أكان ما يشتهيه الإنسان امرأة أم جاها أم مالا. ولا ينبغى تركيز الإثم كله فى الشهوة إلى النساء.

وللدكتور كامل حسين آراء كثيرة فى مواضع متفرقة تؤكد فكرته هذه عن التحريم وحقيقته ومغزاه، وقد مرت بالقارىء فى الفصول السابقة وستمر به فى الفصول التالية فقرات كثيرة تؤكد هذا المعنى الذى عبر عنه بتركيز شديد فى عمله الأدبى الخالد «قرية ظالمة»

□

□□ الجزاء :

لكامل حسين فى فكرة الجزاء نظرية قريبة جدا من الصواب، ولا أحسب أن أحدا سبق مفكرنا إليها.

تقول النظرية إن الله لا يجزى طهارة النفس بسلامة الجسم، ولا يعاقب على خطيئة الروح

بسقم الأبدان، وإنما يكـون الجزاء من جنس العمل، والعقاب لا يكـون عدلا إلا إذا كـان نتيجة طبيعية للـذنب، ولا يجوز على الله الظلم ولو أنـه عذب الكـافرين بآلام الجسم لكـان هذا ظلما وإنما يعذبهم بقلـق الضمير. والألم ليس عذابـا ولا تطهيرا، وإنما هو نتيجة طبيعيـة لخطإ فى الجسم لا يتعلق بـالنفس، والألم الـذى يصيـب المؤمنين ليس امتحـانـا، وليس بين الإيمان والصحة من سبب، ولو كان الأمر كذلـك لأصبح الناس جميعا طيبين مؤمنين، ولم يرد الله أن تكون سنّته فى الخلق على هذا النحو.

□

ويستقيم لنا فهم هذه النظرية إذا لخصنـا رأى مفكرنا فيما يصيب الإنسان من الشر، فهو يرى أن ما يصيب الإنسان من الشر نوعان:

نوع يأتيه من حيث هـو حيوان كالمرض، وما يصيبه من تعرض لأحـداث الطبيعة، وهو فى هذا لا يختلف عن غيره فى شىء. وليس مـا يصيبنا من أذى بأكثـر دلالة على الظلم من المرض يصيب الـزهرة أو الداء يصيب الحيـوان، وليس هذا ظلما ينسـب إلى الله **فإن الله لم يجعل سننه الطبيعية متعلقة بما ينفع الإنسان وحده.**

والنوع الآخر من الشر يصيب الإنسـان من عمل غيره من الشر، وهذا تركه اللـه لنا وجعلنا عنه مسئولين، ولم يجعل الضمير جدارا عاليا يمنع الإنسان أن يتخطى حدوده، ولم يجعله نارا تحيط بنا فتحرق من يحاول أن يخرج وراءها، بل جعله هاديا ووعظنا أن نتبعه.

ولن يحدث أبدا أن يقع حجـر رأسا على الأرض ثم ينحـرف عن طريقـه لئلا يقع على رأس متعبد مؤمن أو طفل بـرىء، لأن هذا الانحراف عن نظام الطبيعة يقضى على نظـام العالم كله كما نعرفه. ولن يحدث أبـدا أن يمتنع السيف فى يد العملاق الظالم عن قطع يـد المظلوم لبراءته كل ذلك لا يتعلق بقدرة الله وعدله فإنه ليس بين هذه الأمور وبين عدل الله من سبب، ولو ساد رأى الناس فى عـدل الله فى هذه الأمور مـا بقى على الأرض من قانون طبيعى يسير عليـه نظام الأرض أو السماء.

أما ما يصيب الناس من شر يجلبه بعضهم على بعض، فالمؤمنون يودون لو أن عقاب الشر يكون عاجـلا ويكون حتما حتى يؤمن الناس بـالله وبالضمير، وهذا أيضـا جهل بسنة الله فى الكون وذلك أن النتيجة لا تتبع مقدماتها فورا، أو على طريق الحتم إلا فى القوانين الطبيعية التى

يخضع لها الجماد، أما الكائنات والحياة ففيها مرونة وقدرة على التحول، وفيها تعقيد فى قوانينها يجعل بين السبب والمسبب فرجة من الوقت وقدرة على تجنب كثير من النتائج فلا تكون الحتمية واضحة، وهذه الفرجة قد تجعل من الصعب أن نتبين الجزاء فى عمل الفرد، ولكن البحث فى أمور الإنسانية كلها لا يدع مجالا للشك فى أن الذين يتبعون الضمير يفشو فيهم الخير، وأن الذين يتعدون حدوده يفشو فيهم الشر.

□

□□ القضاء والقدر :

أما القضاء والقدر فهو ما يصيب الإنسان خيرا أو شرا من غير سبب يعلمه أو عمل يقوم به فى سبيل ذلك. وكل شىء حر فى عمل ما يريده فى دائرة حدود القوانين الخاصة به، ودائرة الاختيار فى الإنسان أوسع منها عند غيره. أما إذا أصابت صاعقة رجلا فإن ذلك يعد عند بعض الناس قضاء وقدرا، وهو ليس كذلك لأنه عمل من أعمال قوانين الفيزياء (وهى قوانين أدنى كما أوضحت نظرية وحدة المعرفة). ولا شك أن آراء الدكتور التى أوردناها فى فصول هذا الباب مع أصالتها وحداثتها تلقى كثيرا من القبول، بل وتهيىء لنفوس الإنسانية ملاذا يحميها من غائلة الهواجس.

□

□□ القتـــل

فى أفكار كامل حسين عن القتل ترى إلى أى حد تسيطر النزعة الانسانية على فكر كامل حسين حتى وإن كانت من منطلقات مختلفة.

يكره مفكرنا القتل كرها شديدا، ولا يستسيغه ولا يقره تحت أية دعوى، وقد عبر عن هذه المعانى بصورة واضحة تماما فى «قرية ظالمة» وعنده أن القتل لا يكون جزاء أبدا، ولا يسوغه مقصد، مهما يكن ساميا حتى لو كان قطعا للفتنة والفساد، لأنه ليس أحد غير الأنبياء يستطيع أن يحكم على أمر أنه فتنة تدعو إلى القتل. ولا يحل القتل بدعوى الدفاع عن الدين أو الوطن لأن من حمل السلاح وآذى الناس دفاعا عن الدين فقد وضع الدين فوق الله الذى يأمر بالحب لا

بالقتل، والله كفيل بحفظ دينه وليس فى حاجة إلى عبيد خاطئين ينقذونه، «إن الذين يدافعون عن الدين بإيذاء الناس إنما يدافعون عن رأيهم وحدهم بل أكثرهم إنما يدافع عن حقوقه ومزاياه».

أما الدفاع عن الوطن بالاعتداء على الأعداء فهو عنده باطل يزينه للناس رجال أخطأهم التوفيق، ولو كانوا أكثر حكمة لجنبوا قومهم الموت فى سبيل أخطاء ارتكبوها. والذى يسوقه قومه إلى الحرب إنما يقتل قومه قبل أن يقتل أعداءه. وكلا المتقاتلين يظن أن عدوه هو المعتدى وأنه هو الذى يدافع عن نفسه وعن وطنه، وهو وهم يخدعه به غيره، وهؤلاء - أى الذين يخدعون - بين أمرين: إما أن يكونوا لا ضمير لهم، وإما أن يكونوا جهلاء مخطئين، والقتل يدعو إلى الثأر، والمتقاتلان أحدهما مهزوم حتما فالشر جزء منه لا يتجزأ، ذلك أن الظلم واقع على المهزوم لا محالة، والمنتصر لا يستطيع العدل، وظالم العدو تقوى شهوته إلى الظلم، فيظلم أهله بعد النصر».

□

□□ الضمير والقوى الحيوية :

يمكن القول على سبيل الاجمال بأن قصة «قرية ظالمة» هى «قصة الضمير الإنسانى عندما يطفىء الإنسان نوره»، ولكننا مع ذلك نعرض آراء عامة وأقوالا سريعة للدكتور كامل حسين فيما يتعلق بالضمير وهى الآراء التى تحفل بها كتبه جميعا وبخاصة «الوادى المقدس» و«قرية ظالمة» وسنعمد هنا إلى تلخيص أفكاره عن الضمير فى جمل قصيرة:

□ الضمير الإنسانى قبس من نور الله.

□ وهو وحده الذى يصرف الناس عن الشر.

□ الناس حين يفقدونه لا يغنيهم عنه شىء.

□ ولن يصيب الناس شر إلا ومرجعه ما يعتريهم من رغبة فى تجاهل الضمير.

□ وما يميز الإنسان عن الحيوان هو الضمير، وبدون الضمير لا يكون ابن آدم إلا حيوانا عاقلا ذكيا، أما أن يكون إنسانا فذلك محال.

□ إذا اهتدت الطبيعة البشرية فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا.

□ ضمير الفرد الإنسانى وحده هو سبيل الهدى والحق، ولكنه يضطرب ويحار ويخطىء.

وفى «قرية ظالمة» يجرى كامل حسين على ألسنة الحواريين هذا الدعاء:

«اللهم إنك أنعمت على النــاس فوهبتهم الضمير وهــو روح منك وجعلت أمره أمــرك ونهيه نهيك، فمن أطاعه فقــد أطاعك.. وتركت أمر اتبــاعه لنا فاجعل أعمالنــا فى حدود هذا الضمير.. اللهم لا تجمع علينا من أمور الــدنيا ما يحملنا على تعــدى حدود الضمير.. اللهم ألهم الناس ألا يهتدوا بغيره وأوزعهم ألا يتغاضــوا عنه لأمر مهما يكن جللا، وألا يقيموا أوثــانا يعبدونها من دونه يحسبونها خيرا فإنــه لا خير وراء الضمير.. اللهم واهد الذين يتولــون أمور الناس إلى ألا يضعوا نظما تضطرهم إلى تعدى حدود الضمير».

□

و يقسم كامل حسين القوى التى تعمل فى حياة الناس إلى قــوى ثلاث: القوة الحيوية، وقوة العقل، وقوة الضمير، ثم يبين أن فى القوة الحيوية خيرا وشرا، وفى القوة العقلية كذلك خيرا وشرا، أما الضمير فهو خير كله، وإن كان بعض الشر يأتى إليه من الذين يقومون بأمره.

ويرى كــامل حسين أن لكل من هذه القوى فــريقا من الناس يــؤمنون بها ويدعــون إليها ويريدون لها أن تســود وحدها، وهذا التفكير فى رأيه خطأ وهــو أصل الداء، فإن الضمير نفسه على ما فيــه من خير لم تصلح به وحده حــال الناس إلا فى العصــور الأولى لكل دين حين يكون الدين قــويا نقيا طــاهرا، وحين تكون الحياة بسيطــة والعقول هادئة، حتى إذا امتــد بالضمير الزمن وقع الخلاف بينه وبين الحياة وبين العقل، ويكون من أثر ذلك أن يصيبه الضعف حتى لا يتأثر به أحد أو يشتد بطشه فيذبل العقل ويضعف النشاط.

ويفند الدكتــور رأى من يرون أن نمو العقل يصحبه نمو فى قــوة الضمير وما فيه من خير لأنه إذا كان الضمير لم يستطع فى أوج قوته أن يمنع الشر وهو ضعيف فهو إذن على منعه بعد ذلك أعجز.

□

ويرى الــدكتور كــامل حسين أن طبيعة العقل أن يكون دليــلا هاديــا، وطبيعة الضمير أن يكون رادعا نذيرا (مع أنه فى أول كتابه «قرية ظالمة» كان يتحدث عن الضمير كهاد).

«ولو بقى كل منهما على طبيعته لعم خيرهما، أما أن يكون الضمير هاديا والعقل رادعا فهو خروج على طبيعة كل منهما».

«وسبيل الإصلاح هو تهذيب هـذه القوى وتحديدها ورياضتهـا على ألا تطغى إحداها على غيرهـا حتى فى الخير فإن الخير حين يتخطى حـدوده يصبح شرا لما يـؤدى إليـه من اختـلال التوازن».

والاعتدال وحده هو الذى يجمع هذه القـوى على الحق وتكون قوة العقل دليلا. وتكون قوة الضمير مـانعة لهما من الشطط على أن يكـون فيهـا ميدان أوسـع تعمل فيه يتسع لاختـلاف مشارب الناس وطباعهم ومدى قبولهم للتأثر بما فيها من خير.

□

□□ الفرد والجماعة :

يقدس مفكرنا الكبير «الفرد» ويرى أن وسيلـة الإصلاح الأولى هى إصلاح الفرد، فالضمير الإنســانى هو أقـوى ما يهدينـا إلى الخير بل هـو وحده سبيل الهدى إلى الحق، والجماعـات لا ضمير لها ولا يزعج ضمير أحد من أفرادها ما ترتكبه جماعته مهما عظم الإثم.

ومَثَلُ ذلك الحرب وما يحدث فيهـا من فظائع لا يـرضى عنها ضمير أى فرد من أفـرادها، ولكن الجماعة تقدم عليها راضيـة مستريحة، وتفسير ذلك عنده أن الجريمة مهما تكن عظيمة يسهل وقـوعها إذا وزعت تـوزيعا يجعل نصيـب الفرد من ذنبهـا أصغر من أن يضطـرب لها ضميره. وهكذا فإن الجماعـة تقدم على الشر فى يسر بالغ لأن أفرادها يقتسمـون وزر الإثم فلا يشعر أحد منهم بأنـه آثم حقا، والجماعة تقدم على الخير فى صعوبة لأن كل فـرد منها يؤثر أن ينسب إليـه الفضل، والجماعـة تحجم عن الخير فلا يعفى ذلـك أحدا من أفـرادهـا من تأنيب الضمير، ويظل كل فرد منها يعد نفسه آثما إذا لم يقم بـواجبه وحده ولو كره غيره أن يتعرض للخطر.

لهذا كان الإقدام على الشر أسهل على الجماعة والإقـدام على الخير أصعب على الجماعة. أما الإحجام عن الخير فهو مجلبة للنـدم سواء أكان الإنسان وحده فى هذا الإحجـام أم كان له فيه شركاء.

□□ الحـــق والقـــوة :

ومما كرر كامل حسين القول به استنكاره استعـانة الحق بالقوة لتأييده، ولم يكن هذا إلا امتدادا لدعوته إلى البعد عن إكراه الناس حتى على الخير.

ومن أقوالـه السديـدة التى كرر القـول بها: «إن القوة إذا انتصرت للحق فـالنصر للقوة لا للحق».

والقوة من طبعهـا الشطط فلا تلبث أن تنتصر للباطل، فإذا اصطـدم الحق والباطل وانهزم الحق فإن ضمير الناس وسير التـاريخ كفيلان بإصـلاح الخطإ، أما إذا استعان الحق بـالقوة فالغلبة لها.

ويمضى به منطقه إلى أن يقول:

«وما دام الحق فى المحل الثانى فسيان أن يكون خاضعا للحق أو للباطل وكل من اتخذ القوة وسيلة إلى الحق سيجد بعد قليل أنه إنما اتخذ الحق وسيلة إلى القوة».

□

□□ هل تبرر الغاية الوسيلة ؟ :

لا يرى كامل حسين هـذا الرأى، وذلك أن الوسيلة السيئة لا تؤدى إلى الغـاية الحسنة أبدا، فالشر لا يؤدى إلى الخير مطلقـا. وهو ينص على ذلك فى «قرية ظـالمة» وفى قصته «أى الطريقين أهدى» يسخر كامل حسين كل ما أوتى من قوة البيان والتعبير ليثبت هذا المعنى.

□

□□ السـرقة :

يرى كـامل حسين أن السرقة ليست مـا اصطلح الناس عليـه عادة، وإنما هـو يرى أن مَنْ كسب شيئا لم يبذل فيه جهدا فقد سرق، فمن أحـرز شيئا بذكائه ودهائه دون جهد بل ابتزازا ممن بذل فيـه غايـة جهده فقد سرق. ولعل فى هـذه الفقرة على تركيـزها خـلاصة رأى مهم فى مفهوم السرقة من الناحية الخلقية.

الفصل السابع عشر

بعض ملامح الفكر السياسى

□□ الوطنية والإنسانية :

يرى مفكرنا فى كثير من أعماله وفى «قرية ظالمة» بخاصة أن حب الوطن فضيلة لا ينكر أحد قدرهـا، ولكنها ليست غايـة الفضائل بل هو طـور من أطوار الـرقى الاجتماعى، وسيأتى يوم يكون فيه النظام الاجتماعى كافيا لإقناع الناس أن حب الإنسانية كلها والدفاع عنها أجدى على الوطن من حب الوطن وحده. وسيكون العالم كله عندئذ وحدة تجعل حب الإنسانية تجلب لكل وطن فوائد لا تتحقق بخدمـة الوطن وحده. وسيمنع حب الإنسانيـة عن الوطن من الأذى ما لا يمنعه حب الدفاع عن الوطن وحده.

«عند ذلـك يبدأ النـاس فى التفكير الإنسانى فنـراهم يفضلون خـدمة الإنسـانية على خدمـة الوطن، ولن يكـون ذلك عندئذ خيانـة للوطن بل سيكـون هذا أجمل الدفـاع عنه وأنجحه».

وهـذه من الآراء التى سبق بها مفكرنـا الكبير عصره وإنا لنأمل أن يأتى هـذا اليوم الـذى يكون فيه النظام الاجتماعى كافيا لإقناع الناس أن حب الإنسانية كلها والدفاع عنها أجدى على الوطن من حب الوطن وحده.

□

□□ الاشتراكية والشيوعية :

لم يكن الدكتور كامل كامل من أنصار الشيوعية، وقد عبر عن ذلك صراحة، بل إنه اتخذ من العمل الفنى وسيلة إلى التعبير عن هذا الرأى، وليست قصة (أى الطريقين أهدى) التى نشرها فى إبريل عام ١٩٦٢ ـ فيما أرى ـ إلا تحذيرا منه وقتها لمصر أن تسلك مسلك الشيوعية.

وقد ذكر الدكتور كامل حسين فى كتابه التحليل البيولوجى للتاريخ أن المثل الأعلى للاشتراكية هو أن تكون الجماعة سعيدة ولا يكون فيها فرد سعيد، غنية وليس فيها فرد غنى كحياة النحل، وحياة النحل على كمالها بالنسبة لهذا الحيوان تقوم على الإلهام ولا تصلح مثلا أعلى لحياة الإنسان التى تقوم على الضمير والعقل وهما صفتان غريزيتان.

وفى قصته «أى الطريقين أهدى» عمد كامل حسين إلى التعليق على الماركسية فقال: «وأشد أنصارها لا ينكرون أنها حدت من التفكير الإنسانى حين جعلته اقتصادا محضا، وأنها أكدت شر ما فى الحياة الإنسانية من عاطفة وهو النضال بين الناس». ثم قال عن رأى ماركس فى العدل الاجتماعى: إنه **«رأى بدائى لا يرى العدل إلا أنه اقتصاص من الظالم دون أن يعنى بتحقيق سعادة المظلوم»**.

ولا ينكر الدكتور أن الماركسية تنظم للعالم نظاما واضحًا **«ولكنه نظام خال تماما من كل معانى الحب والعطف بين الناس، وهذا أضعف نواحيها وأخبث ما فيها، ولا يمكن أن تكون مصدرا للخير إذا ظل أهلها يتجاهلون ما يكون بين الناس من حب وهو أكرم وأقوى عاطفة فى الإنسان»**.

وكان الدكتور كامل حسين حريصا على أن يرجع السبب فى ازدهار الشيوعية فى روسيا بعد الحرب العالمية الأولى إلى الظروف التى عاشتها روسيا فى هذا الوقت، وقد قرر هذا المعنى فى كتابه التحليل البيولوجى للتاريخ تقرير العالم، ثم صاغه فى صورة فنية فى قصة «أى الطريقين أهدى».

والحقيقة أن رأى الدكتور كامل حسين من حيث هو صادر عنه يعبر تعبيرا تاما عن الروح التى سادت حياته، والفكرة التى ملأت عقله وهو رجل من دعاة السلام والإنسانية و الحب والإخاء.

□

□□ **التقسيم السيكولوجى للبشر :**

قد يكون هذا الفصل عن ملامح الفكر السيـاسى لكامل حسين مناسباً لعرض آراء مفكرنا الكبير فى هذا الموضوع والتى ذكرها فى:

□ كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٥.

□ فى الباب الخامس من كتابه (الوادى المقدس).

وهو يرى أن الروابط التى قامت بين الجماعـات منذ القدم روابط ضعيفة قلقة، لا يمكن أن تؤدى إلى التجانس بين الجماعات المختلفـة، ويرى أنه لابد لأفراد الجماعة الـواحدة من تشابه فى أعماق نفوسهم «هذا التشـابه هو الذى يجمعهم لتستقر به جماعتهم استقـرارا طبيعيا قويا يرجى منه أن يؤدى إلى السلم بين جماعات مستقرة مطمئنة».

أما اجتماع الناس على أمور عارضة أو حـادث بعينه فإنه لا يؤدى إلى الوئام بين المجتمعين ولا إلى السلم بين جماعات متباينة.

□

وإذا بحثنا أعماق النفـوس لوجدنـاها أربعة أنـواع: فهى إما أن يكـون أصل طبعها الهدوء التـام، أو الكبح الهادى، أو الاندفـاع المتزن، أو الانـدفـاع العنيف، والجماعات التى تقـوم على تشابـه أفرادهـا فى هذه الطباع هى الجماعـات السوية التى قـد يتحقق فيها خير الإنسـانية فى تطورها الحديث.

□ فالذين من طبعهم الهدوء التام لا يضطـربون للأحداث الطارئة ولا يعنيهم أن يجدوا فى حياتهم كل يوم جديدا، وليس من صفـاتهم الملل الكثير، هؤلاء هم المحافظون بطبعهم، حياتهم مستقـرة نفسا وخلقـا، ولا تعتريهم نـزعة قـويـة إلى تغيير حياتهم ولا تضيق نفـوسهم بهذا الاستقرار، وهـؤلاء تغلب عليهم الحكمة، وسـداد الرأى، ودماثـة الخلق، وحسن الجوار، وهم الأكثرون فى كل أمة وكل عصر، ويغلب على أهل الشرق الأقصى هذا الطبع خاصة.

□

□ والذين من طبعهم الكبح الهادىء هـم الذين يشعرون بـالرغبة فى الانـدفاع، ولكنهم لا يخشـون شيئـا خشيتهم أن يؤدى بهم الانـدفـاع إلى الخطإ أو الخطيئـة. وهم الـذين يعنيهم

الحلال والحرام وفيهم تقوم الأخـلاق الدينية، ومن ذلك مـا نراه فى الوصايـا العشر فإن سبعا منهـا تدعـو إلى الكبح الهادىء من حيث هى نواه عن الانـدفاع. هـذا الكبح الهادىء يجمع بين الحياة النـافعة والخلق القويم، وتراه على خير وجـه فى أهل الثقافة الـدينية، وبخاصة ديـانات الشرق الأدنى.

□

□ والـذين من طبعهم الاندفـاع المتـزن هم الذين يحبـون أن يعملـوا، ويودون أن تكـون حياتهم ملأى بما يثير الرضا فى نفوسهم والإعجاب فى من حولهم يحبون الجديد فى غير إسراف أو شطط ويشتاقـون إليه فى غير ملل أو ضيق أو كره شـديد للقديم، ولا تـراهم يفضلون كل جديد، وإن كـان قبيحا على كل قديم، وإن كان حسنـا، وهم كثيرون فى كل زمان ويمثلهم خير تمثيل أهل الثقافات الكلاسيكية فى الأمم العريقة وخاصة فى أوج مجدها الثقافى.

□

□ والذين من طبعهم الاندفـاع القوى هم الذين يريدون كل يوم جـديدا، وأخص صفاتهم الملل، ولا يعنيهم أن يكون الجديد الذى يرغبون فيه أدنـى من القديم الذى ينبذونه. هذه صفة العصر الحديث وفيها خطر كبير إن لم تحد من شططها قوى المحافظة والاتزان والكبح.

الفصل الثامن عشر

بنو إسرائيل

سنتناول فى هذا الفصل بإذن الله:

☐ رأى الـدكتور فى «قصـة الخروج والعقلية اليهـودية». وهـو الفصل الثـانى من كتابـه متنوعات جـ ١، والذى وضـع له عنوان «أحسن القصص».

☐ الإشارة إلى «قصة الخروج والعقلية اليهودية» فى فصل «إعجاز القرآن» من كتاب «الذكر الحكيم» كمثل على قـوة التعبير حين يكـون المعبر عنه خلق جماعـة من النـاس تطبعت نفوسهم من أثر حوادث ما.

☐ فصل «يا بنى إسرائيل» فى تفسيره لسورة البقرة فى كتاب «الذكر الحكيم».

☐ فصل «يهود المدينة» من كتابه «الذكر الحكيم».

☐ آراؤه التى جاءت عرضا وفى مواضع متفرقة من عمله الأدبى الخالد: «قرية ظالمة».

☐

وهذا عرض سريع لرأى الدكتور فى **قصة الخروج والعقلية اليهودية:**

(١) هـذه القصـة أروع مثل على قوة التعبير، والتعبير بها على هـذه الصـورة أصـدق من المعلـومات الكثيرة والـدرس العميق والبحث المستقصى لهذه الجماعـة من الناس، ولا أعـرف شيئا يقاربها فى تصوير بنى إسرائيل وما جبلت عليه جماعتهم من خلق خاص بهم.

(٢) ظلم بنو إسرائيل فى عهـد من حياتهم ظلما لا يطاق، لـو وقع بعضه على غيرهم لقضى على قوميتهم وقوة تضــامنهم، وصبروا على هذا الظلم صبرا لم يعهد التاريـخ مثله عند غيرهم فى زمن من الأزمنــة، ولكن جماعتهم لم تتفكك من أثـر هـذا الاضطهاد، كما يحدث للجماعـات عادة، بل اتخذوا منه وسيلة لتقوية الروابط بينهم، وجمعت بينهم أخوة المظلومين فصارت لهم بذلك قوة نفسيــة داخلية، ومن ثم كان مزاجهم النفسى الـذى جعل من تشتتهم وحدة داخلية أعمق من وعيهم.

(٣) ثم جاءهم داع يدعـوهم إلى الانتفاض على ظالميهم. يدعوهم إلى الحريــة على أن يؤمنوا بالله، كأنما كانوا قد نسوا ما آمن به أجدادهم من قبل حتى خيل إليهم أنه لم يعد فى الأرض من ينتصر للمظلومين.

(٤) جاءهم موسى آسيًا قويـا لا يحتمل الضيم، وكان موسى من أكبر رجال التاريخ أوتى القوة، والعـزم، والإيمان، وحب الحرية، والعدل، وكانـت فيه القدرة على إخضاع النـاس لأوامر يتبعونها مع ما قد يكون فيهـا من خطر عليهم، وانتهى الأمر ببنى إسرائيل إلى أن أطاعوا نبيهم موسى وخرجوا معه.

(٥) ولكن حدثت لهم فى أثناء خروجهم حوادث كـادت تقضى على ثقتهم به، وبما يدعوهم إليه، وكـان أن أشرفوا على الهلاك ولم يكن لهم أن يرجوا رحمة أو رأفــة من قوم فرعـون الذين اتبعوهم، حتى إذا لم يكن بينهم وبين الموت إلا قيـد شعرة أنقـذهم الله بمعجزة لم يعـرفوا لها سببا طبيعيـا، وبذلك خـرجوا فى طـرفة عين من اليأس المميت إلى ذروة الأمل البـالغ. فلما رأوا أنفسهم قد نجوا، ورأوا أعداءهم غرقى فى قاع البحر اضطربت نفوسهم اضطرابا شديدا لأن ما وقع لهم لم يكن عملا طبيعيا تؤدى فيه الأسباب إلى نتائجها، وكأن حياتهم أصبحت خليطا من اليأس المزعج والأمل فى معجزة تنجيهم من نتائج أخطـائهم وذنوبهم، ولم يكن عجبا أن يظنوا أنفسهم الشعب المختـار، وأنهم مهما تكن خطايـاهم أو خطؤهم فسـوف ينجيهم الله فى آخـر الأمر بمعجزة لا يعرفون لماذا وقعت ولا كيف وقعت.

(٦) ولعل موسى عجب بعد ذلك من عصيانهم وجحودهم وإصرارهم على العصيان وشدة مراسهم وعودتهم إلى الكفر وإنكارهم فضل الله عليهم حين أنزل عليهم المن والسلوى.

ولعله عجب أن رآهم يعبدون العجل بعد أن رأوا من آيات الله ما رأوا. ولم يكن له أن يعجب. ذلك أن ما حدث لبنى إسرائيل لم يكن ليتركهم آمنين مطمئنين نفسيا، بل لعل ذلك كان من أكبر أسباب اضطرابهم العقلى والنفسى.

(٧) ولعل فى هـذه القصة تفسيرا لما يجد بعضنـا من صفات غير طبيعيــة فى هؤلاء القـوم،

فإنك لتجد أحـدهم يبكى حتى تنشق نفسه لرؤيـة أخيه يعذب أمامـه، ثم لا يلهيه ذلك عن أن يتلمس وسيلة يفيـد بها من دم أخيه المسفـوك، وهو ما حـدث بعد الحرب حين أقـاموا وطنهم مستدرين من أجل إقامته عطف العالم بعد ما أصابهم من قتل الآلاف منهم.

(٨) والرجل حين يمتحن عند الشدة يظهر ما فيه من خلق كريم، أما اليهودى فلا تظهر منه الشدة إلا أسوأ ما فيه.

(٩) لـو لم يكن بنو إسرائيل قـريبين من الموت إلى حد أنهم رأوه رأى العين لكـان خيرا لهم، ولو لم ينجوا منه جميعا أو لو نجوا بغير معجـزة أو لو قاتلوا عدوهم فقتل منهم من قتل ونجا منهم من نجا، لكان خيرا لهم.

ولكن اجتمع عليهم فى بضع دقائق اليأس القاتل، والنجـاة التامة، وتحقق لهم القضاء على عدوهم، وهـم وقوف ينظرون دون جهـد منهم أو سعى، كل ذلك خلق فيهم من الطبـاع ما لم يتفق لغيرهـم فى أى وقت من الأوقات.

ويقول كامل حسين فى ذلك: «**خير للإنسان إن ألح عليه الموت حتى كاد يزهقه ألا ينجو منه، فالنجاة فى مثل هذه الحالة شر**».

(١٠) ويقرر أن المحنـة استنفدت كل قوتهم فتكـونت نفوسـهم من جديـد على أطلال نفس هدها الرعب، ولم يعد لهم وطن طبيعى (يقصد مكانا تنمو فيه طباعهم).

(١١) أما سر نبوغ بنى إسرائيل، فإنهم عرفوا كيف يقاومون الظلم مقاومة سلبية، والظلم يخلق كثيرا من الفضـائل السلبيـة كالصبر، وسعة الحيلة، والدهـاء، ويميت كثيرا من الفضـائل الإيجابية.

(١٢) ولعل معجزات موسى لم تكن لإقناع فرعون بقدر ما كانت لإقناع اليهود أنفسهم.

(١٣) وزاد شعور بنى إسرائيل بـالذل انتقالهم من ظلم معـروف إلى غاية مجهـولة، ومن أخص صفات الذل رضاء المرء بما هو فيه.

(١٤) قصة الخروج أوضح مثل لفقدان العلاقة بين السبـب والمسبب وفقدان هذه العلاقة شر نكبة للعقل، وقد كـان لها أثرها فى العقلية اليهوديـة حتى صـاروا يعتقدون أن فى يهوديتهم سر نجاتهم.

(١٥) ومن الإسراف فى اليأس الذى بلغ حده، ومن الإسراف فى الأمل الذى جاءهم على غير ما

يتـوقعون على الإطـلاق، نشأت فى خلقهم صفات لعل مـن أبرزهـا عدم التسـامح، وميلهم إلى العنف بدورهم.

(١٦) قصة خروج بنى إسرائيل قصة رائعة من جميـع نواحيها، وهى تدل على أعمق ما فى نفس هـذه الجماعة من طبـائع اختصوا بها دون غيرهم من الجماعـات، وقد تكـون طبيعتهم وأخلاقهم هى التى أدت إلى أن يصيبهم مـا أصابهم، ولكن الأمر الـذى لا نزاع فيه هـو أن هذه القصـة بحوادثها وبالطريقة التى رويت بها دلت على نفسية أمة بأقصى ما يكون من الوضوح والدقة.

□

والحديث عن بنى إسرائيل والتحدث إليهم كثير، وفى القرآن الكريم وفى تاريخهم عبر وعظات كثيرة، ولم يشأ القرآن أن يجعل تاريخ بنى إسرائيل قصة متصلـة الحلقات كما جاء فى التوراة وإنما اختار طائفة من وقائعه فيها مواعظ خاصة، وعندما يتكرر ذكر واقعة بعينها يكون ذلك موضع اعتبار كبير.

والدكتور كامل حسين ينبهنا إلى التفريق بين حديث القرآن عن **بنى إسرائيل** وأكثره يتعلق بتاريخهم القديم، وحديث القرآن عن **يهود المدينة** الذى يركز على عداوتهم للدعوة الإسلامية ووسائلهم فى القضاء عليها. والسر فى أن أكثـر حديث القرآن عن بنى إسرائيل يتعلق بتاريخهم القديم أن فيه مـواعظ تترى على سنن الله فى حياة الأمم، وفيه شرح للنفس ومـا تتعرض له فى الحالات النفسية. أمـا تعالى اليهود على العرب فى الجاهليـة فليس إلا مظهرا من مظاهـر اعتقاد بنى إسرائيل أنهم شعب الله المختـار وما فضلهم الله إلا على معاصريهم من الـوثنيين الذين لم يكونوا ممن عرفوا الله بعد.

والقرآن يخبر المسلمين أنه ليس لهم أن يطمعوا فى إيمان اليهود بالقرآن، فهم يظنون أن لهم وحدهم الحظوة عند الله، ثم إنهم يأبون أن يعترفوا بفضل الله على غيرهم، وكانوا يعتقدون أن الأنبياء لا يكونون إلا منهم حقدا أو حسدا، أضف إلى ذلك أنهم كـانوا يعلمون أن نجاح الدعوة الإسلامية كفيل بـالقضاء على ما يستمتعون به من تفوق على من حـولهم من العرب، ولا نزاع فى أن إنكارهم مـا جاء فى القرآن مرجعـه إلى الدفاع عن امتيازاتهم هـذه. ولم يترك يهود المدينة

لذلك وسيلة للقضاء على الدعوة الإسلامية إلا أتوها، وقد دل القرآن المسلمين على كل ذلك تفصيلا.

□

ويستلفت الدكتور كامل حسين نظرنا إلى أن تاريخ بنى إسرائيل فى القرآن سرد وعظى بينما هو فى التوراة سرد تاريخى.

وفى طلب بنى إسرائيل رؤية الله جهرة «دليل على ضعف إيمانهم بالغيب شأن البدائيين يصعب عليهم أن يؤمنوا بالمجردات التى لا يرونها ولا يسمعونها، فضلا عن أن فى طلبهم هذا تكذيبا لموسى».

وفى «اتخاذهم العجل معبودا تحد لله ونبيه ورغبة فى التخلص من سيطرة موسى وأعوانه عليهم، وكان بعض هؤلاء الأعوان يحملون الناس قهرا على أن يطيعوا الله فى كل أمر صغيرا كان أو كبيرا.. ولعل بنى إسرائيل حين عبدوا العجل كانوا يريدون التشبه بسادتهم فى مصر الذين كانوا يعبدون الأصنام والعجل، وهو أمر معروف فى تاريخ الأمم كلها، إذ تعترى الأمم المستعبدة رغبة قوية فى التشبه بسادتهم حتى فى نقائصهم.

وإيمان اليهود بعذاب الآخرة أقل وضوحا فى نفوسهم من عذاب الآخرة عند المسلمين والمسيحيين، ولعل ذلك لأنهم يعتقدون أن جزاء الذنوب يكون فى الدنيا ويقع على المذنب أو ذريته من بعده».

«وفى قولهم لموسى: ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾ (المائدة: ٢٤)، من الجبن والتحدى والاستهزاء والعصيان والبغى ما يدل على غاية الكفر عند بنى إسرائيل فى ذلك العهد من حياتهم الدينية».

وقصة البقرة تدل على نوع من العصيان أقل خطرا من هذا الكفر فهم لم يعصوا أمر الله ولم يشكوا فى صدق موسى ولكنهم تلكئوا وأحجموا والتمسوا الأعذار ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون.

□

اختارهم الله ليكونوا أول من يعرفه ويؤمن به على نحو أوضح مما كان يفعل البدائيون، وبذلك فضلهم الله على معاصريهم حيث لم يكن على وجه الأرض من يعرف الله غيرهم، فحسبوا أن موقفهم هذا أبدى، ففسدت بذلك علاقتهم بربهم وبالناس أجمعين. وكانوا يمنون على الله أنهم عبدوه، وحسبوا أنه ينصرهم مهما يكن ذنبهم وعصيانهم كأنهم بمعزل عن قوانين الأمم وسنن الاجتماع، وحرصوا على أن يبقى دينهم لهم وحدهم حتى يظل تفوقهم على الناس أبدا، فلم يحاولوا أن يبشروا بدينهم على أنه دين عالمى بل أبقوا فضلهم لأنفسهم ضنا به على غيرهم.

وصار حبهم لأنفسهم وحقدهم على غيرهم أوضح صفاتهم النفسية، والعيوب النفسية والخلقية فى بنى إسرائيل معروفة عند غيرهم لا تختص بها أمة دون أخرى، ولكن التكوين النفسى لهم يجعل فضائلهم أضعف، وعيوبهم أوضح، وعذرهم فيها أقل، والنزعة إلى العصيان واضحة فى تاريخ أكثر الأمم ولكنها فيهم أبعد مدى.

□

وقصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل من القصص الفريد الذى يجب أن يتدبره علماء الاجتماع وعلماء النفس، ودعاة الإصلاح والراغبون فى السلام بين الناس، ففيها بيان لكل ما يدعو الناس إلى الكفر بالحق الواضح بعد الإيمان.

ولردة بنى إسرائيل أسباب عدة تذكرها هذه القصة:

□ فإيمانهم لم يكن فى أول الأمر إيمانا طبيعيا وإنما حملهم عليه موسى.

□ ثم إنهم خرجوا مرغمين فكان إيمانهم قلقا.

□ ثم إنهم طلبوا رؤية الله وهذا دليل على أن إيمانهم بالغيب كان لا يزال قلقا.

□ ولم يكونوا قد خلصوا بعد من أثر الظلم الذى تعرضوا له فى مصر، ولم يكن للعدل الذى أقامه موسى فيهم أن يمحو أثر الظلم فى نفوسهم بعد هذه الفترة القصيرة.

□ وكانوا لا يزالون تحت تأثير الحرمان الذى ذاقوه أجيالا متعاقبة، فكانوا يرون كل ما عند غيرهم نعمة يتمنونها ويحرصون على اقتنائها.

□ ولم يكونوا قد خلصوا بعد مما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة، فكانت أغلى أمانيهم وأعزها عليهم أن يكونوا أحرارا يفعلون ما يشاءون.

□ وكأنما أراد موسى أن تكون حياتهم كلها عبادة الله، ولما كان من المستحيل أن تقوم حياة الشعوب على العبادة وحدها نشأت فى بنى إسرائيل طائفة يتخصصون فى العبادة، وفى أمور الدين، وبذلك قامت بينهم سلطة جديدة تريد أن تتحكم فيهم، ولم يكن ذلك ليروق قوما ذاقوا الأمرين من سلطات ذوى النفوذ منهم، ولعل منهم من ظن أن الإله الذى يقول موسى إنه يأمرهم وينهاهم لم يكن إلا صورة يستطيع بها موسى أن يتحكم فيهم.

□

ويرجع الدكتور كامل حسين طلب بنى إسرائيل أن يخرج الله لهم من الأرض ما كانوا يأكلون فى مصر، ولو كان أدنى من المن والسلوى قدرا إلى سبب نفسى هو الملل، والناس ليسوا سواء فى قدرتهم على مقاومة الملل.

□

ونستطيع فى النهاية أن نقول إن حديث الدكتور كامل حسين عن بنى إسرائيل يتميز بالخصائص الآتية:

□ الموضوعية إلى أبعد حدودها. وإذا كان فيه ما يشبه التجنى على بنى إسرائيل، فهذا ما جناه بنو إسرائيل على أنفسهم ولم يجنه عليهم كامل حسين.

□ كل ما فى الأمر أنه حلله تحليلا نفسيا دقيقا.

□ ولا شك أن هذا التحليل وإن كان فى بعض نتائجه لا يفيد بنى إسرائيل إلا أنه يلتمس لهم العذر. ويرجع الظواهر إلى أسبابها مما يعد دفاعا يستند إلى أسس علمية لاشك فى أنهم بما ركب فيهم من قدرة على استغلال المواقف، سيفيدون منه.

□ وكامل حسين مؤمن بأن بنى إسرائيل فيهم كل الصفات الإنسانية خيرها وشرها، إلا أن فضائلهم تتضخم أحيانا وتصغر عيوبهم، وقد يحدث العكس وهو لا يسعى إلى شىء

من هـذا التضـخيم والتصـغير للفضـــائل أو للعيـوب، وإنما يسـعى إلى التحليل العميق فيصل إلى نتـائج عظيمة لا تقتصر قيمتهـا على توضيح الحقيقـة فى أمر هـذه الجماعة، وإنما تشمل استنباط الموعظة والعبرة النفسية والاجتماعية من المواقف الإنسانية التى مروا بها.

□ وقد يكون فى تحليله لقصة الخروج ميل إلى بيان أثر الخروج فى نفسيتهم أكثر من ميله إلى أثره فى **عقليتهم** ولكننا على كل حـال نواجه بـالعقلية اليهوديـة فى تصرفاتهم، وإن صدرت هذه العقلية عن **نفسيتهم**.

الفصل التاسع عشر

الآثار النفسية والاجتماعية للحرمان

ليس من الطبيعى أن يبحث الإنسان عن علة حادث مـا باستقصاء ما لم يحدث، أى أنه إذا أراد الإنسان أن يبحث عن أسباب حادث بعينـه فإنه يبحث فى الحوادث التى سبقته (الأسباب الإيجابية) يتبين أيها أدى إليه، أما أن يبحث عن أسبـاب سلبية فذلك تفكير غير عادى، وعسير، يرجع الفضل فى الأخذ به إلى الأطباء عندما رأوا أمراضا خاصة لا يرجع سببها إلى طارىء طرأ على الجسم، وإنما يـرجع إلى نقص بعض العنـاصر فى الجسم (كـاليـود والفيتـامينـات والهرمونات) فسموها «أمراض الحرمان» وسموا تلك العناصر «عوامل الحرمان».

مفهوم الحرمان فى الطب :

الحرمان لغـة النقص، ولكنه عند الأطباء اصطـلاح علمى له قوانين خاصـة هى أوضح ما تكون فى الجسم نلخصها فيما يلى:

(١) **لا يعد النقص العام حرمانا**، إنما الحرمان نقص فى مادة من مواد الحرمان. فنقص الغذاء عامة لا يعد حرمانا ما دام قد استكمل عناصره.

(٢) **مواد الحرمان: نادرة**، فالمواد كثيرة الانتشار لا تعد من مـواد الحرمان، وكذلك المواد التى يستطيع الجسم أن يستبـدل غيرهـا بها أو يقـدر على تكوينهـا من مـواد أخـرى يسهل حصوله عليها.

(٣) **أثر الحرمان: عام**، فلا يعد من الحرمان أن يفقد الإنسان حاسة أو عضوا.. إنما يكون الحرمان من مادة لها أثرها فى النشاط الجسمى كله وإن كان كل عضو سليما.

(٤) تبين من الدراسة أن أمراض الحرمان كلهـا تؤدى إلى الضعف وفقد النشاط، ولا نعلم أن الحرمان من إحدى هذه المواد يدفع المريض إلى نشاط خاص، هذه الخاصية أوضح ما يفرق

بين النقص العام والحرمان، فالجوع يدفع صاحبه إلى السعى والتماس الغذاء بقوة وعنف، أما الحرمان فإنه يقعد بصاحبه عن كل نشاط يؤدى إلى الخلاص من دائه.

(٥) الشهية وسيلة من أدق الوسائل التى تهدى الإنسان إلى ما ينقصه من الغذاء، والجوع يحدث تقلصا فى المعدة يفهمه الجسم فيسعى إلى استكمال النقص، أما اليود، «وهو مادة حرمانية»، فلا يمكن للإلهام أن يهدى المحروم إلى ما حرمه.

هذا العجز التام عن الإحساس بالحرمان هو أخطر ظواهره، وهو ما يجعل معرفته صعبة وعلاجه عسيرا. هذه الظاهرة تجعل أمراض الحرمان أخطر الأمراض كلها وأقساها على الإنسان.

(٦) لا تتبين قوة مواد الحرمان إلا عند نقصها، فالذى ينقصه إفراز الغدة الدرقية يصاب بالضعف الجسمى والعقلى حتى إذا أعطى كميات قليلة منه عاد إلى طبيعته، ثم لا يفيده شيئا أن يزيد منه، أى أن أثر هذا الإفراز لا يكون إلا عندما يحرم الإنسان منه فإن لم يكن محروما فلا أثر له فيه.

□

أما أن نبحث عن أثر الحرمان فى النفس الإنسانية وفى حياة الفرد، وأن نعتمد عليه فى التحليل النفسى، فذلك شىء لم نجده فيما قرأناه لعلماء النفس، إلى أن جاء الدكتور كامل حسين فكتب فى ذلك المعنى.. كذلك الباحثون فى علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ لم يتنبهوا إلى أن الجماعات قد تصاب بأمراض الحرمان، وأنه قد يكون فى ذلك تفسير لبعض الأحداث التاريخية الكبرى، بل قد تكون فيه الحلقة المفقودة فى التحليل العقلى الكامل لتطورات حياة الجماعة، ذلك أنهم أرجعوا هذه التطورات جميعا إلى عوامل إيجابية شتى، ولكننا لا نعرف أحدا قبل الدكتور كامل حسين قد عنى بدراسة أثر العوامل السلبية فى الظواهر الاجتماعية دراسة منظمة.

كتب عالمنا كتابه «الوادى المقدس» وتحدث فى كثير من ثناياه عن (الحرمان) فى أكثر من موضوع، ثم أفرد له فصلا خاصا به، كما يعد فصل **«الحرمان.. أثره فى الأفراد والجماعات»** من أمتع الفصول فى الجزء الأول من كتابه (منوعات) الذى طبع عام ١٩٥١. والفصلان متفقان فى المضمون إلى حد كبير جدا.

وقد عرض كل من الفصلين للحرمان فتناول مفهـومه فى الطب، ثم تناول أمراض الحرمان فى النفوس الإنسانية والأفراد فى الجماعات.

□

أثر الحرمان فى حياة الإنسان وسعادته :

يسعى الناس إلى إحراز المال والقوة والنجاح والتفـوق على غيرهم، وقد تنقص هذه فى حياة الناس نقصا شديدا دون أن يؤثر ذلك فى نفوسهم تأثيرا خاصا، ثم إن هذا النقص يدفع الناس إلى النشاط والسعى أو قل إن للناس (شهية) خاصة ترغبهم فى هذه الأغراض عند نقصها، كما أن تحقق هـذه الأمور للنـاس يـزيد فى نهمهـم إليها، وبهاتين الصفتين فإن المال والقـوة.. إلخ ليست من العوامل الحرمانية.

(١) أول العوامل الحرمانية هو **الحب** بأوسع معانيه، والإنسان الـذى يحرم هذه العاطفة رجل مريض ولا يغنيه عنها أن يؤتى ما فى الأرض جميعا، الحرمان من الحب مرض شائع أكثر مما يظن الناس تشعر به نوعا من التشويه يلحق بشخصية المحروم من الحب، غير أن الطبيعة البشرية جعلت فى الحياة العادية للإنسان ضمانا للحصول على القدر الكافى من عاطفة الحب.. بالإضـافة إلى أن قـدرا منه غير كثير يكفـى الصحة النفسيـة، ألا ترى أن المسرفين فيـه وكبار المحبين ليسوا أصح نفسا من الذين لم يصيبوا منه إلا القدر الكافى؟ ثم إن **قوة الحب لا تقاس بأثرها فيمن يتمتعون به، إنما تظهر واضحة حين نتدبر أمر الذين حرموه.**

وليس للحب شهية خـاصة به فى التركيب العقلى، وبهذا تكون كل الصفـات التى يستلزمها الحب حتى نعتبره كعامل حرمان قد تحققت فيه، «غير أن الطبيعة البشرية استطاعت أن تربط بين الحب وبين العاطفة الجنسية، ومن هنا جاءت أهمية تلك العاطفة من أنها وسيلة للحصول على نصيبنا من الحب العاطفى الراقى لما لها من قوة خاصة ولما لنا إليها من شهية قوية».

«على أن العاطفة الجنسية لا تحمل من عاطفـة الحب ما يكفى النفس البشرية إلا عند القوم البدائيين، بل لابـد للإنسان الذى تقـدمت به الإنسانيـة لاستكمال القدر الضرورى من عنصر الحب أن يلجأ إلى غير العاطفـة الجنسية، وهو ما سماه علماء التحليل النفسى بـــ (الارتفاع)، وهم قد يعللـونه بنقص أصـاب العاطفة الجنسيـة، وهو فى حقيقـة الأمر استكمال لها حين لا تكفى وحدها».

(٢) والعامل الحرمانى الثانى للصحة النفسية عند الإنسان هو الشعور الفنى، والرجل الذى لا يوفق فى حياته إلى عمل شىء جميل من أى نوع يكون هذا الجمال لا يمكن أن يكون سعيدا. ومن هنا يجب أن تكون التربية الحقة سمحة واسعة، وأن تهيىء للرجل فرصة اختيار ما يوافق مزاجه، وألا ترغمه على الإعجاب بما لا يعجبه، فقد يكون بعض الشر أصلح للنفس إن كان فيه إرضاء للذوق الفنى.

□

أمراض الحرمان عند الجماعات :

حرية الفكر هى العامل الحرمانى الأول فى حياة الأمة يكفى القليل منه لصحة الجماعات، وليس من الضرورى أن تكون حرية الفكر عند كل فرد فيها بل يكفى الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار يتمتعون بحرية كاملة. ويرى الدكتور كامل حسين أن الظلم نوعان، **ظلم بالعسف ، وظلم بالحرمان**.، ومثل الأول ما كان قائما فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية، وهو ظلم يبعث على ثورة الجماعات وتخلصها من عوامل الفناء التى تحيط بها. **والإيمان** عند الدكتور محمد كامل حسين من أكبر العوامل الحرمانية وأشدها خطرا (الوادى المقدس ص ١٩٢)، ولكنه فى متنوعات جعل نقص الإيمان تشويها لإنسانية الإنسان وخروجا بها عن معنى الإنسانية.

الفصل العشرون

استقلال الجامعة :

نعرض هنا رأى الدكتور كامل حسين فى هذا الموضوع حسب ما نشرته جريدة «الأخبار» فى الثامن من أغسطس سنة سبع وستين وتسعمائة وألف (١٩٦٧) فى التحقيق الذى أجراه أحمد الجندى، وفاطمة صقر، ورجاء عبد الملك مع أربعة من الشخصيات الجامعية هم: الدكتور محمد حلمى مراد (وكان وقتها وكيلا لجامعة القاهرة) والدكتور محمد مرسى أحمد (وكان وقتها مديرا لجامعة عين شمس) والدكتور عبد العزيز حجازى (وكان وقتها عميدا لكلية التجارة بجامعة عين شمس) والدكتور محمد كامل حسين.

(١) استقلال الجامعة كلمة براقة محببة إلى النفس فى كل بلد يحترم العلم، وقد كانت أمرا مهما إلى وقت قريب، ولكنها كغيرها من المسلمات تحتاج إلى بحث من آن لآخر لمعرفة مدى العمل العلمى والعقلى للجامعات، ولم يعد رجال الدين يعارضون فى النظريات الطبيعية، ولم يعد أحد يحول دون تدريس المبادىء الفلسفية الحديثة مثل الوجودية، وهذا هو **(الاستقلال العلمى والعقلى)** وهو أهم وجهات الاستقلال وهو موجود.

(٢) أما الاستقلال **الإدارى والمالى والوظيفى**، فهى أمور ليست من الأهمية بحيث تثير ضجة، أو تدعو إلى كفاح مرير فى سبيل تحقيقها وهذا ما يتعلق (بالاستقلال المادى).

(٣) والجامعة مستقلة **قانونا**، وإذا أساء أحد إلى هذا الاستقلال فهو ليس ذنب القانون.

والجامعات عليها **حماية الأساتذة فيما يتعلق بموضوعات بحثهم ودراساتهم**، أما إذا تعرض أستاذ التشريح مثلا للدفاع عن الوجودية فليس له عندى حق أكثر من أى فرد عادى.

«فالأستاذ ليس حرا فى آرائه الاجتماعية والسياسية بوصفه أستاذا فى الجامعة. كذلك فإن هناك فرقا بين دراسة مذهب اجتماعى معين وبين الدعوة إليه، والجامعة لا تستطيع أن تحمى من يسىء الاستعمال العلمى أو من يستغل منصبه ليعبر عن رأيه الشخصى ويدعو إلى مذهب اجتماعى يؤمن به».

(٤) فى القديم كان تقييد الجامعة مصدره رجال الدين والحكم، وكان الاستقلال الجامعى مصدر الثورة على القديم فكان من مصلحة القائمين على الحكم أن يقيدوا هذا الاستقلال بسلاسل من حديد، ولكننا نستطيع الآن أن نقول إنه ليس هناك من يجرؤ على التدخل فى التطور العلمى أو العقلى أو الدراسة فى الجامعة.

□

وهذا الرأى فى استقلال الجامعة كما نلاحظ رأى سديد، وقد قرر مواقف حاسمة وواضحة فى مسائل جدلية كالجامعة وحماية الأستاذ، وهو بعد ذلك رأى شامل للنواحى المختلفة، ومنسق على غير العادة فى الأقوال المرسلة التى تتضمنها مثل هذه التحقيقات فى الصحف، حيث تكون الآراء المختلفة مسرودة سردا سريعا دون أن تحظى بمثل هذا التقسيم الذى تركته الصحف للكتب.. وقد ترك الدكتور كامل موضوع الاستقلال المادى، وهو ما ركز عليه الدكاترة الثلاثة الآخرون، وكانوا وقتها لا يزالون يعانون من فقدان هذا الاستقلال بسبب النظم واللوائح التى تحكم عملهم، ولاشك فى أنهم كانوا يحسونه أكثر من الدكتور كامل حسين الذى ترك الجامعة قبلها بثلاث عشرة سنة.. ولعل دوامات العمل التى كانوا يعانونها لم تجعلهم ينظرون مثل تلك النظرة التفكيرية الهادئة الشاملة التى نظر بها كامل حسين إلى الموضوع فتناول قضايا لم يمسوها من قريب أو بعيد.

الباب الثالث

محمد كامل حسين
أديبا

ينادى هذه الأيام بمـذهب خلاصته أن الأثر الفنى هو الموضوع الأول للنقـد ولتاريخ النقد الأدبى، وأن اختلاف اللغة أثر من اختلاف الأدب لا العكـس، وأن حياة الفنان بأحداثها ليست فى الواقع شيئا مهما لمن يريد أن يدرس آثار الفنان، وإنما ما قد تجاوب به الفنان مع هذا المؤثر هو الذى يعين حقا على فهم الأثر الفنى، وأنه لكى نـدرس القصيدة مثلا فلا بد لى من القصيدة نفسها. ثم يشعـر أصحاب هذا الكلام بأنـه فى ظاهره تافـه، فيقولون: «وهذا كـلام على ظاهر تفاهته هو الحقيقة إلى حد بعيد» (الدكتورة سهير القلماوى: محاضرات فى النقد الأدبى). وهذا المذهب فى النقد لم يوضـع لكامل حسين، فحياة كامل حسين هى أدبـه، وأدب كامل حسين هو حياته.

ومن دون استطراد إلى تعريف الأدب وتخريج ما لا يخرج أو يخرج، فإننا سنعرض فى هذا الباب «قرية ظـالمة»، وهى بلا شك أعظم عمل أدبى فى مصر فى القرن العشرين، ومهما يكن من أمر الفكر فيها ـ وهو الغاية ـ فإننا سندرسها أدبا، وليس أدعى إلى العظمة من أن تكون وسيلة الغايـة العظيمة فى حد ذاتها عظيمة. وسنتنـاول بعض القصص القصيرة لكامل حسين، وهى التى نشرها فى مجلتى «القصة»، «الهلال»، وإن كنت أود ألا أفرغ من هذه المقدمة إلا إلى البحث عن قصص له فى «الإذاعة والتليفزيون» علمت بخبرها منذ وقت.

وسنعرض ما شاء الله لنا أن نعـرض كل قصة من هاتيك القصص، وسيجد القارىء متعة أية متعة فى أن يقرأ لكامل حسين شيئـا من هذه القصص التى نشرها فى مجلة الهلال منذ سبع عشرة سنة وفى القصة منذ خمس عشرة سنة. ولا شك أنه واجـد غصة من هذا التناول القاصر الذى تناولناه، وإنا لنرجو من عرضها أن نرى رأى القارىء، حين نعرض عليه رأينا.

□

أما أن كامل حسين «شاعر»، فشيء من تطورات الحس الأدبى التى أدت به إلى أن يكون فى النهاية وله هذه المكانة فى الأدب لا أقول العربى وإنما أقول الإنسانى (بمعنييها).

وقد كان فى زمن طلبه العلم يكتب إلى أصدقائه القصائد فيذكرهم بالمتنبى وأبى تمام، حدثنى بذلك غير واحد منهم. أما الدكتور إبراهيم مدكور فلم يقع نظره له إلا على قصيدة واحدة فى أكثر مائة بيت عنوانها «لقمان والمريض»، يصف فيها حال مريض احتضر وأوشك على الموت، وبين يديه طبيب يطب له فى غير جدوى، فكان يرجو الموت ويستغيث به من آلام الحياة.

ولا أعنى بقولى «من تطورات الحس الأدبى» أن الشعر من الحس الأدبى دون النثر. كما أنى لا أرى القول بأن العقلية العلمية أقرب إلى النثر منها إلى الشعر، فهذا قول ظاهره صواب، وليس فيه شىء من «العلمية»، ولكنى أعنى تطور حس كامل حسين الأدبى، ولا شك فى أن تطور الحس الأدبى يختلف باختلاف الأديب.

□

لم يكن فى نشأة كامل حسين ما يستلزم أن يكون معه أديبا أو لغويا، فقد ألحق منذ صغره بالمدارس الأميرية فلم يكن له حظ من الكتاتيب أو الأزهر، ثم إنه التحق بكلية الطب، ثم ابتعث إلى الخارج. وكانت البعثة كفيلة بقطع ما تبقى من حبال الصلة - إن كان لها وجود أو إن تبقى منها بعد الطب شىء - بين من وهبه الله حسا أدبيا وبين هذا الحس، وما كان كامل حسين كذلك، فإنه كان يكتب وهو طالب إن لم يكن للناس فقد كان لزملائه وهم أرفع مستوى، وكان يكتب وقد تخرج لتوه من مدرسة الطب (فى السياسة سنة ١٩٢٣)، فلما سافر لم تحل البعثة بينه وبين الكتابة فكان يراسل السياسة الأسبوعية تحت اسم «ابن سينا».

ومن باب توارد الخواطر، نحب أن نذكر أنه كان يرى أن ابن سينا فيلسوف طبيب، وأن الرازى طبيب فيلسوف، ولهذا كان يعجب بالثانى أكثر من إعجابه بالأول. ولكننا لا نحب أن نترك ما تواردت به الخواطر دون تعليق، وأظن القارىء يود الآن أن يسأل: كيف به يحب الرازى أكثر من حبه ابن سينا، ثم يكتب متخذا لنفسه اسم «ابن سينا»؟ وعندى أن هذه القضية تستقيم إذا قلنا إنه كتب متخذا لنفسه اسم «ابن سينا»، ثم لما درس الطب وتاريخه كان حبه للرازى أكبر من حبه لابن سينا.

قلنا إنـه لم يكن له من نشأتـه ما يستلزم أن يكـون أديبا، ولكنـه مع ذلك تهيأ له مـا لا بد للإنســان معه أن يكون أديبا، فقـد نشأ فى بيت مدرس للغة العربيـة، والكتب فى مثل هذا البيت جزء من الأثاث، إن لم يقرأها أهل البيت من الصغار فسيعبثون بها على حال من الأحوال. وقرأ كامل حسـين سيرة ابن هشـام وهو صغير لا يفقه منهـا شيئا. ولم يكن فقده أباه حـائلا بينه وبين هذا الجو، فقد كان الصادق بك أخوه الأكبر أديبا قارئا، وكان **خاله الشيخ عبد الحكيم محمد** مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى، وهكذا أحاطت به الثقافة الأدبية ينهل منها ما شاء. وفى (ماشاء) هـذه سر موهبته الأدبية، فهو لم يتلق هـذا الأدب مجبرا عليه، مساقا إليـه، خائفا من الامتحان فيه كما هى الحال مع أولئك الذين يدرسون الأدب درس معاهد العلم فى زمننا، وإنما راقـه أن يقرأ، وراقـه أن يستزيـد. ثم كـان له من الـوظيفـة والتدريس فى الصبـاح، والمرضى والمستشفى فى المساء، ونادى محمد على فيما بين ذلك ما يشغلها عن أن يبدع فيمتع.

وانتهت الأربعينيات وليس له إلا مجموعـة من المقالات أسهم بها فى (الكاتب المصرى) التى كـان طه حسين يخرجهـا إلى الناس. ثم شغلتـه الجامعة فترة من الـزمن، إلى أن تحرر من رق الوظيفة، فاستقال من الجامعة، والوظيفة مهما كان شأنها فى عصرنا «محبس» للأدباء لم يتهيأ لأبى العلاء.

ونحن مدينون لاستقـالته أو قل إن الأدب مدين لها بإنتاج كـامل حسين الأدبى كله، وهل صدر له قبل عام أربعة وخمسين إلا الجزء الأول من «متنـوعات»، وهو مجموعة مقالات كتبت على مدى سنوات؟

وأحب أن أذكر ما روى من أن أستاذا فى جامعة الرباط سئل عمن يرشحه لجائزة نوبل: طه حسين؟ فقال: طـه حسين مدرسة، ولكنـه لا يرشح لجائزة نـوبل. قيل: فالعقاد؟ قـال: العقاد مجموعة معلومات، وليست له (مادة أصلية). قيل فمن؟ قال: كامل حسين.

□

وهذه ثلاث فقرات سريعة تلقى الضوء على طبيعة الجانب الأدبى فى حياته:

□ «كان كـامل حسين أديبا موضـوعيا يعنى بـالحقائق والمعانى، يجمعهـا يتخير أوثقها، ويهذبها وينسقها بحيث تبدو جليـة واضحة، مكنه اطلاعه الواسع من أن يعـرض منها ألوانا شتى: فى الأدب والتاريخ وفى العلم والفلسفة» [الدكتور إبراهيم بيومى مدكور]

□ استفاد «الأديب» من «الطبيب». «فإيماني بالتفكير العلمي جعلني أطبقه في أعمالي الأدبية. نعم ليس الأدب علما ولكن هذا لا يمنع من تناوله علميا».

[الدكتور محمد كامل حسين]

□ «يجمع فيما يكتب بين الثقة بما يقول والاستبصار فيما يقرر، وإن له مقدرة بيانية تسمو به إلى ذروة الإجادة والإبداع، وأسلوبه الجزل المشرق ليقدم لنا نموذجا لبلاغة الكتابة العصرية في مستوى رفيع يجمع إلى خصائص الفصاحة والأناقة مزايا الدقة والإحكام»

[الدكتور أحمد عمار]

□

وفضل كامل حسين على الأدب العربي الحديث أنه جمع بين أزواج الثقافات: العربية والأجنبية، الأدبية والعلمية، الإبداعية والنقدية، جمعا حقيقيا، ثم أخرج للناس مما جعله أدبا رفيعا راقيا تقصر دونه الهمم. وهو يقول: «إذا كانت مادة الأدب هي النفس والسلوك وقد أصبح العلم متصلا بهما، فلا بد أن يستفيد الأديب من كلمة العلم فيصبح عالم نفس أكبر من عالم النفس، وتمسي كلمته أكثر ذيوعا وخلودا بالنماذج الحية الحقيقية».

وسنعرض في هذا الباب آراء نقدية لكامل حسين في شخصيات الأدب العربي كالنابغة، الفرزدق، وعمر بن أبي ربيعة، والمتنبي، والمعري. وآراء له في الشعر العربي وبخاصة في التصوير، والموسيقى، وهما العنصران اللذان كانا يراهما سر عظمته.

وسنعرض رأيه في النسيب والموسيقى والتصوير والمعنى في الشعر العربي، وتقسيمه الشعر العربي إلى شعر طبع وشعر احتراف، وسنعرض له مترجما للشخصيات.

□

ولكامل حسين من الخطب خطبتان:

أما الأولى ففي حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية، عام (١٩٥٢)، وأما الثانية ففي الاحتفال بمنحه جائزة الدولة في الأدب، عام (١٩٥٧)، والبناء الفني للخطبتين متشابه إلى حد كبير:

□ تبدآن بالشكر: والشكر فى الأولى على «التشريف فى ميدان الفكر»، وفى الثانية على «تقدير العلماء».

□ تتحدثان عن موضوعين: الأول هو الموضوع التقليدى الذى تكون له الخطبة (الحديث عن سلفه) فى الأولى، (الشكر على الجائزة) فى الثانية.

والموضوع الثانى وهو الأهم، يفصل فيه القول، وهو فى الأولى «حياتنا الفكرية»، وفى الثانية «الصلة بين الأدب والقارىء والناقد».

□ تمتازان بالطول، ولكنه ليس نتيجة للإطناب وإنما لتعدد الأفكار وعمقها.

□ كل منهما، ممتعة، عباراتها ذات مستوى رفيع، وهى فى ذلك وفى غيره ليست إلا من أدبه، فيها كل خصائص أدبه الرفيع وأسلوبه القوى، وفكره النافذ.

وسنتعرض للخطبة الأولى وللخطبة الثانية فى أكثر من فصل من فصول هذا الباب.

□

وقد يكون لنا الآن أن نتناول الخصائص العامة لأدبه على نحو سريع. أما مجالات أدبه فسوف نتحدث عنها بالتفصيل فى فصول هذا الباب:

□ **العبارة:** واضحة، فإن غمضت فلعمق الفكرة الفلسفية لا للعبارة.

□ **الجمل:** قصيرة غالبا.

□ **الطابع:** علمى.

□ **البديع:** ليس فى أدبه محسن بديعى على الإطلاق إلا إذا افتعلت له محسنا بديعيا كالازدواج مثلا.

□ **الأفكار:** مرتبة ترتيبا لم يسبق إليه.

□ **أمثلته:** تجريدية عقلية فى الغالب، وبخاصة فى كتابه «الوادى المقدس»، والصور فى كتاباته قليلة جدًا لكنها معبرة موحية إلى أبعد ما يكون.

□ **التميز فى الأسلوب:** الذين يقـرءون كامل حسين يعرفون لـه أسلوبا متميزا جـدا، أما الذين لا يقرءون له إلا قراءة الخطافين فلن يحسوا بهذا التميز.

□ **اللغة:** سليمة إلى أقصى حدود السلامة.

□ **التكرار:** ليس له حظ فى أدبه.

□ **خصائص أسلـوبه:** أسلـوب نقى، خـالص، واضـح، دقيق، سهل التراكيب، صـاف، مترابط، خصب، حيوى، متدفق، عذب، مشرق.

□ **المعانى:** سامية، نبيلة، شريفة، مهذبة.

الفصل الأول

قرية ظالمة

هذه القصــة ومضات بـرقت لأديبنا الكبير، وهو على ظهـر الباخـرة فى صيف عام ١٩٥٢، وكان قد ذهب إلى سويسرا لإجراء عملية جراحية فى عينيه. وكان يستمع إلى آيات الله البينات فى السور الثلاث التالية للســورة الأولى من القرآن، وجهاز التسجيل يبدأ «البقرة» كلما انتهى من «النسـاء».

وقد استوحى اسم القصة من قوله تعالى: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا..**﴾ (المائدة: ٣٢).

ولم تخرج هذه الـومضات إلى حيز الوجـود بالترتيب الذى يطـالعنا فى «قرية ظـالمة». وقد يكـون الفصل الأول منها هـو آخـر ما كتب، ففيـه هـدف الروايـة كلهـا، بل لقد صرح بـذلك صـاحبها.

قدمت «قـرية ظـالمة» إلى المطبعة فى عـام ١٩٥٤، ونال عنها مـؤلفها جـائزة الدولـة فى عام ١٩٥٧، وتسلم هذه الجائزة فى عيد العلم. وتناولتهـا أقلام كبار الكتاب فى «مصر» وغيرهم على حـد سواء بـالتعليق والنقـد والعـرض.. فكتب عنها الـدكتـور طـه حسين، والدكتـورة سهير القلماوى، ويوسف الشارونى، وفتحى الإبيارى، ومحمد عطا، وتوفيق حنا، ومحمد عبدالحليم عبدالله.

أما الذين تناولوا «قرية ظـالمة» على المحيط العالمى، فنحن أحوج إلى جهاز بيبليوجرافى حتى نتمكن من حصرهم. وتستطيع اليوم أن تقرأ «قـرية ظالمة» فى إحدى عشرة لغة عـالمية ترجمت إليها قريـة ظالمة وطبعت فى كثير منها غير مرة. ولا جـدال فى أن هذا الكتاب يعد نمـوذجا رفيعا للفن العربى والفكر العربى، أما أنه كذلك فى الأدب العالمى فأمر لا يحتاج إلى تقرير.

وأستاذنـا الدكتور الشكعة يقـول: إن شـخصية كامل حسين اكتملت كأديب عندمـا أخرج هذا الكتاب، ولكنى لا أحسب أن فضل هذا الكتاب على صـاحبه يبلغ عشر معشار فضل مؤلفه به على الأدب العربى والعالمى.

والأستاذ محمد عطا يثبت لكامل حسين عمـق التفكير، وسعة الاطلاع على الفلسفة والدين، والقدرة على التحليل والتفسير بقريـة ظالمة، وقد عرفنا هذا كلـه فى الرجل فهو أهل لهذا وغيره، أما الأدب العربى فلم نعرف فيه هذه الصفات إلا نادرا.

وأستـاذنا الـدكتور حسين فـوزى يعلن غير مرة أن قـرية ظـالمة هى أعظم كتاب لجيلنـا والأجيال التى تليه.

□

ومـوضـوع هـذا الكتاب فى تلخيص مسرف فى الإيجاز، إن صح هـذا التعبير، هو حـال بنى إسرائيل والحواريين والرومـان من أهل أورشليم ليلة الجمعة التى رُفع فيهـا السيد المسيح إلى السماء.

(١) أما **بنو إسرائيل**، فقد أجمعوا أمـرهم على إعدامه بعد أن تجادلوا فيـه جدلا كثيرا، وقد نجح موجه الاتهام فى أن يقنعهم بأنه يستحق الإعدام، وعلى الـرغم من موافقتهم دعوى موجه الاتهام فإن آثـارا من الشك والريبـة فى صدق هـذا الاتهام كانت تحوك فى صـدورهم حتى إن بعضـهم وقف فى اجتماع اليوم الثانى يلقى ظلالا من الشك على صـدق هذا الحكم، ولولا تدخل رجـال المال وذوى النفوذ فى الأمـر ورفضـهم أية محاولـة لنقض ما أبـرموه لكـانوا ـــ أى بنى إسرائيل ـ حقيقين أن يعدلوا عن رأيهم فى إعدام السيد المسيح.

(٢) **وأما الحواريون**، فكانـوا فى يأس مبين وصراع مرير من خـذلانهم للسيد المسيح حين أخذه الـرومان، وعلى الرغم من أنـه هو الذى أمرهم بـذلك، وأن دينه يدعـو إلى الحب والسلام وعدم الاعتداء، فإنهم رأوا أنهم أخطئـوا حينما أسلموه إلى أعدائه، وأنه كـان من الواجب عليهم أن يدافعوا عنه، ثم أوشك رأيهم أن يجتمع على أن يذهبوا ليخلصوه بالقوة، أو يموتوا دون ذلك لـولا آراء بعض المتعقلين التى ثبطت عـزائمهم، ولولا عـودة رسـولهم من لدن السيـد المسيح يحذرهم من العدوان ويدعوهم إلى العبادة والتسليم.

(٣) **الرومان:** وهم قوم يقـدسـون النظام ويعبدون المجد ولا يعنيهم إلا عظمـة روما. فإذا حـاول أحد جنـودهم بوازع من خير أن يحول دون سفكهـم للدمـاء، قتلوه أشنع قتلـة. وإذا حاول حاكمهم بدافع من عقل واع أو حكمة بصيرة أن يركن إلى صوت الضمير تخبط فى الحيرة نتيجـة لما يرى من مـوقف بنى إسرائيل من السيـد المسيح، فيعود إلى تقـديس ما يـراه قومـه (الرومان) من رأى فى الحياة.

□

والموضوع شائك إلى أبعد الحدود، فالمسلمون ينكرون الصلب والمسيحيون يقيمون دينهم على حقيقته، ولكن المؤلف يجتنب القـول فى حادث الصلب، ويأتى هذا منه طبيعيـا مقبولا جدا متسقـا مع روح الكتـاب الـذى لا يبحث كيف وقع الشر ولا على أى نـوع وقع، وإنما يبحث فى مقدمات الشر ودوافعه ونتائجه وتفسير الناس له وأثره فى نفوسهم.

والدكتور طه حسين فى نقد وإصلاح يقـول عن «قرية ظالمة»: «وأريد بعد ذلك أن أشخص هذا الكتاب لا أن ألخصه، فتلخيصه عسير أعظم العسر يوشك ألاَّ يكون إليه سبيل، وكل فصل من فصوله محتاج إلى مقال خاص يناقش ما جاء فيه من الخواطر والآراء».

وعميد الأدب العربـى لم يعدُ الحقيقة بقوله هـذا، فتلخيص «قرية ظالمة» إن تأتَّـى فسيزيد على الكتاب فى حجمه الأصلى، ولا أظننى مبـالغا فى قولى هذا، والذين قرءوا الكتـاب وجدوا فيه تركيزا شـديدا، وكثير من عباراته تحمل معانى تقصر دونها الألفـاظ لولا أن المؤلف حمل هذه الألفاظ من القوة التعبيرية ما لا تطيقه عنـد غيره. والدكتور طه حسين حر بلا شك فى أن يترك تلخيص الكتـاب إلى تشخيصه، خـاصة وهـو لا يريـد إلا أن يدل القـارىء عليه أو يـدعوه إلى قراءته.

ولكننا فى هذا الكتاب لا بد لنا أن نعرض ـ على قدر طاقتنا ـ هذا الكتاب قبل أن نخوض فيه.

□

يقع الكتاب فى مقدمة وأبواب ثلاثة وخاتمة. وتقـع أبوابه الثلاثة فى ثمانية عشر فصلا، قدم

المؤلف فى كل فصل منها رسما لشخصية من الشخصيات يساعد على جلاء الموقف الذى يريد أن يوضحه ويسهم فى تكوين البناء الذى أراده فشيده، ويكون للأفكار بمثابة الإطار.

وسنعرض الآن هذه اللوحات الثمانى عشرة لوحة لوحة فى إيجاز شديد لا نقصد منه أو به إلا مجرد عرض المواقف والشخصيات.

لوحات الباب الأول :

١ ـ قمة الجبل :

فى هذه اللوحة رسم لنا الكاتب راعية صغيرة ترعى عند الجبل فى ذلك اليوم الحزين كما اعتادت كل يوم، جاهلة بما يعتزمه الناس فى هذا اليوم كجهلها بالرعى ومكانه المناسب.

٢ ـ رجل الاتهام :

وهو ذلك الرجل الذى خطب فى دار الندوة مقنعا بنى إسرائيل باستحقاق السيد المسيح للصلب، وهو رجل يمتاز بعلمه وذكائه وعراقة أسرته وانصرافه كلية إلى واجبه، فلا يثنيه عنه ثان ولو كان هذا الثانى هو زوجته الحبيبة الجميلة الحسيبة النسيبة، وقد حاولت زوجته تلك فى هذا اليوم أن توجه اهتمامه إلى عيد ميلادها وفشلت، وترك فشلها فى قلبها صدعا حاولت إخفاءه عنه فلم تفلح فى إخفائه، وإن أفلحت بعض الشىء فى زرع بذور الشك فى نفس زوجها من موقفه من السيد المسيح.

٣ ـ دكان حداد :

وهذا حداد كان قد آمن بالسيد المسيح، أوصاه تاجر من بنى إسرائيل يعامل الرومان أن يصنع حديدا ومسامير، ولكن أحد المؤمنين يخبره بأنها تعد لصلب السيد المسيح، فيرفض الحداد أن يعمل الحديد. ويأتى التاجر فيقنع الحداد بأنه لا إثم عليهما لما يعملان، ويتخذ إلى إقناعه حججا ظاهرها الصواب وباطنها الخداع والنفاق.

٤ ـ المفتى :

وهذا عالم فقيه تقى محبوب يتولى إفتاء بنى إسرائيل، وينجح فى الاحتيال لحل مشكلاتهم الدينية أيما نجاح، وله ابن ذكى معجب برجل الاتهام، يبدى إعجابه ببراعة اتهامه وقوة حجته، ولكن أباه يفند له رأيه، ويبين له أن رجل الاتهام حور أقواله (أقوال المفتى) لتتفق ورأيه، ولهذا فسوف يرد عليه رأيه فى الغد.

٥ ـ لازار :

رجل وقعت عليه معجـزة المسيح فأحياه بعد موتـه استجابة لضراعة أختـه، ولكنه عاد إلى الحياة فاقـدا روح الحياة، ليس فيه إلا جسد يتحـرك. وكان الناس يتشاءمـون منه، والصبية يطاردونـه، فلجأ إلى دكان الحداد (فصل ٣) فتشـاءم الحداد الفقير منه، فاضطـرب، فأصاب الشرر عين التاجر الذى جاء يطلب منه الحديد وانغـرس المسمار فى يده فنفذ منها. وعاد التاجر إلى داره وقـد علم أنها معجزة، فـآمن وأعلن إيمانـه لصديق لـه من العلماء المتحمسين لصلب المسيح، حتى اشتد غضب هـذا وخرج إلى دار الندوة مصمما على رأيه، وإن كان الشـك قد بدأ ينفذ إليه. أمـا لازار فقد روعه الناس وكادوا يقتلـونه فهرب تاركا البلـد، ورحل إلى بلاد أخرى يدعو إلى دين الله.

٦ ـ قيافا :

وهـو حاكم بنى إسرائيل، كـان عالما عـادلا طيبا، وكـان فيلسوفـا لا يؤمن بـالقوة، فكـان حاسدوه حين تولى الحكم يطعنون عليـه أنه عاجز عن حكم بنى إسرائيل لمبادئه الخيرة. ولكن قيافـا وفق فى كثير مما عمل، واستطـاع أن يقف من الرومان مـوقفا وسطـا بين الشدة واللين، ووقف من قومه موقف العادل المخلص فأطاعوه. وجـاءت الدعوة الجديدة فاضطرب لها قيافا اضطرابـا شديدا، وملكتـه الحيرة فقد أعجبته من صاحبهـا أشياء، وأنكر عليـه أشياء، وحين صـدر الحكم بـالصلب على الرجـل فى دار الندوة اضطـرب لهذا الحكم، وتحير : أخطأ هـو أم صواب، وأخذ يجادل نفسه فيقنعهـا أحيانا بصواب الحكم، ولا تلبث أن تعود نـاعية عليه هذا الحكم. وهكذا دواليـك إلى أن جاء الصباح وذهب إلى دار النـدوة، وقد فقـد ثقته بنفسـه وعقله وشعوره، وقرر أن يترك الأمور تسير على هواها لا يتدخل فيها، وسر حين وقف بعض الخطباء ينددون برجل الاتهام، وظن أن الأمور ستحسم بعيدا عنه. ولكن الأمر لم يلبث أن سار على غير ما يبتغى الحكماء حين تدخل رجال المال وأصحاب النفوذ.

٧ ـ دار الندوة :

وهذه هى اللوحة الأخيرة من مـوقف بنى إسرائيل (الباب الأول)، وفيها عرض لآراء بعض المنددين بـرجل الاتهام وموقفه السلبى وموقـف قيافا الراضى، ثم تـدخل ذوى المال والنفوذ والعامة لتأييد الحكم.

□

لوحات الباب الثانى :

٨ ـ المجدلية :

وهى فتاة جميلة مترفة مدللة صلِفة من أسرة حــاكم القرية، تكبرت على شبان القرية الذين طلبوا يدها حتــى أدى ذلك إلى معركة قتل فيها أخوها الــوحيد، فاجتواها أبوهــا وكرهتها أمها، فتركت قريتها نادمة عازمة على أن تذل كبرياءها، وساقتها الأقدار إلى أداء البغاء حين ظنت أنها بذلــك تحقق غايتهــا، ولكنها أدركت فيما بعــد أنها ازدادت كبرا بعدمــا ازدادت خزيا، وعــرفت جنديا رومانيا شابا يتسم بالوداعة والطيبة فأحبته. وكان فى هذا الحب تطهرها الحقيقى، فقد ذلت به نفسها الــذل الكريم الذى كانت تريــده، ثم لحقت بموكب السيد المسيح حينما سمعت عنه، وهناك عــرفت الإيمان والحب الطاهر وغمرتها رحمة السماء بما لم تغمر به فتــاة خاطئة من قبل. ومن يومها لم تترك المسيح ولا دعوته ولا حوارييه.

٩ ـ الجندى المسيحى :

هو ذلك الجندى الــرومانى الذى أحبته المجدلية، وقــد بحث عنها كثيرا، بعد أن اختفت من دار البغاء بعــد ما اتبعت السيد المسيح، ثم اهتــدى إليها، وهناك رأى السيــد المسيح وآمن به، وكان لإيمانه أثر كبير فى حياته فيما بعد.

١٠ ـ مريضة :

يعرض هذا الفصل صورة شابة مريضة تعتريها نوبات المرض فتحيل حياتها جحيما، بذل أهلوها كل مــا فى مقدورهم لينقذوها وفشلــوا، وداووها بالأفيون فهــدأت فترة ثم عادت إليها الآلام، فلجأت إلى السيــدة مريم جــارتها تستنجد بــابنها المسيح، فأنبأهم أنــه لا يشفى أدواء الجسم، وإنما يشفى أدواء الروح. ولما كانت هذه الفتاة من أطهر الناس روحا فلا شأن له بها. فلما سمعت المريضة قول السيد المسيح سعدت سعادة بالغة.. ثم ماتت مستريحة هانئة.

١١ ـ اجتماع الحواريين :

اجتمع الحواريــون ليلــة الجمعــة يتجــادلــون فى أمــــرهم وقــد غلب عليهم اليأس والألم، وتحاوروا وكادوا يقررون أن يستنقذوا المسيح بــالقوة لولا رأى بعض حكمائهم، ورأى السيد المسيح الذى أعلنــه رسولهم إليه عنــد عودته من لدنــه، فانصرفوا محزونين ليعبــدوا الله حتى يعود المسيح كما وعدهم بعد ثلاثة أيام.

١٢ ـ خروج الحواريين :

تصور هذه اللوحة خروج الحواريين، وما اعترى نفوسهم من الحزن والألم، ثم إنهم رأوا موكب القائد الرومانى يسير وراءه صفوف الأسرى يحرسهم العبيد الأشداء، وعجز واحد من الأسرى عن الاستمرار فى السير فعاق الموكب فأرادوا أن يبعدوه عن الموكب، فأعجزتهم شدة قيوده فقطعوا ذراعيه وتركوه ملقى على الأرض، فزاد ذلك الحواريين إلى ما بهم، وحاولوا تضميد جراحه ولكن روحه فاضت بين أيديهم.

□

لوحات الباب الثالث :

١٣ ـ قائد حازم :

يصف المؤلف فى هذه اللوحة القائد الرومانى، وهو صورة لكل قائد رومانى يقدس النظام، ويمجد القوة، ويسبح بعظمة روما، ويسعى لسيادتها. ولا يقف المؤلف عند الوصف، بل يضرب لنا بعض الأمثلة من سلوك القائد.

١٤ ـ الخائن :

هذه هى اللوحة الثانية التى تتعلق بالجندى، أما اللوحة الأولى فهى الفصل التاسع. وأما «الخيانة» فإنه لما آمن بدعوة السيد المسيح إلى الحب والسلام عزم على أن يعمل بهذه الدعوة مهما كلفه ذلك من أمر. فلما اطلع على ثغرة فى سور مدينة يحاصرها قائده وجيشه (لسبب تافه ليس وراءه إلا حب المجد والعظمة، والعمل على أن ترضى عنه روما، ويسلك سبيل الترقى) ـ وكانت الثغرة كفيلة بتحقيق النصر لقائده ــ لم يطلع قائده عليها لأنه كان يدرك أنها ستؤدى إلى سفك دماء جم غفير من البشر، ووعد أهل المدينة أن يكتم أمرها. وهكذا عجز القائد عن اقتحام المدينة وصالح أهلها صلحا مشرفا لهم، وحافظا لماء وجهه، ولكنه عرف فيما بعد بأمر هذه الخيانة فعزم أن يجعل هذا الخائن عبرة لأمثاله.

١٥ ـ المحاكمة :

يجلو لنا الكاتب فى هذا الفصل محاكمة الجندى المسيحى، فيعرض آراء رجل الاتهام وآراء الجندى الجريئة السديدة التى لا نتيجة لها (عندهم) إلا الحكم بالموت.

وكان أفظع ما فى الأمر طريقة تنفيذ الحكم حيث ربطت يد الجندى ورجلاه إلى أربعة خيول يجره كل منها إلى جهة فتمزق شر ممزق، ولما رأى القائد ما حدث لهذا الجندى، اضطربت نفسه وعقله وأصابه خبل خفيف.

١٦ ـ بيلاتوس :

وبيلاتوس هذا هو حاكم إقليم أورشليم فى ذلك العصر، وهو رجل فيه حكمة وسداد رأى، وقد ألم ببعض فلسفة اليونان فاستقام تفكيره، واستمع إلى أخبار بنى إسرائيل فطابت نفسه. وكان فى ذلك اليوم مرهق النفس بعد أن حمله بنو إسرائيل على قتل السيد المسيح الذى لا يعلم عنه إلا خيرا. وقد دار حوار بينه وبين صديق له من الفلاسفة اليونانيين كان يرى أن بيلاتوس نكب فى نفسه نكبة كبرى حين أطاع بنى إسرائيل، وأن محنته هذه حملته على اليأس، وأنه لم يعد يرى إلا ما يراه الرومان من الإيمان بالحياة وملذاتها، وأنه لم يعد يؤمن بقوة الدين، ولا بقوة العقل على هداية الناس.

١٧ ـ ثم أظلمت الدنيا :

أظلمت الدنيا ظلاما شديدا ظهر يوم الجمعة، واستمر ذلك ثلاث ساعات، واختلفت نظرة الناس إلى هذا الظلام، فالمؤمنون يرون فيه غضب الله على الناس لما حل برسوله إليهم، والراعية الصغيرة تراه من عمل الجن يدبرون اختطافها لأنها عصت أمها، والنسوة الصالحات يرونه غضبا من الله، والجند الرومان يرون فيه مظهرا من مظاهر الطبيعة.. ثم انقشع الظلام.

١٨ ـ عود إلى موعظة الجبل :

وفيها يوضح الحكيم الماجى للحواريين المغزى الحقيقى لوصايا السيد المسيح فى موعظة الجبل، فتدب الحياة فى الحواريين ويشملهم الفرح بالنجاة، ويحسون أن أمامهم جهادا طويلا ينجيهم من ألم الحسرة ومرارة الاستسلام.

□

ماذا أراد الكاتب بقصته «قرية ظالمة»؟ قال النقاد إن كامل حسين عرض «مشكلة الفرد والجماعة» وقالوا إنه عرض مشكلة «الضمير»، وقالوا إن القضية التى عناها هى «مستقبل الإنسانية وضمير الجماعة». وذهب بعضهم إلى أنه أراد أن يفسر كيف ترتكب الآثام بواسطة مجموعة من الناس، «وأن المجموعة لا تحس فداحة المسئولية من ارتكاب الجريمة، ولذلك فهى تفعلها ببساطة». وذهب بعض آخر إلى أنه أراد أن يفصل علاقة «القوى الثلاث» التى تتنازع الإنسان.

وقد يكون هذا كله صحيحا، وغيره مما قالوه ولم نذكره صحيح، وغيره مما لم يقل به أحد منهم أو من غيرهم حتى اليوم، ولكنى لا أرى رأيا من هذه الآراء لا لخطإ فيها وإنما لسبب آخر، هذا السبب يكمن فى أن النقاد أو ذوى الآراء يختارون أنسب رءوس الموضوعات فى رءوسهم لموضوع الكاتب فيذكرونه له، وقد يكون ذلك مقبولا مع الكتاب (الكبار والصغار) الذين يدورون فى دائرة المعانى المألوفة التى تجد لها رءوس عناوين النقاد الذين يدورون هم أيضا فى فلك هذه المعانى.

أما المعنى الذى أراده كامل حسين فى قرية ظالمة، فهو معنى جديد لا نقول بأنه خارج عن دائرة المعانى عند أصحاب المعانى، ولكننا نقول إنه دخل إلى هذه الدائرة ليزيدها معنى عظيما. وقد يتناول قلم أو أقلام موضوعا فيعرض لمعانيه صادرا فى عرضها عن هذا المعنى الذى أوجده كامل حسين فى قرية ظالمة، يومئذ لن نقول إن هذا القلم تناول الضمير عند الفرد وعند الجماعة، ولكننا سنقول إنه تناول المعنى الكاملى إلى أن نجد من ألفاظ أدبائنا الرشيقة ذلك اللفظ الذى يعبر عن هذا المعنى.

ما هذا المعنى الذى يريده كامل حسين والذى أبهمت فى التعبير عنه بتسميته (المعنى الكاملى)، وزدت فى الإبهام حين نسبته إلى صاحبه، ثم خرجت من الإبهام إلى تمنى لفظ رشيق من ألفاظ أدبائنا؟ قد يكون فى قراءة مقدمة كامل حسين ما يدلنا على بعض الجوانب فى هذا المعنى:

«كان اليوم يوم جمعة. لكنه لم يكن كغيره من الأيام.

كان يوما ضل فيه الناس ضلالا بعيدا، وأوغلوا فى الضلال حتى بلغوا غاية الإثم، وطغى عليهم الشر حتى عموا عن الحق وهو أوضح من فلق الصبح، وكانوا مع ذلك أهل دين وعلم وخلق، وكانوا أحرص الناس على اتباع الهدى، وأحبهم للخير وأعمقهم تفكيرا وأقدرهم على تعقب دقائق الأمور، وكانوا أكثر الناس حبا لقومهم، وحدبا على وطنهم، وإخلاصا لدينهم، وكانت بهم حمية، وشجاعة، وإخلاص».

ولا أظن أن المؤلف أراد من كتابه شيئا قبل هذا، فهو يحصى فى قوم أوغلوا فى الضلال **اثنتى عشرة فضيلة:** الدين، والعلم، والخلق، والقدرة على اتباع الهدى، وتعقب دقائق الأمور، وحب الخير، وعمق التفكير، والقومية، والوطنية، والولاء الدينى، والحمية، والشجاعة، والإخلاص. وهو يذهب فى بعض هذه الفضائل أو بعبارة حسابية فى نصفها إلى أن يجعل نصيب هؤلاء من الفضائل بين الناس أوفى نصيب.

قلنا إن المؤلف أحصى الفضائل فى قوم ضلوا، فهل أراد بذلك أن ينفى العلاقة السببية السلبية بين الفضائل والضلال؟

هذا سؤال حرج، وحرجه أن جوابه بالإيجاب يقودنا نحن والمؤلف إلى أحرج المواقف، ولكننا لا نجد بأسا من أن نمر بأحرج المواقف. نعم **ينفى كامل حسين العلاقة السببية السلبية بين الفضائل والضلال**، ولكنه يجعل **الطرف الأول لهذه العلاقة هو الضمير**، «فالضمير الإنسانى قبس من نور الله لا يكون للناس هدى بغيره، وكل فضيلة تنقلب نقصا، وكل خير يصبح شرا، وكل عقل يصير خبالا ما لم يكن للناس من ضميرهم هاد». «مثلهم فى ذلك مثل المدينة المظلمة: إذا طلع القمر كانت معالمها هداية ومبانيها هداية لأهلها تريهم أى طريق يسلكون أما إذا أظلمت عليهم حقا فإن هذه المعانى الجميلة والمبانى الرائعة تصبح كلها عقبات وعثرات يصطدمون بها فتؤذيهم وتضلهم، وكذلك الناس فى حياتهم: إن يشرق عليهم الضمير تكن فضائلهم رشدا، وإن يظلم عليهم يكن كل ما فيهم من عقل وخير عليهم وبالا».

□

وقرية ظالمة هدفها الأول الوعظ، واقرأ معى الفقرة الأولى من الخاتمة: «لو كان الناس متعظين بشىء لكانت لهم فى أحداث ذلك اليوم عبر وعظات (ولكنهم لا يتعظون أبدا)، وقد علموا كيف ضل أهل أورشليم ضلالا مبينا حين عصفت بهم قوى متباينة فيها الخير والشر فتغلب الشر على الخير وغلب الضلال الهدى وهم لا يدرون ما يفعلون، ولا يزال الناس فى مهب هذه القوى تعتورهم فيضلون بها كما ضلت أمم كثيرة من قبل، وهم لا يقدرون على توجيهها وجهة تكفل لهم الصحة من الخطإ».

وقد يحتج على رأيى القائل بأن هدف قرية ظالمة هو الوعظ بالجملة الاستدراكية فى قوله (ولكنهم لا يتعظون أبدا). وواضح ما فى هذا الاحتجاج من تعنت، فالجملة ليست إلا من باب قولك لتلميذك عندما يخفق «أرشدتك إلى هذا الأمر.. ولكنك لا تفهم أبدا». وقد أخذت القصة اتجاها إنسانيا لا ريب، وانظر إلى اقتراح أحد أبطالها أن يكون معلن الحرب هو أول رجل يموت فى الحرب.

□

كتب كامل حسين قريـة ظالمة (فى سفينة) كيلا تقرأ فى القطار، وكـان حريصـا على أن يبدع عملا فكريا يقرأ فى تمهل، وكان نجاحه فى ذلك مطلقا، فتحقق هدفه عند الناس جميعا ابتداء بى وانتهاء إلى عميد الأدب العربى حيث يقول: «وأخيرا أتيح لنا كتاب نقرؤه بعقولنا فى أناة ومهل، وفى تدبير وتفكر، وفى كثير من المراجعة، وكثير من الوقوف عند هذا الفصل أو ذاك من فصوله، لا نمر به مر السحاب ولا تلتهمه الأبصار والآذان فى أقصر وقت ممكن، ولا تكره الألسنة كرا». «أتيح لنا كتـاب لا نقرؤه لقطع الوقت، ولا نقرؤه لنـدعو بقراءته النـوم حين يمتنع علينا، إنما نقرؤه لنفهم من كـاتبه ما أراد أن يعـرض علينا من حـديث، ولنرى بعد ذلك أنقبل حـديثه، أم نزور عنه؟ أنقبل على معـانيه إقبال المشوق، أم ننفر نفـورا شديدا؟ كتاب لم يـرح كاتبه، ولن يريح قـارئه، وأكبر الظن أن كاتبه أهدى إلينـا فيه خلاصـة حياته، وصفوة تجاربـه، ونتيجة جهوده المتصلة التى أنفقهـا دارسا، ومعالجا، مبتليا أنباء الناس وأسرارهم، ممتحنـا ما يكون من سيرتهم أفرادا وجماعات، وما يكون من تضارب بين هؤلاء الأفراد والجماعات حين يعرف بعضهم بعضـا، وحين يمكر بعضهم ببعض، وحين يسعى بعضهم إلى بعض بـالخير والمودة والمعروف».

□

وطبيعة هـذا الكتاب محل خـلاف، فالنقـاد لا يعدونـه قصة لأنـه لم يستوف شروطهم فى القصة، «فقد خلا من الحكاية النامية المتطورة التى تتشابك خيوطها حتى تنتهى آخر الأمر إلى خيط واحد يجمعها». «والشخصيات لا ترتبط ببعضهـا ارتباطا وثيقا حتى أن المؤلف ليتناول فى فصل من الفصول شخصية ولا يعود إليها بعد ذلك، والأمثلة واضحة فى عرضنا للكتاب».

ثم إن الشخصية لا تقصـد لذاتها، وإنما من أجل إبـراز الفكرة التى يعنى بها المؤلف، ومن ثم فهو لا يهتم بتسمية هذه الأشخاص إلا فيما ندر لأنـه لا يقصدها لذاتها كما قدمنا. والذين يرون هـذا الرأى لا يقللون بـه من شأن (قرية ظـالمة)، فهى عمل عظيم أيًّا كـان هذا العمل فى نظرتنا وموازيننا.

والنقاد يعـودون فيقولـون إن هذا الكتـاب، وإن لم يكن قصة، فقـد سار فيـه المؤلف على الأسلوب القصصى. وفى هذا القول فصل الخطاب، فالنقـاد قد اهتدوا بحاستهم الفنية ـ وهى صادقة بلا شك ـ إلى القصة فى (قرية ظالمة)، ولكن حاستهم النقدية ـ وهى بلا شك أقل صدقا

ومقدرة على الـوصول إلى الحقيقة ـ لم تسعفهم بهذا الحكم. أمـا القصة الفنية فى قريـة ظالمة، فمثال لنوع من القصص الجديـدة على أدبنا العربى. لا أقصد إلى القـول بأن هذا الكتاب يمثل القصة الفلسفيـة المفردة فى أدبنا المعـاصر، ولا إلى شىء من ذلك القبيل، وإنما تتمثل القصة فى قرية ظالمة فى هذه القصص الكثيرة التى تدور حول موضوع بعينه فى فلك واحد أشبه ما تكون بالمجموعة الشمسيـة لا اختلاف فيها ولا اضطراب. **قرية ظالمة مجموعة من القصص التى تتوافر فيها أدق شروط النقاد،** والدكتور طـه حسين وجد فى الكتاب قصة متقنـة رائعة حقا يمكن أن تستقل بنفسها وتقف على قدميها إن صح أن تقف القصص على أقدامها:

«وما أرى إلا أن الكـاتب قد دفع إليهـا عن غير تكلف منـه لها فوفق إلى الإتقان حقـا، وهى قصة المجدليـة وصاحبها الفتى الرومـانى، فهذه الفتاة التى عرفت من شأنها مـا عرفت آنفا، والتى آمنت بالمسيح بعـد أن تورطت فى الإثم العظيم وانتهى أمرها إلى أعمق الإيمان وأقـواه قد عرفت فيمن عرفـت أثناء مقارفتها للإثم جنـديا رومانيا أحبهـا وأحبته، فلما أقبلت على دينها الجديد تبعهـا نفس الفتى فمازال يبحث عنها حتى اهتـدى إليها فى بيئتها الجديـدة المؤمنة، ثم سعى إليهـا فأحسنت لقاءه، ومـا أسرع ما هـدته إلى الـدين الذى اهتـدت إليه، ومـا أسرع ما استحال حبهما ذاك الذى كان يشوبه الإثم إلى إخاء صادق.

وهذا الفتى تعرض له بعد ذلك خطوب يصورها تصويرا رائعا حقا، فإيمانه بالدين الجديد يبغض إليه الحرب، ويلغى من نفسه فكرة العداء للناس، ويعطف قلبه على أعداء روما فيحسن إليهم ويبرهم فى أثنـاء الحرب، وينشأ عن هذا الإحسـاس والبر انهزام رومـا، ويرفع أمـره إلى القائد فيحاكمه فى نفس اليـوم الذى حوكم فيه المسيح، ويدافع الجندى عن نفسـه دفاعا رائعا فيه شجـاعة لا عهـد للناس بها، وفيه ارتفـاع إلى منزلة من الصفـاء والنقاء والطهـر لم يألفها الرومـان. ويقضى بالموت على هـذا الفتى، ولكنه موت منكـر بشع يضطرب لـه عقل القاضى القائد بعد أن يراه كما اضطربت نفس الحاكم الرومانى للقضاء على المسيح».

وليس ببعيد أن يكـون آخرون غير الدكتور طه قـد وجدوا فيها مثل مـا وجد، أو أن يكون الدكتور طه نفسه قد وجد فيها قصة أخرى.

أما نحن فقـد وجدنـا فى قريـة ظالمة مجمـوعة من القصص تدور فى فلـك قصصى واحد، كالمجموعـة الذرية تسلك فى مسالكهـا الكيميائية مسلك العنصر، أو قل كالمجمـوعة الشمسية تدور فى فلك واحد.

□

وزمان القصة هو يوم الجمعة الذى امتحن فيه المسيح حين تألب عليه بنو إسرائيل يريدون به الكيد، وهو زمن قصير جـدا لا يكاد يتجاوز يوما وليلة. وأظنك تـوافقنى على أن كاتبا يكتب أربعا وثلاثين ومائتين من الصفحات (وبهذا التركيز الذى لم نعهده فى أدبنا المعاصر)، وعنصر الزمن عنـده لا يزيـد على أربع وعشرين ساعة، لـه من عظمة القلم حظ كبير. إلا أن زمـان هذه القصة الحقيقى ممتد ما كانت الحياة، فليست أحداث ذلك اليوم من أنباء القرون الأولى، بل هى نكبات تتجدد كل يوم فى حيـاة كل فرد، والناس أبدا معاصرون لذلك اليـوم المشـهود، وهم أبدا معرضـون لما وقع فيه أهل أورشليم حينذاك مـن إثم وضـلال، وسيظلون كـذلك حتى يجمعوا أمرهم، ولا يتخطوا حدود الضمير.

وتوفيق حنا يجد فى اختيار المؤلف يوم الجمعة بالـذات وعيا إنسانيا دقيقا عميقا، ويرى أن المؤلف لو اختار يـوم الأحد الذى أشار إليه عندمـا ذكر «عودة المسيح إلى حوارييه بعـد ثلاثة أيـام»، لضـاعت اللحظـة الفنية والـروحـانيـات، ولما تمكن المؤلف الـواعى من أن يمس هـذا الإحساس العميق الذى انتهى إليه يوم الأحد.

ومكان الحادث هـو القريـة الظالمة أورشليم، وربما تجاوز هـذه المدينة إلى بعض أطـرافها والجبال المحيطة بها، ولكننا يمكننا أن نتسع به فنشمل الأرض جميعا على نحو ما فعلنا بزمان القصة.

وطريقة الكاتب فى التعبير هى طـريقة السرد المباشر. ولعله استخدم هذه الطـريقة بالذات، كما يقول الأستاذ فتحى الإبيارى، ليتمكن من تصوير الأحداث والخلجات الإنسانية، وليكون قادرا على تحليل الشخصيات تحليـلا فى منتهى العمق، وتحليل الفكرة تحليلا منطقيـا جذريا. ولكنه فى بعض الأحيان خرج من سياق السرد المباشر إلى التعليق المكشوف، وخاصة عندما علق على حادث الصلب بقوله: «وهذا حكم على المسيح بـالصلب من أجل كفره بالله، فهل يبقى بعد ذلك ثقة فى حكم الإنسـان؟».

وقد بلغ السرد من «قرية ظالمة» مبلغا بدت معه وكأنها قصة أحداث، وتكاد الأحداث تكون العنصر القصصى بقدر ما تخدم أفكار الكاتب، وفى هـذا براعة ولا شك. والشخصيات تمضى فى عرض شيق جذاب، إلا أننا لا نحس بتلك الشخصيات وتأثيرها فى نفوسنا بقدر ما نتأثر بما أورده المؤلف من تحليل وحوار فلسفيين.

□

والمؤلف يرسم الجو حـول الشخصية أكثر ممـا يرسم الشخصية ذاتها، وأشخـاصه كما تقول الدكتـورة سهير القلماوى مرايا يعكس عليها تفكير الأفـراد واحدا واحدا ليصل إلى دعم رأيه، فلازار لا يمثل إلا فكرة المعجزة، ولمعجزته عند الناس تأويلات شتى، أما عند المؤلف فهو ضمير اقترف الشر ثم تاب وظن أنه قد عاد لمجد التوبة.

وفى عرضـه للشخصيات تكشف لنا الـدكتورة سهير عن مزيـة أخرى فتقول: إنـه يجعلنا نحس ببيئتنا الفـردية إحســاسا سريعـا قويا أولا، ثم ينقلنـا إلى شخصياتها نقـلا عابـرا. أما شخص المسيح فـلا يطالعك فى القصـة وإن كنت تسمع عنه ويـروى لك قولـه، وإن كان هـو محور القضيـة والمفعول بـه فى جملتهـا. ولا أحسب إلا أن الكـاتب أراد بهذا ألا يزج بقلمـه فى موضـوع المسيح، فالاختلاف فيـه بين المسلمين والمسيحيين لا يقل عن اختلافهم فى مـوضـوع الصلب. أضف إلى هـذا أن كبار المفكـرين الإسـلاميين تعودوا ألا يمســوا شخصيات الأنبيـاء وكبار الصحابة مسا مباشرا فى أعمالهم الأدبية الإبداعية، ويحتالون لذلك فينقلون أقوالهم على ألسنة أتباعهم يرددونها عنهم. وقد اتبع كامل حسين هذا النهج فى «قرية ظالمة»، لكننا سنجده فى فصل قريب يتناول شخصية موسى عليه السلام تناولا مباشرا فى «الطريد» و «ماء مدين»، وليس بين الموقعين ثمـة تعارض ــ فى ظنى ــ ولكن أمر الاختـلاف فى المنهج عنـد الرجل هـو اختلاف بين الـرسولين عليهما الصلاة والســلام، فالكتب المقدســة تجمع على رأى واحد فيما يتعلق بالنبى موسى عليه السلام، بل إن كثيرا من التفـاصيل فى العهد القديم تتطابق والقرآن، أما أمر المسيح فمختلف جد الاختلاف.

□

وحوار الشخصيـات فى «قريـة ظالمة» يذكـر كثيرين منا بـالشخصيات فى كتب أفـلاطون يحاور بعضهم بعضا أو يحاورهم سقراط، وأفلاطون فى فـن من الفنون، ولكن هذا لا يدفعنا إلى القول (لمجرد تشابه فى تصوير الشخصيات) بأن قرية ظالمة تمثل محاورة أفلاطونية.

وقد يكون كامل حسين هو أول أديب إسلامى يتخذ قصة مسيحية ليستعملها رمزا ويفرد كتابا عن يـوم الجمعة. وفى هذا معنى من معانى الريـادة فى العمل الأدبى. أما عمق المؤلف فذو أبعاد (لو كان للعمق وهو بعد أن يوصف بكثرة أبعاده):

□ فهو عميق فى تقصى كل صغيرة وكبيرة فى محيط الحادث مما ورد فى الكتب المقدسة.

□ وهو عميق فى أفكاره التى بنى عليها الكتاب.

□ ولألفاظه عمق دلالة يعرفه الذين تلاحقهم ألفاظ الدواوين بسطحيتها.

□ وهو يغوص فى أعماق النفوس البشرية ويخرج لنا بلآلىء من المعانى المتعلقة بها.

وقد يؤخذ على المؤلف جفاف قلمه فى رواية مشاهد الغرام فى الفصل الثانى بين رجل الاتهام وزوجته، ولكن من قال إن المؤلف أراد أن يصور من حب الزوجين شيئا؟ إنما أراد أن يبين أن بنى إسرائيل مشغولة فى ذلك اليوم بخطب جلل، إلى الحد الذى شغلهم عن أن يفرغ الزوج لزوجه فى يوم عيدها، وإلى الحد الذى جعل زوجة رجل الاتهام تنصرف عن زوجها، وعن حبها، وعن عيدها لأنها شغلت عن هذا كله بالمسيح وبالظلم الواقع عليه. إذا ما أدركنا هذا المعنى الذى أراده المؤلف استطعنا أن ننفى عنه تهمة الأستاذ فتحى رضوان بأنه اتخذ من موقف الحب فى مخدع الزوجة مجرد مقدمة ظن أن مقتضيات القصة المثيرة تأمر بها.

□

والأستاذ عصام الهنامى يستلفت نظرنا إلى أن الكاتب برأ اليهود من محاولة قتل المسيح ظلما، فقد جعلهم يفعلون ذلك نتيجة حرص شديد على الدين وسوء فهم منهم لآرائه، وقد صرح بذلك فى قوله: «إذا كان الحواريون — وهم أفضل الناس — لم ينجوا من الخطإ بعد التشاور والبحث وبعد أن تجمعت لديهم كل عناصر الهدى فإن بنى إسرائيل لهم العذر إذا ضلوا».

ويتساءل الأستاذ فتحى رضوان عن تبرئة المؤلف لزعماء أورشليم ولشعبها من تهمة تعذيب المسيح والائتمار به والخوف من عقيدته: هل كان عملا له أساس من التاريخ؟ أم - وفى هذا التساؤل الأخير تقرير الحقيقة — أن الحقيقة التى ملأت نفسه كانت ثمرة تفاؤله هو، ولإيمانه بأن فى النفس الإنسانية مهما ضلت جانبا يكمن فيه الحب والعطف ولو اختفى وتعذر الاهتداء إليه وسط صراع الناس مع الدنيا؟

والأستاذ يوسف الشارونى يرى أن المؤلف مخطىء فى فهمه لفكرة الخطيئة فى المسيحية، فهو لا يوافقه فى قوله بأن «**إحجام الحواريين عن نصرة المسيح يوم الصلب** هى التى حددت مبادىء المسيحية وفلسفتها، فليست فكرة التكفير والفداء، وهذا الحزن الغالب على طبع

كبار المتمسكين بالمسيحية وخوفهم من الخطايا، وحبهم لتعذيب النفس، وإرهاقها وإكبارهم خطيئة آدم وإيمانهم بأنها أصل العذاب الذى تعرض له المسيح.. كل ذلك ليس إلا صدى لهذا الإحجام الذى وقع من الحواريين عن نصرة السيد المسيح». ثم يقول الأستاذ الشارونى إن المؤلف مع ذلك يقرر أن الحواريين لم يحجموا عن نصرة السيد المسيح يوم الصلب. بل نشأ بينهم جدل طويل. ثم يتساءل الأستاذ الشارونى: أين كان إحجامهم الذى بلغ أثره من الضخامة بحيث يصبح أصلا لفكرة الخطيئة فى المسيحية؟

ونحن بدورنا، وإن لم نخالف الأستاذ الشارونى فى قوله جميعا لجهل منا بفكرة الخطيئة فى المسيحية، إلا أننا نسأله سؤالا فى جانب آخر من كلامه:

هل أحجم الحواريون أم لم يحجموا؟ ثم هل يكون نقاشهم دليلا على أنهم لم يحجموا مع أنه انتهى بإحجامهم؟

وسوف يكون فى رد الأستاذ الشاروئى على سؤالينا هذين أعظم رد على آراء الأستاذ الشارونى نفسه.

أما فهم المؤلف لفكرة الخطيئة فى المسيحية، فليس فيه خطأ إذا كانت فكرة الخطيئة فى المسيحية هى خطيئة آدم كما قال الأستاذ الشارونى. ودليلنا على أن فهم كامل حسين لفكرة الخطيئة فى المسيحية ليس فيها خطأ هو ما ذكره الأستاذ الشارونى نفسه من أن المؤلف يدرك ذلك حين يقول: «لعل التوراة حين قالت عن آدم إنه أول إنسان لم تقصد إلى أنه أول من مشى على رجلين، بل تعنى أنه أول من أدرك الخطيئة وأول من أحس بأثر الضمير، فأصبح بذلك إنسانا». بقى أن نقول إنه مادام فهم المؤلف لفكرة الخطيئة فى المسيحية صحيحا فلا عليه أن يبرز هذا الفهم ذات مرة فى صورة مختلفة **وهو حق من حقوق الأدباء.**

□

ويبدو أن موقف المؤلف من الحواريين كان غريبا على كثير من نقادنا الذين كانوا ينتظرون من المؤلف أن يضعهم فى طبقة عليا من طبقات التفكير (وقد قدمنا رأى الأستاذ الشارونى). ومحمد عطا يأخذ على المؤلف أنه جعل الحواريين يقفون موقفا سلبيا من المتآمرين، وأن طبيعة تفكيرهم فى الكتاب لم تهدهم إلى أن الرسالة المسيحية لم تمت، ولن تموت بذهاب الداعية الأول بل ستبقى، وأن شيئا من ذلك لم يرد على خاطرهم ـ وقد بحثوا أمرهم بحثا طويلا عميقا ـ إلا بعد أن هداهم إليه الحكيم الماجى.

ولأن الكتاب عـامر بتأملات فلسفية، فإن كثيرا من نقـادنا ودوا لو وجدوا فيـه فلسفة لكل الأمـور التى تتصل به. فـالشارونى يـأخذ على المؤلف أنـه لم يبين لنا لماذا كـان المسيح يمثل الضمير؟ ولماذا كان اليهود يمثلون العنصر الذى من شأنه أن يطفىء نور هذا الضمير؟ والقول بمثل هذا إن كان من باب الجد مطالبة للأديب بأن يكون باحثا، وهما أمران لا يلزم اجتماعهما دائما. وأود أن أذكر للأستاذ الشارونى فضلا فى نقد «قريـة ظالمة»، فقد خرج لنا منها بمقارنة علمية طـريفة بين الديانتين المسيحيـة واليهودية، وهـو يستشهد لكل وجه من وجوه المقـارنة بنص من الكتـاب حتى شعرنـا وكأن قرية ظـالمة من المراجع التى يـرجع إليها فى المقـارنة بين الأديان.

□

لم يقصد كاتبنا حين أراد أن يصـور قصة ذلك اليوم غاية من الغايـات الدينية التى يقصد إليها الكاتبـون حين يعرضون لهذه القصة أو ما يشبهها من القصص. وهـذا هو السبب الذى لأجله لم يجد الأستـاذ فتحى رضوان القصة الحارة التى تمنى أن يتخذهـا المؤلف من أحداث ذلك اليوم، وإنما قصد إلى غاية أخرى كان يمكنـه أن يصل إليها كما يقول الدكتور طه حسين «بتصوير أى شخص آخـر مخلص صادق يريد الخير للناس فصب عليه الشر، ودبـر له الكيد من الذين أراد إصلاحهم».

والذين تنـاولوا هذا اليوم من أعلامنـا فى الأدب المعاصر اثنان: صاحبنـا وتوفيق الحكيم فى (أهل الكهف)، وهى مسرحية تعرض فيها الأديب الكبير لنهاية المسيح يسوع وكيف ظلمه أهل أورشليم ظلما شديدا، ولكنها بدت غارقة فى ضباب أسطورى، ولم يكن حظها من الجودة مثل حظ قرية ظالمة.

□

والحوار فى قريـة ظالمة سلس، قصير العبارات، مشبع بـالفلسفة العميقة، مـرتب الأفكار. والكتاب غنى بالحوار الذى يدل على شيئين: الثـراء الفكرى والقدرة الفنية، وهما أمران لم نعد بحاجة إلى توضيحهما فى قرية ظالمة. **ويدور الحوار بين رجل الاتهام وصديقه إحدى عشرة**

مرة، وبين التاجر وصديقه العـالم عشر مرات، وبين بيلاتوس ورجل الدين سبع مرات، وبين الحكيم الماجى والفيلسوف اليونانى عشر مـرات، أما الحواريو ن فقد انتقل الحوار بينهم تسعا وثلاثين مرة.

وتسلسل الأحداث فى قريـة ظالمة تسلسل بـديع، ونجاح المؤلف فيـه ووصولـه إلى درجة الإبداع ليس شيئا يسيرا، خاصة إذا أدركت مدى تشابك هذه الأحداث واختلاطها، ولكن تحديد الكاتب لفكرته وهدفه وعقليته العلمية كانا عونا له على هذا النجاح إلى حد كبير.

وأسلوب الكاتب فى قريـة ظالمة فخم جزل رصين ترتفع به فخامتـه ورصانته إلى أن يكون بين أساليب الكتابـة العربية فى أوج ازدهارها، وقـد بدت موهبته الكتابيـة بصورة واضحة فى استخدامه الألفـاظ والتراكيب العربية ببراعة مع سهـولة تبلغ أقصى حدود السهـولة إن كان للسهولة حدود.

وليس فى الكتاب ما يلجأ معه القارىء العادى فى الربع الأخير من القرن العشرين إلى المعجم إلا لفظين، الأول: فى وصف المجدليـة بأنها كانت امرأة «أملـودا»، أى ناعمة لينـة. وثانيهما: فى معرض الحديث عن المريضة «وأخذ بفودى رأسها»، أى بجانبى رأسها مما يلى الأذنين.

□

وضرب الكـاتب مثلا حيـا رائدا (أرى فيـه عظة لأولئك الـذين يسفـون حين يتطرقـون إلى الحديث عن الجنس) فى حـديثه عن المجدليـة وحبها حتى لم يجد حـرجا فى تصـوير عـلاقتها بالمسيح على أنها «حب الإنسان».

□

ظهرت قريـة ظالمة وكان المفكرون يتوجسـون أن تثير القصـة بعض رجال الدين، وأن تثير جدلا طويلا حولها وحول أفكارها، وكانوا لا يستبعدون أن يُرمى صاحبها بتهمة من تلك التهم التى تنطلق من المدافع سريعة الطلقات، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، وإن تهامس الناس ببعض ما توقع. والحقيقة أن كامل حسين كان من اللبـاقة بحيث لم يستعد أحدا من العقلاء، ومع أنه لم يرض القساوسة والشيوخ إلا أنه أرضى ذوى السماحة من أهل الدينين.

وفى القصة شخصيات هامشية إلى أبعد أطراف الهامشية، كذلك الرجل الذى تحدثنا الأنباء بأنه «جاء من أقصى الأرض مع آخرين يهديهم النجم ليحيوا المسيح بعد مولده»، وكأخت لازار، لا أقصد تلك التى ذهبت إلى المسيح تطلب إليه أن يعيده إلى الحياة، وإنما الأخت الأخرى التى لم يأت ذكرها حين قال: «فلما رأته أختاه على هذه الحال من الرعب.. إلخ» ص ٤١.

ومن الشخصيات التى اخترعها المؤلف اختراعا، ولم يرد لها ذكر فى الأناجيل: راعية الأغنام، والجندى الرومانى، والقائد الرومانى.

وقد أخذ على المؤلف أنه جعل الجندى الرومانى يعدم بطريقة لم يكن الرومانيون، وهم السادة الفاتحون يعاملون بها. وقد يكون المأخذ صحيحا من الوجهة التاريخية. ولكن هذا التصوير كان ضروريا للناحية الفنية فى القصة، وقد أدرك النقاد ذلك فتلمسوا العذر للمؤلف. وبودى أن أتساءل ألا تكمن فى هذه المخالفة التاريخية ناحية فنية مهمة؟ ولو اتبع المؤلف قواعد التاريخ يومها، هل كان يؤدى ما أدى من معنى؟ ولا ريب أن الأمر لم يتم له إلا بهذه المخالفة التى تستأهلها عند الرومان جريمة الجندى التى جعلت منه أبعد ما يكون عن السادة الفاتحين.. والفقهاء بعد ذلك يقولون: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

□

وأنت تشم رائحة الطب عندما يتكلم المؤلف عن مريضة تناولت الأفيون، فيقول: «والذين يتناولون الأفيون تفاديا من الألم المبرح ينامون نوما غريبا يظل فيه الوجه أقرب ما يكون إلى حاله عند اليقظة، كأن الجسم وحده هو الذى يعتريه النوم، أما النفس فكأنها تظل على ما هى عليه من الانتباه، وكأن النائم يسمع وإن لم يجب أو هكذا يخيل إلى من ينظر إليه». وعندما يقول: «الألم المبرح يصيب الجسم أول الأمر وتبقى النفس هادئة، ويظل الحال كذلك فترة تختلف طولا وقصرا، ثم يشتد الألم حتى يشمل الجسم والنفس جميعا».

والصور فى قرية ظالمة قليلة، وهى لا تأتى إلا عند أشد الحاجة. ومن هذه الصورة: تصوير نظرة لازار على أنها أشبه الأشياء بنظرة السبع حين يحاط به فلا يجد سبيلا للنجاة.

الفصل الثانى

كامل حسين والقصة القصيرة

لو لم تكن «قرية ظـالمة» قصة لبقى كامل حسين قاصًا، فله مـن القصص مجموعة ممتعة نشرها فى الستينيات فى مجلتى «القصة» و «الهلال» وهى:

- □ «فراق»، وقد نشرت فى عدد فبراير عام ١٩٦٢ من مجلة «الهلال».
- □ «جريمة شنعاء»، وقد نشرت فى عدد مارس عام ١٩٦٢ من مجلة «الهلال».
- □ «أى الطريقين أهدى»، وقد نشر فى عدد إبريل عام ١٩٦٢ من مجلة «الهلال».
- □ «قوم لا يتطهرون»، وقد نشرت فى عدد مايو عام ١٩٦٢ من مجلة «الهلال».
- □ «الطريد»، وقد نشرت فى عدد يونيو عام ١٩٦٤ من مجلة «القصة».
- □ «ماء مدين»، وقد نشرت فى عدد أغسطس عام ١٩٦٤ من مجلة «القصة».
- □ وبالإضافة إلى ذلك نستعرض قصة (أقدم رسالة علمية) والتى نشرها فى متنوعات ج ١

وسـوف نتناول فى هـذا الفصل فى سرعـة بالغـة هـذه القصص واحدة واحـدة بشىء من التعريف والتلخيص والنقـد السريع، وذلك حتى يهدينا اللـه ويمكننا ذات يـوم من العثور على بقية أعمالـه القصصية، وذات يـوم آخر من المسـاعدة على نشر كـل هذه الأعمال فى مجمـوعة كاملة.

□□ فــراق

تحكى «فراق» قصة رجل كان يعمل عملا صغيرا فى دواوين الحكومة.. يقوم بواجبه فى غير عقوق ولا كفـاية. تعاقب عليه رؤسـاء كثيرون رأى منهم جميعا شقاء كثيرا، فهم لا يفهمـونه وهو لا يفهمهم، ولم تكن له كفـاية إلا حسن خطه، وكان بهذا فخورا يـرى لضيق أفقه أن هذا غاية الكفايات.

ثم تزوج فتاة مرحة طروبا، فحاول جاهدا أن ينسى من أجلها ما يلقاه من إهانة، وما يتندر به الناس عليـه، ولم يشأ أن يحدثها بشىء مما يلقاه حفظـا لكرامته وهيبته عنـدها، ولكنه لم يستطع أن يخفى ألمه كثيرا، وعلمت منه ذلك فما زالت به حتى أفضى إليها بسريرة نفسه، وبما يحزنه، فأخـذت تسرى عنه همه، وطفقت ــ برغم اختـلاف نفسيتهما ـ تدخـل على نفسه من السرور ألوانا حتى نسى ما يلقاه فى عمله من عناء، وأقلع أقرانه عن التعرض له.

ثم ولد لهما ولـد، وعزمـا على ألا يحرما هذا الطفـل شيئا، وكانـا لا يفكران فى أن يـذهبا إلى الطبيب حين يمـرضان ولكنهما كـانـا يسرعان بـه إلى الطبيب إذا شكـا أقل شكوى، وتعهـده الوالـدان بكل عناية حتى دخل المدرسـة، فبهر أقـرانه ومدرسيـه بذكائه وحسن خلقـه، وأدبه الجم.

وولد لهما بعـد ذلك ولد وبنت، وكـانا طفلين على جـانب كبير من الذكـاء، ولكنهما لم يبلغا مبلغ أخيهما البكر.

«وجلس الـرجل ذات صباح على مقعـد يقرأ الجريـدة، ثم مـال على جانب المقعـد وسقطت الجريدة من يده، ودخلت زوجته عليه، فـوجدته على هذه الحال، وحسبته نائما، فلما أرادت أن توقظه ليتناول إفطاره تبينت أنه فارق الحياة. وهكذا كانت وفاة الرجل، وهى البداية الحقيقية لقصة «فراق»».

وفقدت الأسرة عائلها فلم يكن بد من أن تعمل الأم ،فكانت تخيط الثياب بالأجر، أما الشاب

فإنه أخـذ يعطى دروسا خـاصة لمن هم أقل منـه تفوقا فى الفـرق التى أتم دراسة مناهجها، فأحسن هذا العمل، وزاده هذا العمل خبرة وعلما ونضوجا فى التفكير. والتحق صاحبنا بالكلية الحربية، فهى أقل مئونة، وأقصر أمدا من الجامعة، وما لبث أن تخرج فيها.

ويقبل صاحبنا ذات يوم على أمه يخبرها بأنه ذاهب إلى فلسطين فى أول كتيبة، فتسأله أمه: وهل يذهـب معك صديقك «فلان»؟ فيجيبهـا بالنفى، فسيبقى صـديقه هـذا ليحرس كـوبرى إمبابة.

ثم نجـد أنفسنـا نشعر بشعـور الضـابط الـذى ذهب إلى الميـدان، يتوقع تطبيقـا لعلـوم الإسـتراتيجيـة والتكتيك فى الحرب، فإذا به يجد غير ذلك: «وقتّ فى عضـده أنه سيمـوت فى غير فائدة لأمته، وأنـه سيموت من جراء عدم كفـاية من بيدهم الأمر، فـرئيسه الأعلى لا يعرف ولا يفهم، والثـانى لا يعنيـه أن يعـرف أو يفهم، وإنما يعنيـه أن يـرضى الأول، والثـالث يأبى أن يعرف، والرابع لا يريد أن يعـرف، والخامس لا يستطيع أن يعرف، والسادس يكره أن يعرف، وهؤلاء كلهم يأمرونه وعليه أن يطيع».

«وأخذ هـذا الضـابط الشـاب يشعر لأول مـرة بأنه يتقـدم للقتال لا سعيـا لنصر أمته ولا حماسة منه لرفع شأن جيشه كما كان يرى، وهو يسير إلى خط القتال، بل أصبح تقدمه خوفا من أن يتهم بالخيانة.. وشتان بين الموقفين».

وأبرز الضـابط الشـاب مهارة فى تنظيم جنوده، ورأى العدو أن الضبـاط الشبان هم عيون هذه الجنـود وروحها، وأنهم فى غير حاجـة إلى القضاء على الجنـود المقاتلين، وإنما يكفيهم أن يصيبوا أولئك الضباط فتشل بذلك حركة الجيش كله.

وجاء العدو بقناصته ليقضوا على هؤلاء الضباط، وما هى إلا دقائق حتى وقع هذا الضابط قتيلا، وأقبل النعى إلى أمه فلم تعد تستطيع الوقوف.

ورتبت الدولـة لها معاشـا كريما ومنحتهـا بضعة آلاف من الجنيهات تغنيهـا عن العمل، وتسمح لها ولأبنائها بأن يعيشوا عيشة راضية، حتـى يستطيع الولدان أن يتوليا أمرهما، ولن يكون ذلك بعيدا.

وشيعت الجنازة فى احتفال رسمى عظيم شهده الوزراء والقواد، وحاولت الأم أن تقوم لترى جثمان ابنها وهو يفارقها، ولكنها سقطت دون النافذة وحرمت حتى أن ترى جثة ابنها.

ومرت الشهور وهيأ لها ابنها الثانى مسكنا جديـدا، وأثاثا حسنا، واختار لها حجرة دافئة تغمرها الشمس حتى يذهب عنها ذلك الروماتيزم الذى أقعدها.

وذهب بها ابنهـا وابنتها إلى طبيب ليعـالجها ممـا أقعـدها، فأخـذت تقص عليه شيئـا من حياتها، وابنتها تنكر عليها ذلك قائلة: «ما للدكتور وهذا الذى تحدثينه به؟» وهى تقول لابنتها: «ولم لا يابنيتى؟ إن سماحة وجهـه تذكرنى بسماحة أخيك». وكان حـديثها إلى الطبيب طفرات من الحزن يبـدو فى صوتها وحـديثها ثم يشرق وجههـا، وتذكـر ما هى فيـه مما لم تعـرفه فى شبابها. وكان يخيل إلى من يستمع إليها أنها إما أن تكون على مرحها القديم وسرورها بالحياة ثم تعاودها الذكـرى فتحزن، وإما أن تكون حزينة تتخلل حـزنها ذكرى ما هى فيه الآن فتسر بذلك، وذلك فى الواقع كان أقرب الاحتمالين.

«ولم يكن بد للطبيب أن يذكر ما قال يعقـوب لبنيه وما قالوا له: ﴿**تالله تفتأُ تذكر يوسف حتى تكونَ حَرَضا أو تكونَ من الهالكين**﴾ (يوسف: ٨٥).

□

«**فراق**»ليست قصة أحداث بالقدر الذى هى فيه قصة أفكار، وحبكتها لا ترتفع إلى مستوى «الحبكة» الـذى عهدنـاه فى قصص الدكتـور التى سنعرضهـا بعد قليل. والجانـب الفكرى فى القصة يأتى بعد أن انتهت أحداثها، فلا يعطى التأثير المعهود للجوانب الفكرية عندما يستغلها أديبنا الكبير. وهذه الأمـور تنقص من قدر «القصة» الذى يؤهلها لتكـون من قصص الدكتور كامل، ولكنها لا تنقص من قدر «فراق» كقصة **ـ مصرية ـ** معاصرة.

ومن الإبداع الفكرى البيانى لكامل حسين «روعة الإسناد» التى تجلت فى قوله:

«فـرئيسه الأعلى لا يعـرف ولا يفهم، والثـانى لا يعنيـه أن يعرف أو يفهم وإنما يعنيـه أن يـرضى الأول. والثالث يأبى أن يعـرف، والرابع لا يـريد أن يعـرف، والخامس لا يستطيع أن يعرف، والسـادس يكره أن يعـرف، وهؤلاء كلهم يأمـرونه وعليـه أن يطيع». وكذلك فى قـوله «والأصل فى الحرب.. إلخ». وسيأتى هـذا القـول بعـد قليل وهـذا الترتيب الـدقيق لـلأفعـال (المساعدة) فى العبارتين لا يستطيعه فى العربية إلا قدير.

وقد يدفعنـا حبنا للرجل إلى الإشادة بثقافته العسكـرية حين يقول: «والأصل فى الحرب أن يعلم الرئيس الأعلى خطتهـا وغاياتها، وأن يعنى الثـانى بنجاحها، عنـد ذلك لا يأبى الثالث أن

يعـرف، ويسعى الرابع إلى أن يعـرف، والخامس يبذل غـاية جهـده، والسادس يتفـانى فى أن يعرف، وهـو يطيع عنـد ذلك راضيا». إلا أنـه قول عسكرى تغلـب عليه سمات العسكـرية فى القرون السالفة عليه.

□

ومن اللوحات الرائعـة فى هذه القصة، تلك اللوحة التى يصور لنا فيها أديبنـا جوهر الفرق بين نفسية الرجل وزوجه، فيقـول: «واختلفا يوما خلافا شديـدا، كانا يسيران فى الطريق وهمّا أن يعبراه، فأقبلت عليهما سيـارة تنهب الأرض نهبا وكـادت تقضى عليهما، فلما بلغت جـانب الطريق ضحكت ضحكـات صريحة، وفرحت غايـة الفرح لأنها نجت من موت محقق. أمـا هو فصرخ وغضب وصاح ولعن السـائق لأنه كاد يقتلهما. وكان هذا مظهـرا واضحا لما بينهما من خلاف فى نظـرتهما إلى أحداث الحيـاة، لم تدر ما حـزنه على شر لم يحدث؟ ولم يـدر هو كيف إغضاؤها عن شر كاد يفقده إياهـا أو يقتلهما معا؟ وبلغ به الحنق أن قال لها: إن كان يعنيك أن أموت، فإنه يعنينى جدا ألا أفقدك، وأنت كل شىء فى حياتى».

والموطن الحقيقى للفكر فى هذه القصة ليس فى المقارنة بين حال الجيش وما ينبغى أن يكون عليه، ولا فى المقارنة بين الرجل وزوجـه وإن كان فى كليهما مستوى رفيع، وإنما يكمن الفكر فى تلك العبارات التى ارتفع بنا فيها الدكتور كـامل حسين إلى مستوى أفكاره الرفيعة فى الطبقات العليا من الفكر، حين يقول: «وظن الطبيب أنها قد تكون قد آلمها أن تكون فى نعيم مصدره موت ابنها كأنها تنعم من جراء نكبتها فيـه، ولكن هذا الشعور فى الواقع شعور عقلى دقيق، والحزن الذى يكـون من هذا النـوع حزن عقلى لا يتصل بـالحزن القلبى العميق الـذى تشعر بـه هذه المسكينة». بل إن مثل هذا الشعور بالحزن بالقياس إلى حزنها إنما هو «حزن تفكيرى مصطنع قبيح لعله لم يخطر لها ببال». «أم يكون حزنها على حياة قضتها فى كفاح مرير وتعب مضن ثم قضى فى لحظة على كـل ما عملته. وحـرمت نتائج هـذا الجهد فكأنـه كان عبثـا كله، أرادت من عملها أن يكـون ابنها البكـر قرة عينها تتمتع بـه حتى يأتيها الموت وهـو سعيد مـوفق ناجح يتحدث النـاس بنجاحه وعظمته.. ثم انتهى ذلك كلـه، ومات قبل أن تموت، بناء شـامخ أقـامته فانهار فى طرفة عين وهى تنظر إليه».

ويقرر الطبيب أن مثل هذا الحزن حزن الإخفـاق لم يخطر لها ببال، فهى لم تكن فى الواقع

تأمل إلا أن تراه أمـامها متمتعا سعيدا، ولم يتمثل لها يـوما أن تجعل سرورها بسعادتـه غاية تسعى إليها.

ولكنه يخلص بعد هذا إلى القول بأن حزنها إنما كان بسيطا صريحا قلبيا لا يتمثل لها إلا فى ألم الفراق.

□

ولعلنا فى النهاية نستطيع أن نسم عنوان القصة «بالصدق»، نقصد الصدق التعبيرى.

ولكن يبدو أن القصة تمثل رمزا لمعان أخرى قد يستعصى علينا الوصول إليها إذا لم ننظر إلى بانوراما الحياة السياسية والفكرية التى كتب كامل حسين قصته متأثرًا بها، ومما لا شك فيه أن هـذه القصة كانت ترمـز إلى كثير من المعانى والآراء فى الواقع المعاش وقت كتـابتها، ولا ننسى أن كامل حسـين نفسه أشار فيها إلى حـرب فلسطين، وإلى بعض فوائد نتجت عنها لقوم آخرين بسبب الـذين استشهدوا فى هـذه الحرب، دون أن يكون هنـاك عائد حقيقى على «الأم» (وقد تكون هى الوطـن) ولا على «الشهيد» نفسه.. هكذا تبدو لنا ملامح القصـة وهى ترمز إلى الأحوال المعاصرة لوقت كتابتها، أو هى تصرح بهذا فى أدب رفيع.

□□ جريمة شنعاء

هذه قصة دائرية كما يقولون، يبدؤها صاحبها بقوله: «تساءل المحلفون فيما بينهم: أيجوز لهم أن يشيروا على القاضى أن يحكم عليه بالحرق حيا إن كان إلى ذلك سبيل؟». وقال القاضى إنه لم يحكم فى حياته بالإعدام على رجل مهما يكن جرمه دون أن يعتريه من ذلك ألم ممض، وانقباض فى النفس عنيف، ولكنه اليوم مستريح بل لعله يكون سعيدا أن يحكم بالقتل على هذا المجرم ليمحو عن الإنسانية عار هذه الجريمة الشنعاء.

وبعد هذه المقدمة التى لا تمثل فى الحقيقة إلا الجزء الذى يسبق نهاية القصة مباشرة، لا يبدأ أديبنا قصته إلا بعد أن يقول: «وإليكم قصة هذه الجريمة الشنعاء»، وكأنه إنما أراد بهذه المقدمة شيئا غير ما يريده القصاصون حين يفعلون بقصصهم مثل هذا.

كانت أم البطل فى هذه القصة سيئة الخلق، ساقها البؤس إلى عشرة بحار غريب فى ميناء نائية، ثم تركها هى وابنها الذى لقى على يديها الهوان، والذل، والبؤس فى نشأته، حتى إذا ما بلغ السن التى تؤهله لأن يعمل ساقته إلى العمل، تبتغى بعمله الرزق له ولها، ولم تكن ترحمه حين لا يجد عملا يعمله.

وكان يعمل فى مناجم الفحم، حين كان العمل فى تلك المناجم ذلا دونه ذل الرق، وكان أقرانه لا يطمئنون إليه، لما عرفوا عنه من سوء الخلق، ولم يكن هو نفسه حسن العشرة.

واشتدت به الفاقة، حتى لم يعد ثوبه المرقع يستر من أسفل ظهره ما يحسن إخفاؤه، وأصبحت نعله شيئا لا يحمى قدميه برد الشتاء، ولا قذارة الوحل، «وطال عهده بالماء فلم يغتسل منذ أشهر». وكان الناس يرونه فلا يرثون له حتى حسبوا أنه أصبح يستمرئ الوحدة والقذارة، وكان مأواه بالليل والنهار إلى حجر أمام الكنيسة يجلس إليه وينام عليه، وعرف الناس ذلك منه فتركوه وحاله.

وتجرأ ذات يوم فدخل الكنيسة وانزوى فى ركن مظلم من أركانها، ثم صار يتجرأ فيدخلها، وعرف أحد القساوسة منه ذلك، فاكتفى من البر المسيحى بتركه فى ركنه. وتوافر له ذات يوم بنس، فتقدم إلى قسيس الكنيسة مع الناس، وكادت دمعة تذرف من عين القسيس الذى لم يفته أن هذا البنس من هذا أدل على التقوى من الجنيهات يدفعها الأغنياء.

ولما وجد صاحبنا أن الناس لا يطردونه من الكنيسة شعر لها ببهجة فى نفسه، ثم كان يوم رأى فيه القساوسة والنساء والرجال فى ملابس جميلة، وسمع فيه الموسيقى تصدح، فوجد فى ذلك سلوى له تحميه شر الحياة التى لم يخف عبؤها عليه فى يوم من الأيام.

□

وكانت ليلة عيد، ولم يكن يعرف موقعها من الأيام التى تشابهت عنده، فكلها مظلمة حالكة الظلام، ولما دخل أكثر الناس مكان الاحتفال ذكرت إحدى الفتيات أنها نسيت أبهر حليها، فتسللت وحدها إلى منزلها لتتم زينتها، وعادت مسرعة إلى الحفل. ولما أقبلت عليه غلبته رائحة العطر الجميل ورأى نفسه يتقدم إليها، ويقول لها فى جرأة غريبة: تعالى اجلسى معى قليلا، فبهتت وأزعجها هذا الحيوان القذر، وصاحت: اذهب عنى يا قذر. فلم يعبأ بقولها، وجذبها من ذراعها. ولم يكن له بد من أن يمنعها أن تصرخ فوضع ذراعه اليسرى حول عنقها ويده فوق فمها فزادت مقاومتها له شدة، فلم يسعه إلا أن يسكتها بضربة حسبها خفيفة تخيفها من دون أن تؤذيها كثيرا.

وعند ذلك ارتخت عضلاتها، ووجد نفسه يحملها على يده اليسرى التى طوقت عنقها، وأحس بثقل جسمها، فحملها بعيدا عن الطريق إلى ركن مظلم ووضعها على الأرض، وجر يده من تحت رأسها فتخللت أصابعه شعرها الذهبى الحريرى، ولم يكن له عهد بمثل هذا الإحساس الرقيق الجميل، فأخذ يمشط شعرها بأصابعه فى رفق وسرور بالغ، وأعاد ذلك مرارا، وهو نشوان بهذا الإحساس الجميل. ولم يكن يدرى قبل ذلك أن فى الدنيا شيئا يشبه جمال هذا الشعر. وغلبته رائحة طيبها يشمه عن قرب، وبهرته، وعكف عليها يستنشق عبيرها، وهو طرب به، ورقت نفسه لذلك.

□

وتمضى القصة تحدثنا عما انتابه وهو يقلب يديه وحواسه بين شعرها ووجهها، وحمرة شفتيها، ورقة بشرتها، وبريق عينيها الذى لم يكن قد زال عنها. ثم إنه ليرى صورته فى إنسان عينها، ثم يلمس بشرتها، ويـزيح الثوب الحريرى عن جسدهـا، وتروعه نعومة الحريـر ينزلق على نعومة حيـة فى جلدها، حتى غلبته طبيعة الرجل لأول مـرة، فسمع ضربات قلبه وفك أزرار ثوبه بيد غير متزنة. ولا تلهى سرعة الأحداث أديبا عن وصف حالة البطل وهو يفك أزرار ثوبه، التى علتها طبقات القذر فيجد فى ذلك صعوبة، فيمزق الثوب.

ولم تكن جثتها قد بردت بعد، فوجد فيها حرارة ونعومة، وكأنما تفتحت أمامه الدنيا بلذاتها كلها، «ثم كـانت اللحظة الكبرى فدق لها قلبـه وارتخت لها أعصابه، حتى كـاد يبكى من شدة نعيمه، بهذا الذى لم يحلم يوما أنه سيعرف قليلا منه».

وانتابته فى هذه اللحظة عاطفتان: الأولى أنه بلغ مرتبة الإنسان، وكان من قبل لا يعلم إلا أنه أقلهم شأنـا. والثانيـة عـاطفـة الانتقام من هـذه الإنسـانية التى حـرمتـه من قبل كل شـىء، فاغتصب منها فى دقائق كل ما كان عليه حراما.

□

وقام يصلح ثوبه، وهو لا يدرى مـا يفعل، ولم يعنه كثيرا ما يحدث له بعد ذلك. وفيما هو واقف شعر بأن يـدا قوية تأخـذ بقفاه أخذا عنيفـا، ثم ضربه صاحب هـذه اليد ضربة قـوية، وصاح به: أهكذا فى عرض الشارع يـامجرم؟ والتفت إلى المرأة وهم أن يرفسها قائلا: وأنت يا.. وانحنى فرأى جثـة، ورأى ثوبها الممزق بجـوارها ففهم مـا حدث، وأعياه الـرعب عن الحركة. وأقبل رجل الشرطة، وسيق الشاب فأودعوه السجن فلم تـزعجه من السجن قذارة حجرته، ولا ضيقها، فلم تقل عـن حجرته التى قضى فيهـا أيام حيـاته، وكان إيـلام السجن أقل من تألمه لضرب أمه له.

ومرت بخاطره لحظتان، لم يكن لغيرهما من اللحظات فى حيـاته مثل شأنهما: عندما قال له القسيس: شكرا، وتلك اللحظة التى كانت خاتمة ما تمتعت به حواسه كلها من لذة وجمال. ولم يكن يدرى من قبل لم جاءت به أمه إلى هذه الدنيا، أما اليوم فقد عرف سر ذلك، ووجد لها عذرا.

وبلغ الخبر المحتفلين فـراعهم، ولم ينفع حرص الحريصين فى إخفـاء حقيقته البشعـة التى

تلوث سمعـة ابنتهم عند الناس. وذاع بين الناس فى الصبـاح أن وحشا قتلها ليبلغ منها غـاية قذرة، وهم الناس أن يقتحموا السجن ليقتلوا هذا الوحش القذر فحيل بينهم وبين ذلك.

□

وجاءه من يحقق معه، فلم يجبه فقال لـه: «إن سكوتك اعتراف، ونحن لا نريد أن نعرف إلا شيئا واحـدا: كيف قتلتها؟»، هنـا أخذ صـاحبنا يقهقـه بصوت عـال ليس فيه نبرة إنسـانية، ويقول: وإذن فهى كانت ميتة، وعلى ذلك لا أكون قد بلغـت شيئا من لذات الحياة التى حرمتها من قبل! وإذا كـانت هـذه اللذات تشع مـن جمال ميت، فكيف ينعم الذيـن ينعمون بـالجمال الحى؟

ووقف المدعى يـوم المحـاكمـة يترافع ويقـول: «والطبيب الشرعـى يجزم أنها وهى بكـر اغتصبت بعـد موتها، وإثبـات ذلك سهل عليـه كما يثبت أن الجرح الـذى يكون بعـد الموت لا ينزف». أما قـوله: أهى كانت ميتة؟ فلا أرى إلا أنه اخترعـه اختراعا، وأسرف فى دعواه، فمن ذا الذى يبلغ بـه الجهل أنه لا يعرف الميـت من الحى؟ والمدعى حريص على أن يثبت التهمتين على صاحبنا فيقـول: ولو كان الأمر ضربا أفضى إلى مـوت غير مقصود لألهاه الموت عن الإمعان فى تحقيق غرضه الدنىء.

□

ويقف بنا أديبنا الكبير أثناء المحاكمة وقفات ست:

(١) الأولى أمام سيدة أصابها غثيان، فظن الناس أنه أصابها لهول ما تصورته عندما فعل هذا القـذر فعلته. وإنما أثار حفيظتهـا، أنها ذكرت ليلة عـرسها وكـانت صغيرة السن رقيقة، فأقبل عليهـا زوجهـا فى شـدة وغلظـة، حتى حسبتـه غـولا، وخيل إليهـا أن زوجهـا ليس إلا (أورانجوتان) خرج من الغابة ليقتحم عليها أعز عواطفها، وأرق طباعها. وبأى حق يفعل ذلك بها؟ أبحق الزواج، وهو حق لم تكن قـد تبينت بعد مداه وقسوتـه؟ وعلى هذا لم يكن حنقها على ذلك المجرم، **وإنما كان حنقهـا على مجرم محترم هو زوجها الـذى يقعد بجـانبها يعطف عليها.**

(٢) والثانيــة تتعلق بالقــاضى نفسه حينما سمع المدعى يقــول: «إن هذا **المجرم نزل عن درجات الكلاب إرضــاء لشهوة بهيمية** نــزلت به إلى الحضيض». فضرب مكتبــه بقلمه عــدة مرات وقال: السكوت من فضلكم! بينما كانت القاعة هادئة تماما ليس فيها صوت. وظن الناس أن القاضى أصابــه اضطراب لشدة ما سمعه، وأكبروا ذلك منه. «وحقيقــة الأمر أن القاضى لما عاد أمس إلى منــزله وجد امــرأته وقد تجملــت له وبلغت حدا كبيرا من الفتنــة، ودخلت معه إلى فراش وثير دافىء ورغبت إليــه فتثاقل، فلما انتهى مــا بينهما انصرف عنها فى بــرود لم يعجبها فدفعته برجلها وقذفته بوردة كانت قريبة منها، وهى تحاول أن تجمع بين حنقها عليه ولومها له، ومداعبتها إياه، وقالت له إنه يحب كما تحب الكلاب، وضحكت وضحك».

وتذكر القاضى موقفه بالأمس وهو **الرجل المحترم يحب كما تحب الكلاب.** فضرب مكتبه بقلمه عدة مرات وطلب من الناس السكوت.

(٣) والثالثــة أمام فتاة أغمى عليهــا، وظن الناس أنها إنما أغمى عليها لهول مــا تصورت، ولكن حقيقة هذه الفتاة أنها تزوجت منذ عام وكان فى طبعها حدة. أما زوجها الشاب الذى كان يجلس إلى جوارها، فقد كان فى طبعه بــرود، فكانت من حين إلى آخر فى جلستها تأوى إلى جانب زوجها لتلتصق به، وتدير وجهها نحوه، خوفا من أن تدفعها الرغبة إلى الإفصاح عن شوقها إلى هــذا المجــرم، ونسيت قصة القتل والموت، ولم تــذكــر إلا **رجلا تــدفعه الــرغبة إلى المرأة، أن يعرض نفسه لــلإعدام، وغيره لا تحمله هذه الرغبــة على ترك جريدة يقــرؤها أو حديث تافه ينصت إليه.**

(٤) والوقفة الــرابعة أمام واحد من المحلفين وكــان رجلا نشأ فى الجيش، وكان قليل الأرب من النســاء، حتى إن جنوده كــانوا يجتمعــون حولــه يحكون مغامــراتهم مع النســاء يبغون إغاظته. وكان لا يفتأ ينظر إلى المجــرم وكانت نظرته فى الحقيقة **لا تخلو من إحساس بالغيظ والدهشة أن يكون فى الإنسان قوة تدفعه إلى مثل هذا الفعل.**

(٥) والوقفــة الخامسة أمام سيدة من المحلفين كــانت تلازمها حركــة مستمرة، تضع بها علاقة ثوبها الداخلى على كتفها اليسرى، وكانت تحدق النظر إلى المتهم من آن لآخر، فى غيظ يظن

معـه تأثرهـا الشديـد لفعله، وإنما كـانت تنظر تلك اللحظـة التى تشفى فيها غليلهـا من ذلك المجرم، وأمثاله، وكأنها تقول لصاحبنا وهى تحدق النظر فيه: **أليس من أمثالك ذلك المجرم الذى أغوى ابنتى فجعلها تنسانى وتنسى أهلها وتهرب؟**

(٦) والمدعى بعد ذلك مازال فى مرافعته، وقد وصل إلى القول بأن هذا المجرم **كان إنسانا ثم نقمته نقمة الله فمسخته خنزيرا،** أو أقل من ذلك. والمتهم يرى الأمر على عكس ذلك، فهو قد كان خنزيرا قذرا ينبذه الناس لا يعرف من عواطف الإنسانية شيئا، **ثم عرف أجمل ما يعرف الناس.**

ويتساءل المدعى: أيكون مجنونا إلى حد الغفلة عما يعمل؟ وإذا كان الجنون يدعو صاحبه إلى أن يدنس فتاة بعد أن يقتلها فليكن جزاء هـذا الجنون القتل. عندئذ يقول صاحبنا: لم أدرك أنها ماتت.

□

وبعـد أن انتهى المدعى من دعـواه لخص القـاضى القضيـة للمحلفين فقـال: «ويجب ألا تحملكم شناعـة الصورة التى قـدمها الاتهام، وسهـولة تصـديقها، واحتمال وقـوعها على أن تقرروا أنها وقعت فعـلا، فقد تكون هناك صـورة أخرى للحادثـة أقل احتمالا وتكون مع ذلك هى الحقيقة. والتهمة الأولى هى القتل، فعليكم أن تفحصوا الوقائع فحصا دقيقا، فسبب الموت غير معـروف إلى الآن، والخبير يقول إنـه لم يجد بها مرضـا يحتمل معه الموت المفـاجىء، وأن القتل قد يحدث دون أن تـوجد لـه آثار فى الجسم، كأن يكـون أثر صـدمة عصبيـة، أو ضربة قاسيـة، وعندى أنه يجب عليكم أن تقرروا: هل مـاتت هذه الفتاة بسبب فعل فعلـه هذا المتهم، وإن لم نعلم تفصيله؟ أم أنها ماتت موتا طبيعيا، لا دخل له فيه؟ ويعينكم على الحكم أن تبحثوا فى الدافع إلى القتل، ولم يعـرف أحدهما الآخر مـن قبل، ولا يمكن أن يكون بينهما ما يـدعو إلى القتل إلا ما اعتزمه من اغتصابها:

(١) فإن رأيتم أنه أردا اغتصابها، فلم يجد إلى ذلك سبيلا إلا القتل، فهذا يعد قتلا **عمدا.**

(٢) وإن رأيتم أنه تربص لفتاة كائنة من تكون ليبلغ منها مأربا، فهذا **سبق إصرار،** وإن لم ينصب الإصرار على هذه المقتولة بالذات.

(٣) وإن رأيتم أنه ضربها فماتت على غير مـا أراد، ثم جن جنونه، فارتكب مـا ارتكب فهذا **ضرب أفضى إلى الموت.**

ولعل واجبكم يتضح أمامكم، إذا بحثتم هل قتلهـا ليغتصبها أو قتلها واغتصبهـا؟ فالأول قتل عمد مع سبق الإصرار، والثانى ضرب أفضى إلى الموت.

□

وحكم على صاحبنا بـالإعدام، فأخذ إلى المشنقة وجاءه قسيس المدينة (وهـو الذى دفع إليه البنس) فركع بجانبه وقال: «إذا كان القاضى يابنى قد نسى أو تناسى أن يستنزل على روحك رحمة الله كما يفعل القضـاة منذ الأزل، وذلك استفظاعـا لجرمك، فإنى أدعو اللـه أن يرحمك فرحمته أوسع من عـدل الناس. لم تكن شريرا بل كانت فيك جـذور الخير فمنعوها أن تنبت فى نفسك، وإنما تركوك عطلا من الخير فكنت نهبا للشر العارض. إن جناية المجتمع عليك أكبر من جنايتـك عليه. وإنما أردت أن تشعر ببعـض ما حرمنـاك من شعـور إنسانى». عنـدئذ يقول قسيس السجن لقسيس المدينـة: «أتلتمس الرحمة لمثل هـذا؟» فيرد عليه قسيس المدينـة: «إنى أشعر شعورا عميقا بأن الله سيغفر لهذا الذى قتلتموه بأيديكم لا تعلمون أيرضى الله عن ذلك أم لا يرضى».

ويختم القصة ذلك القول الرائع: «من الناس من هم قريبون جدا من النار ووجوههم شطر الجنة يبغون بلوغهـا ويسعون إليها، ومن الناس من هم قريبون جـدا من الجنة وهم زاهدون فيها ووجوههم شطـر النار». ثم يجيب أديبنا عن سؤال السـائل فى أى الفريقين تضعه: «إنما قتله الحرمان وأنت وأنا والناس جميعا مسئولون عن حرمانه».

□

قصة جريمة شنعاء التى عرضناهـا فى الفقرات السابقة عمل أدبى رائع، تـوافرت له من مقومات الجودة: عناصر الحبكة، والأسلوب، والفكر، والعرض الشائق، والمأساة الإنسانية.

وأديبنا الكبير، وهو موكل بالجماعات على نحو مـا ذكرنا لا يبرىء الجماعة من جريمة هذا المجرم الشنعاء، بل إنه يحاول أن يلقى بتبعتهـا (على لسان قسيس المدينة) على المجتمع. وكان يستطيع أن يجعل إلقاء التبعة على المجتمع من عمله، ولكنه عنـدما أضاف هذا العمل جعله من رأى الدين، أو قل إنه ألصقه بالدين على نحو ما.

أما المرض الذى يعـانيه (البطل)، وهو السبب فى الجريمة، فيجريـه أديبنا على لسان طبيب (ولعله أراد بـذلك أن يكون أفصح تعبيرا عن نفسه) حين يقـول لمحامى الدفاع: «إنما مـرضه إفـلات الـزمـام، عند ذلـك تبلغ الطبيعة غـايـاتها. والـذى يمنع النـاس أن يبلغـوا بطبيعتهم البيولـوجية غايتهـا إنما هو الصفات الإنسـانية وما تحمـل المدنية من قوة الكبح، وكل مـدنية تمتاز بأنـواع الكبح الذى تضعه أمام الغـرائز، فهل وضعنا من الصفات الإنسانيـة والمدنية فى نفس هذا الرجل مـا نرجو معه كبح غـرائزه؟»، فيسأل المحامى: أهذا هو مـا تسمونه الكبت؟، ويجيب الطبيب: «لا، **هذا هو ما نسميه الحرمان، أما الكبت فهـو صراع بين ما يجب وما لا يجب.** وفهم الجمهور للكبت الجنسى على أنـه شىء يزول بمجـرد إرضاء هذه العـاطفة رأى خاطىء، أدى إلى فسـاد وإباحية، يـدعون أن لها أصـلا فى علم التحليل النفسى، والحقيقة أن الكبت صراع، وقد حرمناه مقومات الكبت فاندفع».

ويستمر الطبيب فى حديثه، فيقول: «**الموت فى هذه الحادثة عارض لا يتعلـق به جوهر الجريمة، وهو شـدة الحرمان، وانعدام القوى الرادعة التى لا تكـون إلا بتمام الإنسانية والمدنية**».

ويحدثنا القاص عن أصل الجرائم الإنسانية العـاطفية فى الذكر والأنثى، فيقول: إن أصلها فى الإنسان الحرمـان ولكن الناس يعرفـون كيف يقاومونـه وهم يرون هذه العـاطفة تستحق تضحيـات كثيرة، ولكن أكثـرهم لا يرى أن تبلـغ به التضحيـة أن يتعـرض للسجن وهى على شدتها لا يعجـزهم الانصراف عنها إلى حين». «أمـا النساء فأصل جـريمتهن العاطفيـة خيبة أملهن فى تحقيق أحلام اليقظة التى هى من طبعهن فى سن بعينها حتى إذا تبين لهن أنها ليست إلا أمانى، وأن الواقع أبعـد ما يكون عن هذا الحلم اضطربت نفـوسهن، وأكثرهن ذاق الأمرين من جهل الرجـال». وقد تكـون هذه الآراء مثار نقـاش وجدل، وهى بـلا شك لا تمثل الحقيقة تمثيلا دقيقا، إلا أنها على كل حال تعبير عن تصور معين يساعد على تفهم الحقيقة.

□

أما أن هذه القصة فريدة، فالأمر راجع إلى أن الذى كتبها طبيب، وقد استعان ما شاء الله له أن يستعين بعلمه فى تصوير الحوادث، **فجاء تصويره للحوادث دقيقا،** علميا صـادقا، مروعا على نحو لم يتهيأ لقصـة فى هذا المضمار من قبلها ولا من بعدهـا فى أدبنا المعاصر. ألم يضربها «ضربة حسبها خفيفة تخيفها من دون أن تؤذيها كثيرا»؟ «عند ذلك ارتخت عضلاتها.. وأحس

ثقل جسمها». وهكذا يكنى أديبنا بما أوتى من الطب عـن الموت بأعراضه، ويأتى هذا فى صلب القصة عـرضا دون تكلف ودون إيغال فى التفصيـلات الطبية التى لا يـدركها الغالبيـة فتجد نفسك مثـلا لحظة مـوت الفتاة قـد فهمت أنها ماتت، ولم يفهم القـاتل ذلك بعد. وهـو يجرى الحكمة الطبية على لسان القاضـى إذ يقول للمحلفين: إن القتـل قد يحدث دون أن توجد له آثار فى الجسم، كأن يكون أثر صدمة عصبية أو ضربة قاسية.. إلخ.

□

والقصة بعـد ذلك تكشف لنا عن جانب مهم فى ثقافـة كامل حسين لم نعرفه إلا منهـا وهو علمه بـالقانـون. والفقرة التى تتضمن حـديث القاضى إلى المحلفين بـالإضافـة إلى النصوص المتتالية من كلام المدعى تحفل بفهم قانونى أصيل.

على أن أديبنا على عـادته التى عرفنـاها من قبل فى «قـرية ظالمة» لا يأتى بـالشـخصيات إلا للتعبير بها عن أفكاره وآرائه، فأم المجرم التى حـدثنا عنها فى بداية القصـة سرعان ما تختفى، ولا أظن قصاصـا كان يضحى بمثل هذه الشخصية بمثل هذه السهولة دون أن يتخذ لها موقفا دراميا فى النهاية على أقل الفروض.

□□ قوم لا يتطهرون

كانت المقـاومة المستترة التى ناوأ بها الفرنسيـون الاحتلال الألمانى عملا رائعـا، تجلت فيه الوطنية الصادقة والشجاعة والتضحية، وكان على رأس هـذه المقاومة شاب عرفه الفرنسيون كـافـة بـاسم روبير، على عـادتهم فى تسمية أبطـالهم بأسمائهم الصغـرى إظهـارا لحبهم وإعجابهم.

عجز الفـرنسيون عن التغلب على القـوة الحربية للألمان، ثم وجـدوا فى المقاومـة ما يخفف عنهم عبء الهزيمة، واستطاع المقاومـون أن يهزءوا بالألمان، ويسخروا منهم. وتبين للناس أن الألمان لا يزالون أجفى طبعـا، وأبطأ تفكيرا من أن يفطنوا إلى ما يدبر لهم الـذكاء الفرنسى من ألوان المقاومة. وكان الألمان فى نشوة النصر وعزة النجاح يظنون أنهم تفوقوا على فرنسا المنحلة تفوقا تاما.

وكـانت الأمة الفـرنسية فى ذلك الـوقت قـد أفسد الاحتـلال من تفكير رجالها وأخـلاقهم، واختلط عليهم أمـر الوطنيـة والخيـانة، واضطـرب تفكيرهم اضطـرابا عنيفـا، أضف إلى ذلك الانحلال والعهر الذى أصاب أخلاقهم كلها حتى لم يبق للفضيلة عندهم معنى محدد.

والمحن القوميـة تزيد من ضعف الضعيف، وتشحذ همة القـوى. وقد أظهرت المقاومـة ما خفى من فضائل الفـرنسيين، فكان المتطهرون والمتدينـون والمتمسكون بمجد فرنسـا وعظمة الكثلكة أسبق الناس إلى الخضوع والاستسلام، وكـان الشباب المستهترون العابثون الذين لا يعبئون بخلق أو دين أو فضيلة، والذين يلذون العهـر والتهتك هم عماد المقاومة وسر نجاحها. وحار المفكرون الفرنسيون فى تقديـر الفضيلة والرذيلة، وكيف لا يحارون وهم يرون أفاضل الناس يتهـافتون على الخنوع، والغـارقين فى الرذيلة يتهـافتون على التضحية؟! وقـويت بذلك حجج الذين يؤمنون بأن **الفضائل الفردية لا تمت بصلة إلى الفضائل العامة الدينية.**

وتحدثنا القصــة بعد ذلك عن المبـالغة فى شهرة الفضـائل والرذائل عنـد الفرنسيين، وعن مثلهم الأعلى، وهو الذكاء، وهو الذى دفعهم إلى الإعجـاب بروبير. أليس هو الذى جعل المطبعة السرية فى أسفل مبنى ضخم فيه مكاتب الجيش الألمانى؟ وأليس هو الذى جعل للمقاومة نظام الخلايا المستقلة؟ وهكـذا صار روبير اسما تحاك حوله الأسـاطير وينسب إليه كل عمل جليل، وأصبح روبير عنوانا على الذكاء والشجاعة وسعة الحيلة.

□

نشأ روبير فى بلد جبلى جميل يأوى إليه عشاق ألعاب الشتاء، حيث يجدون فيها ما يمتعهم مما تقصه علينـا القصة. ولم يكن له حظ من هذه الحيـاة المتألقة الباهرة، وكـان أبواه يملكان حانوتا للعاديات، ثم مرضا وكسدت الحالة. وهكذا نشأ فقيرا، ولكنه كان يراهما مسئولين عن حرمانه. وشغف روبير بالحياة الصاخبة الجميلـة من حوله، فكان يدور حول الفنادق يلصق جبهته بنوافـذ ردهاتها من الخارج ليرى ما يدور فيها مـن رقص وشراب وطعام وما يتبع ذلك مما لا يتحدث عنه الناس إلا همسا، ويظل على هذه الحالة ساعات، وبقى على ذلك دهرا.

ولم يكن روبير حاقدا على الذين يحيون هـذه الحياة، وإنما كان يريد أن يتمتع مثلهم بهذه الصنوف، فقد كان يرى نفسه أحق منهم بها. ولم يكـن روبير يؤمن فى قرارة نفسه بالعواطف الاشتراكية، ولم يكن أساسه فى يـوم من الأيام قائما على العاطفة، وكان يعرف مـا يعرفه أكثر الناس من **أن الفقير أقسى على من هم دونــه بقليل من الغنى الذى يعلـوهم كثيرا،** فسائق السيارة الفخمة أقسى على المشاة وأكثر إرهاقا لهم وتهديدا من صاحب السيارة. ولم يكن يرى أن للقـوى على الضعيف فضلا، ولا أن للغنى على الفقير حقـا يجيز أن يستأثـر بلذات الحيـاة ونعيمها، ولا أن للذكى على الغنى ميزة التفوق والتمتع بكل ما يـؤهله له ذكاؤه ولو حرم الغنى فى سبيل ذلك كل حق إنسانى.

وفيما هو ذاهب إلى باريس أول ذهابه للجامعة دخلت الفلاحات على جهلهن عربات الدرجة الأولى من القطار، فأتـى صاحب الدرجـة الأولى وساءه منظـرهن، وجاء الكمســارى فطردهن منها، وأغلق صاحب الدرجة الأولى الباب فأحـدث صوتا وجد فيه روبير معنى عميقا. رأى فيه أن هذا بـدء التفكك فى الروابط القومية، إذ أصبـح ما بين الغنى و الفقير فى الأمة الواحـدة أبعد كثيرا مما بين أغنياء أمة، وأغنياء أمة أخرى، ورأى روبير أن تماسك الطبقات المتشابهة فى الأمم

المختلفة يـؤدى حتما إلى تفكك عرى الوحدة بين طبقـات الأمة الواحدة، فكـان ذلك الدرس أول درس عملى يتلقاه عن حقيقة الشعور الطبقى.

□

ودخل روبير الجامعة، أو قل دخل الحياة الباريسية. وباريس عاصمة كل من لا يستهويه إلا الذكاء والقوة والجمال، ومن لا يعنون إلا باللذات والمتعة، ومن لا يقيمون للطهر وزنا، وكل من لا يزعجهم العهر. وهى على هذا كعبة كل مـن لا يفهمون التحريم. أما روبير فى باريس فلم يؤلمه شىء مثل حرمانه صحبة الفتيات المرحات العابثات الساعيات وراء الغنى والترف، وكان يسكن حجرة صغيرة فى مبنى قديم، وكانت تسكن أمامه فى مثل حجـرته فتاة تعمل كاتبة عند مدير شركة كبيرة. وكانت تكبره، ولم يكن لها حظ كبير من الجمال أو الرشاقة أو التأنق.

وراق لهذه الفتـاة أن تتعرف إليـه، وكـانت قد ادخـرت قـدرا من المال لا بأس به تتقى بـه الغوائل وبؤس الشيخـوخة، وأخذ روبير يصحبها إلى المقاهى القـريبة، ودور الغناء والتمثيل، ودعاها إلى أن تعنى بهندامها وزيها، حتى تبين لها أنها لم تخطىء حين وضعت بعض مالها فى يد هذا الفتى.

سر روبير غاية السرور أن وجد السبيل إلى ما كان يحلم بـه، وأخذ بعد شهور يعرف غيرها ويعرض عنها، ولم تغضب ولم تحنـق ورضيت منه بالصحبة والعشرة. ومرضـت هذه الفتاة وكان المصـابون بمـرضها ــ على ما يعلم الأطباء ــ أشد النـاس رغبة على ما يكـون فيهم من ضعف، وإن المرض ليزيـدهم احتراقا على احتراق. ودخلت بعـد أشهر مصحة فى ضـاحية من ضواحى باريس، وظل روبير يزورها على فترات متباعدة، وكانت تلقاه فى كل مرة باشة مرحة.

ولما دنا أجلها زارها القسيس، فاعترفت له بكل ما حدث لها منذ عرفت صديقها روبير فالير ومـا فعله بها، وقـالت للقسيس إنها ليست غاضبـة على هذا الصـديق. ثم كتبت إلى صديقهـا فذهب إليها فوجـدها قد ماتت ولم تكن قد دفنت بعد. ورفس روبير بقـدمه السلم القذر الذى صعد عليه إلى أولى درجات النجاح ولم يعد يفكر فيه أو يذكره، وهى شنشنة معروفة فى جميع من يصابون بما يسميه المؤلف داء الأذكياء.

□

وجد روبير عملا فى صحيفـة يسارية عرفت بمناصرتها للعمال، وكان صـاحبها من نوابغ الصحفيين. وساعد روبير على النجاح فى عمله قدرته على التهكم اللاذع، وقوة أسلوبه فى الدفاع عن قضايا العمال.

وحدث أن أضرب عمال مصنع كبير، وكان من الطبيعى أن تقف الجريدة إلى جانب العمال فى مـوقفهم، ولكن صـاحب الصحيفة يطلب إلى روبير أن يحمل على العمال حملـة عنيفـة، وذهل روبير وسأل صاحب الصحيفة، وكيف نستطيع أن نسوغ تنكرنا لمبادئنا؟ فأجابه بقوله: ليس فى فرنسا صحفى أو سياسى يبلغ بـه الغباء ألا يجد مبدأ ساميا يبرر به عملـه ويقدمه للناس على أنه الدافع الأسمى لموقفه مهما يكن موقفه منحطا، والمبادىء السامية كثيرة جدا ولن نعدم منها واحـدا نستر به كل مـوقف نتخذه، وليكن مبـدؤنا هذه المرة هـو الدفـاع عن الاشتراكية، فالقضاء على الاشتراكية والعمل لن يكون إلا عن طريق الخطإ، يقع فيه العمال حين يريدون أن يتحكموا فى الجمهور فيفقدون عطف الرأى العام تجاه قضاياهم وحقوقهم.

كانت فلسفـة صاحب الصحيفـة كما قال لروبير ولـزملاء روبير: «**إن علينـا ألا نجعل أعـداءنا ييأسـو ن من نصرتنـا لهم كل حين وآخر إذا أحسنـوا التقرب إلينـا**». وخرجت الصحيفـة تهاجم العمال. ولما علم العمال ذلك أرسلـوا مشـاغبين يـرمـون مبنى الصحيفـة بالحجارة، وظن روبير أن صحيفته ستضار من جراء ذلك.

ولكن صاحب الصحيفة يرسله إلى مدير الشركة الذى يبعث شاكرا للصحيفة نصرها قضية العدل الـوطنية، ويأتى بمال يمكن من إصلاح مـا أفسده المخربـون. أما نقيب العمال وبعض صحبه فيـأتون يعتذرون لصـاحب الصحيفة عما فـرط فى حقه من بعـض العمال المشاغبين ويعدونه أن يساعدوه على الاستقلال المالى. ولم يـر النقيب بأسا من أن يشارك رئيس التحرير فى بعض ما قررت لـه النقابة من مال أخذ من العمال المساكين لغير هـذه الأغراض. وأما وزير الداخليـة، وكان صـديقا لصاحب الصحيفـة، فقد اعتبر الصحيفـة حارسة للقضـايا العـادلة واستطاع أن يحصل لها على تعويض من الدولة، وكـانت مناورة ماهرة، ولم يكن يهم صاحبها أنها مكشوفـة مادام المجتمع يقبلهـا، فالمهم أن تنجح المناورة، فـإذا نجحت صفق لها الناس. وكان الـرجل يقول للمحـررين من أمثال روبير إن الاشتراكيـة لن تضار بمنـاورة كهذه، فإذا حدثوه عن الأخلاق العامة قال: «وهل تستطيع أن تـدلنى على رجل فى فرنسا اليوم نجح لمتانة أخلاقـه؟ إنما النجاح للذكـاء والمهارة، وأكثر الـذين يطفون على سطح هـذا المجتمع يطفون لما

يكـون فيهم من بعض العفن». وكان يقـول: «إن الوطنيـة فى الجمهوريـة الثالثـة تشبه حبنـا لنسائنا، وحديثنـا عن التضحية والإخلاص لقضية ما لا يمنعنا أن نخـون هذه الحبيبة مرة أو مرات دون أن يـؤثر ذلك فى إخلاصنـا لها». وهكذا رأى روبير نفسه أمـام رجل عرف المجتمع الفرنسى، والمجتمع الفرنسى لا يرى فضيلة فى غير الناجحين.

□

عرف صـاحبنا ألوانا من النســاء، فكان يرى فى علاقتـه بالكثيرات منهن انتقاما لحرمـانه الذى كان أقسى من أى حرمـان آخر لأنه يصحبه احتقار المرأة له، فهـو مصحوب بألم المهانة والفشل، أما المقربات إليه فكن ثلاثة:

□ **روزالين:** وهى شابـة عصبية لها من حـدة الطبع نصيب كبير، ومن قوة الغـريزة حظ وافر، وكانت لها طبيعـة الإناث فى كل الحيوانات. كان فى خلقها حدة ولم يكـن فيه عهر، ومثلها مهما خالف العرف يظل طـاهرا إلى حد ما. وهن (أى نـوعها) أكثر النساء تعـرضا للسفلة من الرجال، فإن وفقت الواحدة إلى رجل طيب أصبحت زوجة مخلصة وأما طيبة.

□ **جاكلين:** وكانت من المحنكات المغامرات، ورثت من زوجهـا ثروة كافية، وكان فى طبعها برود يكسبها قوة وعزما عند صراعها مع رغبات الرجال. وكثير من نساء التاريخ الشهيرات كن على جانب كبير من البرود، وهـذا النوع خطر جـدا على الرجال. وكـانت جاكلين تعلم أن روبير ليس من طبقتها، فقد كـان فى نشأته جفاف وفى تقربه إلى النساء جهل. وإنما أعجبهـا منه هذا الاختلاف. ومن النساء من يجذبهن قبح الرجل أو جهله أو مجرد اختلاف طبقته. وأعجبها منه أنه كان ذكيا، وقد كان زوجها الأول دون المتوسطين ذكاء وعلما فكان يخجلها فى المجتمعات.

أما روبير فكان يجد فيها كل ما حرمه من قبـل، وكل ما يتمناه مستقبلا، فقد كانت جاكلين مثال الأناقة، والرقة، والرشـاقة، والذوق.

□ **دينز:** وكـانت أجملهن، وكانت من ذلك النـوع ذى النجـاح الجنونى الـذى مرجعـه إلى سهـولة التمتع بهن، وقـد كانت رهن إشـارة روبير دائما فى غير إرهاق لـه. ولم يكن روبير فى شبابه يظن أن هناك من النساء من هى كذلك.

□

وقامت الحرب وانهزمت فرنسا وتبين للناس جميعا ما فى الجمهورية الثالثة من خور، وأدرك المفكرون كيف يمكن أن يكون الانحلال فى الأخلاق الفردية سببا فى الانهيار التام. وأصبح لروبير شأن فى المقاومة، فجمع الشباب حوله من أجل مقاومة المحتلين. وأصبح روبير هدفا للمخابرات الألمانية.

وكان القائد الألمانى فى المنطقة التى كان فيها روبير هو الكولونيل فرتز، وكان ذا قدرة فائقة على التودد إلى النساء. وجنت به جاكلين وكانت لا تفتأ تذكره لروبير، وكانت تصفه له فتقول: «إنه يحب كما تحب الآلهة». وزادها إعجابا به أنه كان يحسن الفرنسية، والفرنسيون مغرمون بلغتهم حتى يبدو لك وكأن جمال فرنسا مقصور على جمال لغتها ودقتها.

وجمال اللغة يكون مصدر قوة كما يكون مصدر ضعف حين يلهى أهلها عن الواقع، فيلتفتون إلى العناية بلغتهم ويوجهون حدبهم عليها. وكان روبير يبدى غيظه لعلاقة جاكلين بالقائد الألمانى، وكانت تقول له: إن الحب علاقة أقل من أن تتعلق به وطنيتها.

وجاءها يوما إلى بيتها فوجدها قد ظهرت له على خير (أو قل على شر) ما يكون الإغراء، وأخذت تحادثه حديثا عن الخمر وطبائع المحبين لها، وجعلت تنتقل بالحديث تنصحه حتى انتهت إلى بيت القصيد، فنصحته أن يكون لنفسه ثروة، وأخبرته أن عندها الطريقة إلى ذلك، ولم يكن السبيل إلا أن فرتز يريد أن يحصل على الشفرة. عندئذ ثار روبير وقال: تريدون منى أن أخون فرنسا؟! فتهدىء جاكلين من ثورته قائلة: ألا يكفى فرنسا ما تعرضت له فى سبيلها حتى الآن؟!

وما زالت جاكلين به وما زال بها يتجادلان جدالا عنيفا: يرى فى إفشائه سر الشفرة نهاية وطنيته وحبه لفرنسا، وتريه هى أنه لا يساوى شيئا بغير ذكائه، وتقنعه بذلك فتقول له: إن الوطنية فضيلة اجتماعية، والرجل لا يكون وطنيا فى جزيرة ليس فيها غيره، «ويكفى لتحقيق الوطنية أن يعلم الناس عنك أنك وطنى، ومن الذى ينكر عليك ذلك فى فرنسا كلها؟ ولن يضير مجدك الوطنى فى شىء أن تطمئن على حياة ناعمة لا تحققها البطولة الفقيرة». ثم تصور له الواقع الأليم الذى ينتظره إذا لم يأخذ بنصيحتها، فتذكره بأن ما تعده فرنسا لأبطالها الفقراء لا يزيد على مقعد محجوز فى المترو لمشوهى الحرب، وشعلة باسم الجندى المجهول، وحفلات مشهودة لا يقربها أبطال الحرب، وإنما يقربها الأغنياء الذين لم يذوقوا ويلات الحرب.

فإذا حاول أن يستنكر عليها أن تتخذه قربان حبها لفرتز، قالت له: «إنك مأخوذ لا محالة.. وسيكون هناك وطنى آخر معزز مكرم أعطى ما أبيت إعطاءه بينما تكون أنت فى غيابة السجن»، ثم تقول له: وماذا تجنى من عنادك؟ فيرد عليها بقولة الفرنسيين المأثورة: «هناك

فرنسا لابد أن نحيطهـا جميعا بالعناية»، ولكن نبرات صوته لم تكن تـدل إلا على عدم اقتناعه بهذه العبارة، شأنه فى ذلك شأن كل فرنسى فى ذلك الوقت.

وتعـود جاكلين لتنبهـه إلى أن خيانتـه لفرنسـا هـذه المرة لا تنقص من حبه لها، ثم تفيقـه بطـريقة أخـرى حيث تقـول: «ثم ما هـذا الغـرور؟ أتظن أن مجد فـرنسا معلق على ورقـة فى حيازتك؟». وتستمر على هذا المنوال إلى أن تقول له إنه طفل فى كل شىء: «فى حبه للنساء وفى..؟ فلا تكن طفلا الآن».

ثم تلمس وترا حساسـا فى نفسه عندما تقـول له: «أتحدثنى عن الضمير والأخلاق؟ أتظن أنى لا أعلم ما فعلته بـالمسكينة التى أخذت أموالها ولعبت بها يـوم دفنها»؟ وحار روبير كيف عرفت هـذا الأمر. ثم إنها خـرجت من ملابسهـا ثائرة، فحاول لغبـائه أن يقربها فثـارت عليه وأمرته أن يخرج من عندها فخرج مدحورا.

ورأى روبير نفسه بين طريقين: طريق التضحية والبطولة، ولن تفيده التضحية ولا البطولة شيئا، ثم إن غيره سيفشى السر ويفوز بالنتيجة. وطريق الغنى، وهى طريق لا تحرم من المجد وفيها الجزاء الحق على ما قام به فى حركة المقاومة.

ولم يكن عنـد روبير إحساس بالفضيلـة تلتمس لذاتها، فكـان طبيعيا أن يفضل الطـريق الثانى.

وذهب إليها فى اليوم التالى فوجدها على هيئة مختلفة عن هيئتها بالأمس، ولكنها لا تقل عنها إغراء، فلما كانت بين يديه نظرت إلى أظافره وقـالت له إن أظافرك غير نظيفة. وآلمته هذه الكلمة كثيرا، وافترقا راضيين وقد تبين لهما أن جسديهما توافقا لأول مرة، وأن تفكيرهما أصبح قريبا جدا، بل إن روحيهما لم يعـودا بعيدين كما كان مـن قبل. وغادر روبير حجرتها وقـد ترك لها ورقة على مـائدة بجوارهـا، ففهمت جـاكلين أن فى الورقـة ما عنتـه، فدستهـا فى حقيبة يـدها وخرجت مسرعة.

ثم إن القائد الألمانى أخبرها بأنه قـد أودع لها وله مبلغا ضخما من المال فى بنك سويسرى، وقضى روبير أياما كالمريض، وغاب عن الاجتماعـات. ولقيته جاكلين ذات مرة، فأكدت له أنها رأت الشيك يرسل، وحذرته أنه سيقبض عليه ويودع السجن، ولكنه لن يمس بأذى ولن يطول عهده بالسجن.

□

كان كبار زعماء المقاومة يجتمعون فى الكنيسة، وكان القسيس ـ وهو واحد منهم ـ أشدهم إخلاصــا، وكان يعلم عن روبير الشىء الكثير، فهـو الذى أعطى القـداس الأخير لسوزى وهى الفتاة التى كانت لـروبير بمثابة السلم إلى النجاح. وكان القسيس حائرا فى أمـر هؤلاء الشبان، وكان لا يفتأ يسأل نفسه: أيكون العهر ضروريا للتمتع بشىء طبيعى؟ أتكون القذارة شرطا فى اللذة؟ ثم كيف يجتمع كل هذا العهر مع التضحية الواجبة للمقاومة؟

وكان يعجب أن يجتمع فى هـؤلاء الشبان غاية القـذارة وغاية السمـو الخلقى، وكان يسأل نفســه: أتضحيتهم تكفير عما يقترفـونه؟ واضطـر صــاحبنا القسيـس فى النهايـة إلى الإيمان باجتماع مثل هذه المتناقضات هذا الاجتماع الغريب.

أما من هم أقل شأنا من أفراد المقاومــة، فكانوا يجتمعون فى حجرة تقع أسفل مقهى. وكان جرسون هذا المقهى ضجرا يعتقد أنه خلق لعمل أرقى من عمله، ولم يكن فى اعتقاده هذا غرابة، بل إنه اعتقــاد كل فرنسى، ويكادون يكونـون جميعا على هذا الرأى. ففرنســا أمة لا تكف عن الحديث عن الجمال والذوق والرقة، ولكن (والوقفة هنا لأديبنا) هل يمتد هذا التباعد بين جمال القول وقبح الـواقع إلى الحياة العامة، فيكـون إيمانهم بالوطنية شيئا وتضحيــاتهم من أجلها شيئا آخر يختلف تمام الاختلاف؟

والحقيقة أن فرنسا لم تكن بدعا بين الأمم فى ذلك، وإنما كان ذلك فيها أوضح فى ذلك العهد.

وجلست روزالين فى عصبيــة شديدة، واستلفـت مدرس من المنتمين لحركـة المقاومــة نظر زميله إلى جمال روزالين فى ذلك اليوم، ثم أظهر له رغبته فى أن تكون روزالين له وحده، فقال له المدرس: فلتحكم هى، وسأعرض عليهــا الزواج. وحذره صاحبها أن يكـون زواجه لها عن حب عارض لا يستديم، فقــال له المدرس: إن المغفلين هم الذين يريـدون من زوجاتهم أن يكن دائما فاتنات كما كن يوم أحبوهن! ويكفينى منها أيام معدودات، فإذا خبت نارها التمست ما أبتغيه عند غيرها.

ولم يكتم صــاحب المدرس عنه استنكــاره لما قال، فقال لــه: أليس هــذا غاية العهــر؟ ولكن المدرس أخذ يقنعه بأن كلامه هذا مكانه الكنيسة وأولى به أن يصدر عن قسيسها.

ورأيا دينز مسرعة على غير عــادتها، ثم جاءت إليهما فأخبرتهما بأن روبير يقبض عليه، ثم ذهبت إلى روزالين فأخبرتها الخبر وأكـدت لها ــ وليس ذلك غـريبــا عليهــا وهى لا تتمتع من اللياقة بحظ كبير ــ أنها كانت على موعد مع روبير فى تلك الساعة، وأن عــلامة كانت بينهما أن

يترك شباك نافذتـه مفتوحا بعض الشيء.. فثارت ثائرة روزالين على روبير الـذى كان واعدها أن يلتقى بها فى المقهى فى تلك الساعة.

وقامـوا لتوهم حتى قـاربوا بيت روبير فوجـدوه وقد ركب السيـارة إلى جانب الكـولونيل وضابط المباحث، ولم يكن هناك شك فى أنه مقبوض عليـه. وعندما مرت السيارة أمام روزالين صاحت قـائلة: خائن! ولم تكن تقصد إلا خيـانة الحب حين واعدها فى المقهى، وواعـد دينز فى منزله فى نفس الموعد، وخيل إلى روبير أنها تعنى خيانتـه لوطنه فمادت به الأرض وأسقط فى يد الكولونيل.

□

سارت الحوادث فى منـزل روبير فى عصر ذلك اليـوم على النحو التالى: فـاجأت المخـابرات الألمانية روبير فى منزله، وقال له رئيس المباحث إنك مقبـوض عليك ياسيدى لأنك متهم بالتآمر على الرايخ. ورد عليه روبير قائلا: «إننى لا أنكر كرهى وعـدائى الشديد لألمانيا، ولكنى لم أتآمر ولم أقتل». وعندئذ تدخل الكولونيل فرتز فأمر ضابط المباحث بأن يذهب فيفتش فى الشقة عما قد يفيـد التحقيق، ثم دار بين فرتز وروبير حـوار حول حرق الأوراق وتمنى روبير عنـدئذ لو كان موقفه غير موقفه اليوم، إذن لكال للقائد الألمانى من الاحتقار ما يشاء.

كان فـرتز من طبقة معـروفة فى الجيش الألمانى اسمها (اليـونكر) وكانت سـلالة أشراف قدمـاء، وكان روبير يغبطـه على اطمئنانـه إلى حياتـه. وقد تبين لـروبير أن طبقة الأشراف على حمقهم، وجهلهم، وظلمهم لم تكن خـاليـة من بعض نـواحى المروءة والكـرم والشهامـة، وأن فرنسا خسرت كثيرا حين قضت على هذه الطبقة واستبدلت بها العصاميين النوابغ الخاضعين لماض مزعج من الحرمان، ولمستقبل لا تؤهلهم له قدراتهم.

وسأل فرتـز عن الأوراق التى أحرقهـا، فقص عليه روبير أنـه كان يكتب قصـة ضابط فى جمرك جاءه من يرشيه ليهرب بضـائع فى تلك الليلة، ولم يكن الضـابط يعتزم النزول للتفتيش هذا اليوم.. إلخ، وأنه كان حائرا فى أمر نهاية القصة: أيجعل نهايتها الشرف والأمانة أم الخيانة؟ ومازال أمر هـذه النهاية يشغله يوما بعـد يوم، كلما كتب لها خاتمة لم ترقه فمزقهـا وحرقها. وهنا سأله فرتز: وماذا أحرقت اليوم؟ فأجابه روبير: أحرقت خاتمة الشرف والأمانة!!!

وقال له روبير ضمن ما قال: لعلك يا سيدى تعلم أنى من كتاب القصة القصيرة، فقال له فرتز: إنى من المغرمين بالأدب الفرنسى يا سيدى، وقد قرأت لك قصة كانت بطلتها تدعى جاكلين فأعجبت بالقصة أيما إعجاب. حينئذ اطمأن روبير عندما سمع اسم صاحبته، وكانت قد جعلت من ذكر اسمها أمارة له على نجاح خطتها.

□

وبدأت عقب القبض على روبير حملة اعتقالات واسعة. «وكان واضحا أن أحدا قد خان»، وأخذ روبير إلى سجن غير سجن زملائه فظنوا أن الأمر لا يعدو أن يكون معاملة حسنة له كقائد على عادة الجيوش التى تعامل قادة الأعداء معاملة خاصة، إلا القسيس فإنه شك فى أمر روبير. وحوكم روبير أمام محكمة ألمانية وحرص الألمان على أن يعرف الفرنسيون ما يدور فى المحاكمة، وتبين للمحكمة أنه لا توجد ورقة واحدة تدينه، وأثير أمام المحكمة أمر الورق الذى أحرقه عند وصول رجال المباحث، ولكن المحكمة تبينت أنه لم يكن لروبير أن يعلم موعد قدومهم من قبل، وأن الهجوم عليه كان خاطفا حتى أنهم وجدوه جالسا يكتب إلى مكتبه، ثم إنه قد تبين من فحص بقايا هذه الأوراق أنها تتعلق بالقصة كما قال روبير، وحكمت المحكمة الألمانية ببراءته.

وذهب ضابط المباحث يخبر الجنرال بشكه فى سلوك الكولونيل، وكان الجنرال يعلم كل ما فعله فرتز فطمأن ضابط المباحث ونصحه ألا يشك أبدا فى كبار الضباط الألمان، فهم من طراز لا يمكن أن يخون ألمانيا ولو اجتمعت عليهم من أجل ذلك فاتنات فرنسا جميعا.

وصمم القسيس على أن يحاكم روبير أمام المحكمة السرية لحركة المقاومة الفرنسية، ونظرت المحكمة فى أمره فلم تأبه لعلاقته بجاكلين ولم تأخذ بالقول عن حسن معاملة الألمان له. ثم إن روبير قال للمحكمة إنه أحرق أوراقه السرية كلها قبل مجىء الألمان له. وعجب الناس له كيف عرف موعد مجيئهم، فقال روبير: كنت أطل من نافذة صغيرة فتحتها فتحة صغيرة جدا فرأيت أول جندى من الألمان فأحرقت الأوراق احتياطا. وشهد كل من دينز وروزالين والقسيس أن حكاية النافذة صحيحة. وبرأته المحكمة الفرنسية.

ثم إن الدائرة دارت على ألمانيا وتحررت فرنسا وأصبح روبير من أبطال المقاومة، ورأى أن ينعم بالراحة واختار «سان مورتز» وكانت ملتقى كبار الأغنياء وعظماء المترفين وفاتنات السينما ورجالها فى ذلك الوقت، واقتنى روبير سيارة كبيرة وسائقا خاصا.

وفيما هو فى طـريقه إلى «سان مورتـز» وقف السائق يصلح من أمر السيـارة ونزل روبير يتجول وحانت منه التفاتة، فوجد المدرس الذى كان رفيقه فى المقاومة واقفا بدراجته ويقف أمام مقهى على الطـريق ومعـه «روزالين» (وكانت قـد تـزوجته) ولم يطـق روبير أن يراهما فأمـر السـائق أن يستأنف السير للحظتـه، ولم يعبأ بتحـذير السـائق من أن أقـرب مكـان يمكنهما الوقوف فيه يبعد عشرين كيلومترا.

ونزل روبير فى فندق البالاس فعرفه الناس هناك وتحدثوا عنه وعن بطولاته، ولكنه لم يقبل على أحد منهم. وكان يخرج فيتنزه بين البحيرات الجبلية ولها جمال خاص تحدثنا عنه القصة. ثم أخذ يغشى صالات الفندق وأعجبه بار الفندق فأخذ يقضى فيه وقته.

ولم يذكر روبير صديقته العاملة ولا ما فعله مع جاكلين ولا ما فعلت به، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من أشيـاء ثلاثة آلمتـه غايـة الألم وهى: قول جـاكلين عن أظافـره إنها غير نظيفة، وصيحة روزالين أمامه إنه خائن، ونظرة الكولونيل فرتز إليه حين التقيا يوم القبض عليه.

□

وعاد روبير ذات مرة إلى الفندق فأقبل عليه النزلاء جميعـا يقولون له إن قصرالإليزيه طلبه مـرارا وإن رئيس الجمهوريـة يـريد أن يتصل بـه، فقـال روبير: أتظنون أنى أفضل حـديث سياسى عجوز على هـذه السيدة؟ ثم نزل وكيل الفندق (وكـان ضابطا ألمانيا غـادر ألمانيا بعد الهزيمة وساعدته إجادته للغات على أن يجد هذا العمل فى هذا الفندق) فحياه التحية العسكرية وانحنى له ونظر إليه روبير فوجده «فـرتز» فلم يعره اهتماما وكأنهما لم يلتقيا من قبل. ثم إن وكيل الفنـدق أخبره ما أخبره بـه النزلاء من قبل واعتـذر إليه لأنـه لم يجد السبيل إليه ليبلغـه الرسالة، فما كان من روبير إلا أن قال له: أعفيك من تقصير. وجاء بعد ذلك مدير الفندق يهنئه بالوزارة ويقول لـه: لقد سمعت لتوى رئيس الوزراء فى الراديو وهـو يقدم زملاءه الوزراء إلى الجمهور الفرنسى فلم يمدح أحدا من الوزراء بمثل ما مدحك به.

ولم يظهـر روبير فى هذه الليلـة اهتمامـا بالـوزارة بقـدر ما أظهـر من اهتمام بسيـدة من الحاضرات أخذت تتلقى التهانى معه، ثم قاما يرقصان فكانت تلتصق به على نحو لم يكن يقع فى مثل هذه الأوساط إلا من المسرفات فى التبذل، وقالت لـه وهو يرافقها: إنها لا تعرف إن كانت حجرته فى الطريق إلى حجرتها، أم أن حجرتها فى الطريق إلى حجـرته. وفهم عنها ما تريد فعزم أن يجيب دعوتها آخر الليل.

وعاد روبير إلى فرنسا فذهب مع زملائه الـوزراء إلى كنيسة نوتردام يستمعون إلى موعظة القسيس وكانت عن الطهـر، ومضى القسيس يعظ فيقول: «فقد يحيل الطهـر الخبيث فيجعله طيبا، وقد يحيل الطهر الطيب فيجعله خبيثا».

ونظروا ولم يكن فيهم رجل يستطيع أن يقـول إن الطهر كـان عاملا من عـوامل النجاح فى حياته، ولم يكن منهم من ليس فى حياته بقع سوداء.

□

قصة **«قوم لا يتطهرون»** هى أطول قصـة قصيرة - فى المجموعـة التى نعرضـها ــ لكامل حسين، وعنصر «الحكاية» فيها يخرج بها عن القصص القصير، وإن ظل عـدد حروفها يقربها من القصص القصير إلا أن وجهها مول نحو الروايات.

و «قوم لا يتطهرون» قصة تاريخيـة لا نعنى بذلك إلا أن مادتها من التاريخ، وهى تتناول التـاريخ فلا تخطىء واقعـة من وقائعـه وإن أعطت تفسيرات ذاتيـة لهذه الوقـائع، وما هـذه التفسيرات إلا فكر كاتبنا الكبير.

والتوازن بين (أحداث الأفكار)، و (أفكار الأحداث) فى «قوم لا يتطهرون» نموذج للتوازن فى مثل هذه القصص الفكرية.

□

والقصـة إلى ذلك تمتاز بتقصيهـا أحوال المجتمع الفـرنسى وظروف المقـاومة والاحتـلال الألمانى، ثم هى بعد ذلك تحدثنا عن أنواع شتى من العـلاقات بين الرجل والمرأة، وتستلفتنا إلى أنواع من النساء وخصـائص كل نوع، وهى من خلال ذلك كله تعرض لنا مفـاهيم كاتبها فيما يتعلق بالحقد، والحرمان، والطهر، وداء الأذكياء.

أما الحقد فهو يقول لنا عنه: «إنه ليس عاما بين الفقراء حين يتحدثون عن الأغنياء، ويرجع بعضه من غير شك إلى طبيعـة فى بعض النفوس تجعلهم يحقـدون على الناس بحق وبغير حق، أما النفوس التى برئت من هذا الداء فيبدأ الحقد عندهم عند الحرمان المخيف».

«وصاحب السيارة الفخمة لا يثير الحقد فى نفس صاحب السيارة الصغيرة ولا فى نفس الراجل حين لا يرهقه السير على قدميه، إنما يحقد عليه من يعييه السير الطويل وهو مضطر إليه، والمعدمون هم الذين يحقدون على غيرهم إلا أن يمنعهم من ذلك تقوى أو خوف».

«أما الطبقة الوسطى فليس من طبعها الحقد عادة، وهم أشد حرصا على التشبه بالأغنياء والتمتع بما يتمتع به هؤلاء من أن يجعلوا إلى الحقد عليهم سبيلا فى نفوسهم»، وهى نظرية فى الحقد سامية القصد من غير شك، وهى بعد ذلك قريبة إلى الواقع العلمى لولا أن هناك فى كثير من المجتمعات من يزجى هذا الحقد فى الصدور، بل إن بعض المذاهب الكبرى تستند إلى الحقد فى قيامها وانتشارها استنادا قويا وتعمل على نشره بكل الصور حتى يتهيأ لها سبيل الانتشار.

وأحب أن أستلفت النظر إلى هذا الإبداع الفنى حين يقول كاتبنا فى تصوير دخيلة نفس روبير بعد أن باح بالسر للأعداء: «لم يكن إحساسه بالطهر قويا، إلى حد يجعله يرى فى فعلته هذه المنكرة قذارة لا تغسلها مياه البحار، ولم يكن راغبا فى الرذيلة رغبة خاصة، ولكنه رجل غايته النجاح، فهو يسلك إليه كل سبيل». وقد لا تكون القصة كلها إلا وسيلة للتعبير عن حقيقة داء الذكاء، ذلك الداء الذى يرى صاحبه **ألا يتمتع من هم أقل منه ذكاء بما لا يتمتع به هو، وألا يعوقه عن النجاح والتمتع عائق من طهر أو فضيلة إذا وقفا فى سبيل النجاح.**

وما كان روبير ورئيس التحرير وجاكلين إلا ثلاثة من المصابين بهذا الداء، وكامل حسين يقرر فى نهاية القصة أن داء الذكاء عالمى ولكن خطره يزداد حين يكون المجتمع مجتمعا يقبل العهر ولا يشمئز منه، وحين يكون المجتمع خلوا من معنى الطهر.

□

والقصة تعبر عن رأى الكاتب فى الرذائل حين تنتشر فى مجتمع من المجتمعات، وهو لا يفتأ يدير الحوار حول أثر الرذائل فى المجتمعات وهل يصيب الأمة الانهيار لأجلها؟ ثم يقرر صراحة فى خاتمة القصة أن الرذائل الخاصة والعامة وحدها ليست قاضية على أمة من الأمم إلا أن يكون أهلها قوما لا يتطهرون.

ويثير الدكتور كامل حسين فى قصته هذه مسألة خطيرة هى اجتماع غاية القذارة والعهر إلى غاية السمو الخلقى وهى التضحية، وهى قضية تحمل إلى جانبها علامة استفهام كبيرة حسب تعبير أصحاب الأقلام والأفلام فى هذه الأيام. والدكتور يعرضها فى نفس القسيس ثم

يتركها معلقـة حين يقول: ولم يكن للقسيس بـد من أن يؤمن بـاجتماع مثل هذه التنـاقضات. والموقف الحقيقى لكاتبنـا من هذه القضيـة، يجب ألا يؤخذ هكـذا مما أداره فى نفس القسيس، وإنما على الذين يريدون أن يدركوه أن يأخذوا دليلهم عليها من القصة كلها، وعندئذ سيجدون أن اجتماع هـذه المتناقضـات ليس إلا نتيجـة مبـاشرة أو غير مباشرة لاجتماع عـاملين مهمين يتعلقان بالأخـلاق الاجتماعية والقومية، إن لم يكن بد من أن تجتمع هذه المتنـاقضات على هذا النحـو، ثم إنهم سيجدون أن نتيجـة اجتماع التضحيـة إلى العهـر فى نفوس أمثـال روبير من المصابين بداء الأذكيـاء لم تكن خيرا على فرنسا كما يظنون. ولا أظن الدكتور كـامل ساق هذا الجانب فى حياة روبير عبثا.

ونستطيع أن نجد فى حديث القسيس فى كنيسة نورتردام عن الطهر جذورا لحديث التطهر فى كتاب «الوادى المقدس» الذى ظهر بعد هذه القصة بست سنوات.

□

والقصة تحمل حملة شديدة على رجال الجمهـورية الثالثة من العصاميين النوابغ، وهى لا تترك هذه الحملة تجرى على لسان صاحب الصحيفة فحسب، ولكننـا نجدها حملة ظاهرة بعد ذلك. وقد لا تكـون الحملة إلا إشفاقا على فرنســا من هؤلاء الذين أصيب ماضيهـم بالحرمان، وسيصاب مستقبل الأمة بهم بشر ما يصاب.

والذين يغـرمون بأن يلاحظـوا شيئا يسيطـر على صور الكاتب فى قصتـه سيجدون دون جهد كبير فى هـذه القصة شخصيـات سائق السيارة، وصـاحبها، والـراجل تتكرر فى التمثيل لضروب الحقد.

أما حـديث النساء فى قصة «قـوم لا يتطهرون» فحديث خبير بهذا الجنس، وبحيـاة العهر، وجو الانحلال، ولكنى أحـس من النص إحساسا قويـا بأن هذه الخبرة خبرة (اطلاع) لا خبرة (ممارسة)، ولكنها على أية حال قد بدت طبيعية وكأنها تصدر عن رجل كثير المعاشرة للنساء.

□

ولا أحب أن أدعك تترك هذه القصــة إلا بعد أن أعرض عليـك هذه المفارقـة العجيبة فى حكم المحتكمين على روبير حين يقول كامل حسين:

«وبرأتـه المحكمة الفـرنسية لأنها تحققت من أنـه علم موعـد القبض عليه، وبـرأته المحكمة الألمانية لأنـه لا يمكن أن يكون قد علم بذلك الموعد قبل حدوثـه بوقت يسمح له بإعداد أوراقه و إحراقها».

وليس هذا إلا مثلا لـرجال الجمهورية الثـالثة الذين يعد كل ذى نفـوذ منهم ملفين لحياته، أحدهما فيه مستندات وبراهين وأعمال تدل على أنه فى جـانب فريق بعينه، والآخر فيه ما يثبت عملا وقولا أنه فى جـانب فريق آخر، على أن يقدم أحد الملفين للدفـاع عن نفسه حسب ما تمليه عليه مصلحتـه حينذاك، ويعتذر عن الآخـر بأنه لم يكن إلا ذرا للـرماد وإيهاما للفـريق الآخر اعتمادا على ما فيهم من غفلة وبلاهة.

□

ويبدو لى أن هذه القصة كانت تعبيرًا من كامل حسين عن فهمه المبكر لشخصية محددة أو شخصيات بدأت تلمع بشـدة فى المجتمع المصرى المعاصر لكتابة القصة، ومازلنا نعـانى آثارها وآثار طموحها المدمر وحبها للرذيلة وخيانتها لوطنها حتى يومنا هذا.

□□ أى الطريقين أهدى:

حب المظلومين أم كره الظالمين، هل يستويان ؟

زمن هذه القصة مطلع هـذا القرن، أما مكانها فهو الإمبراطورية الـروسية. وتحكى القصة أن فرســان القوازق دخلت قريـة صغيرة، لم يكن لأهلها عهـد بمثل هذا المنظر المروع لـرجال الجيش، الذين لم تأخذهم بأهل القـرية رحمة، وأخذوا يتجولون فى القريـة بفرسانهم فداست سنابك الخيل طفلا صغيرا فلم تطق أمـه أن تراه يداس، فسارعت إليـه تنتزعه من تحت أرجل الخيل فسقطت هى الأخرى قتيلة.

وذهب قائد الحملة إلى العمـدة فأمره بأن يجمع له فى الغد شيوخ البلـد وأعيانها. فلما كان الغد قام فيهم الضابط خطيبا فأنكر عليهم أن يكون فيهم من لا يطمئن إلى حكم القيصر وعدله، وهو قد عزم على أن يجيش الجيوش ولهذا كانـت الضرائب التى أبوا أن يدفعوها، وقال لهم: إن امتنـاعهم هذا عمل شـائن لكل وطنى مخلص، وإن فى قـدرة القيصر أن يمحوهم، ولكنـه رأى برحمته أن يكتفى بإرسال الحملة تجبى منهم الضرائب.

وبدأ الضابط بشيخ وقور، فأمره أن يدفـع الضريبة مضاعفة، فأظهر الشيخ اعتراضا فما كان من الضابط إلا أن ضربـه بالسوط على وجهه، وأمـر عساكره بأن يضربوه ضربـا شديدا، فتأثر النـاس لما حدث للشيخ الكبير الـوقور وتململوا، وخشى الشيـخ أن يصيب أهل بلده شر عظم فى سبيل دفـاعهم عنه، فأسرع إلى القـول بأنه سيـدفع، فقـال الضابط بل تـدفع ثلاثـة أضعاف الضريبة، وأشـار عليه العمدة أن يقترض من المرابى اليهودى فسـارع الشيخ الوقور يمضى الصك لليهودى، وهو لا يدرى شروطه.

وهكـذا أخذ الضـابط يجيل الضرب والتعـذيب فى الحاضرين، حتى انتهى منهم، فعمـد إلى العمدة، فقال له: وأنت ياسيدى ألم يكن أولى بك أن تجبر هؤلاء على دفع الضريبة؟ إن لك عندى جزاء خاصا، وأمر جنوده فمدوه وضربوه، وحاول العمدة أن يحفظ على نفسه وقاره، ولكنه لم يطق الضرب فصرخ.

وعاث الجنـود فى القرية فسـادا، وكانوا على ثقـة من أن أهل القرية عصـاة مجرمون يستحقون كل عقـاب، وكان أهل القـرية لما رأوا من الجنـود على ثقة بأن هـؤلاء وحوش ضارية لا دين لهم ولا قلب.

وكان طبيعيـا أن يتفرق أهل هـذه القريـة شيعا، ولم يكـونوا يعـرفون شيئا عـن المبادىء السيـاسيـة، ولكنهم انقسموا كما تنقسم كل جماعـة تعتريها نكبـة غـالبة، إلى فـرق يمينيـة ويسارية، وكان فى أقصى اليمين رجال الدين، وكان فى أقصى اليسار الشبان المتمردون.

وكان رجال الدين يقنعون أهل القرية، بأن الله يتولى عن عباده القضاء على الظلم والظالمين إن عاجلا وإن آجلا، وإن لم ينتقم من الظالمين فى الدنيا، فإن لهم فى الآخرة عذابا مقيما.

ورأى أحدهم أن يرسل إلى القيصر برقية يخبره فيها بما حدث، وكانوا واثقين بأن القيصر لا يقبل مثل هذا العمل وسيعاقب عليـه، وكانت جرأة من هذا الـرجل أن يرسل البرقية إلى القيصر مباشرة.

أما الشبان فكانوا على اقتناع بأن الأساليب الهادئة التى لا تزيد على الشكوى والاحتجاج لا تؤدى إلى شىء، فالنظام كله ظالم يظلم فيه كل إنسان من تحته، وهو نظام لا يرجى منه خير.

واختلف الشبان فى نـوع العمل الذى ينبغى عليهـم أن يعملوه، فمن قائل بجمـع المظلومين صفا واحدا عزلا من السلاح أمام الظالمين، وحجة هؤلاء أن الضربة القاصمة إذا وقعت على غير مقاومـة عاد عنفها على ضاربيهـا كما يعرف ذلك كل ملاكم، والظـالمون أحق أن يرثى لهم من المظلومين لأنهم فى أغلب أمرهم مـرغمون على ما يفعلون بعـوامل لا يستطيعون لها ردا. وكان على رأس هؤلاء «ليو»، وهو شاب نشأ فى أسرة تعنى بالدين وقد عرف عن أهلها أنهم نزع ما فى قلوبهم من غل، وكـانت فيه خصلة حب النـاس فكان يحب الأشرار والأوفياء، لا يفـرق فى حبه بين صديق وعدو، وكان يؤمن بأن الظلم حالـة عامة، وأن القضاء عليه يخلق ظلما جديدا، وأن الشر حلقة مفرغة لا يقطع دائرتها إلا امتناع أحـد طرفيها عن العنف، وكان يرى أن السبيل إلى ذلك أن يسود الحب والسلام.

□

وكان هنـاك فريق ثـان على رأسه «جـوزيف» وكان يكـره الظلم والظالمين، وتحولـت هذه

العاطفة عنده إلى الفتك بالطغاة الأقـوياء، ولم يكن يعنيه أن يكون فتكه بهم شرا على المظلومين أو خيرا، وكان من القـائلين بأن الكرامـة والغضب والمحبة بين النـاس ترف لا يعـرفه مَنْ همه مقصور على أدنى العيش، فليس للجائع وطنية، وليس للحافى كرامة، وليس للخائف عزة.

ويدور «الفلاش» فنرى حـالة الجنود يرثى لها، وما كانـوا ينهبون الطعام والحلى والثياب الحسنة إلا لحاجتهم إلى ذلك لا لمجرد النهب. ويمر ليـو بالمعسكر فيجلس إلى جندى من هؤلاء يحادثه فيطمئن كل منهما إلى صاحبـه ويقول ليو: أليس ما يدعوكم إلى غـزو الناس فى بيوتهم أن تحصلوا على ما تبتغون مما لا تهيئه لكم الحكومة؟ فهل لك فى أن أهيىء لك ذلك دون سطو أو نهب؟ ويقبل الجندى العرض ويخبر به زملاءه.

ويكتب الضـابط إلى رئيســه بما أحرز من نجاح أراد أن يكفر بـه عن ذنبه حين لان من قبل فعاقبه رئيسه هذا على لينه، ويقول فى رسالته مفتخرا: ضربت وعذبت وأهنت وجمعت من المال شيئا كثيرا أرسله إليكم فى أقرب وقت (وكان قد احتجز هو والمرابى جزءا منه، ثم يرجو رئيسه أن يكافئه ويرفع درجته حتى يبدأ حياة سعيدة يعده أن تكون كلها خدمة له وللقيصر وللوطن، بل إذا اقتضى الأمر فقد تكون أيضا فى خدمة الله.

وكتب رئيســه إلى الوزيـر يخبره خبر الحملـة، ويعده أن يـرسل لـه الأموال التى جمعهـا الضـابط من أهل القرية، وكان قد عزم على أن يستبقى منها جزءا كبيرا.

وكتب الوزيـر للقيصر يخبره بأن الحملة اكتفت بالقريـة وقبلت ما دفعوه عن طيب خـاطر لضيق ذات يدهم، فإن كـان قليلا فهو يـرجو رحمة القيصر (وذلك أنه استبقى هـو الآخر من المال جزءا كبيرا).

وهكذا ظنوا جميعا أن شوائب عملهم جزء مـن طبيعة النظام القائم الذى لا شأن لهم به فى إقـامته ولا قـدرة لهم على تغييره، وأنه خير لهم أن يكـونـوا من المنتفعين بشره من أن يكونـوا ضحايا هذا الشر.

جمع جوزيف زملاءه وقال لهم: إن الظالم مثل الأسد الجائع لا يرده عن ظلمه إلا أن تضع رصـاصة بين عينيـه، وأنه يجب عليهم ألا يحرصـوا على الفقـراء الضعفاء حين ينتقمـون من الأقـويـاء الظالمين، ذلك أن حـب المظلومين لن يـؤدى إلى قطع دابـر الظلم، ولكن القضــاء على الظالمين يوقع الرعب فى قلوبهم.

□

وذهب جوزيف وأصحابه إلى الطريق فأغاروا على الحملة، ولكن الوئام زاد بين ليو وأصحابه والجنود فغضب جوزيف لذلك. وبينما كان ليو جالسا ذات مرة يضاحك الجندى، حانت منه التفاتة فرأى جوزيف يصوب بندقيته من نافذة إلى الجندى الذى يحدث ليو فيجذب ليو الجندى جذبة لم تكن الرصاصة لتصيبه معها. ولم تنطلق الرصاصة وعاد جوزيف يفكر كيف يقيم أزمة جديدة.

وجاء رجل من قبل الحكومة يحقق فى البرقية التى أرسلت إلى القيصر، وقد أوصته الحكومة بأن يجعل من هذا الرجل الذى أرسل البرقية عبرة لمن يعتبر، فهو كما قالوا له من أعداء الحكومة الساعين إلى إسقاطها، وأمر المحقق بالرجل فربط فى ذيل حصان، ودار به الحصان فى شوارع القرية على مهل حتى يتعظ الناس. وكتب المحقق بعد ذلك أن الشكوى لا أساس لها وأن أهل القرية عجبوا لهذه الشكوى وأنهم راضون سعداء حتى أن الحملة لم تعد ترى مسوغا لبقائها.

وذهب جوزيف وأصحابه فاعترضوا الحملة فى رحيلها، وهجموا، وسلبوا، وأخذوا ما استطاعوا وأمسكوا بالمرابى اليهودى يبتغون قتله، فتضرع إليهم أن يأخذوا ماله وصكوكه ويتركوه لأولاده، فهو لا ذنب له، وإنما تؤخذ منه معظم أمواله قبل أن يمضى مع هؤلاء فتركوه بعد أن أخذوا أمواله وصكوكه.

وعلمت الحكومة بما حدث فأرسلت فرقة عسكرية كبيرة، يقودها جنرال، فلما جاء هذا ووجد القرية على هذا الصغر غاظه من قواده أن يرسلوه وهو القائد الكبير لمثل هذا الأمر التافه، فدك القرية دكا فى ربع ساعة، وترك أصغر ضباطه على رأس من ترك من جنوده وعاد.

ونشرت جرائد المعارضة فى صفحة واحدة تقرير الضابط، ومذكرة الوزير، وشكوى أهل البلدة، وتقرير المحقق، ووصفا لحادث الكمين الذى قام به جوزيف، وأصحابه، ووصفا للحملة الأخيرة، كل جنبا إلى جنب، مع وصف رائع لمأدبة عشاء أقامها القيصر لعدوه الأول إمبراطور ألمانيا.

وترك أهل القرية قريتهم، التى أصبحت أثرا بعد عين، وذهب بهم ليو إلى حاكم المقاطعة فوعده بالعناية بهم، وأقيمت قرية جديدة على الحب، والتضامن والتعاون، وحسن حال أهلها، **بفضل جهود ليو وأصحابه.**

□

أما جـوزيف فإنه رحل هربا من الحكـومة التى بعثت فى الإتيان بـه، وفرارا من غضب أهل القرية عليه، فقد كان حمقه سببا فيما حـدث لهم، ورغبة فى اللحاق بجمعيات ثورية سمع عها وود أن يلتحق بها. ولم يمنعه رحيله من أن يفكر فى حرق خيام الحملة الأخيرة، قبل أن يمضى وشأنه، ولكن حيل بينه وبين ذلك.

ويستطرد أديبنا الكبير إلى الحديث عن (الشيوعية) ويفند آراء ماركس فى العدل الاجتماعى (على نحو بيناه فى فصل آخر).

ثم يقول إن أكبر ما أعجب جوزيف فى الشيوعية أنها وضعت أساسا علميا للكره بين الناس أفرادا وجماعات.

ثم كانت الحرب العـالمية الأولى فكانت فـرصة العمـر لأنصار الشيوعيـة، ومنهم جوزيف وجماعته. ولما فـرغ جوزيف وأعـوانه ممن فـوقهم بدءوا يعدون من الظـالمين كل من اعترض طـريقهم وقلبوا ظهـر المجن لمن هم دونهم، وأصبح جـوزيف أشـد الطغـاة عنفا لأنـه أصبح أكثرهم خوفا وهو ما حاول صديقه ليو أن يقنعه به فى أول حياتهما، وأصبح لجوزيف سلطان عظيم، حتى صار من حوله يصفونه بأنه الحكمة الإنسانية مجسمة فى شخص. وقتل جوزيف ونفى أعـدادا هائلـة من البشر، ولم يكن ذلك عليه عسيرا فقـد اختار أعـوانه ممن امتـلأ قلبهم بـالكـره، كما يملأ قلبـه، وأرهبهم حتى لا يخرج أحـد عليـه، ولم يطلب منهم إلا أن يختـاروا أعوانهم على نحو مـا اختارهم هو، وأن يرهبوهم كما أرهبهم، ثم دلته عبقـرية الكره والخوف على أن يجعل بين كل طبقـة وأخرى ثأرا حتى أصبح كل إنسـان يخشى من فوقـه رعبا، ومن تحته خوفا أن ينتقم منه من كان سببا فى تعذيبهم.

ويخرج أديبنا مـرة ثانية إلى التعليق الظـاهر فيقول: ولأول مـرة فى التاريخ قام نظـام أمة كبيرة على أساس واحد هو الكره، وعلى قوة واحدة هى الخوف.

□

وخطر لجوزيف أن يـزور قريته القـديمة فراعه أن يصير أهلهـا مطمئنين هادئين محبين، ووجـد ليو فسره أن يقـول له: لقـد بدأنـا حياتنـا معا ويعلم النـاس أنى بلغت ما بلغت بكـره الظـالمين، فغيرت من حياة أمـة بأسرها، قضيت على كـل ظالم فيهـا، وأذللت كل عزيـز وغنى، وأطحت برأس كل إنسان معـارض، أما أنت فلم تبلغ بحبك الظالمين إلا غايـة ضئيلة فى تجربة

صغيرة لا تـؤدى إلى شىء لو جـربت فى أمة كبيرة. إن القـوة لا تخضع إلا للقوة، وإن كـرهى للظالم لأشد من كرهى للظلم، ولو زال الظلم من الدنيا دون العنف ما رضيت بذلك. فيقول ليو لجوزيف: أتـدرى ما هـو الثمن الذى دفعتـه من أجل كل ذلك؟ إنـه العذاب الـذى تعرض لـه ضميرك، والخوف الذى ملأ قلبك حتى تحققت أحلامك هذه.

إن طريق الدم مـرعب وقد سرت على أكوام الجماجم وسط بحر من الـدماء، وخيل إليك أنك راض ولكنك تخدع نفسك، فخوفك من نفسك لا يقل عن خوفك من الناس.

وطـريقتك (أى كره الظـالمين) هى الطـريقـة الناجحـة لاستبـدال ظالمين بـآخـرين، وهى سيكولوجية من حرمهم الله الحب.

«ولكنى جمعت الظلم كله فى يـدى وبوسعى أن أمنعه». هكذا كان جـوزيف يظن، ولكن ليو يقول له إن قيصر كان يرى رأيه هذا من قبل.

□

«**أى الطريقين أهدى**» عمل فنى ممتاز، وهى قصة تعنى بالمجتمع، وإن كانت هذه العناية لا تبدو قـريبة، وهى قصة تـاريخية لا تقف عند تـاريخ أقوام من الناس إنما تعمـد إلى تاريخ المذاهب، وفيها فكر دسم احتـال له أديبنا الكبير حتى جاء حـوارا بين شخصين وهو فى الواقع حوار القرن الحالى كلـه. وعنوان القصة سؤال، ولعل القصـة تحاول أن تجيب عن هذا السؤال إجابة مقنعة، وقد نجحت فى إقناعنا بصحة ومنطقية الإجابة التى اختارتها، وربما كان هذا هو المطلوب فى مثل هذا النوع من العمل الفنى.

والقصة تقرر صراحة أن كره الظالمين ضـلال فى ضلال. هذا فى النص، أما فى الأحداث فهى تبين كيف نجح حب المظلومين فى بنـاء قرية سعيـدة (ولو كانت صغيرة قليلـة العدد)، وكيف نجح كره الظالمين فى أن يكون أساسا لأمة كبيرة تقوم حياتها على أساس من الخوف والكره.

وهى بهذا «واقعية» الأحداث والنهاية. وكان أديبنا يستطيع لو أراد أن يجعل كره الظالمين لا يؤدى إلى نتيجة، فيقف بمجرى الأحداث فى قصته عند حملة الجنرال التى جاءت فدكت القرية دكا فى ربع ساعة، ولكنه لم يرد إلى ذلك، وإنما أراد أن يبين أن النجاح الحقيقى لا يكمن فى بناء دولة مهما تكن عظيمة، وإنما دليله الحقيقى فى نفسك، فقد دفع جوزيف ثمنا غاليا، هو العذاب الذى تعرض له ضميره، والخوف الذى ملأ قلبه حتى تحققت أحلامه.

والقصة مع ذلك كله دقيقة إلى حد بعيد فى تصوير الأحوال التى تحيط بالناس وقد سادهم نظام ما، فهو يجول بنا فى نظام القيصرية بين القيصر، والوزير، والضابط، ورئيسه، والمحقق، والحكومة، وجريدة المعارضة، وحفلة إمبراطور ألمانيا، ويعطينا وصفا دقيقا لنفسية كل صاحب أمر يحسب أنه إنما يطيع أمرا أعلى ليرضى عنه رجل فى أقصى بطرسبرج، ويعطينا وصفا صادقا دقيقا لنظام الشيوعية فى الحكم، والعلاقات بين الطبقات، وكيف يكون الكره بينها بعضها وبعض، وفى داخل كل طبقة، وكيف يرهب الرجل من هم تحته ومن هم فوقه.

ولا أحسب واحدا ممن قرءوا هذه القصة لم يثر إعجابه قول صاحبها، «يحتمل الناس كثيرا من الظلم إذا جاءهم على مهل هادئا بسيطا وإن طال أمده، وكأنهم يكسبون مناعة تقيهم كثيرا من شره، ولكن الظلم الذى يأتيهم فجأة عنيفا قويا يفعل بهم فعل الجرعة القوية من السموم يصيبهم فى مواطن الضعف منهم، ويعد لهم صدمة عنيفة تذهب بصواب عقولهم». ولا ريب عندى أنها فى تصوير أثر الظلم خير من عبارات اشتهرت لكثيرين من أعلام عصر النهضة فى أوربا. وليس الإعجاب الذى تثيره العبارة التالية بأقل من الإعجاب بالسابقة: «ويظن الناس أن المظلومين يجب أن يكونوا أبعد الناس عن الظلم، والواقع أن أثره فى نفوسهم أن يحملهم على ظلم غيرهم، وإنما يشمئز من الظلم ويغضب من أهله من يشاهدونه يقع على غيرهم على مرأى ومسمع منهم وهم بعيدون، **ولعل أكثر الطغاة يدفعهم إلى الظلم خوفهم من ظلم يتوقعونه، أو خوفهم من ظلم عام، فهم يبغون أن يضعوا أنفسهم فى صفوف الظالمين حتى لا يجدوها فى صفوف المظلومين من غير شك»**.

□

والقصة تمثل موقفا يدلنا على شجاعة كامل حسين، فقد نشرها فى إبريل سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف، وكانت مصر وقتها تتجه بكل ما أوتيت من قدرة على الاتجاه إلى النظام الاشتراكى تظن فيه الخير. ودون أن نخوض فى بحور من القول، فإننا نكتفى بأن نسجل أن كامل حسين وهو المفكر الكبير الخبير بالمذاهب والأفكار، وتطورات التاريخ، نشر هذه القصة، وفند فيها بطريقة فنية عيوب الشيوعية، محذرا منها ومن تطبيقها، وأخيرا فهى قصة طريقين، هما «قريبان جدا فى البداية، مختلفان فى النهاية اختلاف الجنة والنار».

□□ الطـــــريد

تحدثنا القصة فى بدايتها عن واد فى أعلى جبال سيناء، فيه العيون، والهواء الطيب، والطبيعة الحسنة. «يسقط من سمائه شتاء ثلج لا يعرفه أهل السهول يشبه القطن يغطى الأرض جميعا بثـوب أبيض ناصع، حتى إذا أقبل الـربيع ذاب هذا الثلج، وسـالت الأودية بماء عـذب يجرى عيونا، أو صار آبارا قريبة المنال».

كان البدو الـرحل الذين يجوبون الصحارى، والصيـادون الذين أقاموا على سـاحل البحر الأحمر، يحدثون مـوسى الذى أقـام بينهم منذ فر من مصر عن هـذا الوادى الـذى يبعد عنهم مسيرة ثلاثة أيـام، ويصفون له أهله فيقولـون إنهم مؤمنون طيبون. فلما كثـر حديثهم أخذ يطمئن إلى صدقـه، ورغب فى الهجرة إليه، وحسبه فيـه أنه سيكون بعيدا فلا يتعقبـه أحد من المؤتمرين به ليقتلوه حين قتل رجلا من أهل مصر.

واستعد موسى للهجرة إلى هذا الوادى، وكان سعيدا أن يفارق هؤلاء الصيادين ولم يكونوا آسفين لفراقه.

وسار بين البحـر والجبال ساعات خمسـا حتى إذا بلغ أول الجبال وجد منعرجـا هو أول الطريق إلى الـوادى، حسب ما وصف له البـدو والصيادون. ولقى مـوسى فلاحا يـزرع رقعة صغيرة من الأرض، فعجب موسى من ذلك ولم يكن له عهد بمثل هـذه الرقعة الصغيرة تزرع، وسأل مـوسى الرجل: هل يكفيك هـذا الذى تـزرعه؟ فـرد عليه الـرجل فى جفاء: لـو لم يكفنى لرحلت. فقال له موسى: ولماذا لا تذهب إلى أعلى هـذا الجبل فهناك واد.. فرد عليه الرجل قائلا: اذهب أنت إليه. وتشاغل عنه.

وتعود بنـا القصة (مع موسى ونفسيتـه فى تلك اللحظات) إلى نشأة مـوسى، الذى لم يكن يجهل أن حياته غير طبيعية، فهى مضطربة منذ يـوم مولده، ثم إنه عاش فى قصر فرعون حياة تختلف عن حياة أهل ذلك القصر، ثم ها هو ذا قد ترك فرعون مختارا بعد أن فعل فعلته يحسب أنه ينصر مظلوما، ولكنه أفسد بفعلته هذه حياته، فهـا هو ذا قد صار طريدا لا يرجو من الدنيا

إلا أن يجد عملا يقتـات من جرائه، مهما يكـن صـغيرا، ومأوى يسكن إليه وهـو أقل ما يـرجو إنسان لنفسه، مهما يكن فى ذلك من ضعة وذل. وكان يعرف من نفسه الشجاعة إقداما وصبرا، ولم يعهد فى نفسه ذات يوم رهبة تمنعه من أن يحق حقا، أما اليوم فقد أصبح جبانا رعديدا.

□

واشتد بموسى الخوف فـألهاه عن التفكير فى أمه التى كانت تعيش مؤملـة فيه الخير كله، راجية أن يعوضها عن المكروه الذى لاقته بسببه، وألهاه الخوف عن التفكير فى أخته التى حملته رضيعا وألقته فى اليم، وألهاه الخوف عن التفكير فى قومه الذين كانوا يرجونه ليوم يستطيع فيه أن يخفف عنهم بعض هذا العـذاب، ولكنه مـا إن جاءهم حتى كان قـدومه شرا عليهم ونـذيرا. حينذاك فكـر موسـى فى الفرار من هذا المكـان والعودة إلى فرعـون، فقد كان فرعـون أقرب إلى الطيبة منه إلى الانتقام، وقد غفر له من قبل. ولكن الأمر بعد قتله ذلك المصرى أصبح جد خطير وسيقال لفـرعون: إن العبيـد إذا علموا أن قتل السـادة أمر يسير فـذلك بدء الانتفـاضة وأول الثورة، وسيقولون له إن العدل بين سيد مظلوم وعبد ظالم لا بد أن يكون قصاصا رادعا.

ووجد موسى نفسه طريدا خائفا، والطريد لا شجاعة له، والخائف لا عزة له، وصلة الطريد بالحياة تنقطع حتى تستقـر على نحو جديد، «وكان يحسب أن أرض اللـه واسعة وفيها منأى للكريم، ولكنـه أدرك أن الأرض لها بحياة أهلها صلـة خفية غـامضة تجعل الحياة مستطـاعة مهما يكن فيها من خير، والسبيل إلى الحيـاة الكريمة لا يكون بالفـرار. ثم يسأل نفسه من أين يكون للفلاح الجاهل و الصياد الغبى عليه فضل؟ ويقنع نفسه أن لهما فضلا عليه هو أنهما لم يرتكبا إثما.

كان فراره من نفسـه أكثر من هربه من العقاب، والفـرار من النفس أصعب على الكريم من الفرار من العقاب. وتابع سيره، وقد أثقلته الهموم، وأخذته الرهبة التى تأخذ أهل هذه السهول حين يسيرون لأول مرة بين الجبـال، فللجبال فى نفس الـذين لا يعرفـونها أثر يختلف عـن أثر البحر فيمن لا يعـرفونه. البحـر فيه قوة وعنـف لا يخيفان الناس، أمـا الجبل فيفاجئهم بما لا يعرفونه عند كل خطوة من هوة، أو حافة، أو مرتقى، أو منزلق.

ثم هذا السكون الشامل، وتلك القمم العالية، والـوديان الضيقة، والصخور الضخمة. وما لبث مـوسى أن اطمأن إلى الطبيعـة. ولعله أخـذ يعجب بعظمـة الجبـال، وتنـوع صخورهـا،

واختلاف ألـوانها وأشكالها، وأعجبـه أن تحميه هـذه التلال من حر الشمـس، وأهل السهول يتعبهم الصعود أكثر مما يتعب أهل الجبال.

وسمع على مقربة منه خرير عين فروى عطشه، وغسل يديه وقدميه بهذا الماء، وهو خطأ لا يقع فيه من خبر السير الطويل فى الأرض القفرة. وبات موسى ليلته بجوار العين.

وأصبح فى يومه الثانى فبدأ سيره نشيطا سعيدا، طوال النهار. فلما اشتد الجدب من حوله، وأدركـه الظلام لجأ إلى فجـوة فى الجبل يقضى ليلتـه فيها، وأوقـد بعض الأعشاب يـدفء بها قدميه، وأقبلت على النـار هوام كثيرة فعجب لذلك، فقد كان يحسب هـذا المكان لا يصلح لحياة الكائنـات مهما تكن صغيرة، ثم اطمأن إليها وترفق بها وكأنما رأى فيهـا رفقاء غربـة، وحزن حين رأى فراشة تقبل على النار فتحرق النار أجنحتها قبل أن يستطيع إنقاذها.

فلما سطع القمر فى السماء، زاد اطمئنانه، أليس هذا القمر هو الذى يسطع على مصر؟ وعلى أمه، وأخته، وقومه فيها؟

□

وتمضى القصة فتصور لنا ما كان من أمر أحـلامه فى هذه الليلة. فهذه فتاة كانت تهواه فى قصر فرعـون، وكان يعرض عنهـا أقبلت عليه ثم قبلته. وقـام موسى من غده، وسـاعده الأمل (فهذا آخـر الأيام الثلاثة) على احتمال المشقـة والألم، وأرهقت عينيه ألوان الصخور القـاحلة، ووهج الشمس، واجتمع عليه التعب، والجوع، والعطش، واليأس، وخـارت قواه. ولليأس قدرة على الإرهاق لا يبلغها التعب ولا الألم، مهما يكن مبلغهما.

وعاد يفكر فى أمر حياته واضطرابها: طفولـة غير طبيعية، يلقى فيها عطفا وحنانا من امرأة فرعون يشبهان عطف الأمومة وحنـانها، وحب تقدمت به إليه نساء كثيرات ولكنه حب محدود الغاية معـروف أصله وأغراضه، وكان يـراه حبا قذرا، وصداقات قـامت بينه وبين شباب ذلك القصر، فكان مـوضع ثقتهم دائما دون أن يكون موضع سرهم أبدا، وعلم علم الكهنـة فحقر فى عينيه، وألب عليه الكهنة لما ثـار عليهم، وكانت ثورته ترضية من نفسه. أمـا اليوم فقد تجلى له أثر هذه الثورة حيث جعلته طريدا، وأحالته جبانـا، وتركته يائسا، وليس أمامه بعد إلا الخيبة. وها هـو ذا قد أخفق فى تحقيق هذا الأمل الـذى استدبر حيـاة القصور التى كرههـا من أجله، ولكنه لم يستقبل بعد الحياة التى يرجوها. أيكون لتمسكه بنوع خاص من الخلق الكريم سببا

لما أصابه من شر؟ أيكون ترفع الإنسان ترفعا عظيما عمن حوله مؤديا إلى عكس ما يراد منه فى الواقع؟ ومن الناس من يخطئـون كثيرا، وقد يكون خطؤهم فاحشا ثم لا يصيبهم مـا أصابه؟ أما هو فلم يكتسب إلا جرما واحدا حين قتل مصريا ظالما، ولم يكن يريد قتله، إنما كان يريد أن يمنع شره، فكيف اختص هو بجزاء فظيع كهذا الذى يتعرض له؟ وندم على جبنه وهربه، وبرح به أن قومه علقوا عليه آمالا كبارا فخانها، وكان أقسى شىء عليه فى هذه الساعة المظلمة ضياع آمال المؤملين فيه إلى غير رجعة، وأنه لن يستطيع أن يكفر عن تلك السيئة.

ومرت ساعة حسبها عمرا، ومرت ساعة ثانية حسبها دهرا، وراود عقله أن يعود إلى الفلاح، أو إلى الصيادين، أو إلى فرعون، وحاول النزول فوجـد نفسه يخطىء التقدير فى خطاه. وإذا به يجد نفسه منكبـا على وجهه، ولم يكـن إغماء ولا زلة قـدم، وإنما كان نتيجـة فقدان العـزيمة واضطراب النفس.

وعرف أن من العبـث محاولة النجاة بـالنزول، «وأيقن أنــه هالك لا محالـة فى مكانـه هذا، وكأنما أخذ يؤبن نفسه، وخيل إليه أنه مـن العار أن تبقى جثته فى العراء، وهو ممن نشئوا على العنايـة بجثث الموتى إلى حـد بناء الأهرام لتقيهـا البلى، وتجهيز تـوابيت ضـخمة لتحميهـا من الفناء، وود لو استطاع أن ينقش على حجر بجانبه رجاء للذئاب ـ إن كان فى هذه البقعة ذئاب ـ ألا تنهشه، أو تـوسلا إلى الطيور الجارحـة ـ إن كان منهـا من ضل طريقـه فى الهواء فبلغ هذا المكان كما ضل هو طريقه فى الأرض ـ أن تتعفف عن هذا الجسم الذى كان كريما جميلا، وكان موضـع آمال الناس وحبهم فلا يتخطفونه، ولكن أنى له أن يأمر الأمطار والرياح، أو يرجوهـا ألا تذيبه وتكتسح مـا يبقى منه إلى أسفل الوادى فينتهى أمره إلى الأبد إلا جمجمة، وعظـاما هشة، وهو ما كان يخشاه المصريون أشد خشية».

□

ثم استطـاع أن يجلس، وبينما هو فى وسط هـذا الكون المظلم وهـو فى رائعة النهـار، سمع صوت رنين جرس صغير خافت، ولم يتبين حقيقته وحسبـه من تصورات الذهول التى تعترى المشرفين على الموت، ومضت مدة حسبهـا طويلـة جدا وهو ينصـت إلى الفضاء يلتمس أضعف الأصوات، ثم سمع الصوت نفسه أقرب إليه وأقوى، ثم تساءل ماذا يكون هذا الصوت؟ إنه من غير شك ليس صوت الرياح حين تمر بين الفجوات الضيقـة وبين الجبال، بل هو صوت جرس

لا نزاع، ثم سمعــه قريبا قويا، والتفت وراءه فــإذا بالصوت يصدر عن مــاعز صغيرة تنظر إلى غير وجهته، ثم أخـذت تتلفت يمنة ويسرة وهى فـوق الصخرة، ثم وقع نظـرها عليـه فهربت، وانحدرت إلى الجانب الآخر من القمة التى وقفت عليها.

صعد موسى وراء الماعز، واتبع طريقها فى منفرج ضيق بين الصخور، وتتبعها بنظره وهى تجرى إلى أسفل الوادى، فإذا أمامه أشجار كثيرة مورقة، وفاكهة ناضجة، وخضرة يانعة، تقع فى منحدر جميل بين الجبال. وعرف أن هذا هو الأمل الذى كان يرجوه، وأن هذا هو وادى سيناء الذى كاد يموت دون بلـوغه، وصاح بأعلى صوته: لقد نجوت. وســار بخطى ثابتة، وشتان بين تقديـر السائر إلى الحياة والهابط إلى الموت، ولقيه رجـلان فوجداه على هذه الحالـة من الإعياء، فحملاه إلى الهيكل على حمار، وطلب ماء فقدما إليـه شرابا، وقطعة من الحلوى، فجرع جرعتين من هذا الشراب الذى يعـرفون أثره فى المرهقين تعبا. وهكذا نجا من مـوت محقق، أنقذه صوت جرس صغير فى عنق ماعز جميلة وضعه أصحابها حتى لا تغيب عنهم حين تحجبها منعطفات الجبال.

□

سوف نؤجـل حديثنا عن هذه القصـة إلى نهاية القصة التاليـة لأنهما مرتطبتان ببعضهما وإن كامل حسين قد نشر كل منهما على انفراد وبعنوان مستقل.

مـــاء مـــدين

قضى موسى ليلته فى الوادى، وأصبح فشرب من هذا الشراب الذى يختلف عن شراب مصر، فـالقليل من شراب هؤلاء يشفى من الخمـول والتعب، وسمع صوتـا موسيقيـا، وكان صـوت جرس المعبد، وهو صوت مـوسيقى هادىء يختلف عن الأصوات الصاخبة فى مصر.. وتمضى القصة فى وصـف الوادى ففيه الـزيتون وليـس فى مصر زيتون، وفيه الـزرع الأخضر البهيج، وعهده بـالخضرة فى مصر يشوب جمالها مـا يعلوهـا من تراب يذهـب ببعض نضرتها. ووجد موسى فى هذا الوادى كل ما فى مصر إلا النيل، فقد افتقـد مياهه الجارية المنسابة. ثم تصف لنا القصة المعبد والهيكل والأطفال يلاعبون موسى ويلاعبهم ثم يعودون إلى أمهاتهم وقد لاحظوا عليه أنه «لا يتكلم كما نتكلم، وإنما يتكلم بطيئـا جدا». وألم موسى لعدم استطاعتـه إخفاء هذا العجز حتى عن الأطفال.

كان المكـان بكل ما فيه، والليلـة التى قضاها يبشرانـه ببدء حياة جـديدة، وما أكثـر الذين يحلمون بمثل هـذا الأمل حين تشتد بهم الخطـوب، وحين تضطرب حيـاتهم، وتضل خطاهم، وهـو أمل بعيد، فأكثـر الناس يجدون أنفسهم وقـد أخـذ ماضيهم بأقفيتهم يـرغمهم على أن يسيروا سيرتهم الأولى تتعلق بهم أخطاؤهم.

وصحب موسى الرجلين فى اليوم التالى إلى حيث يزرعون، وحاول أن يمسك بالفأس يضرب به الأرض فلم يفلح، ولم يكن يـريد إلا أن يحترم كل ما لم يكن يحترمـه فى شبابه، وعلمـوا منه عـدم قـدرتـه، وعلم منهم جهلهم بـالـرى والـزراعـة، فلم تكن خبرتهم بتـوزيع الميـاه، ولا باستخراجها من باطن الأرض تبلغ شيئا بالمقارنة إلى خبرة المصريين.

ثم تحدثت القصة عن البئر التى لم تنضب أبدا وقـد اجتمع حولها الناس يسقون، ووقفت فتاتان بعيدا عنها، فلم يغضا الطـرف دونه، فساعدهما موسى فسقى لهما ثمَ حمل لهما الماء، وسار معهما يـوصلهما. وتاهت زيفورا وأختهـا الصغرى على نساء القـرية، أن كانتـا موضع عنايته، وقالت زيفورا لأختها إنى سأحمل أبـى على أن يخطبنى له، فاستنكرت أختها منها ذلك

القول، وخجلت زيفورا منه فسقط ثوبها فرفعته وطوته حولها فى حركة رشيقة فيها حياء وإغراء. ورأى موسى فى هذه الحركة جمالا أعجبه وعرف ما يستطيع أن يصوره الثوب من جمال وإغراء حين تحاول المرأة الجميلة أن تستر بها جسمها فلا يزيده إلا فتنة.. ومرت بذهنه حينئذ صورة الجميلات الفاتنات فى ثياب مزركشة فى قصر فرعون، ثم صورة الفتاة الحبشية التى كانت تهواه.

وأقام موسى لأهل مدين سدا يحجز الماء، وعلمهم سر العجلات، والشادوف، وصارت له بينهم مكانة الاحترام، ثم زفت إليه زيفورا فى فرح عم أهل مدين جميعا.

ثم تحدثت القصة عن الأخت الصغرى وقد ذهبت ذات مرة تحدث موسى، وتذكر له أختها: «ونظر إليها فجأة وكأنه على جهله بعواطف النساء فهم أن كلامها له خبىء، وأنها تكتم حبا عنيفا، غلبتها عليه أختها الكبرى، دون أن تكون أهلا لهذا الحب».. «ونظر كل منهما فى عينى الآخر، فكان فى عينيه دهشة واستنكار وإباء، وفى عينيها بريق ساطع يشف عن وَشَلٍ يكاد يذرف دمعا وكأنها تلتهمه التهاما، وهاله ما رأى من شدة رغبتها إليه رغبة تختلف عن الرغبة التى رآها من قبل عند المتبذلات فى قصر فرعون». ولعله لو كان مرهف الحس، ملتهب العاطفة ما استطاع أن يقاوم جمال هذا الحب العارم، ولكنه كان عاقلا حازما شديد الحرص على كل ما يعتقده واجبا خلقيا، فكان أن كاد يعرض عنها، ثم دارت بها الأرض، فارتمت عليه مغشيا عليها ورأت أن الإغماء فرصتها التى تستطيع أن تتمتع فيها بما لا تقدر عليه وهى واعية، وأن العرف والأخلاق تغفر لها ما هى فيه من نشوة آثمة لو صارحت بها الناس لاحتقروها.

واضطربت نفس موسى لهذا الحادث اضطرابا شديدا، حين علم أن فى كل بيئة طاهرة أو عابثة أعماقا للنفس لا قبل لأحد مهما تطهر أن يتغلب عليها إلا ظاهرا، ولم يكن موسى يعرف النساء على كثرة من لقى منهن، ولم يكن بين طبيعته وطبيعتهن تجاوب عاطفى داخلى.

□

وساد الحب والسعادة حياته مع زيفورا، فكان موسى عندها أعقل من عرفت، وأحكمهم، وأخلصهم نفسا، وكانت هى عنده أطيب الناس، وأرقهم قلبا، وأكثرهم ولاء، ولكن خلافا دب بينهما لم يفهم له سببا، فقد أخذت تسأله أن يحدثها عن حياته الصاخبة فى قصر فرعون، وعن مغامراته فيه: «ألم تكن عندكم ألوان شتى من النساء الفاتنات اللاتى أتقن الإغراء حتى ليقع فى حبائلهن أعظم الرجال؟».

وتلتمس القصة لسؤال زيفورا تعليلات شتى، فلعلها كانت تريد أن تشعر بأنه فضلها على الكثيرات، أو لعلها كانت تريد أن تتأكد أنه لم يحبها عن جهل، أو لعلها كانت تريد أن تعرف ما يعجبه وما لا يعجبه.

وكان مصدر الخلاف بينهما أنه كان يعجبه منها ما لا يعجبها من نفسها، ولعلها كانت تود أن يعجب بفتنتها وإغرائها أكثر من إعجابه بطيبة قلبها وإخلاصها له. وكان يود أن تحبه لغير قوته وأمانته. وإذا كان هذا حقا هو الخلاف بينهما فهو دليل على قوة شخصية كل منهما، قوة تأبى أن تلين الآخر مهما قوى الحب.

□

واضح كل الوضوح أن هذه القصة «**ماء مدين**» امتداد للقصة السابقة «**الطريد**» وهذا ما حدا بنا أن نتناولهما معا. ويبدو أنهما فى الحقيقة فصلان من فصول كتبها الدكتور عن قصة موسى عليه وعلى نبينا السلام، وقد بحثنا فلم يصل إلى أيدينا غير هاتين القصتين.

و «**ماء مدين**» تبدو فى بعض تفاصيلها وكأنها تخالف ما ورد فى القرآن فيما يتعلق بموسى بعد أن سقى للأختين، فالقرآن يقول: **﴿فسَقَى لهما ثم تولّى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلتَ إلىّ من خير فقير* فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾** (القصص: ٢٤، ٢٥)، والقصة تقص علينا أن موسى سار معهما ابتداء يحمل لهما الماء.

وفى القصتين ما قد يمس قداسة النبى موسى عليه السلام، وبخاصة فيما يتعلق بالأحلام التى صورتها القصة وما فيها من خروج على السمو، وقد يلتمس للكاتب بعض العذر فى ذلك من حيث إن موسى فى هذه الأحداث لم يصر نبيا بعد.

وتعرض لنا القصة الأولى فكرة فلسفية فى قول الكاتب عن الماء فى الجبل إنه قليل حلو أما ماء الأنهار فى السهول فكثير كدر. ويستطرد من هذه النقطة فيعرض أحوال الناس وينتهى إلى تقرير: «وكأنما الإنسان من الحياة لا يكون إلا على إحدى حالتين.. أما الحياة الكثيرة الصافية فلعله لا سبيل إليها».

وعندمـا يجرى وصف ثلج الشتاء فى الوادى على ألسنة البـدو يصفونه بأنـه شىء يشبه (القطن) بينما عهد مصر بالقطن قريب يرجع إلى عهد محمد على.

□

وليس أدعى إلى تصوير اليأس والخوف فى نفس مـوسى حين كان قاب قوسين أو أدنى من الوادى، من قـول الكاتب فى وصف الطيور الجارحـة: «إن كان فيها من ضل طـريقه فى الهواء فبلغ هذا المكان كما ضل هو طريقه فى الأرض».

والعبرة الحقيقية التى أرادها الكاتب فى «الطريد» هى تلك التى عبر عنها حين قال: «ولم يكن بين آخر يأسـه وأول رجائه إلا خطوة واحدة، وكـان حريا ألا يعـرف ذلك ولو أوتى أكبر العلم. وكثير من النـاس فى أحلك أوقـات حيـاتهم عموا عن هـذه الخطـوة فعـادوا أدراجهم، وهم من النجاح قيد خطوة، وبذلك يظلون يترددون فى اليأس والبـؤس بعد عودتهم»، ثم يصف لنا هذه اللحظات ومواطن الدقة والخطر فيها فيقول:

«وتلك لحظات أدق مـا فيها أن الإنســان لا يعرف حين يشتـد به الخطب أين تقع خطـواته التاليـة؟ أيقدم أم يحجم؟ فقد تكون سبيـل النجاح، والسعادة، وقد تفضى إلى كـرب لا رجعة منه». «**إنها لحظات أمـرها إلى الله سبحانـه وتعالى**». «ولا أحسب أحـدا ولو أوتى حكمـة موسى يـدرك أى الطريقين أهدى إلا أن يهديـه إلى ذلك شىء غريب عنه، ولـو كان ذلك الشىء جرسا صغيرا فى عنق ماعز جبلية».

قلنا فى فقرة سابقة إن الكاتب ربما مس قدسيـة موسىٰ كنبى، ولكننا إتماما للحقيقة نقول إن الكاتب حرص على أن يبرز موسى طاهرا بعيدا عن كل دنس، وقد لا يكون إلى ذلك من سبيل إلا أن يبين الدنس من حـوله، والإغراء يأخـذه من كل جانب وفى كل حين، فـذلك أدعى إلى بيان عظمة الطهر. وليس هذا الـذى نقوله رجما بالغيب أو تأويلا يراد بـه إنصاف رجل نحبه وإنما هذا الذى نقولـه هو تعبير عما حدثنا عنه كامل حسين فى «مـاء مدين» من أن علماء الطبيعيات وجدوا أنـه فى ظروف تجريبية بعينهـا، إذا ابتلت يد إنسان بـالماء فإنه يستطيع أن يقبض على الجمرة المحمرة فلا تحرق يـده بنارها، إذ يكون بين يده وبين الجمرة طبقـة رفيعة من البخار تمنع يده أن يصيبها حر النار، ومن أن موسى كان من هذا الصنف بين الناس.

□

أما لماذا كان موسى من ذلك الصنف الذى هو من النـاس بمثابة الطبقة الرفيعة من البخار بين اليد والجمـرة، فالدكتـور لا يرى أن ذلك كان من آثار حيـاته المضطربـة كما كان يحسب موسى، وإنما كان ذلك طبعا فى موسى لا تستطيع حوادث الحياة أن تغير منه شيئا».

□

وتحدثنا القصة عن الفرق بين نفسيتى موسى وزيفـورا وهو الفرق الذى أتاح للخلاف أن يأتيهما فتقول: «كان موســى رجلا كاملا ليس فيه ذلك القدر الصغير من الأنـوثة الذى يجعله يفهم النساء بقلبه، لا بعقله وحده، وكانت زيفورا امرأة كاملة ليس فيها ذلك القدر الصغير من الرجولة الذى يجعلهـا تفهم الرجال بعقلها لا بعواطفها وحدها». وفهم الـرجال للنساء بالعقل وحده، وفهم النساء للرجـال بالعواطف وحدها محال. «ولم يفهم موسى شيئـا مما تصبو إليه نفس زيفورا وهى أعز النـاس عليه، ولم تفهم هى ما يؤلمه من حديثها وهى أعـز الناس عليه»، ولاشك فى أن حديث كامل حسين عن هذا الفارق حديث نفسانى خبير.

ولاشك فى أن فى هذه القصة تأثرا ما برحلة الـدكتور كامل حسين التى قام بها فى شبابه فى صحراء سيناء عندما ذهب يزور دير سانت كاترين، ولعلنا حين نذكر ذلك نكون قد أعطينا ما يفسر تلك القدرة غير الواعية للقصة الأولى «الطريد» على تصوير رحلة الصحراء.

وقد أزعم أن قصة مـاء مدين ليست تعبيرا عن موسى بقدر مـا هى تعبير عن كامل حسين نفسه الذى لم «تكن له طفولة ولا شباب، وقد أسرف على نفسه بهذا الإباء والترفع لغير ما غاية يراهـا»: وهو يقـرر «أن الارتفاع عن العـواطف الإنسانيـة قد يكـون محمودا فى عهـد الحكمة والوقار، ولكنه حين يكون فى الشباب قد يحرمهم كثيرا من مقومات الحياة الطيبة». أما موسى فقد أعده الله ليكون نبيا ورسولا، وأما كامل حسين فقد أعده الله ليكون كامل حسين.

□□ أقدم رسالة علمية

فى الجزء الأول من «متنوعـات» نشر الدكتور كامـل حسين أقدم رسالة علميـة فى التاريخ، وهى برديـة أدوين سميث بعد أن تـرجمها إلى العربيـة، وقدم لها بقصـة قصيرة وصف فيها فلاحـا مصريا لم يتجـاوز العشرين من عمـره عاش منذ نيـف وخمسة آلاف عـام حينما كان فـرعون يبنى أهـرام الجيزة ويعمل فى بنـائهـا آلاف من العمال. وكان كثير من هـؤلاء العمال يخرون كل يوم بين صريع وجريح، وعهد إلى هذا الفلاح أن يعنى بأمرهم فكان يدرس كل حالة يراها دراسة علمية، بينما كان رجال الدين يعالجونهم بالتعاويذ، والرقى وما إلى ذلك مما عهده الناس منهم. أما العوام فكان يرون أن الجن لبستهم.

وتصور لنا القصة كيف أتى هذا الفلاح مع جماعته، وكيف كانوا يقضون أيامهم فى العمل فى بناء الأهرام، وكـان هذا الفلاح يضع يده على المخ يختبره: أيتحـرك أم لا يتحرك؟ أفيه أمل أم ليس فيه أمل؟ وكان يعالج كل حالة بما ينـاسبها، وتهيأ له من طول الممارسة فراسة لا تخيب، وأصبح ماهرا فى عـلاج الحالات مدركا خطورتها، ونتائجهـا، فلم يكن يصعب عليه أن يقرر أن هذا قابل للشفاء، وأن هذا سائر إلى الفناء.

ثم إن هذا الفـلاح أملى خبرته فى هذه الـرسالة، ولعـب التاريخ بهذه الرسـالة زمنا طـويلا يخفيها، ويبـديها، حتى عثرت جمعية أمـريكية للآثـار على نسخة ناقصـة من هذه الرسـالة، وضعت فى قبر قديم، ولعل الذين وضعوها حسبوهـا تعويذة أو «كتاب الموت» وترجمها أدوين سميث إلى الإنجليزيـة، ورأى فيها الـدكتور كـامل حسين مثالا للطـريقة العلميـة السليمة فى العلاج، فترجمها إلى العربية، ونشرها فى كتابه وقدم لها بهذه القصة.

وعلى كل الأحوال فان قصة «الرسالة» أو قصـة «الفلاح الطبيب» حكاية شائقة، أو قل إنها حكايـة علمية تحكى طـورا من أطوار تاريخ الطب نستطيع أن نضيفهـا إلى تراث الـدكتور فى المجال القصصى، وليس من سبيل إلى تقصى النواحى الفنية فيها فى هذه العجالة إنما أنا حفىّ بالاشارة إلى رءوس الموضوعات فحسب.

الفصل الثالث

«قوة التعبير» : نظرية فى النقد الأدبى

فى الفصل الذى كتبه الدكتور عن «القرآن» وقدمه لأستاذ الفلسفة بالجامعة الفرنسية بناء على طلبه، والذى نشره فى الجزء الأول من «متنوعات»، وفى الفصل الذى عنوانه «إعجاز القرآن» فى كتاب «الذكر الحكيم»، قال الدكتور كامل حسين مقدمًا: «وسأقدم إلى القارىء نظرية لى فى النقد الأدبى»، وها هو ذا ملخص هذه النظرية:

(١) فى الأدب العالمى أعمال خالدة لا تخلق جدتها وإن قل الملمون بها، وأعمال ذائعة يتحدث بها الناس جميعا ثم ينسونها بعد وقت قد لا يكون طويلا.

والصفة الغالبة على الأعمال الخالدة هى قوة التعبير، أما ما يكفل الذيوع فهو فى أغلب الحالات جمال الأسلوب.

(٢) ولم يكتب البقاء والذيوع معا إلا لعدد قليل جدا من الكتب، ويكاد ذلك يكون مقصورا على الكتب الدينية وحدها.

(٣) قوة التعبير هذه التى تغلب على الأعمال الخالدة صفة عميقة غامضة، وهى لا تتعلق بالموضوع، ولا بسموه، ولا ببساطته، ولا بالفكرة، وعمقها، ولا بقوة المنطق، وقد لا يكون لها حظ كبير من البلاغة كما يعرفها الناس. وهى قوة كامنة فى العمل الأدبى أو الفنى تحتاج إلى إيضاح خاص يجب علينا أن نتدبره لنفهم سر الخلود فى الأعمال الأدبية، ولعل الكاتب نفسه لا يعلم عنها شيئا حين يكتب بل لعلها من الأمور التى تخرج عن حد الوعى.

(٤) ولكن جمال الأسلوب مرجعه إلى الذوق العام، وهو يختلف طوعا للعصر، وتاريخ الأدب أكثره تاريخ هذه الأساليب وما يعتريها من تقلبات الأذواق.

(٥) **وقوة التعبير مرجعها إلى الصدق**: صدق الإيمان أو العاطفة أو الرأى صدقا عميقا خالصا، ثم يكون الإلحاح الداخلى الذى يحمس فيهم عواطف مماثلة لما كان فى صدر المؤلف بادىء ذى بدء، كما تحرك المؤلف على التعبير الصادق القوى بحيث ينتقل أثره إلى المتذوقين فيثير النغمة الصادرة من وترهما كل وتر يساويه طولا وقوة، ولعل فى هذه الصفة شبها بما يقال عن المعانى الباطنة للعبارات الصوفية وأثرها فى بعض الناس، بيد أن معانى الصوفيين لا يدركها إلا صوفى مثلهم.

(٦) **وليس أدل على قوة التعبير من قول المسلمين «الله أكبر»**، فهذه عبارة تركيبها بسيط إلى أقصى حد، ومعناها لا يزيد فى الواقع على قولنا «الله عظيم»، ومع ذلك فلا نزاع فى أن العبارة الأخيرة لم تكن ليكتب لها الخلود الذى حظيت به العبارة الأولى، ولو ترجمت هذه العبارة إلى لغة أخرى لضاع أكثر روائها، فهى بذلك عربية صحيحة. وقوتها ترجع إلى أنها تعبر تعبيرا صادقا عن شىء فى أعماق النفس العربية، وهى تستمد هذه القوة لا من ألفاظها أو تركيبها أو معناها وإنما تستمدها من صفة كامنة فيها هى قوة التعبير، فهى تثير فينا الشعور بالنظرة الشاملة، والأفق الواسع، والبصر الممتد إلى غايته. ونحن لا نشعر بالحاجة إلى تحديد المفضول فى هذه العبارة، ومن السهل تحديده فنقول أكبر من كل شىء، ولكن هذا التحديد يفقد العبارة أكثر قوتها، فهو ينقص من شمولها، ويضيق من أفقها وإن لم يغير من معناها شيئا. وأهل الصحراء يتميزون بالنظرة الشاملة أكثر مما يتميزون بالنظرة الفاحصة المدققة، وهم يشعرون بأن ما وراء الأفق لا يختلف كثيرا عما دونه، والمفاجآت فى بيئتهم قليلة فإذا كان هناك شىء أكبر من كل ما يبصرونه فأغلب الظن أنه كذلك أكبر من كل ما لا يرون.

وقد نشأت الأمة العربية فى الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف فتأثرت فى عهودها الأولى بهذه البيئة الخاصة، وهى بيئة قوية الأثر فى أهلها، والمدنية العربية تطبعت فى أكثر نواحيها بهذه البيئة. وأثر الصحراء فى صفات العرب النفسية والخلقية والعقلية والفنية واضح جدا (على الأقل فى العصور التى سبقت الإسلام). وسنقصر قولنا هنا على أن العبارات الشاملة والنظرة العامة وإغفال التفصيل الدقيق من خواص أهل الصحراء، وعبارة «الله أكبر» تدل على هذا كله على خير وجه. ويؤكد ذلك أن كل زيادة فى هذه العبارة تفقدها قوتها، وإن ظن غير العربى أن الزيادة تجعلها أوضح وأدق. وهى كذلك تعبير صادق جدا عن الروح الإسلامية فى أعمق نواحيها، ذلك أن جوهر العقيدة عندنا هو تنزيه الله عن كل ما يشبه المخلوقات تنزيها كاملا. وغيرنا قرب الله من الإنسان على نحو يختلف باختلاف العقائد، أما الإسلام فإنه يرى الارتفاع بالتنزيه عن كل تحديد، وهو ما تعبر عنه عبارة «الله أكبر» أصدق تعبير.

ولا أحسب أن البلاد التى تكثر فيها الجبــال يستطيع أهلها أن يخلقوا مثل هذا التعبير، فهم لا يستمتعون بالنظرة الشاملــة التى هى من طبع أهل الصحراء، وهم يعلمون أن وراء كل قمة قمة أخرى لا يرونها قد تكون أعلى، أو أكثــر وعورة، أو أمنع على عابريها، أو أصعب ارتقاء أو أخطر منــزلا. لم يكن لغير العربى المسلــم أن يخلق تعبيرا كهذا، وقد لا يستسيغــه كثيرون من غير العرب لبعــد ما بينه وبين طبعهم، ولكن العــربى المسلم يرى فيه أصــدق تعبير وأقواه عن أعماق نفسه، وليس غريبا أن يكتب له الخلود، وأن يردده كل مسلم أبد الآبدين.

(٧) **بساطة الفكرة، ووضــوح المعنى، وسهولة العبارة:** صفات ملازمــة لقوة التعبير وهى أقوى أثرا من العبارات المنمقة، أو الأسلوب البــارع، أو الفكرة العميقة، وهذا يدلنا على أن قوة التعبير تختلف اختلافا تاما عن جمال الأسلوب، ويكفينا هنا أن نقول إن قوة التعبير شىء أعمق من الوعى، وإن الكاتب أو الشاعر أو المصور أو المثال أو الموسيقى لا يستطيع أن يتوخى ما يدل على هذه القوة، بل هى تجىء حين تجىء عفوا، ولعلها أن تكون أقوى ما تكون فى الذين لم تفسدهم الصنعة، والمرانة، والتهذيب، والدقة، ثم هى تتعلق بذاتها أكثر مما تتعلق بالمؤلف. على حين أن الأسلوب يتعلق أولا بشخصية المؤلف وبما فيه من علم وثقافة وذكاء وذوق، وكلها تؤثر فى الأسلوب ولكنها أقرب منالا من قوة التعبير.

(٨) **وقوة التعبير تبلغ غايتها فى أول العهد بتاريخ كل فن.** أما الأسلوب فيكون فى ذلك العهد بسيطــا متعثرا تنقصه المرونــة والخبرة، والأسلوب يتحسن كلما ازدادت مــرانة المؤلف، وخير الأمثلة على ذلك فن التصوير وبخاصة التصوير الإيطالى فى عهد النهضة، فقد كان هذا فى أول أمره بدائيا فيه أخطاء واضحة، ولكنه مع ذلك كان بالغ القوة فى تعبيره عن روح المصورين وإيمانهم وإخلاصهم. حتى إذا تقدم الزمن بالمصورين أصبح التصوير الإيطالى أجمل وأكمل وأكثر تهذيبا، على أن ذلك لم يــزد فى قوته التعبيرية، ولعلهــا ضعفت فى العصور المتأخرة حين بلغ هذا الفن أوجه، وقد تعجب بما فيه من إتقــان بالغ وجمال رائع، وهو مع ذلك أقل أثرا فينا من الصور البدائية.

(٩) **وقد يكون المعبر عنه أعماق نفس المؤلف** وهو لا يدرى أنه يــدلنا عليها، وخير مثل على ذلك لزوم ما لا يلزم عند المعرى.

(١٠) **وليس من الضرورى أن يكون التعبير أدبا أو شعرا.** من ذلك ما عبر به المصريون القدماء عن أعمق معتقداتهم ببناء الأهرام والهياكل الضخمة، يدلون بذلك على إيمانهم بالأبدية وخوفهم مــن الفناء. كما عبروا عن ذلك بقصة «أوزوريــس وإيزيس» وهى صــورة أخرى من الأبدية المتجددة الحية.

(١١) وقد يكون المعبر عنه خلق جماعة من النــاس تطبعت نفوسهم من أثر حوادث تجمع

بين الحقيقة التاريخية، والخيال الشعرى فيكون هذا التعبير أصدق من المعلومات الكثيرة، والدرس العميق، والبحث المستقصى لهذه الجماعة. **كما نراه فى قصة خروج بنى إسرائيل من مصر.**

(١٢) والأدب العالى فى أمة ما يوحى بقوة التعبير فى ناحية من نواحى حياتها، وقد لا تكون قوة التعبير ممثلة فى أدب أو شعر. فقد عبر المصريون عن إيمانهم بالأبدية وتقديسهم لها على هيئتين: هيئة **ثابتة** تمثلها الأهرامات التى لا يجوز عليها البلى، وهيئة **متجددة** تمثلها قصة أوزوريس وإيزيس، وعبر الإغريق عن أعمق صفاتهم البارعة بالرياضيات، وهى مفتاح عبقريتهم فى العلم والفلسفة والفنون، بل لعل التراجيديا اليونانية أن تكون فى عموم نظامها معادلة إذا عرفت أجزاؤها الثلاثة كانت النتيجة حتمية لا مفر منها. أما الرومان فكانت قوة تعبيرهم عن نفسهم تتمثل فى القانون والإدارة. وأما العرب فقد كانت لغتهم أقوى تعبيرا عن أعماق نفوسهم، وفى هذا شرح لما نراه عند العرب من شغف بلغتهم وبحثهم فى أسرارها، فهى تكاد تكون الفن الوحيد الذى مارسوه بمهارة وإتقان. وهذا تفسير قول الأولين أن العرب أفصح الناس وأبلغهم، ولا يمكن تفسير ذلك إلا على النحو الذى بيناه.

(١٣) ويطول بنا القول إذا أردنا أن نستقصى ما فى اللغة العربية من دلالة على أعماق النفس العربية. ولنأخذ لذلك مثلا شعرهم: فالقصيدة العربية تمثل حياة الصحراء فى صرامة أوزانها، ووحدة قافيتها، وتمسك الشعراء بنظام واحد، كل ذلك من أثر الحياة البدوية القاسية المتشابهة. والتى يتحكم فيها العرف أكثر مما يتحكم القانون فى أهل الحضر.

(١٤) «ولست فى حاجة إلى أن أذكر من يرتادون الصحارى ويحبونها أن أهلها لا يشعرون بالسأم من تشابه مناظرها، وهم يختلفون فى ذلك اختلافا بينا عن أهل الحضر، والصحراء أقرب إلى قلوب أهلها وأحب إليهم من الحضر إلى قلوب أهله. لأن هؤلاء ملولون يطلبون التغيير، دائما يشتاقون إلى الجديد من اللذات يلتمسونها على أى وجه، أما أهل البداوة الذين تأثروا بحياة الصحراء فلا يملون تكرار معالمها وتشابهها، لأن ذلك من طبيعة الصحراء، وعنصر من عناصر جمالها».

(١٥) «والعربى يستعذب السجع، أى أن يكون النثر مقطعا قطعا تطول أو تقصر وتنتهى كل قطعتين أو أكثر بقافية واحدة، وهذا كثير جدا فى الأدب العربى. وجمال السجع عند العرب شىء يسهل فهمه إذا تذكرنا طبيعة الصحراء. والذى يحاول السفر الطويل فى الصحراء يجد نفسه مضطرا إلى تقطيع الطريق أمامه قطعا تختلف طولا وقصرا تنتهى بمعالم بينة. ولا أقول

إن هذه العملية تتم وهو عالم بها، إنما هى عملية غير واعية. وعندى أن هذا أصل تقطيع الكلام قطعا تنتهى بمعالم متشابهة وهو السجع. **على هذا التفسير يكون السجع تعبيرا عجيبا عن طبيعة أهل الصحراء وأثرها فى أدبهم.**

(١٦) ومن العجيب أن يستمر الإعجاب بالسجع إلى ما بعد تحضر العرب وارتيادهم الأمصار. وقد ظن أهل المدن والحضريون أن السجع جميل لذاته. فأخذوا يكثرون منه فوقعوا فى أقبح الأساليب لأن السجع صار عندهم آليا لا يعبر عن شىء، والمحدثون حين يسجعون يحاولون الجمع بين نقيضين: بين روح الصحراء وهى أصل السجع، وبين التنظيم الدقيق الذى يمثل روح الحضر. ومن الطبيعى أن نرى الكتّاب المحدثين عدلوا عنه تماما.

□

يبدو لى أن نظرية قوة التعبير نظرية رشيقة ولكنها ليست من تلك النظريات التى تقاس بها جودة العمل الأدبى، وإنما هى نظرية تعطى تفسيرا للخلود والذيوع فى الأعمال الأدبية.

وفى ثنايا هذه النظرية نجد آراء نقدية لأديبنا الكبير، فهو يحدثنا عن السجع كتعبير عجيب عن طبيعة أهل الصحراء واستمراره إلى ما بعد تحضر العرب وارتيادهم الأمصار، وعن وقوع العرب فى أقبح أساليب السجع والعلة فى ذلك، وهو يجعل أصل السجع روح الصحراء، ويعلل العدول التام للمحدثين عنه. وهو يحدثنا عن عهود ازدهار قوة التعبير والأسلوب وضعفهما حديثا تجد فيه صدى لحديثه فى كتابه «التحليل البيولوجى للتاريخ».

والنظرية تحدد العلاقة والارتباط بين قوة التعبير والأسلوب، وتحدثنا عن المعبر والمعبر عنه، وتضرب المثل وتسهب فى توضيح مرادها منه.. و... و.. مما يسوغ قولنا بأنها نظرية متكاملة.

وهي إلى ذلك كله مرتبة ترتيبا منطقيا يكفل الاقتناع بها، وإنى لواثق من أن الاقتناع بها يبدأ مع مقدمتها!

وعندى أن أعظم ما فى النظرية هو ذلك الوضوح الذى لم يكلفك أن تقرأ للمؤلف الذى هو أنا كثيرا من التعقيب عليها، وهو ذلك الاتساق والتواتر الذى أبان عن نفسه فى فقرات هذا الفصل.

الفصل الرابع

السبيل إلى العظمة الأدبية

هذه بعض الآراء القيمة تصدر عن خبرة وحنكة، رأى الدكتور كامل حسين أن يسديها إلى شباب الكتاب، وقد ضمنها كلمته التى ألقاها فى الاحتفال بمنحه جائزة الدولة للأدب فى الثانى عشر من ديسمبر سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف (١٩٥٧)، والكلمة مثبتة فى الجزء الثانى من كتابه «متنوعات»، كذلك فقد ضمن كلمته فى حفل استقباله عضوًا فى مجمع اللغة العربية نصائح مشابهة، وفيما يلى تلخيص سريع لأفكاره فى هذا الصدد.

(١) على شباب الكتاب ألا يحاولوا عملا ضخما تتحدث به الأوائل والأواخر، فإنهم لا يدرون أين يكتب لهم النجاح أو الخلود. «ولهم فى ما حدث لأرازموس عبرة، كان من أكبر مفكرى النهضة، ودرس كثيرا وألف وحقق وبذل جهدا بالغا حتى لم يعد له ضريب فى عصره. ثم عرض له أن يسافر من روما إلى إنجلترا وكان ذلك يستغرق من الأسابيع ما يستغرقه اليوم من الساعات، ورأى أن يسرى عن نفسه هموم حياته، وكانت كثيرة وكان منها الفقر، فكتب فى رحلته هذه كتابا فى مدح الجنون، وكان يعد كتابه هذا عملا هينا صغيرا، وكان يراه أقل أعماله قدرا، وهو لا يعرف اليوم إلا به ولا يُقرأ من مؤلفاته شىء غيره». ثم يعلل لهم سر هذه النصيحة فيقول: «**والذى يرمى إلى شىء عظيم عمدا يكبل نفسه بقيود من التقرب إلى الذوق العام تحد من تحليقه**».

(٢) ويحذرهم من أن يرغموا أنفسهم على ما ليس من طبعهم.

□ فلا يحتذوا لونا من ألوان الأدب غرهم نجاحه.

□ ولا يقلدوا كاتبا أعجبهم.

□ ولا تغرهم حداثة مذاهب فيسيروا مع الزمن يتعلقون بما هو جديد لجدته.

□

(٣) والسبل إلى التفوق كثيرة، وخير دليل على ذلك أن «الكتابين اللذين» يكرمان اليوم يختلفان اختلاف القطبين، وكلاهما مع ذلك يستحق التقدير على حد قول الخبراء (الكتابان هما قرية ظالمة، وقصر الشوق لنجيب محفوظ).

(٤) ومع أن الكاتب العربى فى عصرنا هذا حائر بين عوامل كثيرة متضاربة، فهو كحيرته بين القديم والحديث، وبين الفصحى والعامية، وبين الأدب الواقعى والرمزى والوجودى والمكشوف، مع كل ذلك فهو لا يرى فى ذلك قيدا، فصاحب الأدب الإنشائى يستطيع أن يغفل ذلك كله أو أن يغفل منه ما لا يصادف هوى فى نفسه، ومذاهب الكتابة آخر ما يستطاع نقله من بلد إلى بلد نقلا مباشرا.

□

(٥) وليس على الكاتب إلا أن يعنى بأمرين اثنين هما الموضوع والأسلوب. فأما **الموضوع** فيجب أن يستمده من حياته وخبرته، وعليه ألا يصف شخصيات من نسيج خياله وحده، لا أصل لها فيما يعلم، وعليه ألا يصف وقائع لم يشهد لها شبيها فى تجاربه فى الحياة.

(٦) **والعواطف** لا تتفاضل فى الأدب تفاضلها الخلقى أو بضخامتها وعظم أثرها، وإنما **تتفاضل بصدق مقدماتها ونتائجها.**

(٧) **والشخصيات** لا تتفاضل فى الأدب بما تمثله من فضائل سامية أو خلق رفيع، وإنما **تتفاضل بتماسك أجزائها، وصدق وصفها.**

(٨) **والأسلوب** عنده «**عقدة العقد**»، وهو شقان:

□ شق يرجع إلى طبيعة الكاتب وشخصيته.

□ وشق يرجع إلى مواءمة الموضوع.

«ثم هو صورة من صـور النفس، فالكاتب العنيف يخفق إن أراد أن يكون أسلـوبه هادئا، والتفكير العميق لا يحسن أن يكون أسلوب أدائه رشيقا رقيقا».

«وخير وسيلة يكون بها الأسلوب مهذبا أن يروض الكاتب نفسه على أن يكون مهذبا، ومن العبث إذا كان الكاتب جبانا أن يحاول أسلوب الشجاعة والقوة».

□

(٩) وفيما يتعلق بمواءمـة الأسلوب للموضوع، فقـد يكون أوفق للفكرة الرائعـة أن يكون أسلوبها متواضعا حتى لا يطغى على جمال الفكرة فيذهب بروائها، ويحسن بالكتّاب أن يعرفوا رأى المصورين فى مثل هذه المعضلات.

(١٠) وليحذر الكتاب **التهاون** فيما يكتبون، «فالمواهب وحدها لا تكفى». وعند الإنتاج يتبين للكاتب كثير مما ينقصـه، وقد يكون ما ينقصـه على قلته مما يحول دون بلوغـه الغايات التى يريدها.

(١١) ثم ينصحهم بإتقان **اللغة** التى يكتبون بها، فصحى كـانت أو عامية، «والعـامية فى حاجة إلى الإتقان حاجة الفصحى إن أريد لها أن تعبر تعبيرا وافيا عن أمر يتعلق بمن يتحدثون بها».

(١٢) «وعلى الكاتب ألا يكتب حتى **تسيطر عليه فكرة غالبة**، وحتى يحس أنه لن يهدأ له بال حتى يخرجها للنـاس. وجماع القول فى هـذا الباب أن يكون الكـاتب صادق الشعـور، صادق التفكير، صادق التعبير».

□

وقد حرص الدكتور كامل حسين على أن يضمن كلمتـه التى ألقاها فى حفل استقباله عضوا فى مجمع اللغة العـربية بعض النصـائح إلى الشباب حين يتحـدث عن الحياة الفكـرية فى مصر الحديثة، فكان مما قاله: «وإنى أدعو شبابنا إلى أن يروضوا أنفسـهم على شىء واحد فى حياتهم الفكرية وهو الصدق، وليكن همهم أن تكون حياتهم صادقة، وتعبيرهم عنها صادقا. والصدق

كل شيء فى الحياة الفكرية، وإنى لأدعوهم فى سبيل ذلك إلى قتل الفصاحة فهى شكل محض، وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير، وقد أصبح جمالها أجوف لا يحمل أى معنى من معانى الصدق، وعليهم أن يتركوا وراءهم ظهريا كل ما تعودوا أن يعدوه مثلا عليا للأدب، وألا يسعوا إلى بلوغ العظمة أو الخلود. بل إن الجمال نفسه يجب ألا يكون غايتهم فإن له معايير كثيرة تختلف بعدا وقربا وزمانا ومكانا ويضل به من يعتمد عليه وحده، أما الصدق فلا يضل به أحد وكل ما يفسده يقضى على حياة الفكر المختص».

□

□□ رأيه فى المدارس الأدبية :

كان الدكتور كامل حسين يضيق بما يسميه النقاد والأدباء بالمدارس الأدبية. ومما رواه الأستاذ محمد فهمى عبداللطيف عنه فى هذا الشأن قوله:

«إن المدرسية جمود وفجاجة، وكأنى بأساتذة الجامعات يريدون أن يضمنوا وجودهم بهذه المدرسية التى يفرضونها على الأدب والفن. وإنى لأعجب لأولئك النقاد الذين يعيبون أديبا أو فنانا لأنه التزم بقواعد المدرسة الفلانية وصار فى أسلوبه وتفكيره على أسلوب المدرسة الفلانية.. فلماذا لا ننظر إلى الأديب أو الفنان على أنه مدرسة جديدة قائمة بنفسها؟ وهذا هو منطق الابتكار والتجديد».

الفصل الخامس

الشعر العربى بين الطبع والاحتراف
وكيف نعرض شعر الاحتراف على المثقفين والمحدثين؟:

كان الدكتور كامل يرى أن الجهل بالشعـر القومى ينقص من قدر ثقافة المتعلمين، ويذهب بكثير من واقعها، وهذا عيب كبير قـد لا يدركه جمهور المتعلمين، ولكن الجهل بـالشعر القومى يؤثر تأثيرا سيئا فى التكوين الكامل لشخصية الـذين يحرصون على أن تكون لهم ثقافة عالية. «ومن الخطـر على الأمة أن يجهل المثقفـون فيها شعـر أمتهم، وشر من ذلك ألا يعبئوا بـه وأن يسخروا منـه، وهذا ما نعلمـه عن كثير منهم، وليس لنا أن نسكت على هذه الحال لأن ثقـافتنا حينذاك تكون مبنية على الرمل، أو مستعارة لا جذور لها فى نفوسنا».

ولعل كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر»، الـذى ألفه الدكتور لم يكن إلا وسيلة ارتآها هو لأداء هذه المهمة: وسنعرض أولا لمذهب الـدكتور كامل حسين فى التفريق بين شعرى الطبع والاحتراف، ثم نذكر المنهج الذى يراه لعرض شعر الاحتراف على المثقفين المحدثين.

□

يقرر الدكتور كامل حسين فى مقدمة كتابه «الشعر العربى والذوق المعاصر» أنه لم يستقم لـه فهم الشعـر إلا حين قـدر أنه على ضربين: شعـر الطبع وشعـر الاحتراف. وهما يختلفـان اختلافا شـديدا فى الروح والموضوع والأسلـوب والأغراض، ولا يجمعهما إلا أن كليهما منظوم على نحو واحد.

وليس ضروريا فى شعر الاحتراف أن يكون للكسب، وإن كان أكثره كذلك، إنما هو فى تعريفه: «**الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن أشياء لا تمس أعماق نفسه، ولا تصدر عن عواطفه**»، ويعنى فيه بالدقة والمهارة التى أعجبت النقاد، وهو محلى موقوت. ومنه الجيد وما دون ذلك، وأعذبه أكذبه، وجماله يرجع إلى الصياغة، والعبرة فيه بذوق الممدوح، وصاحبه يعنى بالمحسنات اللفظية أو المعنوية التى يرجى لها الذيوع.

□

أما شعر الطبع فهو ذلك الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر عن إحساسه وعاطفته، وشعوره وأثر الحياة فيه، «ودافعه صدق العاطفة وحسن الأداء، ومن ثم يتأثر القارىء بالعواطف كما تأثر بها الشاعر، وأعذبه أصدقه، وأجوده خال من المحسنات اللفظية أو المعنوية، وأسلوبه مستقيم واضح فيه جد وصرامة وعواطف إنسانية صادقة». ويذكر الدكتور أنه لا يعنى بشعر الطبع قولهم «الشعر المطبوع الذى يغرف فيه الشاعر من بحر على أن غيره ينحت من صخر»، فهذا كلام عام لا يغنى فى إقبال الناس على الشعر القديم والإعجاب به.

والعصر الحاضر يأبى شعر الاحتراف، ويفضل شعر الطبع، وعلينا أن نقدم إلى المتعلمين المعاصرين ما فى الأدب العربى من شعر له قيمته الإنسانية العامة، وأن ندع للمتخصصين شعر الاحتراف، لهم، ولمن يستهويهم هذا النوع من الجمال.

ويستعرض الدكتور معلقة امرئ القيس فيشرح أجزاء كثيرة منها شرحا لا يعنى فيه باللغة عناية أولئك الذين يدرسون الأدب على أنه وسيلة لتعلم اللغة، وإنما شرح الذين يرون أن اللغة يجب أن تكون وسيلة لدراسة الأدب، فيبين عن مواطن الجمال الشعرى وعن علاقة البيت ببيئته. ويمضى على هذا النحو مبرهنا على أن شعر امرئ القيس فى المعلقة وفى هذه القصيدة بالذات، لم يكن شعر احتراف «على الأقل فى الأجزاء التى ذكرناها، أما ما بقى بعد ذلك منها فهو فى الغالب من عمل اللغويين المغرمين بالغريب، وهو ما يتفق مع عقلية شعراء الاحتراف».

ويقول عن **العصر الأموى** إنه عصر **ازدهر فيه شعر الاحتراف**. ويحدثنا عن عمر بن أبى ربيعة وهو عنده شاعر طبع، وقد أفردنا لرأيه فيه الفصل السادس من هذا الباب، ثم يعرض نماذج من شعر الطبع فى ديوان الحماسة.

ويرى أديبنا أن أكثر شعـر امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة يدلنـا على شخصية متكاملة متميزة لكليهما «على أنْ تخلص أشعارهما من أكوام القش التـى أحاطت بها من أثر البيئة التى عاشا فيها».

«وكل ما يعنى متذوقى الأدب المحدثين هو هذه الشخصية التى تكون للشاعر، سواء كانت هذه الصـورة من نسيج الخيال أو وقعت فعـلا، فالـذى يعنينا هـو أن تكون الصـورة جميلة صادقة بالحياة».

وهكذا أراح الدكتور كامل حسين نفسه، وأراحنا معه من هذا الجدل الذى ساد سوق النقد فى عصرنا هذا من الشك فى نسبة القول إلى قـائله. ولاشك فى أن هذه المباحث التى تتعلق بنسبة القول إلى صاحبه مباحث طريفة، وهى على كل حال نوع من البحث إن لم يكن منه غاية فكفانا أن نمارسه لذاتـه، ولكن أن تطغى مثل هذه البحوث على موضوع النقـد فتصبح سداه ولحمته فهذا هو ما ينتقد، وهو ما أراحنا منه الدكتور كامل، ولا أظنه أراح نفسه منه إلا بالبحث.

☐

وشعر الطبع فى الأدب العربى له صفات خاصة :

☐ «فهو فى الأغلب **مقطوعات صغيرة**، لأن القصائد الطوال تجر الشاعر إلى شكل القصيدة، وهذا أبعد ما يكون عن الطبع».

☐ ومن خصائصه أنه **خال تماما من ألـوان البلاغة المفتعلة** التى حرص عليهـا شعراء الاحتراف، فمن خير شعر الطبع فى شعر شوقى قوله:

نظرة فابتسامة فسلام　　　فكـــلام فموعد فلقـاء

خدعوها بقولهم حسناء　　　والغوانى يغرهن الثناء

أما قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم　　　أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

فإن «شـوقى» وضـع فيه «القـاع» و «الريم» و «البـان» جنبا إلى جنب ، وهى كلمات يكثـر ورودها فى الشعر، دون أن يقـدر أن هذا الشطر لا يعطينا صورة واضحـة عن الريم أو القاع، وهذه من أظهر صفات شعر الاحتراف.

□

وفى شعر الاحتراف طغت اللغة على الشعر والأدب، حتى أصبح العلم بها غاية ترجى لذاتها، ولا يـروق هـذا للمتأدبين المحـدثين، ولا يـروى عطشـهم إلى السمـو بإحسـاسـهم، ولا يشبع رغباتهم فى الخيال الجميل، ولا يحل المشكلات النفسيـة والخلقية التى تعترض حياتهم. وهكذا فإن شعر الاحتراف لا يصلح للمحدثين ولابد لهم حتى يفهموه أن يدركوا الحقائق الآتية:

□ أن وظيقة الشعر العربى لم تكن تختلف عن الزجل يكـون فى عصرنا هذا فى ندوات لبنان من حيث كونه وسيلة فى تلك الندوات التى يراد بها السمر والشراب والفخر والمديح.

□ أن موضوعات هذا الشعر انحصرت فى الكرم والشجاعة.

□ أن جودة الشعر لم تكن لتغنى الممدوحين إلا من حيث هى وسيلة لذيوع فضائلهم، ومن هنا كان الإعجاب بالشعر المشهور.

□ ولأن الموضوعات كانت محدودة فإن صـور التعبير عنها مهما اختلفت لم تكن تؤدى إلا إلى شعر مبتذل مسئوم.

□ وقد كـان من نتيجة ذلك أن حـافظت القصيدة العربيـة على شكلها قرونـا طويلـة تبدأ بالمألـوف من القول كالبكاء على الأطـلال والتشبيب بالنساء.. إلخ، وسمـوا ذلك عمود شعر، وكانوا يـرون أن ما عدا ذلك لم يكن خليقا أن يعد شعرا. ولم يكـن لذكر الأطلال معنى بعد أن ذاع الشعـر بين أهل الحضر، إلا أن التمسك بشكل القصيدة العربيـة كان أثرا من آثار العرف عند أهل البادية، وللعرف عندهم سلطان يفوق سلطان القانون عند أهل الحضر.

□ ثم أصابت هذا الشعـر نكبة علوم البلاغة وتعقيـد أساليب الجمل.. إلخ، كأنهم يرون فى الحسن صفة خاصة يضعون لها مصطلحا بـلاغيا، ثم يريدون من المتأدبين أن يكون فى أدبهم ما يدل عليه هذا المصطلح.

ويرى الدكتور ألا نعـرض على المحدثين شعر الهجاء، وأكثره أشبه بكـلام العامة وإن نظم على هيئة الشعـر، وأن نترك قبل كل شـيء للناس استحسان مـا يستحسنونه، واستهجـان ما يستهجنونه، ولو كان ما يستهجنونه من شعر الفحول!

□

وفى الحقيقة أن آراء الدكتـور كامل حسـين فى هذا الموضوع جديرة بـالتأمل بل وبالاعتناق، وسوف تكسب «التربية العربية» بعدًا عظيمًا إذا هى التفتت إلى الإفادة من آراء الدكتور كامل فى هذه النـاحية المهمة جـدًا فى تنشئة وتربيـة الأذواق والملكات وفى تأصيل الانتماء والحب لتراث هذه الأمة، ولـو نهجنا منهج كامل حسين فى هذه الـدراسة لاستطعنا أن نعيد اكتشـاف تراثنا الشعرى وتقـديمه ليلعب دوره الأمثل فى صياغة الـوجدان والعقل العربى المعـاصر من خلال برامج التربية والتعليم، وقد كنت أود لو أن كامل حسين قد توسع فى دراساته فى هذا الشأن أو أنه كلف نفسه أن يقدم مختارات كامل حسين على سبيل المثال مشروحة ومفسرة.

الفصل الخامس

الموسيقى فى الشعر العربى

آراء الدكتور كامل حسين التى نوردها فى هذا الفصل مصدرها:

□ بحث «الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى» الذى ألقاه فى الجلسة الخامسة من جلسات مؤتمر المجمع فى الدورة السادسة والثلاثين.

□ كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر».

□

يحاول الدكتور أن يحلل لنا أسباب العذوبة التى أدركها النقاد قديما حينما قالوا إن بعض الشعر عذب مستساغ، فيرد ذلك إلى ما يسميه الموسيقى. والموسيقى هى الصفة المميزة للشعر فى رأى الدكتور، «**والنظم ليس إلا وسيلة لبلوغ هذه الغاية**». «ولكن الموسيقى شىء غير النظم، فهى حركة يشعر بها السامع فيدركها فى بعض الشعر، **ولا يدركها إلا أهل اللغة التى قيل بها الشعر**». وهو يرى فى بيت العرجى:

شهيدى جوان على حبها　　　أليس بعدل عليها جوان

ثلاثة أمور تجعل له موسيقى خاصة:

(أ) الحركة الموسيقية البطيئة فى الشطر الأول والتى سببها المقاطع الطويلة التى تدل على الثقة والاطمئنان.

(ب) والحركة السريعة فى الشطر الثانى تدل على القلق والرغبة فى سرعة الاطمئنان على أنه ظنه صحيح.

(جـ) والانتقال الطبيعى الجميل من الحركة الأولى إلى الحركة الثانية.

وهذا البيت عند الدكتـور من أجمل أبيات اللغة على ما فيه من بساطـة وبعد عن المحسنات من أى نوع تكـون. والدكتور يربط الموسيقـى بالحركة من حيث دلالتها النفسيـة والتعبيرية، والحركة عنده تتمثل فى طول المقاطع ثم هو معنى بالانتقال من حركة إلى أخرى.

وهو لا يرجع الموسيقى إلى وزن البيت، فهو يرى فى بيت عمر بن أبى ربيعة :

تشـكى الكمـيت الجـرى لمـا جهـدته وبين لـو يستطيـع أن يتـكلمـا

يرى فى هذا البيت تصويرا موسيقيا لحركـة الخيل، مع أنه من البحر الطويل المألوف الذى منه:

قفـا نـبك من ذكـرى حبيـب ومـنزل . . . .

ويثبت كامل حسين بالشواهد أن هذه الحركـة الموسيقية لا علاقة لها بالنظم. ولا يفوته أن يكون مـن بين شواهده شىء للمتنبـى وشوقى. وهـو يعجب أحيانـا بالبيت الذى يعجـب به النقاد، بيـد أن إعجابهم يكـون راجعا إلى شىء آخـر غير تلك الناحيـة الموسيقية التـى تشده. فالجمال فى بيت المجنون:

ألا أيـها النـوام ويحـكمـو هبـوا أسائلكمـو هـل يقتـل الرجـل الحـب

فى المقابلة بين الحركة الموسيقيـة فى الشطرين، ففى الشطر الأول حركة سريعـة، أما حركة الشطر الثانى فـواضحة البطء. أما عند النقـاد فهى فى المقابلة بين الصورة البـدوية فى الشطر الأول، والرقة الحضرية فى الشطر الثانى.

□

ومن جمال الموسقى الشعريـة عنده أن تكـون حركة الجملـة المعترضة مختلفـة تماما عن حركة البيت، كما فى قول أبى العلاء:

وقبـيـح بـنـا ـ وإن قـدم العـهـد ـ هـوان الآبـاء والأجـداد

أما ذلك النـوع من الشعر المقطع تقطيعـا أقرب مـا يكون إلى تفاعيل العـروض، فليس من الموسيقى فى شىء، بل هو أشبه بضرب الدف منه بالموسيقى، كقول أبى العتاهية

أتتـــــه الخــلافــــة منـقــــادة إلـــيـه تجــــــرر أذيـــالهــــا

فـلم تـــك تصــــلح إلا لـــــه ولـم يــــك يصــلـح إلا لــهـــا

□

ولابد فى رأى الدكتور من أن توافق الموسيقى المعنى، وهو لهذا لا يعجب بقول الشاعر:

يــا ليــل الصــب مــتى غـــده أقيـام الســــاعـة مـوعـــــده؟!

ووجه الضعف فى هذا البيت فى رأيه هو أن موسيقاه لا تـوافق معناه، وكان جديرا بالشاعر الذى يستمتع بهذا المرح والطرب ألا يـزعجه طول الليل، فكان يصح أن يقـول مثلا: ليت قيام الساعة موعده.

□

وهو يذكـر لنا قصيدة لتأبط شرا أو لابن أخته هـى عنده أكمل قصيدة عربية مـن الناحية الفنية، وهى التى يقول فيها صاحبها:

إن بالشـــعـب الــذى دون ســلـع لقتيــلا دمــــه مـــا يطــــل

خــلـف الـعــــبء عــلـىّ وولــى أنا بالعـــبء لـه مســـتقــــل

ووراء الثــــأر مـــنى ابــن أخـــت مصـــع عقدته مــا تحــــل

شـامـس فى القـــر حتى إذا مــــا ذكــت الشعــرى فــبرد وظــل

ففى موسيقاها ما يشبه فرقعة السـلاح أو صوت الوقود حين تلعب به نار متأججة، وهى موسيقى تطابق تماما الروح التى تسود الشاعر وما يريد أن يعبر عنه. ويذكر مثلا للموسيقى المرحة الخفيفة قصيدة للمُنَخَّل اليشكرى تبدو فيها روح الشاعر الماجن المستهتر.

الفصل السابع

التصوير فى الشعر العربى :

آراء الدكتور كامل حسين فى هذا الفصل هى ما أبداه فى :

(١) بحثه «الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى» الذى ألقاه فى الجلسة الخامسة من جلسات مؤتمر المجمع فى الدورة السادسة والثلاثين لمجمع اللغة العربية.

(٢) كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر».

(٣) تعقيبه على بحث الدكتور «إبراهيم أنيس» «هل اللغة العربية لغة بدوية؟»، والذى ألقاه فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الرابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية.

□

يذكر الدكتور كامل حسين ما يقال من أن أدبنا العربى يتفوق على الآداب الأخرى بكثرة التشبيهات والاستعارات والمجاز، ثم يقول «ولا نزاع فى أن هذا كله يزيد فى جَمال الصور الحسية والمعنوية حين يحسن الكاتب استعمالها»، وخلاصة رأيه أن «التشبيهات لا تكون شيئا ذا قيمة إلا أن تنقل إلى السامع صورا من المشبهات أجمل أو أوضح أو أوقع فى النفس من الكلام المجرد، ولا عبرة بما يكون فيها من غرابة». ومن التشبيهات التى لا معنى لها (عند الدكتور) قول امرئ القيس:

فقلت لـــــه لما تمـــطى بصـــلبه وأردف أعجـــازا وناء بكلكل

لأنه لا يزيد فى وصف الليل شيئا، وكذلك قول بشار:

كأن مثار النقع فــوق رءوسنـــا وأســـيافنا ليل تهاوى كواكبــه

لأنه لا يزيد شيئا فى الصورة التى يكون عليها النقع المثار والسيوف الضاربة،

وهــو لا يقصر الصور الجميلــة فى الشعــر على التشبيــه أو الاستعارة، ففــى قول امــرىء القيس:

فظل العذارى يرتمين بلحمها . . . .

دلالة على ما كانت العذارى فيه من مـرح وصخب وسرور يدعوهن إلى التقاذف بلحم الدابة المذبوحة حتى يكاد السامع لهذا البيت يحس هذا الموقف.

وأبو نواس هو أقدر الشعراء العرب على التصوير فى رأيه. والصورة التى فى قوله:

فإذا قصرت لها الزمام ســـــما فـــــوق المقـــادم ملطـــم حـــر

فكأنهـــا مـصـــــغ لتسمــعـــه بعـض الحـــديـــث بأذنه وقـــر

صورة صادقة بارعة فأبو نواس يصور لنـا الناقة وهى ترفع رأسها إلى ناحية كان بأذنها وقرا فهى تتجه إلى راكبها، تريد أن تنصت إلى ما يقول.

□

ومن الذين أجـادوا الوصف الصـادق الجميل دون إسراف فى التشبيه ـ فى رأيـه ـ البحترى وقصيدته المشهورة التى يقول فيها:

فـــإذا ما رأيـــت صـــورة أنطـــا كيـــة ارتعـت بـين روم وفـــرس

□

خير دليل على هذا الـرأى، ولم يكن الدكتور يعنـى فى تقديره للتشبيـه بالصورة التقليـدية النمطية. وكان يرى أن بيت امرىء القيس:

ترى بعر الآرام فى عرصاتهـا وقيعانهـا كأنه حـب فلفـل

إن اعتبر تشبيها فهو تشبيه سخيف، وإنما أراد امرؤ القيس وهو شاعر مجيد أن يقول إن بعـر الأرام جف من طول المدة حتى أصبح مثل حب الفلفل، وعلى هـذا يفهم أن البيت له قيمـة «أما أنه مجرد تشبيه فلا».

ومن الطـريف ذكر قـول الشيخ محمد محيـى الدين عبـد الحميد يـومها تعليقـا على رأى الدكتور كامل حين عارضه فقال: إن فى البيـت تشبيها وأداة التشبيه (كأنه) ووجه التشبيه هو ما تفضل الدكتور كامل فذكره.

الفصل الثامن

النسيب فى القصيدة العربية :

عبر الدكتور كامل حسين عن رأيه فى النسيب فى القصيدة العربية فى:

(١) بحثه «أسلوب المعرى ودلالته» وقد ألقاه فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والعشرين لمجمع اللغة العربية.

(٢) كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر».

(٣) التعقيب على بحث الدكتور «محمد عوض محمد» عن «الشعر الذى أنشأه المتنبى لنفسه» والذى ألقاه أمام مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين للمجمع فى الجلسة الثانية. وقد استؤنفت المناقشة التى انتقلت من موضوع البحث إلى آراء الدكتور كامل فى الجلسة الثالثة.

□

لا يرى الدكتور كامل حسين الأمر فى النسيب إلا شبيها بما يحدث للمغنى الذى يتغنى بموسيقى غير مدونة يحتاج إلى التغنى بما هو مألوف وبما كثر تردده على مر الأجيال حتى يستقيم له النغم ثم يندفع فى غنائه، وكمثل المغنى الشعبى يردد فى أول غنائه: ياليل ياعين! وقد قل ذلك بعد أن عرف تدوين الغناء. فكذلك الشاعر العربى وشعره، فهو كثيرا ما يرتجل أو يؤلف أو يحفظ فى الذاكرة ثم يروى ويسمع فهو فى حاجة إلى النسيب (ومعانيه مطروقة وأسلوبه معروف) حتى يطوع له النظم، والروى، والنغمة، والموسيقى، والوزن، فيندفع بعد ذلك فيما يريد أن يقول.

ولا غرابـة إذا كانت هـذه الحاجة إلى النسيب قـد قلت بعد أن أصبح الشعـر يؤلف كتـابة ويدون ويقرأ.

□

وهو لا يـرى أبدا أن النسيب كان يقصـد به الغزل، بل يـرى أنه من العيب أن نحمل النسيب معنى الغزل. وقول عنترة:

فوددت تقبيل السيــــوف لأنهـــا لمعت كبـارق ثغـــرك المتبســم

كلام بارد قبيح ولا يمكن أن يكون عنترة قاله قـاصدا به الغزل. وليس النسبب عيبا يعاب على العرب وقد كان من شعراء القـرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا مثل ذلك. والحقيقة أن تفسير الدكتور كامل حسين للنسيب فى القصيدة العـربية تفسير قيم وعلمى ومقبول عقلا ومنطقا عند المعاصرين (وهو نفسه قد أراد أن يقرب النسيب بهذا التفسير إلى أذهانهم)، ولكن الذين درسوا النسيب على أنه تشبيب.. واستقام لهم فهمه حسب رأى الأقدمين فيه قد يصعب عليهم الأخذ برأى الدكتـور كامل هكذا جملة واحدة، ولهم العذر فى ذلك. بـل إن للدكتور كامل أيضا العذر فى أن رأيه لا يلقى عندهم القبول.

الفصل التاسع

أدب الهجـــاء

للدكتـور كامـل حسين رأى طريف فى النقـائض وأدب الهجاء ضمنـه بحثه الـذى ألقاه فى الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة العشرين لمجمع اللغـة العربية والذى نشره فى الجزء الثانى من كتابه «متنوعات». كما ضمنه كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر».

وهـو يذهب إلى أن غـرض أصحاب النقـائض من الإقذاع فى قصـائدهم الجيدة التى كـان موضوعها التهاجى بين فحول الشعراء لم يكن أن يحطوا من قدر زملائهم، وإنما كان غرضهم التسلية، والتسابق، والإبداع فى القول.

ويقسم الدكتور أساليب الهجاء ثلاثة أقسام:

(١) ما لا يكون قائما على ذكر عيب بعينه أو واقعة خـاصة، بل يكون مرجع الهجو فيه إلى تعبير البيت نفسه كقول جرير:

فغـض الطـرف إنــك مــن نمــير ... فلا كعبــا بلغــت ولا كلابــا

إذ ليس فى البيت ما يخجل منه نميرى، ولكن التعبير بغض الطرف له وقع أليم.

(٢) ما يكون مرجعه إلى صورة مخزية مضحكة كقول القائل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمو ... قالوا لأمهمو: بولى على النار

(٣) وأشهر أسـاليب الهجاء ما ينسب فيـه الشاعـر إلى غيره صفة سيئة أو عمـلا قبيحا، وغالبا ما لا تكون هذه الصفة فى المهجو.

ويـذهب الدكتـور كامل حسين إلى أن يقـول: «**بل لعل هـذا الإقذاع نفسـه كان حمايـة للمهجو من أن يظن الناس أن هذا الذى قيل فيه يمكن أن يكون صحيحا**».

وبهذا التفسير الذكى الـذى قدمه كامل حسين يستقيـم لنا فهم أصول أدب الهجاء عـامة والنقائض خاصة، ونطمئن حين ندرك أن الإسراف فى الإقذاع لم يكن من شأنه أن يحط من قدر الشاعر أو المهجو.

ومن الطريف ما قاله الأستاذ يحيى حقى فى تعليقـه على قول الدكتور: «بل لعل هذا الإقذاع كان حمايـة..» من أن فى هذا القـول مبالغـة وتعسفا وحسن ثقـة وظن «والله الغنى عـن هذه الحماية فلتسقط وليحيا الاستقلال من الشعراء». ثم يقول الأستاذ يحيى حقى - وهو محق فى قوله قدر إحقاق كامل حسين فى نظرته - إن أحكام الدكتور لا تخلو من اختلاط الفكرة بأحكام التمنى «ولماذا لا نعترف بالحق والواقع ونقول إن مقاييس الحياء قد تبدلت بين عصر وعصر؟».

الفصل العاشر

آراؤه فى بعض الشعراء العرب*

□□ النابغة الذبيانى :

وردت آراء الدكتـور كامل حسين فى النابغـة الذبيانى فى الفصل الـذى كتبه عنه فى كتـابه «الشعر العربى والذوق المعاصر».

لا ينازع أحـد فى جمال أدب النابغـة كشاعـر، ففيه رواء ينـدر أن نجد مثلـه، ولكن الناس اختلفوا فى تقـديره شخصيـا، ولكن حياة الشاعـر لا تعنينا إلا من حيث أثـرها فى شعـره، وقد يكون موضوع شعره الخوف والرهبة والتهافت على ما يكون عند الملوك من لذات الحياة، ولكن موضـوع القصيدة شىء، وفنها شىء آخر. وشعـر النابغة قـوى متين فيه رصانة، وفيـه ثقة بالنفس لا تكون فى ضعفاء النفوس.

وأجمل ما فى شعره القوة، فهو فى نظمه غير مرهق، ولا تحس أن به بهرا من جهد النظم، بل إنك لتراه يبلغ الذروة فى الإجادة وتشعر مع ذلك بأنه لم يبلغ غـاية جهده، وأن وراء هذا الجهد قوة كامنة لا يرهقها النظم مهما يكن. فمن ذلك قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سـيوفهم بهـن فلـول مـن قـراع الكتـائـب

تخيرن من أزمـان يوم حليمـة إلى اليوم قد جربن كل التجـارب

والشاعر المرهق يرهق سامعيه، أما المطمئـن فيوحى بالاطمئنان، ولا يجارى النابغة فى هذا إلا بشار.

□

* سنخصص الفصلين التاليين لكل من أبى العلاء المعرى والمتنبى

ومن أجمل مـا فى شعر النـابغة: صـدق تعبيره عن عـاطفة حقيقيـة (مهما تكن عاطفتـه)، وبخاصة فى وصف الليل، فوصفه يشعر برهبة حقيقية، ورعدة واضحة، وقلق ليس فيه زيف، ولا أعرف فى العربية شعرا يدل على عاطفة صادقة كشعره.

أما الغـامض فى حياته فهـو أمره مع النعمان، ويستعـرض الدكتور كـامل حسين ما رواه صاحب الأغـانى فى شأن (المتجردة والمنخَّل) ويخلص إلى القـول بأنه «إن يكن غضب النعمان بسبب غيرته فإن غيرتـه لم تكن على المتجردة، وقد تكون غيرتـه من النابغة أن علم عنه حـذقا ليس للنعمان منه حظ كبير»، ولا أحسب أن أحدا أنصف النابغة بمثل هذا القول.

ثم يقول الدكتور كامل: «لا نريد أن نسرف فى سـوء الظن. فقد تكون القصة كلها موضوعة لا أصل لها، وهى على كل حـال غير مقبولـة عقلا على النحـو الذى ترويـه كتب الأدب». «وإن كانت وقعت حقا فإن الأدب العربى مدين للمتجـردة بشعر جميل، وقول صادق بديع، وشعر هو فى الطبقة الأولى من الشعـر، ويكون بكاء النابغـة دليلا لا على الضعة والذلـة، ولكنه يكون ندما صادقا على ألوان شتى من لذات الحياة حلالها وحرامها يوم خرج من قصر النعمان».

□

□□ عمر بن أبى ربيعة والقصص الشعرى العربى

نعرض فى هذا الفصل آراء أديبنا الكبير فى الفصل الذى كتبه عن عمر بن أبى ربيعة فى كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر».

قال سليمان بن عبد الملك لعمـر بن أبى ربيعة: «ما يمنعك من مدحنـا»؟ فقال عمر: «إنى لا أمدح الرجال وإنما أمدح النساء». هكذا يحدثنا الدكتور عن عمر كشاعر طبع فى العصر الأموى الذى ازدهر فيه شعر الاحتراف، ويردف قائلا: «ولـو أن كبار الشعراء العرب عدلوا عن شعر الاحتراف واهتدوا بشعـر الطبع الذى يمثله شعر عمـر لاتخذ الشعر العربى طـريقة غير التى نعرفها».

ويعقد الدكتور كامل مقارنة بين المغـامرات التى يحدثنا عنها كل من امرىء القيس، وعمر بن أبى ربيعـة فى شعرهما، وأثـر تلك المغـامرات فى نفسيتهما، فيـذكـر أن امرىء القيس بـدأ بالمخـدرات فكن يبرمن بتودده إليهن، فاضطر إلى السـاقطات فلم يجد عندهن مـا يحببهن فيه

فكان لـه من أثر ذلك اليأس وخيبـة الأمل والجهد الضـائع. أما عمـر فكان محببـا إلى النسـاء، والشريفـات منهن، وكن يعجبن بهيئته، فكـان لـه سمو العـواطف وحب الحياة، والفـرح بها، والتمتع بلذاتها.

ويحدثنا الدكتور عن أسلوب عمر فى القصص الشعـرى، فيؤكد على عناية آداب الأمم كلها بالقصص لضرورتـه للحياة الفكريـة الكاملة، ثـم يقول: «ولم يكن للعرب أن يشـذوا عن هذه القاعدة. والـذى أفسد علينا القصص العربى أن علماء اللغة ونقاد شعـر الاحتراف أخذوا هذه القصص مأخذ الجد وحسبوها حقائق تاريخية، وماهى إلا إرضاء لنزعة الخيال عند العرب».

والقصص الشعرى عند العرب نوعان:

(١) **أيام العرب:** وهى القصص تفخر بـالبطولة والشجـاعة القبلية، وهـو شعر حماسى يزيد القصة رونقا ويضفى عليها من العظمة ما لم تكن تستحقه فى الواقع حتى لو كانت وقعت فعلا.

(٢) **شعر العذريين:** وقد أسرف الناس فى الإعجـاب به، مع أنه كاد يصبـح بعد فترة شعر احتراف من نوع خاص موضوعه الغزل.

والغرض الأول من القصص الشعرى عند العرب هـو ذكر الحوادث، أما ورود الشعر فهو عارض، وعمـر بن أبى ربيعة هو الـذى روى قصصه شعـرا، وهو عمل شق على الكثيرين من قبلـه ومن بعـده. وشعر الطبع الجميل الـذى منـه شعـر عمر لا يـروق للبـلاغيين (وهم غير البلغاء)، فمعايير جمال شعر الاحتراف لا تصلح بالطبع لقياس شاعرية شعر الطبع.

وعند الدكتور كامل حسين أن عمر وصف نفسه أبلغ وصف حين قال:

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه — لا حظ لى فيه إلا لذة النظر

وهو ما لا يـدعيه محترف، وقصص عمر فتح جديد فى الشعـر العربى، ويصح أن يبدأ بها وبمثلها المتذوقون للأدب فى عصرنا الحاضر، فهى أقرب إلى أذواقنا وأفهامنا، وأجدر أن نقدرها من الشعر الفخم الذى يراد منـا أن نعجب به، وهو شعر الاحتراف، فلا نجد فيـه ما يروقنا بل لعلنا نجد فيه ما ينفرنا.

□

□□ الفـــــرزدق :

يمكننا أن نقـول إن الفرزدق من الشعراء الذين حظـوا بتطبيق كامل حسين منهج التحليل النفسى عليهم، أو بعبـارة أقرب إلى الصـواب فى لغة البحث، حظينـا نحن بتطبيقه هـذا المنهج عليهم. وقد ألقى الدكتـور بحثا عنوانه «حقيقة أمر الفـرزدق» مع بحثه عن «أدب النقائض» فى الجلسة الخامسـة من جلسات مـؤتمر الدورة العشرين لمجمع اللغـة العربيـة، وقد نشرهما فى الجزء الثانى من كتابه «متنوعات».

ولما كـانت غايـة التحليل النفسى للآثـار الأدبية هى تتبع الأسبـاب النفسية الخفيـة التى تصدر عنها ما فى هذه الآثار الأدبية من مميـزات، فإن الدكتور كامل حسين يذهب إلى أن كثرة حديث الفرزدق عن الجنس وكثرة ما فى قوله من فحش «تدل دلالة واضحة على خيال مريض». وإعلان اتهامه لنفسه بالفسوق على رءوس الأشهـاد، ووصفه ألوانا من الفجور تأبى الطبيعة الإنسانية السليمة تصورها بله مقارفتها (فى عصر لم يكن العرب ببداوتهم الفتية يعرفون فيه الإبداع فى المجون) يرجع الـدكتور كامل كل ذلك من الفرزدق إلى أنه كـان حصورا، وكان عيبه هذا معروفا تحدث به الناس، وفى حياتـه وشعره ما يدل على أنه تأثر كثيرا بهذا العيب، وقضى شطرا كبيرا من حياتـه يحاول إنكاره، فلم يزده ذلك إلا ثبوتـا. «ومن المعروف عمن بهم مرض الفرزدق أنهم يجاهـرون بالفسوق، ويعنيهم أن يـذاع ذلك عنهم، وتراهم يفاخـرون به فى غير احتشام».

ويمضى الدكتور فيتناول من هذا المنطلق تحليل حـديث الفرزدق مع ابنة عمه النوار، وما رواه عن نفســه فى قصيدتـه الغائيـة. وهو تحليـل جميل مشوق يصح ــ بل يجب ـ أن يعـد نموذجا مثالا للتحليل النفسى للآثار الأدبية.

الفصل الحادى عشر

□□أبو العلاء المعرى

آراء الدكتور كامل فى أبى العلاء المعرى التى سنعرضها فى هذا الفصل هى ما أبداه فى:

(١) بحثه «أسلوب المعرى ودلالته»، وهو البحث الذى ألقاه فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والعشرين لمجمع اللغة العربية، وقد نشر هذا البحث فى الجزء الثانى من «متنوعات».

(٢) تعقيبه على بحث الدكتور إسحق الحسينى الذى ألقاه فى الجلسة الثالثة من جلسات مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين للمجمع، وعنوانه «أثر المعرى فى الأدباء المعاصرين».

(٣) تعقيب على بحث الدكتور عبد الله الطيب عن «الدرعيات»،الذى ألقاه فى الجلسة الثالثة من جلسات مؤتمر الدورة الثامنة والعشرين للمجمع.

(٤) حديثه مع «محمود عوض» والذى نشر بجريدة «أخبار اليوم» ثم فى كتاب «شخصيات».

(٥) كتاب «الشعر العربى والذوق المعاصر».

□

كان كامل حسين معجبا غاية الإعجاب بالمعرى، وكان لا يفتأ يقول «إن أبا العلاء أقوى رجال الأدب العربى شخصية، وأعمقهم تفكيرا، وأصدقهم عاطفة، وأحدهم ذكاء، وكان يعجبه

منه أنه فكر ثم كتب فى عصر بلا تفكير». وكان يقـول إن فى حياته صرامة، وفى عقيدته جدا، وفى إحساسه دقة، وفى آرائه جراءة، «وفى أسلوب أبى العـلاء كل ما نعيبه على غيره، ولأمر ما نقبل منه ما لا نقبل من غيره». وهو على غرابة أسلوبه محبب إلى كثير من المعاصرين، والسبب فى هذا الحب عند الدكتور كامل أن أبا العلاء عاش أدبـه وفى هذا «غاية الصدق»، وقد كان أدبه صورة واضحة لحياته، والتزامه ما لا يلزم «وهى نظرية أخلاقية ممتازة جدا».

وكامل حسين معجب كذلك بأبى العلاء لأنه **دخل الدنيا عن طريق اللغة،** التى كانت كل فنه، مادة وروحا ومجالا، والتى قصر حيـاته عليها فكانت معشوقته، ورفيقتـه، ولذته، وعمله وعلمه. وبرغم أن كثيرين من شعراء العربية قضـوا عمرهم لا يعرفون شيئا غيرها، فإن الفرق بين أبى العلاء وهؤلاء أن علمهم كان سدا بينهم وبين الحياة، فحجبهم جمال اللفظ عن أن يروا الجمال فى النفس البشرية، والحياة الإنسانية، أما أبو العلاء فكانت اللغة عنده نافذة أطل منها على الحياة، واللغة نـافذة ضيقة لكن حدة الـذكاء جعلته يستطيع ما لم يستطعـه أحد قبله ولا بعده.

□

ويحدثنا الدكتور عن ظاهرة «**الميثولوجيا اللغوية**» فى شعر المعرى يقصد بها استخدامه للحقائق اللغـوية فى شعره كما كان الشعـراء الأوربيون حتى القرن الثامن عشر يستخـدمون الميثولوجيا الإغريقية.

ومن النقـاد من يقسمون من حـرموا نعمـة البصر إلى قسمين: قسم يتحدى كبشـار حين يقول «تهاوى كـواكبه»، والثانى يخضع خضـوع غير المتخاذل، ومن هؤلاء أبو العـلاء. وكان المعرى حريصا على ألا يظهر حرصه على أن يظهر نفسه للناس، «فإذا أردنا أن نعجب به فيجب أن نرجع إلى مـا وراء ظاهـر قوله فـلا ننظر إلى الصورة مـن حيث جمالها فى شعره، ولكن من حيث إنها أتت للدلالة على نفسه ، فهو يريد أن يكـون غامضا يخفى فلسفته القديمة، ولم يكن المعرى يريد الغزل أو النسيب، بل كان يريد أن يظهر عالما متفوقا يخفى ما فى نفسه».

والمعرى أكبر مثل فى التاريخ للقنافذ وهم الأدباء يحسنون شيئا واحدا يعكفون عليه، «ولم يكن فقده لنظره أكبر عامل فى ذلك، وإنما هى طبيعة فى النفس».

□

واللزوميات هى أروع ما فى أدب أبى العلاء دلالـة على أعماق نفسه دلالة قوية دقيقة خفية غير واعية، وفيهـا مفتاح تلك النفس التى أرادها صـاحبها مغلقة، ومنها نستطيع تحليل عقدته التى لم يرد لها هو ولم يشأ أن يطلع النـاس عليها، وليس أدل على أنه عاش أدبه من اللزوميات. والدكتـور كامل حسين يرى أن اللزوميات ألفت على الترتيب الـذى نراها عليه اليوم، وهى لذلك تصلح لإظهار نمو نظمه وآرائه إلى حد ما.

ويمضى الدكتور كامل حسين قائلا: «لعل أبا العلاء نفســه لم يدرك كنه نفسه إدراكا تاما كما ندركهـا نحن حين نتعمق فى أسلوب اللـزوميات». وفى مـوضـع آخر يقـول الدكتـور كامل حسين: «ولعله كـان يحسبها مرانة على الصعب من النظـم، وبرهانا على تمكنـه من اللغة التى أحبها، فإذا هى دليل قاطع على قرارة نفسه التى حرص حياته كلها على ألا يعرضها على الناس فإذا هى واضحة كل الوضوح من جراء هذا الأسلوب».

وإعجاب المحـدثين بأبى العلاء يرجع عنـد كامل حسين إلى صفة خاصـة هى قوة التعبير، فأدب المعرى يـدل على نفسه دلالـة قويـة غير واعية «وهـذا سر حبنا لـه وإعجابنا بـه»، ومن الصعب أن نجعل من المعـرى أديبا عالميـا «لشذوذ سبيلـه إلى العظمة الأدبيـة»، كما بينا «**ولا ينقص من قدر هذه العظمة** ألا يشاركنا فيها غيرنا بل إن **هذا يدعونا إلى الحرص على أدبه**» فهو مما انفردت به لغتنا.

□

وأسلوب المعرى «ليس جميلا باستثناء أسلوبه فى التهكم فهو رقيق ظريف». ويقارن كامل حسين بين المعرى وبشار فيقرر أن التشبيه عند غير المبصرين نوعان:

(١) يكون تارة مما يفوقون فيه المبصرين كالليل تهاوى كواكبه، وهذا هو التحدى، وبشار يتحدى الزمن والناس.

(٢) التشبيه بالمعنويات التى يستوى فيهـا المبصر وغير المبصر وأثر هذا التشبيه يرجع إلى صدقـه عندهم وعمق دلالتـه. ومن الاستسلام ما يكـون أكثر شجاعـة من التحدى ولـو كان المتحدى هـو الزمن نفسه، ومن الخضـوع ما يكـون غاية القـوة كالخضوع للـدين والأخلاق والقانون، ومن التواضع ما يكون أقصى درجات الكبرياء.

ثم يقول كامل حسين: «وإذا كان فى تحدى بشار للزمن ما يعجب الكثيرين، فإن استسلام المعرى هو عندى أسمى وأروع».

ثم يحدثنا عن عقيدة أبى العلاء فيقول إن أكثر الناس على أنه كان متشككا شأنه شأن كثير من المفكرين الذين يأبى عليهم عقلهم أن يؤمنوا إيمان العجائز ويأبى عليهم طبعهم أن ينكروا الدين إنكارا تاما، «ولعل أكبر ما أحفظ أعداء المعرى عليه حملته على رجال الدين فى عصره، وطعنه فى أولئك الذين يعرضون تدينهم على الناس جهرا يبتغون الزلفى».

الفصل الثانى عشر

المتـنـبى

كثـر حديث المحـدثين عن المتنبى حتى كـاد يـدخل فى تعريف الأديـب أو الناقـد الأدبى فى عصرنـا هذا أن يكـون له رأى فى المتنبـى. وعندى أن المتنبى ليس إلا المرآة التى تنعكس عليهـا نفسيات الكتاب والنقاد ومـا يريدونه من الأدب وما يريدونـه بالأدب. وقد كان الشيخ البشرى يقول للأستاذ زكى المهندس: «ثلاثـة لا ينتهى الكلام فيها: العفاريت، والثعابين، والمتنبى» ولم يعد المحدثون يهتمون بالعفاريت ولا بالثعابين، غير أن اهتمامهم بالمتنبى قد زاد.

□

وللدكتور كامل حسين آراء فى المتنبى سنتناول منها:

□ فصل «**المتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس**» وهو الفصل الثالث من كتـابه «متنوعات»، وكـان قـد نشره فى نـوفمبر سنـة خمس وأربعين وتسعمائة وألف (١٩٤٥) فى مجلـة «الكاتب المصرى» مع اختلاف يسير تحت عنوان: «التعقيد فى شعر المتنبى».

□ تعقيبه على بحث الدكتـور عبد الله الطيب «**حول أبى الطيب**» والذى ألقاه فى الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والثلاثين لمجمع اللغة العربية.

□ بحث «**الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى**» فى الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة السادسة والثلاثين للمجمع.

□ تعقيبه على بحث الدكتور محمد عوض محمد عن «**الشعر الذى أنشأه المتنبى لنفسه**» والذى ألقاه فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين للمجمع.

□ بحث «**الحكم فى شعر المتنبى**» الذى ألقاه فى الجلسة الثالثة من جلسات الدورة السابعة والثلاثين للمجمع.

□ كتاب «**الشعر العربى والذوق المعاصر**».

□

ولأن الشعر يدل على كثير من خصائص نفس قائله بصرف النظر عن المعنى الذى يدل عليه اللفظ أو الفكرة، فإن كامل حسين يرى فى التعقيد فى شعر المتنبى دلالة على حالة نفسية معقدة عند المتنبى فإن أمله قد خاب، وأخفق فى محاولات شتى، فنشأت عنده عقدة نفسية جعلته يضع أمام نفسه صعوبات يخادع بها نفسه كى تقتنع بأنه يستطيع أن يفعل ما يريد، وهذا هو النوع الأول الذى يدل على ما فى نفسه من قصور عن بلوغ الآمال التى لم تتحقق له، فنجاح المتنبى قليل إذا ما قيس بآماله الكبيرة. والنوع الثانى هو ما يأتى عرضا نتيجة حرص المتنبى على نظام البيت وعلى ألا يضيع فكرة وجدها، وكان الدكتور كامل يكره ذلك من المتنبى فقد كانت طبيعته تأباه.

وخلاصة رأى الدكتور فى المتنبى أنه **أكبر الشعراء العرب (للأسف)**، وشعره فيه مزايا كل الشاعر العربى الممتاز، وهجائياته من أحسن الشعر، وفيه موسيقى بصرف النظر عن المعانى، وشعره الأول على النسق الكلاسيكى القديم ممتاز، ولم يخرج عن هذا النسق إلا فى قصائده الأخيرة والتى يسميها الدكتور محمد عوض وجدانية حيث صدرت عن إحساس حقيقى بعد أن أهينت كرامته.

□

وفيما يتعلق بمدح المتنبى لكافور، فإن الدكتور كامل يرى أن المتنبى كان يتهكم من أول يوم كتب فيه عن كافور، ويعرض الدكتور أربع مراحل مرت بها علاقة المتنبى بكافور:

(١) عندما بدأ مـدحه أثقل فى الجهد على نفسه لكى يجد شيئا يقولـه فى كافور إلى أن وصل إلى قوله:

فجـاءت بـنا إنسـان عين زمـانه وخـلت بياضا خلفها ومآقيهـا

(٢) ثم بحث فى مدحه لكى يصل إلى هذا المركز فلم يجد ما يقوله غير قوله:

إذا منعت منك السياسـة نفسـها فقـف وقـفة قدامـه تتعـلم

(٣) ثم غلب عليه طبعه فى التهكم على كافور فقال:

تفضـح الشمـس كلمـا ذرت الشمـس بشمـس منيرة سوداء

وهذا هو منتهى التهكم.

(٤) ثم إنه بعد ذلك أخذ يسبه صراحة.

□

وأروع ما قاله المتنبى فى نظر الدكتور هو قوله:

حسن الحضارة مجـلوب بتطرية وفى البداوة حسـن غير مجلوب

ففيه فلسفة وحكمة وفهم حقيقى للبداوة والحضارة.

أما شعر المتنبى الذى قاله فى مصر، فإن الـدكتور يراه أجمل شعره، بل إنه يرى أن المتنبى أصبح شاعرا حقيقيا فى مصر. ويرجع الدكتور ذلك إلى ثلاثة عوامل:

(١) فهو قـد رأى النساء الجميـلات فى مصر وهام بهن، وكان يـراهن يخرجن من الحمام فاتنات، فقال:

ولا بـــرزن مـن الحمام ماثـلة أوراكهـن صقيـلات العـراقيب

وقد كانت هذه العادة عندنا، فالسيدة تمسك بحجر وتحك كعبها حتى يصير أحمر كالدم.

(٢) ثم إنه غضب غضبا شديدا على المصريين، ولم يكن غضبه هذا عليهم إلا امتدادا لغضبه على كافور، وقد قال فيهم أروع أشعاره كقصيدته التى مطلعها:

ألا كـل مـاشيـة الخَيـْـزَلى فـدى كـل ماشيـة الهَيدَبَى

(٣) ثم إنه احتقر كافور احتقارا شديدا فكان لنا من غضبه هذا شعر سخرية ممتع.

□

ويـرى الدكتـور فى المتنبى مـوهبة مـوسيقيـة لعلهـا سر نجاح شعـره وتأثيره فى النفس. «وليست الموسيقى فى شعـره مقصورة على البحـور الصغيرة». ومن أروع أمثلـة الموسيقى فى شعره قصيدته المشهورة:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

وتـولـوا بغصة كلهـم منـه وإن سر بعضـهم أحيانا

وفى قوله (تولـوا بغصة) حركة سريعة نوعا تـوافق قوله تولوا، أما الشطـر الثانى فحركته بطيئة حيـث يقول: «وإن سر بعضـهم أحيـانا»، ذلك أن السرور الذى يـأتى به الـزمان يجىء بطيئا حينا بعد حين، أما الغصص فتأتى سراعا.

الفصل الثالث عشر

الأدب بين الأديب والناقد والقارىء والدولة

أفكار هذا الفصل كان لها النصيب الأوفى من كلمة الدكتور فى الاحتفال بمنحه جائزة الدولة للأدب فى الثانى عشر من ديسمبر سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف (١٩٥٧).

«الكتّاب لا يخشون أحدا خشيتهم إياكم أيها القراء المثقفون، فلكم قوة قاهرة غامضة يزيد غموضها فى قوتها، وليس أحد من الناس يضطره أن يعرض نفسه للناس جهرا على النحو الذى يقع للكتاب، و«الموضوعية» تحمى العالم من أن تكون شخصيته موضع التحليل، ولعلكم تفرحون حين ترون أن الكتاب عزل إزاءكم، والواقع أننا نثأر منكم بعد حين يتحدث الناس عن ذوقكم الأدبى فيعرفونكم بسيمانا. وسيقف بعد عدة أعوام موقفى هذا من يقول عنكم إنكم كنتم من البساطة بحيث تعجبون بكتاب مثل قصر الشوق، أو قرية ظالمة، ويبتسمون لذلك كما نبتسم نحن حين نذكر أن آباءنا كانوا يعجبون بحديث عيسى بن هشام وصهاريج اللؤلؤ».

ولا أتمثل هذا الحفل إلا على أنه صورة من عادة إنسانية عريقة مردها إلى التفكير الذى يدعو إلى ذبح المعبودات بعد تكريمها، «وهو ليس تقليدا عربيا، ولو أخذ به العرب لكان أدبنا اليوم غير الذى نعرف وقد كرم العرب، «قفا نبك» بما لم تكرم به قصيدة، وظلت حية أربعة قرون أو يزيد. عادة حسنة هذه التى تدعو إلى ذبح المعبودات بعد تكريمها، والحياة الفكرية لا يقويها شىء مثل الخوض فى دم السابقين مهما يكن إعجابنا بهم، وأود أن تأخذ أمتنا بهذه العادة فتصبح تقليدا ثابتا».

أما ما بين الكتّاب والنقـاد فأمره مشهور: «والكاتب لا يود أن ينكر على النقـاد ما يرونه فى كتابـه من حسنات، ولكنه يعجب لإغفـالهم حسنات أخرى يراهـا هو واضحة كل الـوضوح. وحين يذكر النقاد عيوبا فى كتابه نـراه ينكر عليهم قولهم إنكارا باتا، ويشير من طرف خفى إلى أن هناك هنات يعـرفها هو لم يفطن إليها النقـاد، بهذا يتم الاضطراب بين الكاتب والنـاقد. أما القراء فتراهم إن رضوا عن الكاتب جمعوا عليه المسببات التى يراها الناقد والمؤلف، وإن غضبوا أضافوا العيوب التى يذكرها النقاد إلى ما لم يذكره المؤلف.

والنقاد يكرهون من الكتّاب أنهم يجهلون أو يتجاهلون مذاهب الكتابة وخصائصها، وأنهم لا يخضعـون للتبويب الـذى يضعـه النقاد لـلأدب، ويكـرهون منهـم خروجهم عن النظـام التاريخى الذى يضعه مؤرخو الأدب.

□

والكتّاب يكرهون من النقاد أنهم يقيدون حـريتهم فى القول، وأنهم يضعون قواعد للجمال يريـدون إرغام الكتّاب على اتبـاعها إرضـاء لهم، والكتّاب يرون أن النقـاد يحسنون إلى الأدب حينا، وحينا يفسدونه بما يضعون من نظريات: «أليس النقـاد القدماء هم الذين أحدثوا نظرية المعنى الجيد الذى لايعنى شيئا؟ ثم أليسوا هم الذين قـالوا إن أعذب الشعر أكذبه؟ وهم الذين مدحوا الشاعر والكاتب بتفوقـه فى كل فنون القول، ولا يفعل ذلك إلا من لم يقل فى حياته شيئا يستحق أن يقال. وهم الـذين نظروا إلى الكتابة على أنها حرفـة تتقن، ولم يأبهوا لما يكون وراء القول من عـاطفة ملتهبـة أو عقيدة غالبـة، ولم يقدروا الكتـابة على أنها فيض نفس إنســانية وضعت فيما تكتب كل ما فيها من خصائص».

والفقرة الأخيرة تعبر تعبيرا قويا عن رأى كامل حسين فى قدامى النقاد، وما كان يخشاه من محدثيهم.

□

تكريم الدولة:

ولا أحسب الدولة تعنى بتكريم كاتب بعينه أو كتاب بذاته، وإنما يعنيها أن تهيىء للأمة ما تتم به حياتها العقلية من علم وأدب، وإذا كان الأدب والفنـون لا يدفعان أذى ولا يردان عادية

فهما مع ذلك من الأشياء التى لا تعيش الأمم إذا حرمتها، وجوائز الدولة تؤكد هذا المعنى فى الأذهان، فالجوائز لا تؤدى إلى تكوين العقلية اللازمة للكشف العلمى ولا تؤدى إلى خلق الحس المرهف الذى لا يكون الكاتب كاتبا بدونه، وإنما هى كالأعلام التى ترتفع فى الحروب ـ قديما ـ فهى لا تخلق فى الجبان شجاعة، ولا فى المتردد إقداما، ولا فى الجاهل بالقتال علما بأصوله، ولكنها توجه الجهود، وتمنع الخذلان، أو هى كقصب السبق يتبارى الناس لبلوغه لا لقيمته، بل لأنه يبين للناس أىّ المتسابقين بذل غاية جهده فى السباق.

□

على أن هذه الجوائز من الأهداف التى إذا وضعها الناس نصب أعينهم انقطع بهم الطريق. وإنى لهذا أدعو شباب العلماء والكتاب ألا يسعوا إليها على أنها غاية ترجى.

□

وتكوين الأدباء مثل إنبات زهرة ذات لون خاص، أو شذى خاص لا ينفع فيه الإعداد الصريح، أو التنظيم المباشر، بل قد يكون إرغامهم على سلوك طريق بعينها عائقا لهم عن بلوغ الغاية التى هيأتها لهم طبيعتهم، وعلينا أن نمسهم مسا رقيقا، وأن نتعهدهم من بعيد بإيجاد جو عام لا تختنق فيه المواهب، وحافز على الإنتاج، وهذا الحافز لا يكون إلا نفسيا، كما أن الحافز فى العلم لا يكون إلا عقليا.

«ذلك أن الكاتب يجب أن يشعر بانه يستطيع أن يحيل تجاربه العاطفية والعقلية والنفسية وما يصادفه فى حياته إلى عمل جميل فيه بهجة له ولغيره، وأنه يستطيع أن يرى فى الحادث الفردى الصغير رمزا لعاطفة إنسانية ينقلها إلى غيره من الناس فيعرفونها فى أنفسهم. هذان الإحساسان أكبر ما يحفز الكاتب على الكتابة، والشاعر على الإنشاء. وهما أيضا مصدر سرور ورضا نفسى واطمئنان نفسى، والإنتاج الأدبى أكبر حافز للأديب على ما يبذل من جهد، وهو أكبر ما يجزى به».

الفصل الرابع عشر

تراجم الشخصيات عند كامل حسين :

كتب الدكتور كامل حسين عن طب الرازى وعن القانـون العام فى كتاب القانون لابن سينا، وشيئا من هذا القبيل عن ابن رشد. ولا نقصد بكامل حسين مترجم الشخصيات هذه الكتابات، ولا تلك الكتـابات التى كتبهـا عن «التعقيد فى شعر المتنبـى»، و«أسلوب أبى العـلاء ودلالته»، والنابغة، والفرزدق وما إلى ذلك مما تناولناه فى فصول سابقة. وإنما نقصدبالتحديد:

□ مقاله فى مجلة «الكاتب المصرى» فى مارس سنـة ١٩٤٧ عن «الدكتور على باشا إبراهيم» وقد جعله فصلا من الجزء الأول من كتاب «متنوعات».

□ مقاله فى مجلة «الكاتب المصرى» فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ عن «أحمد لطفى السيد والدعوة إلى أرسطو»، وقد جعله فصـلا من الجزء الأول من كتابه «متنوعات».

□ حديثـه عن سلفه فى المجمع الأستاذ أحمد حـافظ عوض ضمن كلمته فى حفل استقبـاله عضوا بمجمع اللغة العربية.

□ كلمته فى تأبين أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فى الحفل الذى أقامه مجمع اللغة العربية فى الحادى والعشرين من إبـريل سنـة ثلاث وستين وتسعمائة وألف، وهى منشـورة فى الجزء الثانى عشر من مجلة مجمع اللغة العربية.

□ كلمته فى تأبين الدكتور طه حسين فى الحفل الذى أقـامه مجمع اللغة العربية فى السادس والعشرين من ديسمبر سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف (١٩٧٣).

□

ونستطيع أن نجد الخصائص الآتية فى ترجمة الشخصيات عند الدكتور كامل حسين:

(١) كان لا يتناول بالترجمة حياة المرء تفصيلا، وإنما **كان يقف عند** صفة من الصفات فيستقصيها. وقد تكون هذه الصفة هى أبرز الصفات فى رأيه (كالبنّاء) فى على باشا إبراهيم و(المعلم) لطفى السيد فى مقاله «أحمد لطفى السيد والدعوة إلى أرسطو». وقد تكون صفة فريدة تمثلت فى هذه الشخصية بالذات كتوافق قوى العلم، والعقل، والخلق فى نفسه فى كلمته التى أبن بها لطفى السيد. وقد تكون صفة من صفات الشخصية يرى فيها ما لا يراه الناس كصفة **(المفكر)** فى طه حسين و **(الآثار الفكرية)** لأحمد حافظ عوض، وبخاصة أسلوبه العلمى فى تاريخ الحملة الفرنسية.

(٢) لم يترجم كامل حسين إلا لمن أثروا فى حياته تأثيرا بالغا، واتصلت حياته بحياتهم اتصالا متينا، ونستطيع أن نقول إن ثلاثتهم (لطفى السيد، وطه حسين، وعلى إبراهيم) بالإضافة إلى عبد الحميد بدوى، كانوا أعظم من أثر فى حياة كامل حسين. أما حديثه عن أحمد حافظ عوض فهو تقليد مجمعى، وإن كان لم يقصر كلمته على الحديث عن سلفه.

(٣) وهو لا يغفل فى ترجمته عن أن يبين علاقته بالشخصية على النحو الذى لا يوجز فيبهم، ولا يطيل فيخرج عن الموضوع الأصلى.

(٤) كان يحرص على أن يبين الحقيقة فيما يعاب على هذه الشخصيات، كتعليله إسراف طه حسين فى مدح الملك بأنها شنشنة يعرفها أهل الصعيد، وتعليله ما فى آثار أحمد حافظ عوض الفكرية من عيب ونقص بقوله: «فحسب المرء أن تكون آثاره فى ميدان الفكر صورة صادقة واضحة للعصر الذى يعيش فيه»، ذلك أن عصر أحمد حافظ عوض لم يكن قد عرف بعد تلك الدقة والكمال.

□

□□ أحمد لطفى السيد :

كانت للطفى السيد شخصية نادرة معتدلة المزاج، واعتدالها سر الطمأنينة التى استمتع بها أستاذ الجيل حياته كلها التى حرص على أن تكون مظهرا للسمو المتصل.

توافقت فى نفسه القوى الثلاثة: العلم والعقل والخلق، وحرص على أن يرضى عن نفسه،

فكان بينه وبينها سلام دائم هو غايـة السعادة. وكان يرى نفسه من القادرين على التمام فتم له بذلك شموخ نفسى داخلى طبيعى يثير الإعجاب والحب معا.

وكان من طبعه أن يتتبع محاسن الناس، وأن يغضى عن مثالبهم، فلم يكن يأخذ الناس بما أخذ بـه نفسه من الصرامة. وكـان من آثار هـذين أن استطاع أن يجمع بين الثقافتين العـربية والأجنبية فى سهولة عجيبة. وإذا كان من التوفيق أن يحب الإنسان عمله، فإن غاية التوفيق أن يحب الإنسان ما يتعلمه، وألا يضطر إلى درس مـا لا يعجبه، وأحب الحقيقة، وأحب من تعلمها عنهم.

وكان حبه لعظماء المفكرين الذين تلقى عنهم علمه، أمـرا معروفا، فكان لا يعدل بالشافعى أحدا، وكان من المعجبين بتفكير المعـرى، وإن لم يشاركه رأيه، أما حبه لأرسطـو فكان معروفا للناس جميعا.

وكان فى عقله هـذا الترف الذى رأيناه فى علمه، فلم يعجله عن الرؤيـة خوف أو طمع فكانت نفسه كالمرفإ الهادىء يـأوى إليه حين تعصف العواصف حتى يتبين وجه الصـواب إقداما أو إحجاما، بل كان شيوخ السياسيين يأوون إليه فى سن مبكرة جدا يستنصحونه فى الأمر الجلل.

□

وكان إذا هم بأمر عرضه على **المبادىء الخلقية** ليرى أيليق به ذلك أم لا يليق؟ ثم يعـرضه على **المنطق** ليرى أخطأ هو أم صواب؟ ثم يعرضه على **مبادىء عامة وكليات ثابتة** عنده يؤمن بها كالتطـور واحترام القانون والحرية الشخصيـة. وأكثر الناس يعتقـدون أنهم يفعلون ذلك حين يقدمون على أمـر يهمهم، والواقع أن أكثر الناس يعملون ما يعملـون بدافع من ماضيهم وطبيعتهم، ثم يعـرضون الأخـلاق على ما ارتكبـوا يلتمسون تأويـلا يبرر لهم ما عملـوا وهم يعلمون أنه خطأ.

وقليل من هم مثله فى ذلك، ذلك أن بلوغ الصواب فى أمور الحيـاة عن طريق الكليات العامة والمنطق أمر محفـوف بالمخـاطر يحتاج إلى ذوق سليم، وحكمـة بالغة، واتـزان نادر وقـد كان نصيبه من تلك الصفات عظيما، وكان اهتداؤه بالمبادىء العامة مؤديا إلى الصواب.

□

وكان يؤمن بالتطـور إيمانا عميقا جدا، ويرى الإصلاح بدونـه عبثا، وكان يعتقد أن الجيل الحاضر خير من الجيل السابق على غير مـا يقول بـه الناس. **ولم يكن لطفى السيد سياسيا عنيفا يخلق القوى السياسيـة ثم يوجهها الجهة التى يريدها، لكنه كـان سياسيا مفكرا يريد من السياسة أن تحق الحق، وأن تقيم العدل، وأن تحقق الإصلاح..**

وقد نجحت دعوتـه إلى أرسطو نجاحا عظيما. ذلك أن الدعوة إنما تعـد ناجحة حينما يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعة وتفكيرا إلى مَنْ يدعو إليه، وقد كانت هذه هى الحال فى أرسطو ولطفى السيد فكلاهما معلم، وكلاهما شديد العنايـة بالكليات، مرهف الحس من ناحية المنطق البحت، يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية، وكلاهما تنقصه العناية بالتفاصيل والطريقة التحليلية وإدراك ما للمنطق من حدود.

كان لطفى السيد معلما لا مدرسا، والمعلم هو من يهديك بـالإشارة الخفية والكلمة السامية إلى آفاق جديدة من التفكير.

وله علينا فضل حين اختار أن يترجم، كتب أرسطـو فى الأخلاق والسياسة الاجتماع، وهى أبقاها على الزمن، وأقربها إلى تفكيرنا الحديث.

تأثر لطفى السيـد بالشيخ محمد عبـده حين رافقه فى جنيف، وكان فى سلـوكهما فى الحياة تشابه، فقد عكف الشيخ محمد عبده بعد عودتـه من أوربا ـ لما برِم بالسياسة ـ على الإصلاح الـدينى والاجتماعى، وهى الميادين التى كـان يجيد الإصـلاح فيها، وعكف أستـاذ الجيل على الإصلاح فى ميادين الثقافة والاجتماع بعد أن أخفقت السياسة المصرية فى أوائل الحرب العالمية الأولى.

□

□□ طه حسين :

(١) كانت فى أعماله مثل المفكرين، وفى تفكيره صلابة العلميين فاستطاع أن ينجز أعمالا كنا نحسبها أمانى عزيزة التحقيق.

(٢) وأظهر صفاته العقلية: **صفاء الفكر**. وصفاء الفكر أكبر الصفات وأعظمها وأدعاها إلى النجاح. ولا أحسب أن أحدا قرأ للـدكتور طه ثم سأل نفسه ماذا يريـد أن يقول، والمسألة عنده **ليست بضاعة الأسلوب ولكنها بضاعة الفكرة.**

(٣) وكان **حاسما** فى تفكيره، فكان قوله الفصل فى المسائل الخلافية يصعب دحضه، وكان **تفكيره نفاذا** تحيط بـه الصعاب من كل جهة، وتعترضـه أمور كثيرة متناقضة، وآراء متضاربة، لكنه برغم كل ذلك كان ينفذ إلى النتائج.

(٤) خلا تفكيره من عيب التفكير الهش أو المنفوش كالعهن الـذى تراه من بعيد فتحسبه عظيما، فإذا ضغطت عليه وجدتـه هزيلا لا صلابـة فيه ولا عزم، **واخترق حاجز الصوت فى المجال الفكرى فبلغ آفاقا واسعة**. ولم يكن الفرق بينه وبين المفكر الوسط فـرقا تتبينـه بسهولة مع أنه واضح وهو أن أحدهما خصب والثانى مجدب.

(٥) كان إباؤه أن يذعن للنظم المستقرة هو المحور الذى دار عليه تفكيره وأعماله وكان يرى فى الثبات Establishment مخالفة لطبائع الأشياء وطبيعتـه، فكان مجددا دائما لا كأولئك الذين يحسبون أنفسهم مجددين وهم فى الواقع محافظون على الجديد.

(٦) أخذ العربيـة أخذا متينا فأتقنها وأغـرم بها - وخرج من هذا النطـاق لا أقول خرج عن الثقافـة العربيـة ولا منها ولا عليها — ولكن أقول خـرج بها إلى آفاق أخـرى كما كان يجب أن نخرج لولا السبات الذى أصابنا وهو السبات الشتوى الذى امتد عدة قرون.

(٧) وقد كان على الدكتور طه حسين أن يهدم بعض هذه الأسوار التى تكونت حولنا ففعل فعلته الكبرى، أقصد كتاب الشعر الجاهلى، وهـو عندى نقطة تحول لا لما فيه من آراء صحيحة أو خاطئة ولكن لكونه **مقدمة للنهضة الفكرية. وكل نهضـة فكرية يسبقها هذا الهجوم لا على الثقافة القديمة ولكن على الأسوار التى أقيمت حولها فمنعت نموها.**

(٨) كـان المفكرون الغـربيون يحجـون إليه فيبهـرهم من حيث هـو مفكر عـربى أصيل استطاع أن يمتد بتفكيره إلى أن وازى التفكير الغربى من غير أن يفنى فيه.

(٩) أما موقفه من السراى، فإن الملك فؤاد - وكانت له حنكة سياسية - أدرك أن هذه الحرية التى يدعو إليها طه حسين تؤذى النظام المستتب الـذى هو رأسه وعماده وعنوانه. وقد ذكر لى الدكتور **مايرهوف أنه قال للملك فؤاد: إنه لا يتصـور مجمعا للعربية ليس فيه الدكتور طه حسين**، ومع ذلك رفض الملك أن يجعل طه حسين من مؤسسى هـذا المجمع، وجاء فاروق ولم يرث عن والـده الحنكة السياسية وإنما ورث عنـه كره الدكتور طـه حسين فأصبح عنده نوع من الحسـاسية تجاهـه. وكنت أعلم من خبرة شخصية أن حظ فـاروق من الآداب الملكية غير موفور، وأصبح طه حسين وزيـرا للمعارف فقابله الملك مقابلة جافة جـدا، وفرح الدكتور طه بهذه المقابلة واقتنع بأن الملك هزم وأحس بالهزيمة. ورفض الملك أن يعطيه الباشوية - ولم

يكن حريصا على هذا اللقب ـ إلا أن رئيس الوزراء أخـذ الأمر على أنه يتعلق بثقة الملك بالوزارة كلها، وليـس ما عيب عليـه من إسراف فى مدح فـاروق بعد ذلك كلـه إلا شنشنة يعرفهـا أهل الصعيد لا يريدون بها إلا نوعا من التشفى.

(١٠) وأعماله جيـدة من غير شك، ولكن مجموعة أعماله أضخم وأعظم من أجـزائها، حتى إذا نظرت إلى حياته كلها وجدتها حقا ملحمة رائعة أسطورية لا نظير لها.

(١١) وفضل طه حسين يتركز فى أنه هو الذى **بدأ الدراسة الحديثة فى الأدب العربى**، كما أنه أدخل **أسلوبا جديدا فى النقد الأدبى**. وعظمته فى الأدب العربى ترجع إلى أنه كان مفكرا قبل أن يكون أديبا.

□

□□ أحمد حافظ عوض

كان رحمه اللـه ممن تقسمت حياتـه السياسـة والأدب، ولم تنصفه السيـاسة، وقليـلا ما تنصف أحدا من أهل الفكر، ومن بعض حقه علينا ألاّ نخطئه النصفة من الأدب.

وإذا كان الأستاذ حافظ عوض قد شب فى عصر لا يعد خير عصور الحياة الفكرية فى مصر، وإذا كانت آثاره الأدبيـة لا تخلو مما يدل على كثير من صفات ذلك العهـد، فإن ذلك لا يعد عيبا فيه ولا نقصا، **فحسب المرء أن تكون آثاره فى ميدان الفكـر صورة صادقة واضحة للعصر الذى يعيش فيه**. وإن آثاره كذلك، فهى صورة للعصر الذى شب فيه، لا الذى انتهى إليه، فيها تخبط الذين يلتمسون أسلوبا جديدا وتعثر الذين يتحسسون منهجا غير مألوف.

ويستطـرد الدكتـور كـامل حسين فيقـول إنه يحب كثيرا من هـذا التخبط وذلك التعثـر، فالصـور القديمـة أشهى إلى نفسه من روائع «رافـائيل»، «كأن الكمال الفنى يشعرنـى بقرب النهاية، وضعف الشيخوخة، ولعل ذلك هـو الذى حبب إلىّ «اليتيم» التى كتبها سلفى فى صباه، وهى قصة غايـة البساطة إنشاء وأسلوبـا وموضوعا» ويمضى فى وصف القصـة ونقدها، ثم يعود إلى الحديث عن حافظ عوض فيقول:

«ثم عصفت بـه السياسـة فحرمتـه الحرية، ومنعتـه كل نشاط سيـاسى. كان ذلك أثنـاء

الحرب العالميـة الأولى، فظهر مـا فى طبعه من حب للـدرس والبحث، وعكف على كتابـه «تاريخ الحملـة الفرنسيـة فى مصر»، وهـو كتاب جيـد عُنى فيه بـاستقصـاء المصادر، وتمحيصهـا، والمقارنـة بين الوثـائق، وحقق ما استطـاع التحقيق وحلل ما أمكنه التحليـل»، ووصف الحياة المصرية إذ ذاك وصفـا يدل على تخيل صادق، وفهم كثير، ونقب عن رجال تلك الحقبـة، وحدد أغـراضـهم، ووصف أخلاقهم ومـا كـان فيها من قـوة وضعف. وفيـه ناقش المؤلف روايـات الجبرتى وقارن بينها وبين ما جاء فى الوثائق الأجنبية المعاصرة، وخرج له من ذلك كله كتاب لو كتب اليوم ـ بعد أن بلغ منه التاريخ عندنا ما بلغ ـ لكان فخرا لكاتبه».

□

ثم يبين فضله فى مجال البحث التـاريخى فيقول: فلنذكر أن أحدا منـا فى ذلك العهد لم يكن قد درج على البحث العلمـى، وأن «حافظ عوض» إنما اهتـدى بطبعه وبحثـه أكثر ممـا اهتدى بالتلقى. ويرى أن عملـه فى الصحافة منذ أول عهده بـالعمل فيه دلالة على شجاعتـه وإقدامه وحبه للحرية. «ولعله تبين فى ذلك العهد التباعد بين نصيبه من الحياة وآلامه فيها، وأصابه من جراء ذلك بعض القنوط والقلق، ولعل فى ذلك بعض الباعث على كتابته رسائل إلى ولده، يبذل له فيها النصح ويحذره ممـا وقع هو فيه من أخطـاء. وفى هذه الرسـائل كثير من الجد والصراحة والإخلاص، وأحسبه لم يخفق فى حياته أكثر مما أخفق غيره، غير أنه من أولئك الذين يضعون نصب أعينهم شيئا يسمـونه السعادة يسعـون إليها ويحزنهم ألا يبلغوا ما لا وجـود له إلا فى أخيلتهم، وهى حال عقلية قديمـة. وما ضر الناس لو عُنوا بحياتهم فجعلوهـا مليئة صادقة ثم تركوا للزمن تحديد غاياتها، إذن لـذهب اليأس والقنوط، وتنوعت صور السعادة كل ينال منها ما ييسره له طبعـه، وتهيئه له الأحوال التى يعمل فيها. وإنى لألمح فى كل ما تـرك الأستاذ شيئا من عدم الـرضا عما استطاع أن يحققه مـن آمال. على أننا إذا أردنا أن نقـدر أعمال المفكرين فى ذلك العصر فليس من الإنصاف أن نقيسهـا بما نحن فيه اليوم، فإنهم كانـوا يعشون إلى ضوء التفكير الحر الذى نتمتع اليوم بنوره كاملا».

الباب الرابع

محمد كامل حسين لغوياً

كامل حسين من أعلام اللغويين ما فى ذلك من شك، دعوى أدعيها، وأقيم هذا الباب بينة عليها. والدكتور مدكور حين أراد أن يمدح كامل حسين أديبا قال: «وحسه الأدبى لا يقل عن حسه اللغوى»، وقد تبين للناس جميعا فى أنحاء المعمورة أن كامل حسين أديب عملاق، فانظر إلى قول الدكتور مدكور الذى استقبل كامل حسين يوم دخل المجمع وودعه فيه عندما خرج من الدنيا حين يصف حس كامل حسين الأدبى بأنه لا يقل عن حسه اللغوى!

والقرن العشرون حافل بالمعارك اللغوية، وقد أبانت لنا هذه المعارك عن أفذاذ فى اللغة وآرائهم فى جوانبها المختلفة، ولكن تاريخ اللغة الحديث لم يحدثنا أن واحدا كان ذا منهج فى تجديد فهم اللغة غير إبراهيم مصطفى وكامل حسين، وعندى أن فضل كامل حسين على إبراهيم مصطفى كفضل العالم على العابد فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم يحدث أن حظى رأى لغوى لكامل حسين بالقبول عند علماء اللغة جميعا، ولم يحدث أن اجتمعوا على مخالفته فى رأى من آرائه، ولم يكن منهم مَنْ خالفه فى كل الأمور، ولا من وافقه فيها كلها، وفى هذه الأربعة الدلالة على حيوية الجانب اللغوى عند كامل حسين.

□

قضى كامل حسين ربع القرن الأخير من حياته أو قل ثلثها الأخير فى المجمع اللغوى مثالا للالتزام والمواظبة، منارة بحث طريف ذكى هادف. ورأى علمى مستنير هادىء، وكان كامل حسين يمثل بحق «حكيم المجتمع» على حد تعبير زميله فى المجمع أستاذنا الدكتور الدمرداش، وكان كامل حسين صاحب درس وبحث فى اللغة أكثر من علماء اللغة، وكان له فيها منهج وفى إصلاحها خطة، وكان لتاريخها عنده فهم مستفيض، ولعيوبها عنده تعليل علمى.

وكان ذلك كلــه مصدر إعــزاز وإكبار وإعجاب عنــد زملائه فى المجمع أولا، وعنــد العارفين لذلك الفضل ثانيا.. بل كان بعض هذا كافيا لإثارة الإعزاز والإكبار والإعجاب.

□

لم يكن كامل حسين عــالما لغويا، ولكنه كان عــالما، ثم كان عالما لغويــا، وهذا سر من أسرار عظمته اللغوية، ولم يكن علمــه باللغة من ذلك النوع الذى نجده عند علماء اللغــة فى أيامنا هذه يتخصصون فى جزء صغير فيبحثون ويدرسون ويعرفون كثيرا كثيرا عن قليل قليل كما يقول المثل الإنجليزى، ثم تدفعهم الظروف دفعا فيكونون (علماء لغة)، ولم يكن علمه باللغة من ذلك النوع الذى اختص الله به عباده «المجاورين» يفنــون فيه زهرة عمرهم والله يعلم أن نفوسـهم تعافــه، ولا تصبر عليه إلا إلى حين، حين تترك الدرس إلى التــدريس، ولم يكن علمه بــاللغة علم أولئك الذين يخطفون القــراءة خطفا فى بطون هذه الكتب الصفــراء يبتغون تعبيرا أو شيئا من هذا القبيل يذكرونه فى كتاباتهم ويحتالون له حتى يأتى عرضا يستجدون به الإعجاب.

أجل لم يكن كامل حسين هذا ولا ذاك، ولكــن الله وهبه نوعا رفيعــا من دقة الحس اللغوى، وهيأ له ما أهله حتى صار بحق من أعلام اللغــويين. فإذا باعد الزمان بيننا وبين كامل حسين فسنقدر الــرجل قدره وقد لا يحيينا اللــه حتى نشهد آراء الرجل وقد تبــوأت مكانها الحقيقى، ولكن أجيالا لاحقة ستشـهد بفضل هذا اللغوى الكبير. وأقل ما يجازى به كامل حسين هو أجر، لأنه اجتهــد، ولكن جزاء كامل حسين الحقيقى لن يكــون أجرا فحسب ولكنه سيكــون أجرين مضــاعفين، لأنه اجتهد وأصاب حين لم يكن هناك اجتهاد ولا تقدير للصواب.

□

وسنعرض الآن الجزء الأول من مقدمة كتاب «اللغة العربية المعاصرة»، وهو آخر كتب كامل حسين، وسنعرف كيف كــان كامل حسين أمة فى الاطلاع اللغــوى، ومع ذلك لم يدخله اطــلاعه هذا فى زمرة من الثلاث عشرة التى يتحدث عنها حيث يقول:

(١) الذين يــريدون العودة بــالفصحى العالية إلى مــا كانت عليه فى صــدر الإسلام، مثلهم كمثل أهل الكهف حين حسبوا أن ورقهم وهى غير زائفــة يمكن أن تكون عملة رائجــة يقضــون بها حوائجهم.

(٢) والذين يبحثون فى أصول اللغة كما وضعها القدماء، مثلهم كمثل علماء الحفائر عملهم له قيمته التاريخية الكبرى دون أن يكون ذلك مدعاة للاحتذاء بما يجدونه فيها.

(٣) والذين يـؤمنون بقـواعد اللغة كما وضعهـا الأقدمـون، مثلهم كمثل الذين لا يـزالون يؤمنون بأن السماء تدور حول الأرض، وأن الكواكب لها مدارات تسير فيها يمكن حسابها كما كان يحسبها صاحب المجسطى.

(٤) والذين يقصرون عملهم على ما عـرفه القدماء، مثلهم كمثل الـذى يسير فى طريق وعرة محمولا على عربة من خشب تجرهـا دابة منهوكة وعلى بعد خطوات منـه طريق واسعة معبدة تقطعها السيارات فى دقائق.

(٥) والـذين يستخدمـون هذه القـواعد، مثلهم كمثل الـذى يستخدم مغـزل اليد فى غـزل الصوف وهو يسمع من حوله ضجيج الآلات التى تغزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحدة.

(٦) والذين يخلقون مشكلات نحوية معقدة ليظهروا للناس براعتهم فى حلها، مثلهم كمثل الذى يسير فى ظلمات الأطلال البالية تنسجها رياح جنوبية وشمالية، يفضل ذلك على أن يعيش فى بيوت نظيفة مشرقة.

(٧) والـذين تعجبهم (بهلـوانيـات) الصرف من إبـدال وإعـلال وقلب وفـروض عجيبـة، وبحثهم عن تصغير كلمة (سفرجل)، مثلهم كمثل الذين لا يقدرون أن (البهلوانيات) لا تعجب الناس إلا للتسلية والسمر وليس عليهم أن يأخذوها مأخذ الجد، وليس على المتعلمين أن يعملوا بها.

(٨) والذين يحرصـون على اتباع كل قـواعد النحـو، كبيرها وصغيرها، مثلهـمُ كمثل الذى يسير على حبل مشدود بين جبلين، وتحتـه ماء غـزير، وهـو يرى على مقربـة منه جسرا ثـابتا يستطيع أن يعبر عليه مجرى الماء فى سهولة آمنة.

(٩) والذين يعتقدون أن كـل ما فى المعاجم صحيح مهما كان فيها مـن المتناقضات، مثلهم كمثل الذى يفضل الغموض على الإبانة مع أن الإبانة أصل اللغات وسر وجودها.

(١٠) والذين يعتقـدون أن كل ما لم يرد فى المعاجم خطأ، مثلهم كمثل الـذى يدخل السجن طواعية واختيـارا ويضع نفسه تحت إمرة السجان وكان فى غنى عن ذلك لو قـدر قيمة الحرية وجمال الانطلاق الفكرى الحر، أو كـالذى يرفض أن يستضىء بالكهـرباء يفضل عليها سراج الزيت.

(١١) والذين يعتقدون أن الغوص فى المعاجم قد يخرج لنا دررا لا نعرفها، مثلهم كمثل الذى يبحث عن لؤلؤة صغيرة فى أكوام من القش، وقد يعثر بعد لأى فإذا هى لا تستحق ما بذل فى البحث عنها من جهد ووقت.

(١٢) والذين يريدون المحافظة على اللغة فيرفضون كل جديد، مثلهم كمثل الذى يريد أن يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتها بوضعها فى خزائن حديدية فتؤدى تلك المحافظة إلى ذبولها.

والمحافظة الصحيحة على الكائنات الحية لا تكون إلا بتطويرها وجعلها مطابقة للبيئة التى تعيش فيها.

(١٣) والذين يعتقدون أن الفصحى العالية تصلح لكل مقام، مثلهم كمثل الذى يصنع للجراح مبضعا من ذهب، ومنشارا من فضة، ومباعدا مرصعا بالجواهر، والعيب فى هذه الأشياء ليس التبذير فحسب، بل إن المعادن الثمينة لا تصلح لصنع هذه الأشياء. والمبضع الصلب الرخيص أصلح لما يراد منه من المبضع الذهبى الغالى!

□

يقدر كامل حسين العربية قدرها لا يزيدها ولا ينقصها، ويعتز بها اعتزاز العارفين المخلصين، ويريد لها أن تستعيد مجدها، فلا يقف عند التمنى وإنما يشمر للعمل، ويريد لها أن تصبح لغة العلم والفن فيقترح ما يهيىء لها ذلك. وينقد بعض جوانب العربية نقدا بناء يرمى إلى الإصلاح والتجديد.

وكامل حسين يرى فى الدعوة إلى العامية داء جديدا، ويقول فى معرض مهاجمتها (فى تعقيبه على بحث الأستاذ عزيز أباظة: الفصحى والعامية من زاوية جديدة): «كان الناس قديما يستحيون حين يجهلون، أما اليوم فيتبجحون حين يجهلون، فالمسألة كلها مسألة جهل»، وهو إذ يلمس الصراع بين العامية والعربية يدعو إلى مواجهته بتيسير العربية على الناس كتابة وقراءة وتعلما، وبهذا تحيا وتنتشر ويقبل عليها النشء فإن لم نفعل فسيعز أمرها على الناس فيستبدلون بها وسائل أخرى للتعبير.

أما الفصحى العالية فكامل حسين يقول فيها: «نريد أن ننقذ الفصحى العالية من عنت

الذين يعلمون وعبث الـذين لا يعلمون. والذين يعلمون يريدون أن يخنقـوها بما يحتمونه على المتعلمين من علم بقواعـد لا تعرض لـلأديب أو الكاتب، ولا يُعنى بها إلا المحترفـون من رجال النحو وهم الذين ألقوا فى قلوب المثقفين الرعب من لغتهم القومية واليأس من إتقانها».

وهو يرى من المستحيل أن نتجـاهل تطور الفكر العلمى كله أو أن نغفل الواقع الـذى يدلنا عليه مـا يلقاه المتعلمون فى العصر الحاضر من صعـوبة إزاء الفصحى العاليـة، وكامل حسين محب للغة حفى بها يخشى عليها عـوامل الزمن: «**أخشى أن يمتد التهاون باللغة فيصبح امتهانا لها واستهزاء بها**».

أما اللغـة التى يريدها كـامل حسين، فقد عبر عنها فى كلمتـه فى مقدمة بحثه أصـول علوم اللغة، حيث يقول:

«إنما يعنينا أن تكـون لغتنا دقيقـة فى غير تعقيد، واضحـة فى غير ابتذال، متفقـة وأساليب التفكير الحديث التى نشأنا عليها.

ونحن لا نخشـى الصعوبة إذا كان من آثـارها دقة الأداء وحسن التعبير واتساع التصورات التى تدل عليها الأساليب، ذلك أن اللغة أول مـا يتعلمه الإنسان وأول مرانه على التفكير المنظم، وأسلوب البحث فيها يؤثر فى عقلية الناشئين تأثيرا لا يزول. وعندى أن اللغة العربية ليست من الصعوبة بحيث يتصورها المحدثـون، فهى لغة ككل اللغات سلسلة طيعة لمن راض نفسه على درسهـا»، و «لا نستطيع أن نترك الحبل على الغـارب للكتـاب يفعلـون باللغـة مـا يشـاءون، فالبسـاطة ليست غـاية تراد لـذاتها، وليست اللغة السهلـة المهملة أداة صـالحة للفكر المنظم الدقيق».

□

وفى حفل استقبـاله عضـوا فى المجمع اللغوى يقـول: «أول مـا يجب أن نعنى به هـو العلم بـالعربيـة فإن أحـدا لا يستطيع أن يأتى بعمل ذى خطـر إلا أن يكون ذلـك بلغته، والـذين لا يملكون نـاصيتها يظلون حيـارى لا يقدرون على شىء من الأدب الـرفيع، ولا يستطيع رجال الأدب والعلم أن يقومـوا وحدهم بتهذيب اللغة تهذيبـا يجعلها وسيلة صالحة الأداء، فـالأدباء يريدونها طيعة، والعلماء يريدونها دقيقـة، وأهل اللغة يريدونها نقية، ومن أخص عمل المجامع أن تهيىء لها ذلك كله».

وهكذا كان فهمه لوظيفة المجمع اللغوى على أنها «المحافظة على سلامة العربية» (فى تعقيبه على بحث الأمير الشهابى «سوانح فى اللغة والمصطلحات»). والمحافظة على اللغة عنده «أن نحميها من أثر انصراف المتعلمين عن إتقانها وإعراضهم عن علومها» (من بحثه «حاجتنا إلى معجم مصفى»).

ونقاوة اللغة عند كامل حسين ليست كصفاء الثوب الأبيض يعيبه كل ما يلحق به، وإنما هى «كصفاء الماء فى الغدير الهادئ يؤذيه أن يظل راكدا فيأسن ولا يضيره ما يرد إليه من الماء إن كان صافيا «والماء الهادئ إذا اضطرب ذهب صفاؤه، واللغة إذا اضطربت ذهب رواؤها». (من كلمته فى حفل استقباله).

الفصل الأول

رأيه فى جنس العدد

فى الجلسة الثـامنة من جلسات مؤمـر الدورة الرابعة والعشرين (١٩٥٨/٥٧) قـدم كامل حسين مقترحه فى جنس العدد الذى نلخصه فى الفقرات التالية:

(١) قواعـد جنس العدد فى العـربية تعوق تفكير المتكلم أو القـارىء وبخاصـة فى المقالات العلمية، ونحن نستطيع أن **نجعل بعض القواعد أكثر مطـاوعة لحاجتنا متجنبين ما فيها من تعقيد دون أن نصوب خطأ فى اللغة.** وهذا هو المبدأ الـذى قدم كامل حسين مقترحه على أساسه.

(٢) ويتلخص مقترح الـدكتور فى أن **تكون للعدد حالات واحـدة تتعلق به وحده دون نظر إلى تمييزه** ونبقى على هذه الحالة وعليها تكون صورة الأعداد:

واحد ـ اثنان ـ ثـلاثة ـ عشرة ـ أحد عشر ـ اثنا عشر ـ ثـلاثة عشر ـ ... ـ واحد وعشرون ـ اثنان وعشرون ـ ثلاثة وعشرون ـ ..... مائة وواحد ـ مائة واثنان ـ مائة وثلاثة.. إلخ.

(٣) أما التمييـز فيلى العدد مجرورا بمن وعلى هـذا نقول خمسـة من الرجـال وخمسة من النساء وأحد عشر من الرجال وأحد عشر من النساء.

(٤) وقد التمس الدكتور لمقترحه بعض الآراء التى تقويه من آراء اللغويين القدامى فذكرها.

وبعد أن انتهى الدكتور من قـراءة مقترحه رحب أعضاء المؤتمر بمبدإ التيسير دون مساس بقواعد العربية، وقرروا شكر سيادته، وإحالة المقترح إلى لجنة الأصول لدراسته وتقديم رأيها فيـه إلى مجلس المجمع. وفى لجنة الأصـول، تقـدم المرحوم الأستـاذ الشيخ محمد على النجـار

ببحث عنوانه «العدد فى العربية» ذهب فيه ـ مدللا ـ إلى «أن القول باستقلال العدد عن معدوده لا يوافق ما جرى عليه العرب، وإذا التزم جر التمييز بمن فليس يقطع هذا ما بين العدد والمعدود من الاتصال والأمران سواء، وكذلك القول بإضمار تمييز فالتسوية فى العدد بين المذكر والمؤنث لا توافق العربية وهو رجوع بها إلى القهقرى». وعلى هذا فإن لجنة الأصول (والكلام للأستاذ النجار فى بحثه) لا تسعها الموافقة على هذا الاقتراح، وهى تعرف لصاحب **الاقتراح** ألمعيته وغيرته على العربية، وتشكره على ما يبذل فيها من جهد.

ويبدو أن الأمر فى لجنة الأصول احتاج إلى مذكرة أخرى فتقدم الأستاذ النجار مرة ثانية **بمذكرة** ركز فيها على معارضة الاحتجاج لمقترح الدكتور بحديث النبى ﷺ «من صام رمضان **وأتبعه** ستا من شوال..» مستشهدا بنصوص الأشمونى والصبان والأسفاطى والصفوى **والسبكى**.. **ثم قال**: «وجمهرة العلماء على عدم الاحتجاج فى العربية بالحديث لما يدخله من **الرواية بالمعنى** وكثرة الرواة من العجم غير السليقيين».

□

ثم تقدم الأستاذ إبراهيم مصطفى (صاحب إحياء النحو) بمذكرة ثالثة ذكر فيه أولا أنه إذا **جاء المعدود** مقترنا بمن لم تجر عليه أحكام تمييز العدد، واستشهد لذلك من القرآن بقوله تعالى: ﴿**ولقد أتيناك سبعا من المثانى**﴾ [الحجر:٨٧] وبقوله: ﴿**بثلاثة آلاف من الملائكة**﴾ [آل عمران: ١٢٤]. وقال الأستاذ إبراهيم مصطفى: «إن الوجه الذى خرج عليه النحاة الآية الكريمة ﴿**وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما**﴾ [الأعراف: ١٦٠] ليكفى فى تخريج ما نقول، فإنه إذا كان تقدير مميز محذوف مستساغا فى كلام الله تعالى فإن تقدير مميز فى كلامنا أيسر وأقرب، وليس فى مقترح الدكتور كامل إلا تسويغ هذا التقرير ليصح ما اقترح ويساير قواعد النحاة.. وتحدث الأستاذ إبراهيم مصطفى عن أن قواعد التذكير والتأنيث سارت فى العربية على نمط مطرد ألفه المتكلم وجرى عليه ثم يساق إلى معارضته فى باب العدد كأنما كلف لغة أخرى.

ورد الأستاذ النجار على الأستاذ إبراهيم بمذكرة رابعة قال فيها إنه لم يقف على سند لما ذكره الأستاذ إبراهيم مصطفى أولا، والتمس عللا بلاغية للآيات التى استشهد بها الأستاذ

إبراهيم وانتهى فيها إلى تكـرار قوله (فى مذكرتـه الثانية) «أما التجوز فى تـذكير العدد إذا كان المعدود مؤنثا فلم يرد فى النصوص».

□

وبعد دراسة تقدمت اللجنة إلى مؤتمر المجمع بقرارها:

(١) ترى اللجنة أن مقترح الـدكتور كامل حسين فى جنس العدد مخالف للقـواعد وليس به تيسير.

(٢) ترى اللجنة أن مذكرة الأستاذ إبراهيم مصطفى تحتوى رأيا فى جنس العدد غير مقترح الدكتور كامل.

وأعاد مؤتمر المجمع فى دورته السابعة والعشرين إلى لجنة الأصول المقترح والمذكرات ورأى اللجنة.. وتقـدم الأستاذ أمين الخولى بمذكـرة إلى لجنة الأصول دلـل فيها من كلام الأسـاتذة الثلاثة على اتفاقهم أن فى الأمر صعوبة، ثم نظر فى بعض المناقشات، ثم تناول موضوع مخالفة العدد للمعـدود وذكر نصـوصا من الأشمونى والصبـان والنووى والصفـوى وجاوز المقترح الخاص إلى النظر فيما يـدفع صعوبـة هذه المخالفـة بأية وسيلـة، فاقترح تقـديم المعدود على العدد، وعارض الدكتور كامل فيما يتعلق بـواحد واثنين وذهب إلى أنهما مفردين لا يكونان من الأعـداد الثابتـة كما يرى الـدكتور كـامل، ولا يذكـران، لأنهما لا يكونـان إلا صفة فقط بعـد موصوفها تذكيرا وتأنيثا. أما فى تركيبهما وعطفهما فيكونان من الأعداد الثابتة صيغة التأنيث.

□

وفى الجلسة التاسعة من جلسات المؤتمر فى الدورة الثامنة والعشرين تقدمت لجنة الأصول بما انتهت إليه بعـد إعادة بحث الموضـوع ومناقشة مـذكرة الأستـاذ الخولى وهو «من أراد فى الكتابة العلمية مثلا أن يتلافى الصعوبة فى مراعـاة قواعد العدد من ناحية مخالفة العدد المعدود تذكيرا وتأنيثـا جاز له استعمال كلتا الصـورتين. إذا قدم المعدود على العدد وكـان اسم العدد صفة». وكـان للأعضاء بـالمؤتمر تعقيبات على الموضوع فى جلستهم هـذه اشترك فيها كل من

الأستاذ أمين الخولى، والشيخ محمد على النجار، والدكتور كامل حسين، والدكتور عمر فروخ، والأستـاذ زكى المهندس، والأستـاذ إبراهيم اللبـان، والأستاذ عبـاس العقاد، والأستـاذ أنيس المقدسى، والدكتور عبد الحليم منتصر، والأستاذ عبد الفتاح الصعيدى، والدكتور محمد مهدى علام، والدكتور إسحق الحسينى. وامتدت هذه التعقيبـات فشملت قضايا الحفاظ على العربية وكيف يكون ذلك الحفـاظ؟ وإلى ضرورة تعليم مثل هذه القواعد حتى تصير إلى السهـولة عند المتعلمين. وذهب الأستاذ العقاد يفسر كيف نشأت المخالفـة بين العدد والمعدود بمبررات عقلية قال عنها الأستاذ أمين الخولى إنه لا حاجة لالتماسها للظواهر اللغوية.

وحـاول الدكتـور كامل غير مـرة فى أثناء النقـاش أن يستحث الأعضاء على مبـدإ التيسير والتسهيل. وهاجم كتـاب الأشمونى وقـال إن الصورة التى فى ذهنـه له هى أنـه (جحر ضب خرب)، ووصف الألفية بأنها تمثل الستار الحديدى القائم بين اللغة وبين أهلها.

وقد استدعى هذا مـن المحافظين الرد على الدكتور كامل، وقال الأستـاذ اللبان: «إن الباعث الـذى حمل الدكتـور كامل يجب ألا يخطئـه المؤتمر، فهـو الغيرة على اللغة». وفى النهـاية قـال الدكتور إبراهيم مدكور: «أعتقد أن المؤتمر استمع إلى تقرير اللجنة واكتفى به، ومعنى ذلك أننا لم نتخذ قرارا ولكنى أعتبر قرار اللجنة توضيحا لأمر واقع».

□

ولم يقتنع الدكتور كامل بقرار اللجنة ولا بقرار المجمع وظل على رأيه، ذلك أن هذا الرأى لم يكن نزعة عابـرة دفعت إليها ظروف وإنما كان جزءا من نظرة كـامل حسين الشاملة إلى اللغة. وفى الجلسـة الثانيـة من جلسـات مؤتمر الـدورة الثـلاثين، عقب الـدكتور كـامل حسين على محاضرة للأمير الشهابى فقال فيها: «إنه من الصعب بل من المستحيل إحياء قواعد العدد عند الرياضيين، وقد سبق أن اعترف العـرب بذلك وقال سيدنا محمد ﷺ: إننـا أمة أمية لا نقرأ ولا نحسب، وكـانت فديـة الملك ألف بعير وهى أقصى ما يتصـوره الرجل العـربى، ويكفى تفكير الرجل أن يميـز العدد ٢٥ ثم يقول ٣٠ مـن المائة وليس من الممكن أن نقول ٣٩٧٩ من العشرة آلاف». ثم حذر من أنه «إذا أريـد إحياء العربية فى العدد فسوف يميت رجـال اللغة الحساب»، «ولو أن أوربا أبقت على الأعداد الرومانية لكانت الآن تركب الحمير كما كانت تركبها من قديم، لأنه لا يمكن علم بدون الرياضة، ولا يمكن تقدم للريـاضة مع الإبقاء على قواعد اللغة فى كتابة الأعداد».

الفصل الثانى

اللغة العلمية :

نوجز هنا أهم أفكار الدكتور كامل فيما يتعلق باللغة العلمية، وقد وردت هذه الأفكار فى مواضع كثيرة لعل من أبرزها خمسة مواضع هى: بحثه «اللغة والعلوم» الذى ألقاه فى افتتاح مؤتمر الدورة الثانية والعشرين، وفى مقدمة بحثه «القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية» الذى قدمه إلى مجلس المجمع فى جلسته التاسعة والعشرين، من الدورة الثانية والعشرين، وفى ثنايا بحثه «حاجتنا إلى معجم مصفى» الذى قدمه فى الجلسة التاسعة والعشرين، من جلسات مؤتمر المجمع فى دورته الرابعة والثلاثين، وفى تعقيبه على بحث الدكتور محمود الجبيلى عضو المجمع العلمى العراقى الذى ألقاه فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الثالثة والثلاثين، وفى تعقيبه على بحث الدكتور حسنى سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق «متى تدخل المصطلحات العربية دائرة الاستعمال» الذى ألقاه فى الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة السادسة والثلاثين.

□

يقرر كامل حسين فى البداية أنه ليست هناك لغة تقصر عن مدارك أهلها، وإذا بدا لنا فى لغة ما قصورا فذلك فى الحقيقة راجع إلى أهلها لا إلى ذات اللغة. ويتعرض لقضية غنى اللغة فيقرر أن كثرة المترادفات، وإن عدت دليلا على سعة اللغة، فهى عيب، و لابد من فروق دقيقة بين المترادفات. إنما يكون الغنى فى اللغة بكثرة التصورات والأفكار. واللغة التى لا يضاف إليها شىء مدى ثلاثة عشر قرنا قد تجد نفسها أقل من غيرها.

ويفرق كامل حسين بين لغة العلم ولغة الأدب، فيقول إن الصفات التى تدل على قوة اللغة العلمية تختلف تماما عن الصفات التى تدل على قوة اللغة عموما، ولا يضير العربية أن يكون أسلوب العلم مختلفا عن أسلوب الأدب، بل لابد أن يكون هناك فرق ما. ويرى أن الصورة العلمية التى يجب أن تسير عليه لغة العلم فى العربية هى الاطراد بحيث يكون القياس صحيحا دائما. ويذهب كامل حسين إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن اللغة لغتان: لغة تفاهم وهى الوسيلة التى نعبر بها عن مشاعرنا وآرائنا تعبيرا يراد به نقل هذه الأمور إلى غيرنا، وللألفاظ فى هذه اللغة قوة ذاتية تأتيها من ملابساتها وموسيقاها وتاريخها.. ولغة الفهم التى تختلف باختلاف موضوعاتها وهى لغة العلم.

□

وصفات اللغة العلمية أن تكون مطابقة لروح العلوم، محددة الألفاظ، واضحة المدلولات، بعيدة عن المتشابه من القول، بسيطة الأسلوب، قابلة للنمو، ذات طبيعة تسمح بالتصنيفات العلمية الحقة التى تبنى على صفات لها خطرها. وكامل حسين يطلب للعلم لغة عربية صحيحة ولو فى أدنى مراتب الصحة، فالمهم فى اللغة عنده أن يتعود الطالب الكلام بها صحيحة وألا يكون فى حاجة إلى تذكر قواعدها عند كل خطوة، وإلا اضطر إلى الخطإ فى حقها إن كان فى ذلك ما يعوق تفرغه للتفكير فى موضوعه. ومن ثم فيجب أن نفرق بين اللغة الأدبية الفصحى وهى متأنقة، وبين لغة العلم التى تدل على حقائق ووقائع، أى بين ما هو فصيح وما هو صحيح. وكامل حسين يدعو تارة إلى الفصيح، وتارة إلى الصحيح، ولكنه يدعو إلى الفصيح عندما يتحدثون عن الأفصح فيقول إن كلمة الأفصح تعنى وجود الفصيح الذى ندعو إليه، ويدعو إلى الصحيح عندما يذكرون الفصيح فيجعل الصحيح للعلم والفصيح للأدب. وهو لا يفتأ يستحث المجمع على أن يضع أسس هذه اللغة العلمية فيقول: «وعلى المجمع أن يحدد أغراضه من وضع المصطلحات فإن كان يريد لغة علمية حية تمثل حياة العلوم الحديثة وتنمو بنموها فلذلك سبيل، وإن أراد إثبات سعة العربية وقدرتها وأنها لا تضيق اليوم عن وصف آلات وتنسيق أسماء لمخترعات فلذلك سبيل آخر.. وأحسب أن الغرض الأخير لا يليق بالمجمع ولا بالجهود التى يبذلها.

□

ولغة العلوم مهما يكن من أمـر مصطلحاتها ومعاجمها لا تصلح وحدهـا لتقدم العلوم، بل لابد من أن يكثـر التأليف العلمى حتى يستقر أسلوبـه، ولهذا فقد حان الـوقت كما يقول «لأن نـؤلف دائرة معارف عـربية تكـون هـاديا للمـؤلفين العلماء، فإذا أرادوا نشر بحث علمى لهم وجدوا فى هذه الدائرة مـا يبغونه فيدخلون مؤلفهم فى الإطار الـذى تحدده الموسوعة ويحتذون أسلوبها، وهـو عمل أرى ألا نتأخر فيـه كثيرا حتى تستقر لغة العلـوم فتكون لغـة حية وعلما حيا. ومن الآراء التى تمسك بها كامل حسين وكررها غير مرة أن وجود اللغات الميتة من حسن حظ العلم والعربيـة لا من حسن حظ اللغات الأوربية وحـدها، ومن ثم فلا تثـريب علينا نحن العرب إذا استعنا بكلمات من هذه اللغات فى لغتنا العلمية.

الفصل الثالث

المصطلحات العلمية

فى الجلسة الثانية عشرة من جلسات مجلس المجمع فى دورته الحادية والعشرين، تقدم الدكتور كامل ببحث عنوانه «القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية» أشار فيه إلى أن الكثير من مستقبل الحياة العلمية فى البلاد العربية يتوقف على التوفيق فى وضع المصطلحات العلمية. واستطرد إلى المطالبة بجعل هذه المصطلحات صورة حية لتطور العلوم، دقيقة، منظمة، قابلة للنمو، وهذا ما لم يتحقق فى المصطلحات التى وضعها المجمع فى دوراته السابقة على حد تعبيره.. ومن ثم فقد اقترح بعض القواعد التى تحقق ما أشار إليه آنفا:

(١) كل مصطلح علمى خلق خلقا جديدا خاصا، ويكون من أصل كلاسيكى، ويكون دالا على عين من الأعيان، **يجب تعريبه** (كالهيدروجين)، وإذا وجدت كلمة فى العربية تدل على هذا العين فلا تستعمل مصطلحا علميا بل تبقى جزءا من اللغة العامة.

(٢) كل مصطلح علمى خلق خلقا جديدا، ويكون من أصل كلاسيكى، ويكون دالا على تصور علمى خاص **يجب تعريبه**، مثال ذلك الإنزيم والأيون والإلكترون لا تترجم لأن ترجمتها تذهب ببعض قيمتها من حيث هى مصطلح علمى.

(٣) كل مصطلح يتبين أنه جزء من تصنيف عام **يجب تعريبه**، ومن هذا أسماء الأجناس والأنواع فى الحيوان والنبات وسلسلة المواد المتشابهة كيميائيا.

(٤) كل مصطلح انتزع من اللغة العامة ليدل على معنى علمى خاص يترجم: (المناعة Immunity) (الكبت: Refoulement) لانتفاء الحاجة إلى جعلها اسم عين أو اسم تطور خاص،

ولأنه لا بد من فهـم أصلها قبل الوصول إلى فهم مدلـولها، وليس ذلك الشأن فى أسماء الأعيان حيث تمكن دراسة (الأكسجين) دون معرفة أصل اشتقاقها.

(٥) لا يكـاد النحت يوجـد له محل فى المصطلحـات، فهو أثقل على الأذن من التعـريب، ولا داعى له أبدا.. وعنـده أن كلمة (كلويد) على ثقلها فى كل اللغـات أخف من (الشبغروى)، ثم هى ليست غروية ولا شبـه غروية فى الواقع، فنكون قـد أخذنا بالنحت كلمـة ثقيلة ظنا أنها أسهل فهما، وفى سبيل الوضـوح المزعوم أصبحت خطأ. (والكلـويد) من أسماء التصـورات الخاصة التى يصح أن تعرب حتما (كما سبق فى ٢).

(٦) ويحتاج الأمر إلى وضع قواعد للتعريب تجعله وافيا بأغراضه:

- ☐ مشكلة البدء بالساكن، وقد حلت فى الأعلام بإضافة ألف فى أول الكلمة، ولا يجوز ذلك فى المصطلحات العلمية، وإنما يكسر الحرف الأول كسرة خفيفة على ألا يتبع ذلك ياء، وإنما يكون ذلك من باب التخفيف كما عمل العلماء فى النطق بالأسماء الهيروغليفية.
- ☐ لابد من تقسيـم المصطلح العربى إلى أصولـه فى الكتابـة إذا كان طـويلا وإلا أصبح فى النطق مستحيلا.
- ☐ لا مفر من استبـدال الحروف بالحركات، والاعتماد على الشكل فى المصطلحـات العلمية فيه القضاء على هذه المصطلحات لأن أحـدا من العلماء لن يشكل هذه المصطلحات عند كتابتها وهى أكثر من أن يحفظها القارىء مشكلـة، أما تركها دون شكل فهو الفوضى بعينها، وإذا كان المجمـع قد قرر كتابتها كما تكتـب الألفاظ العامة العربيـة فأرجو أن يعدل عن هذا القرار.

(٧) وقد يكون التمسك بطريقة العرب فى التعريب محبوبا ولكنى لا أرى ما يدعو إلى جعلها قاعدة، فكثرة الطاءات كانت مقبولة فى الذوق العربى القديم، وربما لا تكون ضرورية فى ذوقنا.

☐

وأظنك تـوافقنى إذا قلت إن كامل حسين كـان رائدا لاتجاه تعريب المصطلحـات فى المجمع اللغوى بعد أن رأيت نقاطه السبع السابقة تدور حول التعريب، تجعل التعريب هو الوسيلة فى ثلاثة أنواع من المصطلحات، والترجمة وسيلة لنـوع واحد، ثم يخصص نقطة من نقاطه السبع ليبين أنه لا محل للنحت، ثم يذهب فى النقطتين الأخيرتين إلى وضع قواعد للتعريب حتى يتغلب بها على الصعوبات.

وقـد عقب الدكتـور منصور فهمى على بحث الـدكتـور كامل حسين مخالفـا له فى الـرأى للأسباب الآتية:

(١) جعلت اللغة ليتصـور منها النـاس المدلولات بحـروفهم ولغاتهم ولـو فى أضيق حدود التصويـر، ولكى يتفاهموا.. ولو فى أدنى حـدود الفهم. وتحليل الصيغ وتنشيط الوعى العلمى ووضعه فى أساليب عربية عون بـلا شك على خلق روح علمية وتراث ذهنى يسهم به العرب فى ميدان العلوم الإنسانية البحتة والتطبيقية.

(٢) لا يـرى الدكتـور منصور فهمى أن كلمـة ما من الكلمات العـربية قـد تقف فى سبيل المصنفات العلمية.

(٣) وإذا كان بناء المصطلحات العلمية الشاهق قد قام على أصول إغريقية لظروف تتصل بتاريخ الحركة العلمية عند الأوربيين، فجدير بنا أن نضع بناء شاهقا فى لغتنا.

□

وردّ الدكتور كامل حسين بأن اللغة العلمية ليسـت مسألة كرامة، وأن اللغة العلمية ليست إنجليزية أو فرنسية أو عربية، وإنما تقوم على الدقة والترتيب والقبول للنمو. واشترك الدكتور أحمد زكى فى المناقشة فأبدى إعجابه ببراعة كـامل حسين فى صياغة بحثه، وأعلن أنه لا يوافق كامل حسين فى العدول عـن النحت، وقال: إن العلم كان ارستقراطيا ثـم تمقرط. وتساءل كيف يتقبل الـدكتور كامـل الكلمات فى لغاتها الأصلية ولا يـرضى أن نتقبلهـا عندما تترجـم. وقال الأستاذ مصطفى نظيف إنه لا يجد داعيا للبحث عن ألفـاظ عربية لا تستعملها الجماهير، وأنه يوافق على أن يكـون للعلماء الرأى الأول فى مصطلحات علومهم. ودخل الأستـاذ العقاد الحلبة فأبدى رأيه فى تقسيم المصطلحـات من حيث التعريب إلى ما لا مقابل له (كـالأكسجين) وما له مقابل، وقال إن الدكتور كامل حسين ترجم Refoulement بالكبت، والصحيح أنها التعويق أو الإحباط أو الحرمـان، وفى هذا دلالة (حسب مـا يقول العقـاد) على أن العلم ليس حكرا على من يعالجون العلم نفسه.

□

ودخل كامل حسين المناقشة مرة ثانية ليقول إن كل ما نطلبه هو أن نجعل التعريب أول ما نلجأ إليــه فى المصطلحــات، وأشــار إلى أن الترجمة للمتعلمين لا تغنــى عن المصطلح فى بعض الحالات. وأشار الدكتــور عمار إلى قاموس الدكتور شرف وهــو عمل فردى، واستلفت الأستاذ عبد الوهاب خلاف النظر إلى كتب القانون التى صارت إلى اللغة العربية، وتساءل الدكتور طه حسين: هل أحطنا حقا بكل المصطلحــات العربية القديمة؟ واقترح استكمال المنــاقشة فى جلسة أخرى.

☐

وفى الجلسة العشرين قال الأستاذ زكى المهندس: إن قسم الـرياضة فى علوم عين شمس قد بدأ يدرس بالعربية، وأعلن الرئيس أننا لسنــا ملزمين بما سلف، لا نقيد أنفسنا بقواعد جامدة، واقترح العقاد أن يقـدم كامل حسين أمثلة من الألفاظ مثــار انتقاده (من التى سبق للمجمع أن وافق عليها)، فإذا ثبت أن المبدأ الأسـاسى غير ملائم عدلنا، فوافق كامل حسين على ذلك.

☐

وكانت نظرية كامل حسين فى وضع المصطلحات العلمية ببساطة شديدة هى **أنه يفضل أن يتبنى طفلا أجنبيا سليما على عربى مشوه**، ولهذا كان يرجو ألا نعدل عن الألفاظ الأجنبية السهلة والمعروفـة لكل إنسان لنحصل على ألفاظ قبيحة حتى وإن شــاعت، «فشيوع مثل هذه الألفاظ لا يكفــى لتسويغها»، والأمــر فى ذلك عنـده يشبه تماما أننــا لا نستطيع أن نقتصر على الكارو لأنها كانت منذ ٣٠ عاما.

وقد صــدر هذا الكـلام من كامــل حسين حينما كان المؤتمر فى جلسته الثــانية مــن دورته الثلاثين يناقش قوائم مصطلحات الجيولوجيا وجاء تعبير البطنقدميات.

☐

ولما اقترح الأستاذ أمين الخولى الأخذ بالتركيب المزجى عند الحاجة أو الضرورة على أساس مقابلة المصطلحات الأوربية لتحقيق تثنيتها وجمعها والإضافة إليها (فى الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الحادية والثلاثين للمجمع)، قال كامل حسين إنه لا وجود لهذه الضرورة المشار إليها فيجب منعه كل المنع لمخالفته للذوق العربى. ولكن لجنة الأصول انتهت إلى قرار تضمن أنه (يجوز صوغ المركب المزجى فى المصطلحات العلمية عند الضرورة)، وأضاف المؤتمر إلى قرار اللجنة (على ألا يقبل منه إلا ما يقره المجمع). واعترض كامل حسين وطلب تسجيل اعتراضه على القرار كأنه أراد أن يبرىء ذمته أمام اللغة والأجيال القادمة من موافقة على شىء يأباه الذوق العربى، وسُجل اعتراضه واعتراض الأستاذين محمد الفاسى وعبد الفتاح الصعيدى.

□

كانت غاية كامل حسين أن نجعل العربية حية فى مصطلحاتها، وكان يرى أن التعريب هو وسيلتنا الناجحة فى اختيار الألفاظ العلمية الحديثة، أما أن نرغم القديمة على أن تتخذ ثوب اللغة العلمية الحديثة، فهذا يجعل اللغة العربية لا تستعمل إلا فى المعاجم وفى مجلة المجمع. أما خلق المصطلحات من العدم، فقد استبعدها كامل حسين تماما. وكان لا يرى ترجمة الأصول اللاتينية والإغريقية لهذه المصطلحات إلى العربية (وهى الطريق المحببة إلى اللغويين) عملا مقبولا ولا معقولا. وأولى الصفات التى يجب توافرها فى المصطلح العربى عند كامل حسين هو أن يكون لفظا لا عبارة، وأن يكون غريبا، فسر نجاح المصطلح يكمن فى غرابته، وبعده عن المتشابه. وقد برز اتجاه كامل حسين واضحا فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية فى لجنة الطب بالمجمع عندما ألقى الدكتور أحمد عمار بحثه (دعوة إلى التزام خطة منهجية فى **صوغ المصطلحات الطبية**) فى الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة السابعة والعشرين داعيا فيما دعا إلى ألفاظ عربية فى المقام الأول، عقب كامل حسين بالمعانى التى أوردناها فى فقرة سابقة.

ونجدنا مضطرين هنا إلى أن نكرر قول كامل حسين الذى كرره من أن اللجوء إلى اللغات الميتة فى وضع المصطلحات لكونها ميتة نعمة ليس لنا أن نقصر الاستمتاع بها على غيرنا.

□

وفى الجلسة الرابعة والعشرين من جلسات المجلس فى الدورة الثلاثين قدم الدكتور كامل حسين اقتراحا آخر بشأن النهوض بالمصطلح العربى. وعلى عادته فى المقدمات المنطقية الإحصائية اللطيفة، قال إن المجمع أقر ألفا وخمسمائة من المصطلحات فى العام المنصرم، وإذا كانت مصطلحات علم الكيمياء كما ورد فى إحصاء أخير حوالى نصف مليون، على هذا فلا بد للمجمع من ألف عام حتى ينتهى من مصطلحات اليوم إذا سار على هذه الطريقة. وقال الدكتور كامل: إن فى مصر ثلاثة آلاف من المشتغلين بالعلوم، ولو بحث كل واحد منهم مصطلحا واحدا لجاءونا بثلاثة آلاف مصطلح. واستطرد إلى الدعوة إلى إشراك العلماء مع المجمعيين بمنهج مدروس. وقال الدكتور كامل: إن ثلاثة أرباع القديم من المصطلحات عند أسلافنا قد بحث واستعمل الصالح منه وبقى القليل وهو لا يحل المشكلة الكبرى.

ووصف هذا الباقى بأنه ثروة غير قابلة للتداول تخالف المعنى الحديث، وكأنى بالدكتور كامل يرد على سؤال الدكتور طه حسين الذى وجهه أثناء مناقشة بحث الدكتور كامل (القواعد العامة للمصطلحات العلمية)، وخلص إلى القول بأن نظرية الاستعانة بالقديم لا فائدة منها. وبدأ الدكتور كامل حسين يمس الموضوع، فيقول إن المصطلح بطبيعته هو الذى يحدد هل يعرب أو يترجم أو يبحث له عن كلمة فى المعاجم، ونحن نريد أن نشجع العلماء على أن تأخذ من كلام الناس وأن تبحث فيه. ونرى مدى استقامته مع ذوقنا العربى «فإن أعجبنا أخذناه، وإن كان لا يستقيم رفضناه». وعبر عن نظرته إلى قاعدة الإلزام بالمجمعيات «فقال إنه ليس لنا أن نضع للناس ما يقولونه، وإن كان من حقنا أن نخلق كلمات فإنه حق لنا كأدباء وككتاب وليس كمجمع، وعليه فإننا نطلب من أعضاء المجمع كأفراد ولما لهم من مكانة أن يستعملوا هذه الكلمات، فإذا ذاعت نأخذها ونرى إذا كان من الممكن أن نضمنها المعاجم أو لا».

□

ونبه كامل حسين إلى أنه لا بد من بلورة خبرة المجمع فى ثلاثين سنة فى وضع المصطلحات، ودعا إلى تأليف لجنة لوضع نماذج للمصطلحات العلمية الحضارية يأخذ العلماء فى النسج على منوالها حتى ينتهى المجمع من هذا الأمر فى وقت معقول.

وبدأ الأستاذ محمد خلف الله المناقشة، فاستبعد فكرة النموذج كقاعدة ملزمة، واقترح أن يكون هناك جهازان: جهاز يصفى الكتب القديمة، والآخر يتتبع ما يستعمله العلماء.

وذكر الدكتور إبراهيم مدكور أن المجمع قد اهتدى بآراء كامل حسين السابقة فى التعريب والترجمة، وعبر عن تخوفه من جمود النماذج، وأشار إلى أن الوعى اللغوى فى تقدم، وأعرب عن اتفاقه مع كامل حسين فى تسجيل الاستعمال الشائع لألفاظ الحضارة ما دام لا يتعارض مع أصول اللغة. واقترح الدكتور محمد مرسى أحمد وضع فهرس فى آخر الكتب المترجمة يشمل كل المصطلحات التى وردت فى الكتاب، وتعرض لقول الدكتور كامل فى إشراك المشتغلين بالعلوم: كل يضع مصطلحا واحدا، فقال: إن كامل حسين متفائل. وعبر الأستاذ على عبدالرازق عن تأييده لاقتراح كامل حسين، وأبدى رغبته فى أن يكون اقتراحا مكتوبا حتى يناقش.. وذكر الأستاذ النجار أن لكامل حسين مقترحا سابقا. رد عليه الدكتور منصور فهمى واقترح ضم المقترح والمذكرة إلى المقترح الجديد وتوزيعها. واستكملت المناقشة فى الجلسة الثلاثين وتقدم الأستاذان عبدالفتاح الصعيدى ومحمد خلف الله بمذكرتين فى الموضوع، واقترح الدكتور السنهورى تشكيل لجنة لبحث الاقتراح تضم الرئيس ونائبه والأمين العام وأصحاب الاقتراحات، ولكن طه حسين قال إن موضع الصعوبة فى اقتراح كامل حسين أنه يلغى وجود المجمع اللغوى. وقال كامل حسين إن عرض الألفاظ كلها على المجالس لمناقشتها لا ضرورة له، والفكرة أن يضع المجمع الأسس للمصطلحات لا أن يناقش الألفاظ لفظا لفظا لأن هذا عمل لا ينتهى. وقال الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى: إن كل ما يدعو إليه هو تفضيل اللفظ الواحد فى المصطلح على اللفظين، والعربى على المعرب، والمصطلح العربى القديم على الجديد، واستخراج المصطلحات من الكتب العربية القديمة، وهذا كله ليس إلا تطبيقا لقرارات سابقة، ورد الدكتور محمد مرسى أحمد بأنه لا يوافق على جدوى النظر فى المصطلحات القديمة.

وقال الدكتور طه حسين: إن الأعمال المجمعية تستغرق أجيالا، وقال الدكتور محمد أحمد سليمان: إنه ليس من مهمتنا إنشاء المصطلحات العلمية، وعبر الأستاذ النجار عن ارتياحه لمنهج مجمل بالنسبة لمن يقومون بوضع المصطلحات، وطلب أن يوزع النموذج على العلماء.

□

□□ علم دراسة الأدوية أم الأقرباذين :

فى الجلسة التاسعة والعشرين لمجلس المجمع فى الدورة الثانية والعشرين، عهد إلى الدكتور كامل حسين بدراسة مقترح الدكتور عبد العزيز شرف الرامى إلى أن يستبدل بكلمة علم

الأقرباذين «علم دراسة الأدوية». وفى الجلسة الأولى من جلسات المجلس فى الدورة الثالثة والعشرين، قدم الدكتور كامل حسين تقريرا عما عهد إليه المجمع بدراسته نوجزه فيما يلى:

(١) وافق الدكتور كامل صاحب المقترح على أن الكلمة المعربة (الأقرباذين) لا يدل أصلها الفارسى على كل ما يتناوله هذا العلم، وأن «دراسة الأدوية» أعم وأشمل.

(٢) ولكنى لا أرى فى هذا ما يدعو إلى تغييرها، لأن التحديد الدقيق لمعانى أصول الكلمات المعربة ليس مطلوبا فى المصطلحات العلمية، ومهما يكن من أصلها فقد أصبحت تدل على دراسة بعينها معروفة ولها معنى محدد لا يتعلق بمعناها الفارسى، وتحديد موضوع بحوث هذا العلم يتم دون حاجة إلى معرفة أصل اشتقاق الكلمة.

(٣) وفيما يتعلق باصطلاح (دراسة الأدوية) قال الدكتور كامل إنها كلمة عامة لا يتعين بها موضوع علم الفارماكولوجيا، وقد تتناول أمورا لا علاقة لها بدراسة تأثير الأدوية فى الجسم وهو أخص ما يتناوله هذا العلم.

(٤) وانتهى الدكتور كامل إلى القول بأن الكلمة المعربة صالحة لأن تكون مصطلحا علميا، والاستعمال هو الذى يحدد معناها لا الاشتقاق.

وعقب الأستاذ عبد الوهاب عزام والدكتور أحمد عمار، فذكرا أن أقرباذين أصلها يونانى لا فارسى، وقال الدكتور أحمد زكى إن أقرباذين تمثل معنى خاصا بخلاف دراسة الأدوية فإنها تحمل معنى عاما، وليس الأقرباذين إلا فرعا، ودعا إلى النظر فى مجموعة الكلمات المتعلقة بهذا العلم وهى:

pharmacologia,
pharmacognosy,
materia medica,
and pharmaceutical.

فوافقه الدكتور كامل قائلا: إن المنهج الصحيح فى دراسة المصطلحات دراستها بالموضوع لا بالكلمة، وقال: «وقد شاعت الاقرباذين لـ Pharmacologia واستعملها الأطباء فى هذا المعنى ودخلت كتب التعليم». واقترح الأستاذ أحمد حمروش أن تحال الكلمات الأربع إلى لجنة الطب لتقديم رأيها فى شأنها، فوافق المجلس بعد أن قرر قبول مذكرة الدكتور كامل حسين.

الفصل الرابع

أخطاء اللغويين ومفاهيمه اللغوية

فى جلسة من جلسات المجلس فى الدورة الثانية والثلاثين، تقدم الدكتور كامل حسين ببحث عنوانه (أخطاء اللغويين) سنعرض له بعد قليل.

أما ما دفع كامل حسين إلى تقديم هذا البحـث، فهو بحث للأستاذ الشيخ محمد على النجار خطأ فيه كلمات لم يـر الدكتـور كامل تخطئتهـا على هذا النحو، فنقب فى بحـث الشيخ النجار فوجد فيه ما يمكن مناقشته لغويـا على أنه خطأ، وتوصل الدكتور كامل إلى أن أخطاء اللغويين أكثر من الأخطاء الشائعة.. فجمع هذه الكلمات وضمنها بحثه أخطاء اللغويين.

□

قدم الدكتور كامل بحثه بحـديث عن عصر تحكم الأجرومية (ومحله موضع آخر فى فصل تالٍ من هذا الباب)، وخلص إلى أن اللغة ليست شيئا ذا بال إذا لم تكن عونا على التقدم الفكرى. ثم قال ملخصا أخطاء اللغويين:

(١) إن أكبر ما يبـاعد بين علـوم اللغة والتفكير الحديث أن اللغـويين يضعون المبنـى فوق المعنى، وأنهم يعنون بالصيغة أكثر مما يعنون بالـدلالة، والواجب أن يكون تحديد المعنى غاية البحث فى المبنى.

(٢) والخطأ الثانى منطق اللغويين فى فهم عبـارة (العربى لا يخطىء أبدا)، وهى فى الأصل

تدل على أن كل مـا ورد عن عربى صحيح، واللغـويون فهمـوا أنها تدل على أن مـا لم يرد عن عربى خطأ، «وشتان ما بين الفهمين، فالفهم الأول فيه حـرية وانطلاق وتوكيد لما هو صحيح، فكل ما يشبه كلامهم صحيح، والفهم الثانى يجعل كل ما لم يرد غير صحيح».

(٣) وثالـث أخطائهم ظنهم أن الأفصح وحـده هو الصحيح، والأفصحيـة تقوم على قصر استعمال عبارة مـا على ما يليـق بها، والابتذال يقضى على صفتهـا الممتازة، ولـو قصر الناس كـلامهم على الأفصح لقضى عليـه، بـل إن استعمال الأفصح فيما لا يليق بـه يعـد فسـادا فى الذوق.

(٤) ورابع أخطاء اللغويين قصرهم الاشتقاق على صيغ ضيقـة مقيدة بمصادرها، وظنهم أن الاشتقاق يكـون على هيئة بعينهـا تتعلق بباب فعل ما، وهى قيـود لا داعى لها جعلت للفظ الواحد مدلولات مختلفة جدا وللشىء الواحد أسماء كثيرة جدا.

(٥) القول بأن غنى اللغة يقاس بما فيها من ألفاظ كثيرة للشىء الواحد.

(٦) فهمهم معنى الدقـة فى اللغة على أنها اكتشاف أمور عـويصة جدا، والدقـة فى الحقيقة (عند الـدكتور كـامل) يجب أن تكون تحديـد المعنى الواجب التحـديد وإغفـال ما يـؤدى إليه الوصف البسيط.

(٧) ظنهم أن الإضافـة إلى اللغة إضعـاف لها، وأن المحافظة عليهـا تكون بتقييـدها، بينما المحافظة على لغة ما لا تكون إلا بجعلها مطابقة لتفكير أهلها.

(٨) إسرافهم فى تخطئة الناس وجدلهم حول ما هو خطأ.

□

وها نحن نرى الـدكتور كامل فى النقاط الثمانى السـابقة يتعرض لقضايـا لغوية خطيرة: تعـريـف الصحيح والخطأ فى اللغـة، المبنى أم المعنـى؟ قضيـة الأفصح والصحيح، قـواعـد الاشتقاق، غنى اللغة ومـا هو؟ الدقة فى اللغـة وما هى؟ الإضافة إلى اللغـة: إضعاف أم إفادة؟ فيعرض مفهوم اللغويين مبينا وجه الخطإ فيه ويخرج من وجه الخطر الذى ذكره إلى مفهومه ـ الصحيح ـ لهذه القضايا.

ثم يقول الـدكتور كـامل: «ويجب علينا أن نقـدر أن عهد تحكم الأجروميـة فى العربيـة قد

انقضى أو كاد، وأن علينـا أن نسارع إلى تنظيم يـوائم عصرنا». (وهى دعوة إلى تجديـد النحو عمل لها كامل حسين بعد ذلك). «**والتفكير اللغوى الحديث قوامه الوضوح والدقة، فإن لم نفعل فسيقوم عهد اللغة الجديد على الفوضى والاضطراب وتحكم مَنْ لا ذوق لهم ومن لا علم لهم بأصول اللغات والأساليب**».

ألا تجد فى نفسك الآن ـ كما أجد فى نفسى ـ تقديرًا لبعد نظر هذا الرجل؟

□

ويحدثنا الدكتور كامل حسين فى نهاية بحثه عن ظاهرة عجيبة: أن اللغويين جمعوا الأسماء أولا ثم بحثوا عن مسمياتها، على حين أن الطبيعى أن يعرفوا الأشياء ثم يبحثوا عن كلمات تدل عليها، ويذهب ليؤيد قوله بقولهم عن الواحد منهم إنه كان يعرف كل كلمة تتعلق بالخيل.

وقد يكون فى قـول الدكتور كامل هـذا شيئا من المبالغة فى وصف الحقيقـة، ولكنه على كل حال ليس مبالغة كله.

والدكتور كامل يقول: «إن اللغويين جمعـوا كل ما سمعوه عن العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم وسمـوه اللغة العـربية، وهى مجموعـة لغات تتفق فى أمـور كثيرة وتختلف فى أمور كثيرة، فلم يكن الـرجل من تميم ينطق بالفعل يـوما من بـاب نصر ويوما من بـاب فتح». نعم، جمع اللغويون كل ما سمعوه من لهجات العرب، ولكن هذه اللهجات لم تختلف اختلافا يجعلها لغات مختلفة، وإنما هى لغات مختلفة للغة واحـدة (وظنى أن الدكتور لم يقصد بكلمة «لغات» هذه إلا إلى «لهجات»).

□

وضرب الدكتور كامل أمثلة لأخطاء اللغويين فى بحثه (سنوردها فيما بعد)، وأحال المجلس البحث إلى لجنـة الأصول لـدراسته وإبـداء الرأى فيه، وفى الـدورة الثانيـة والثلاثين تنـاقش المجلس حول (منطقـة)، وهى واحدة من الأمثلة التى أوردهـا الدكتور كامل فى بحثـه، وأعرب الدكتور كامل عـن سعادته لرأى الشيخ محمد محيى الدين عبـد الحميد (سنورده فيما بعد)، وعن أمله فى مناقشـة ألفاظ أخرى، يقصد تلك التى صدرها فى بحثـه (أخطاء اللغويين)، وطلب

الأستاذ زكى المهندس منه تحضيرها، فقال الـدكتور كامل إنها فى بحث أخطاء اللغويين، ولكن منعنى من تقديم البحث وفاة الشيخ النجار (وكانت هذه الكلمات من بحث للشيخ النجار خطأ فيه مثلها كما قدمنا).

وفى لجنة الأصول تقدم الشيخ عطية الصوالحى والأستـاذ عباس حسن بمذكرات متعددة حول الكلمات التى ضمنهـا الدكتور كامل بحثـه (أخطاء اللغويين).. وتناقش أعضـاء اللجنة (الأستاذ زكى المهندس، الشيخ محمـد محيى الدين عبد الحميد، الشيخ الدكتـور عبد الرحمن تاج، الدكتور مهدى علام، الأستاذ عبد الحميد حسن، الشيخ عطية الصوالحى، الأستاذ عباس حسن) فى آراء الدكتور كامل والشيخ عطية والأستاذ عباس، وانتهوا إلى قرارات بشأنها.

□

وسنعرض الآن الأمثلـة التى ذكرهـا الدكتـور كامل فى بحثـه معقبين عليها بقـرارات لجنة الأصول فيها:

(١) استنكر الدكتور كامل عـدول اللغويين بكلمة متحف إلى الضم عن الفتح واحتجاجهم بأن «تحف» لم ترد، واحتج الدكتور بأنه إذا أتى الفعل لازمـا ومتعديا، فاسم المكان يشتق من معناه الـلازم، «وبأن الحاجة التى دفعت العربى إلى صيـاغة فاسدة أو شـاذة ليست أشد من حاجتنا إلى صوغ كلمة تدل على مكان تكثر فيه التحف».

ونلاحظ هنا أن الـدكتور كامل يحتج لرأيـه بالبرهانين النقلى والعقلى، فيذكـر القاعدة التى يمكنـه بها أن يخرج رأيـه ثم يدعـو العقل إلى التفكير. ويستطـرد الـدكتور كـامل ليقـول: إن **الكلمات المهجورة أشبـه بورق أهـل الكهف صحيحة، ولكنهـا غير قابلـة للتداول،** وهو تشبيه وسم الـدكتور كامل بـه الكلمات المهجورة غير مرة. «ومتحف ليس لها من العـربية إلا مظهرها».

وقد انتهت لجنة الأصول إلى إقرار متحف بالفتح بناء على قرار المجمع بجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان، وإقـراره قواعـد الاشتقاق من الجامـد، وما تـراه اللجنة من التـوسـع فى جواز الاشتقاق من اسم العين دون تقيد بالضرورة العملية، واستئناسا بأن وجود الثلاثى المزيد من الفعل يشعر بوجود المجرد منه. وأخذت اللجنة من (تحفة) فعلا ثلاثيا من باب (نصر) وأخذت من مصدره اسم مكان على وزن مَفعَل بفتـح الميم والعين، وقال الشيخ الصوالحى: إن متحف

أخذت من أتحف (أى أعطى تحفة) وأول ذلك بأنك إذ ترى الرجل الجمال فكأنك أعطيته تحفة. واعترض الدكتور كامل على تأويل الشيخ عطية بقوله إن العرض غير الإعطاء، واعترض كذلك بأنه لم يجد أن أفعل المتعدى لا يجىء منه اسم مكان، أما مُرساها فى ﴿**مجريها ومرسيها**﴾، (هود: ٤١) فهى مصدر، وكذلك مَدْخَل فى ﴿**ندخلكم مدخلا كريما**﴾ (النساء: ٣١) فهى مصدر، وقال الشيخ محيى الدين بأنهما اسما مكان بلا شك، و أصر الدكتور كامل على أنهما مصدران، فالتفت الدكتور مدكور إلى المؤتمر يأخذ موافقته على قرار لجنة الأصول بشأن ضبط متحف فوافق المؤتمر.

□

(٢) عاب الدكتور كامل حسين على اللغويين تعليلهم ضم الدال فى حدُث فى قولنا ما قدم وما حدُث بأنه للاتباع، وذهب الدكتور كامل إلى أننا لو نطقنا بالفتح لدل على الحدوث لا الحداثة وهى المعنى المراد.

وقالت اللجنة: إن قول الدكتور كامل بأن هناك بابين لحدث لا سند له فى نصوص اللغة، ولا فى شواهد الاستعمال، وقد أثبت اللغويون حدث من باب نصر وذكروا لمصدره الحدوث والحداثة معا، على أنه يتسنى تخريج استعمال (حدث) بالضم باعتبار أنه من باب تحويل الفعل إلى فعل بضم العين للإلحاق بالغرائز، ونعفى أنفسنا هنا من المناقشات التى دارت حول جواز هذا الإلحاق.

□

(٣) وتناول الدكتور اعتراض اللغويين على (مبرر) واستبدالهم (مسوغ) بها مع أنها عربية فى صيغتها، وقال إن هناك فرقا بين التسويغ والتبرير، فالتسويغ هو ما تقوله قبل أن تعمل عملا ما، والتبرير ما يكون بعد وقوع الأمر.

ورأت اللجنة إجازة ما شاع من استعمال التبرير فى معنى التسويغ استنادا إلى قرار المجمع فى قياسية تضعيف الفعل للتكثير والمبالغة.

□

(٤) وتعرض الدكتـور كامل فى بحثه لقصر اللغويين استعمال تعبير (تقـدم إلى فلان بكذا) على الأمـر، مستندين إلى أن هـذا التعبير استعمل فى عصر المأمون للـدلالة على الأمـر يأمر بـه الخليفة عمله، فقال: إن هذا التعبير ليس من الأمور التى لها معنى أبدى لا يتغير على الزمن.

وأقرت لجنـة الأصول استعمال التعبير فى المواضع الثلاثـة: أن يكون المقدم والمتقـدم إليه متساويين، أو أن يكون المتقدم أدنى أو أعلى.

□

(٥) وذكر الدكتور كامل حسين أن طبيعة اللغات تأبى أن يتعثر المتكلم دائما ليتبين حقيقة الموقف فى مثل «مصائر» والمتكلم ينطق بها هكذا مثل ما ينطق بعمائر «واللغـويون يخطئونه». وكان الدكتور كامل هنا حريصا على أن يطبق رأيه الذى يذهب فيه إلى أن نبعد عن التفعيل عند الحديث عن «الصيغ الصرفية».

وكان قرار اللجنة أنها ترى جواز إلحاق المد الأصلى فى صيغة «مفاعل» بالمد الزائد فى صيغة فعائل، وعلى هـذا يجوز فى عين مفاعل قلبها همزة سواء كـان أصلها واوًا أو ياء فتقول مكـايد ومكائد وتقول مغاور ومغائر.

□

(٦) وفيما يتعلق بأسلـوب سواء واشتراط اللغـويين استعمالها مع الهمـزة وأم احتجاجـا بقوله تعالى: ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم**﴾ [يس: ١٠] قال الدكتور إنه لا ينتظر من العامـة أن ينسجوا على هـذا النسج الرفيع، والـذوق يأبى أن يكون الأسلـوب واحدا حين يتعلق الأمر بالوعظ المنزل أو بكلام الأسواق.

وقد أجازت اللجنة استعمال سواء مع أم ومع أو بالهمزة وبغير الهمزة، واعتبرت الأساليب الأربعة صحيحة كما أشار الدكتور كامل.

(٧) ودعا الدكتور كامل إلى استعمال التقييم بمعنى التقويم، أى بيان القيمة.

وقالت اللجنــة إنه يجوز أن يقال قيم الشىء تقييما بمعنى حــدد قيمته للتفرقــة بينه وبين قوم الشىء بمعنــى عدله «وقــد جاءت المعــاقبة بين الــواو والياء المشــددتين للتخفيف فى أمثلة كثيرة من كلام العرب يستأنس بها فى قبول ذلك».

□

(٨) أما كلمة «منطقة» التى أرادها اللغويون بالكسر لأنها وردت هكذا فى الدلالة على الحزام تتمنطق به المرأة، فقد قــال الدكتور كامل حسين رأيــه فيها أنها بالفتح عند الــدلالة على منطقة الحديد بأسوان مثلا.

وقد تمت منــاقشتها فى مجلــس الدورة الثانيــة والثلاثين وعبر الــدكتور كــامل حسين عن سعادته بإجــابة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد عن ســؤال «مم اشتقت منطقة بالفتح؟ حين أجاب بقوله «مم اشتق منه منطقة بالكسر».

وأورد الدكتور كامل حسين فى نهاية بحثه طــائفة من الأسماء التى أوردها اللغويون للبن بلغ عددهــا مائة وستين لفظا، وعلق بقــوله إنه من غير المعقــول أن يكون كل عربى فى البــادية يعرف مــائة وستين حالة للبن، وإنما ذلك مثــل ما فعلوا بــالحب حين يمس شغاف القلب، ولا أحسب أحدا يعرف بالضبط متى يكون ذلك؟

الفصل الخامس

السـليقة

فى الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة الثامنة والعشرين، ألقى الأستاذ عبد الله كنون بحثا عنوانه (السليقة عند العرب المحدثين)، وعقب عليه الدكتور كامل مبديا بعض آرائه فيما يتعلق بالسليقة. كذلك تضمن بحث الدكتور كامل حسين (حاجتنا إلى معجم مصفى) بعض الإشارات إلى مفهوم السليقة عنده، وفى العدد الثانى والستين من (المجلة) الصادر فى أغسطس عام ١٩٦٤ نشر الدكتور كامل حسين بحثا مهمًا بعنوان «أزمة الفصحى.. السليقة اللغوية»، وفى كتابه «اللغة العربية المعاصرة» تعرض كامل حسين لمفهوم السليقة عند القدامى كأولى المسلمات البالية، ثم أعاد نشر آرائه فى السليقة «التى نشرها فى (المجلة ٨/ ١٩٦٤)» مع تصرف يسير فى الفقرات وترتيبها.

□

ونعرض فى هذا الفصل اتجاهات كامل حسين فيما يتعلق بالسليقة:

١ - يعرف كامل حسين السليقة عند المحدّثين بأنها: القدرة على أن يتكلم الإنسان لغته صحيحة دون أن يتذكر قواعدها (المجلة ٨/ ١٩٦٤) أو: قدرة المتعلم على معرفة الصواب فيما يكتب وما يقرأ دون حاجة إلى التفكير فى القواعد التى وضعت لذلك.

٢ - ويرى كامل حسين أن السليقة ليست إلا التعود، ذلك أن السليقة تقوم على المحاكاة والتعود، ومن المستحيل أن تكون السليقة بالمحاكاة فى هذا العصر، ولا بد أن نتعلم قواعد اللغة حتى ننطق بها صحيحة.

٣ ـ ويتعـرض لتعريف السليقـة عند القـدامى وخاصـة فى المعاجم العربيـة، ويتعجب من القائلين بأن السليقة خاصة بأهل البادية وكأنما فى البادية شىء يقوم الألسنة.

٤ ـ والسليقة تتعلق بالمتكلم والسامع معا، فإن فسدت عند أحدهما فسدت بينهما.

٥ ـ ويستلفت كامل حسين النظر إلى أن الكاتب يكتب كتـابة صحيحة حتى إذا قرأ ما كتب أخطأ، وهذه حال غـريبة أصلها أننا استطعنا أن نـوجد سليقة بالنظر تحدد لنـا الصواب عند الكتابة، وهى مع ذلك لا تمنعنا من الخطإ عند الكلام.

٦ ـ ولا سبيل إلى جعل العربية سليقية إلا بتغيير الكثير من قواعدها التى لا يمكن أن تكون سليقية ولو كانت سهلة، والإبقاء على القواعد التى يمكن أن تكون سليقية ولو كانت صعبة.

٧ ـ ولأن السليقة ليست إلا التعود فهى حالة سيكـولوجية لها أسس تجريبية معروفة، ولا يكفى فى تعود العادات الحسنة شدة الرغبة فيها ولا الحماسة لها بل لابد من مقومات العادات.

٨ ـ ومقومات السليقة عند كامل حسين:

- □ تتحقق السليقة بسهولـة واضحة إذا كانت الكلمة الفصيحة مخالفة تمامـا للعامية مثل سنمار، معديكرب.
- □ وكذلك الحال فى الكلمات التى تتشابه فيها العامية والفصحى.
- □ الاطراد من أكبر مقومات السليقة، ألا ترى أننا نكسر ياء المضارع فى العامية، ومع هذا لا يصعب على أصغر التلاميذ فتحها.

٩ ـ ويعدد الدكتور كامل من معوقات السليقة:

- □ أن تكـون الكلمتان الفصيحتـان متشابهتين ثم تختلفـان فى حـرف واحد كـالفرسـان والولدان.
- □ أن يكون للكلمة الواحدة صورتان صحيحتان كالرشوة.
- □ أن يكون للفعل بابان.
- □ ال[illegible]ل فى الإعراب بالوجهين.
- □ القيـاس وخصوصـا إذا كان مشروطـا بشروط لا بد أن يـذكرهـا المتكلم قبل أن يصح القياس (وهنا لا بـد من استلفات النظر إلى الفرق بين الاطراد والقياس). «هـذه الوقفة الفكرية الصغيرة كافية جدا فى تعويق السليقة».

□ الألفية أكبر نكبة على السليقة ولا سليقة لمن حفظوها.

□ إصرار اللغويين على التمثيل بالتفعيل.. من النكبات الصغرى.

□ أن يكون بين الكلمتين فرق بسيط غير مشهور كما فى القزم، الجفن.

١٠ ـ والسليقة ليست شيئا فى طبع العرب وإنما هى امتداد وحفظ وكلاهما يجوز عليه الخطأ. «وقد كانت رخصة ثم أصبحت قيدا». يشير الدكتور إلى أولئك الذين يحتجون لقواعد العربية الصعبة بأنها ترد بالسليقة.

١١ ـ الأمر فى القواعد النحوية شبيه بقواعد المرور تنفذها بيسر إذا كانت بسيطة كما هى، أما إذا قيل لك إنه لو كانت الإشارة أمامك خضراء وعلى يمينك.. وعلى يسارك.. وبعدها.. فلن تستطيع أن تتبع قواعد المرور. فإعراب غير مثلا لا يمكن أن يكون سليقيا، اسم المكان من المكسور عين مضارعه وجنس العدد «لا أرى كيف يكون سليقيا إلا فى قوله تعالى: ﴿**سبع ليال وثمانية أيام**﴾ (الحاقة: ٧) لأننا حفظناها هكذا فى القرآن.

□

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أن كامل حسين الخبير بمواطن الشكوى من العربية وبأسرارها، يرى علاجها على ألسنة الناس كامنا فى حل بسيط هو «التسليق»، ولهذا يدعو إلى تطويع القواعد بحيث تصبح سليقية لا إلى تجديدها أو تسهيلها. وهو أمر «يلتقى فيه المحافظون وحجتهم لها قيمتها، والمجددون وحجتهم واضحة».

الفصل السادس

المعـــاجم:

ذكرنا في الباب الأول من هذا الكتاب أن كامل حسين ضم إلى لجنة المعجم الوسيط عقب استقباله. وقد درس كامل حسين المعاجم العربية ـ كما حدثني أستاذنا الدكتور مدكور ـ دراسة لا تقل عن دراسة المتخصصين في المعاجم، كما كان الحديث عن (معجم حديث) واحدًا من البحوث الأربعة عشر التي تضمنها بحثه «أصول علم اللغة».

وفي الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة الرابعة والثلاثين ألقى الدكتور كامل حسين بحثا عنوانه (حاجتنا إلى معجم مصفى).

وفي الفقرات التالية عرض لآراء كامل حسين في هذا الموضوع.

□

يقرر الدكتور أن« غاية المحدثين من البحث في المعاجم هي أن يحدد الكلمة التي تدل بالضبط على المعنى الذي يريدونه». ولكن «أحدا لا يستطيع البحث في المعاجم إلا إذا كان من المتخصصين في اللغة وهو وضع مقلوب». ويذهب الدكتور كامل حسين في نهاية مقدمته الأخاذة ـ كالعادة ـ إلى القول ببساطة شديدة بأن **«ما في المعاجم لغة اللغويين لا العرب»**.

أما **عيوب المعاجم** التي انتهت بها إلى هذا الوضع فهي:

(١) ألفاظ معجمية لا يمكن أن تكون من العربية، **والمعاني المرذولة** وألفاظها التي تمثل نسبة ما من ألفاظ المعاجم يجب ألا تذكرها المعاجم أبدا.

(٢) وطائفة كبيرة من **الألفاظ التى تتعلق بالإبل** وأوصافها وبخاصة تلك التى على وزن أفعل مثل (أعاف الرجل) أى عافت إبله عن الماء، هذه الطائفة لم تعد تعنى شيئا فلا داعى لها.

(٣) التفريع عن المعانى الأصلية والاستطراد إلى ذكر أشياء لا محل لها من القبول.

(٤) الألفاظ التى يكنى بها عن المعانى الجنسية لا داعى لذكرها، ويجب أن نكتفى بالألفاظ الصريحة عند الحديث عن معنى من المعانى لا أن نحمل اللفظ معنا جنسيا فوق طاقته مثل قولهم فى (أتى): أتى المرأة.

(٥) التخصيص المفتعل والتعميم حين يجب التخصيص، وكلا الأمرين مفسدة لدلالات الألفاظ. ألا ترى إلى قولهم فى معنى الجيوب إنها الأرض الغليظة من الصخر لا من الطين (غاية التخصيص) ثم يقولون أو هى الأرض عامة (غاية التعميم).

(٦) المعانى العشرة التى ابتدعها الصرفيون لإضافة الهمزة إلى أول الفعل، وما نتج فى المعاجم عن أخذ واضعيها بهذا الرأى لعلماء الصرف - والهمزة لا تدل (عند الدكتور كامل) إلا على معنى واحد هو تعدية اللازم.

(٧) كثرة الصيغ المختلفة للكلمة الواحدة ذات المعنى الواحد.

(٨) الأبواب المتعددة للثلاثى.

(٩) غموض عبارات المعاجم: كقولهم «أبض العرق أبضا» أى تحرك تقول «العروق الآبضات».

(١٠) التفسير بالسياق: والدكتور كامل يقصد به تفسيرهم الإربة بالحاجة، الفرج، الدين.. إلخ «وهو ليس تفسيرا بالسياق وإنما كما قال الدكتور إبراهيم أنيس فى تعقيبه: «التفسيرات بالهوى».

(١١) الشواهد: وأكثرها مصنوع يجب حذفه وأن يستبدل به شواهد مما كتب كبار الأدباء فى كل عصر «فليس هناك عصر بعينه للاستشهاد».

(١٢) الأضداد: إن لم نستطع تحديد معنى واحد للفظ فلتسقط الكلمة بكلا المعنيين.

□

ثم ينتقل الدكتـور كامل لينبه إلى الناحيـة الإيجابية التى يريدها فى المعجـم بعد أن نبه إلى نواح سلبية كثيرة فيدعو إلى:

- ☐ البحث فى مـدلول الكلمات ومـا يكون بينهـا من فروق: فـلا بد من التفـريق بين الأسر بالفتح، والأسر بالكسر، ثم يفرق بين أى والهمزة وبين يا فيقول إن أى والهمزة تكونان للمناجاة، أما يا فتكون للنداء.
- ☐ تخصيص المصادر العديدة للفعل الواحد بمعان تقصر عليها دون نظيرها: فالأوب يكون من الخطإ، والإياب من السفر.
- ☐ توحيد اللهجة للكلمة متعددة الصيغ.
- ☐ اختيار الجمع الأقرب إلى الذوق من الجموع.
- ☐ تحديد مصدر واحد بمعنى واحد للفعل الواحد (وهذا لا يتعارض مع ٤).
- ☐ الاقتصار على باب واحد للفعل.

☐

والدكتور كامل يريد معجما حديثـا فى تفكيره وتعاريفه واختياره للألفاظ وتحديده لمعانيها.

وقد توسم اقتراحات الدكتور كامل عند تنفيذها بأنها تلجأ إلى «التحكمية» ولا يرى الدكتور بأسا فى ذلك، فاللغة كلها تحكمية.

وطموح الدكتـور فى المعجم الحديث لا يلبيه المعجم الوسيط، فهو يطمـع فى معجم خال مما ينفر الناس منه، فيه من الشواهد ما يفيد الكاتب والمتأدب.

وأخيرا فإن كامل حسين لا يريد أن يعلم بالمعجـم الطالب فقط، ولكنه يريد أن يتعلم منه المتأدب والمثقف.

الفصل السابع

من مشكلات الكتابة العربية

□□ كتابة الأعلام الأجنبية بحروف عربية :

قدمنا في الحديث عن المصطلحات أن الدكتور كامل حسين لم يكن يوافق على إضافة ألف حلا لمشكلة البدء بالساكن، وهو أمر يتعلق بهذا الموضوع فلزمت الإشارة ثانية.

وفى الدورة الثامنة والعشرين للمجمع تعرض المجلس لموضوع «كتابة الأعلام الأجنبية بحروف عربية» واشترك كامل حسين فى المناقشة فوضع الأعضاء أمام بدائل ثلاثة:

(١) التشكيل وهو بسيط معقول ولكنه غير عملى.

(٢) كتابة العلم دون شكل أو حركات بشرط أن نكتب بجانبه العلم مرة أخرى بالحروف اللاتينية، وبذلك نظل عالة على الأعلام الأجنبية

(٣) الكتابة بالطريقة التى اقترحها وهى **تمثيل الحركات بحروف.**

وكان المجمع قد قرر أربعا وعشرين قاعدة من قبل فى هذا الموضوع، وكانت هناك ثلاث عشرة قاعدة جديدة تنتظر الإقرار، وأحس كامل حسين من زملائه تقاعسا عن الأخذ باقتراحه، وأنهم يميلون إلى إقرار القواعد الجديدة مما لا يساعد على حل الصعوبة، فقال: «نحن نريد طريقة منطقية للقارئ العربى يستطيع بها أن ينطق العلم الأجنبى صحيحا.. ولقد قضيتم على صلاحية العربية لأن تكون لغة للرياضة حين رفضتم ما اقترح بصدد قواعد العدد، وستقضون على صلاحيتها لأن تكون لغة للجغرافية والتاريخ وأسماء الأعلام إذا أقررتم كل هذه.

وقال الشيخ النجـار: إن رأى كامل حسين يوافق رأى سيبويـه، أما الدكتور محمـد مهدى علام فكان يرى أن نكتب طوعا للنطق، لا لكتابة الحرف فى لغته كما يقول الدكتور كامل. وكان كامل حسين يقول إن الصحة تجود بأكل العسل، إلا أنه لا يمكن أن يكون الطعام الدائم لجميع الناس هو العسل، فالتشكيل أحسن الحلـول حقا للمنطق الصحيح، إلا أنه يستحيل أن تشكل جميع حـروف الكلمات. وكان يـرى أن نتفق على الحروف التى تكتب بها الأعـلام أولا ثم على كيفية نطقها بطريقة واحدة.

ولما تعرض مـؤتمر المجمع فى دورتيه الـرابعة والثلاثين (فى الجلســة الرابعـة) والخامسة الثلاثين فى (الجلســة الثامنة) لكتابـة الحرف الفرنس (U) فى العربيـة، قال كـامل حسين إنه يصعب على غير الفرنسيين نطقـه ويعرف الأجانب فى فـرنسا من طـريقة نطقهم لهذا الحرف. ولكن ليس معنى ذلك ترك الأمر فوضى بين الياء والواو، ولا بـد من طريقة واحدة سواء بالواو أو بالياء «وإن كنت أفضل الياء». وخلاصة القول فى رأى الدكتور كامل أنه كان يريد لنا طريقة عربية مستقلة تقوم بذاتها فى كتابة الأعلام الأجنبية لا تحتاج إلى ما يصعب تحقيقه (كالشكل) ولا تتقيد بما يكون عند أهل اللغة الأصلية من نطق لا نستطيعه.. وهى فى الوقت نفسه محددة غير قابلة للتأويل ولا للتبديل.

□

□□ رسم الهمزة :

دعا الدكتور كامل فى الجلسة الثانية والعشرين للمجلس فى دورته الثامنة والعشرين إلى أن:

«ترسم الهمزة على الحرف الذى تئـول إليه إذا لانت، فإذا لم يستسغ الذوق أن يقلبها حرفا لينا رسمت على نبرة»، ويكون تطبيق هذه القاعدة على النحو التالى:

(١) ترسم الهمزة فى أول الكلام ألفا (ولا خلاف فى ذلك).

(٢) الهمزة فى مثل (لئن، لئلا، لإيلاف) تعد فى أول الكلمة فيطبق عليها ما جاء فى (١).

(٣) ترسم الهمـزة على الحرف الذى تئول إليـه إذا استساغ الذوق أن يلحقهـا اللين، وهذا واضح فى (فأس، وبئـر، ومئـة، وخطيئـة، يجرؤ، ويبدأ، ويستهـزىء، وقـرأ، ويقـرأ، وسأل، ويسأل).

(٤) لا يغير من رسم الهمـزة ما يلحق الكلمات من زوائد عـارضة: وعلى هذا نكتـب قرأوا، يقرأون، يستهزئون، يجرؤون، بريئون، مشيئة.

(٥) فإذا لم يستسغ الذوق أن يقلبهـا حرف لين كتبت على نبرة كما فى بئر، شئـون، هيئة، على أن أكثر هـذه الكلمات يمكن أن يلين إلى الياء بشىء من العسر وهـو ما يسوغ كتـابتها على الياء.

(٦) وتسرى هذه القواعد على الهمزة التى تقع فى أواخر الكلمات، إن لانت كتبت على ما تئول إليه كما فى هـزؤوا، امرؤ، شىء، فإن لم تلـن كتبت مفردة كما فى جزء، ولا يتغير رسـم الهمزة أيضا بما يضاف إلى الكلمة من زوائد فتكتب جزءين هكذا.

(٧) لا بأس من وجود بعض الشواذ، وهى قليلة العدد ولا تغير القاعدة العامة فى شىء.

هذا وقد تقرر إحالة هذا البحث إلى لجنة الأصول.

□

□□ أخطاء الإملاء

كان الدكتور يدعو إلى إصلاح الإملاء، وكان يرى أنه «أمر مهم جدا، لا يجوز أن نتهاون فيه بعد الآن». وقـد نشر الدكتـور فى كتابه «اللغـة العربية المعـاصرة» ص ١١٩ ـ ١٢٣ تجربـة له أجراها على طلبة من الثانوية العامة ـ القسم الأدبى ـ المستوى الرفيع فى اللغة العربية، واختار لهم فصلا من مقدمـة ابن خلدون، وهو فصل البيعة (حوالى ٢٦٠ كلمة) وذكـر نصه فى كتابه وخرج من تجربته بالنتائج الآتية:

(١) القراءة الصامتة التى لا تحتاج إلى تحقيق بنـاء الكلمة ولا إلى صحة إعرابها هى أسهل الطرق إلى فهم المعنى واستيعاب المراد.

(٢) حصر الدكتور الأخطاء فى القراءة المسموعة، فكانت نسبة الخطإ فيها أكثر من عشرة فى المائة من الكلمات على أحسن الحالات، «وهى نسبة عالية جدا تـدل على إخفاق الوسائل المتبعة فى تعليم الفصحى كما تعلم الآن».

(٣) صنف الدكتور الأخطاء الاملائية تصنيفا علميّا إلى :

(أ) أخطاء بناء الكلمة: مثل «يقصد» بضم الصاد بدل كسرها.

(ب) أخطاء رفع وجر المنصوب: مثل «عقدوا، عهدوا» فيأخذ به نفسه.

(جـ) أخطاء المجرور بحرف الجر: مثل «من رعيته» بضم التاء.

(د) أخطاء نصب وجر المرفوع: مثل «ومنه إيمان» بالكسر بدلا من الضم.

(هـ) تفادى الإعراب بالتسكين.

(و) أخطاء أخرى عامة.

(٤) ولما أجرى الدكتور التجربة على أحد خريجى كليات العلوم، وقال: «وجدته لا يستطيع أن يقرأ، أو يفهم شيئا مما جاء فى هذا الفصل ـ وهذا يدل على أن الطالب يفقد قدرته على القراءة الصحيحة بمرور الزمن».

الفصل الثامن

تاريخ النحو :

قد يكون طبيعيا أن نتحدث عن كامل حسين واهتمامه بتاريخ العلوم عند العرب وبخاصة الطب، أو بتاريخ العلم عموما. والأمر الذى لا يقل فى طبيعيته عن الأمر الأول وإن لم يشتهر بعد هو تأريخ كامل حسين للنحو العربى. ففى بحثه (أصول علوم اللغة) الذى ألقاه أمام مجمع اللغة العربية فى دورته السادسة والعشرين والذى ضم أربعة عشر بحثا فرعيا، كانت «نشأة النحو» موضوع واحد من هذه البحوث. وفى كتابه (اللغة العربية المعاصرة) أفرد كامل حسين لتاريخ النحو بابا وضع له عنوان «طبقات النحويين».

وسنعرض فى الفقرات التالية لتاريخ النحو عند كامل حسين.

□

يحدثنا كامل حسين عن جوهر الطريقة العملية، حين أخذ علم النحو طريقه إلى الحياة والتى امتد أثرها بالطبع إلى النحو وعلوم اللغة فيقول: قام هذا الجوهر على أن يختار العلماء بعض الظواهر الطبيعية (أو اللغوية) ويستخلصون منها قاعدة عامة، ثم لا يلبثون أن يتبينوا أنها لا تنطبق على عدد كبير من الظواهر الأخرى فيضعوا لها تفسيرات تقوم على فروض كلها مفتعلة لا مسوغ لها من الواقع، ثم يمعنوا فى التأويل والتعليل إبقاء على الكلية الأولى.

وعلى هذا كان مذهبهم: «إيجاد كليات تجعل أكثر الصواب خطأ تتبعها تأويلات تجعل أكثر الخطإ صوابا».

ويرى كامل حسين أن الناحية الاجتماعية كان لها أثرها فى تعقيد النحو وكثرة مسائله. ذلك أن النحويين رأوا أن يأخذوا بأساليب غيرهم من العلماء إبقاء على مكانتهم، وأخذوا يحققون فى رواة اللغة مَنْ وثق منهم ولم يوثق كما كان يفعل أهل الحديث.

ويمضى الدكتور كامل حسين فى بحثه (أصول علوم اللغة) يحدثنا عن بعض مباحث النحويين ليبين طريقتهم فى التفكير، ويضرب لذلك الأمثال، ومن هذه الأمثال: «أن الأصل فى المبتدإ ألا يكون نكرة، ويجوز ذلك عند ابن مالك فى أربعة مواضع، ويجوز عند ابن عقيل فى أربعة وعشرين موضعا، وهو يقول إن غيره يجعلها ستة وثلاثين». ثم يلتفت الدكتور كامل حسين بذكائه المعهود ليتساءل: «فهل يراد من الكاتب أو المتكلم قبل أن ينطق المبتدأ أن يذكر المواضع الأربعة والعشرين ليعلم أيجوز له ذلك أم لا يجوز؟».

□

والخليل بن أحمد عالم العربية الأشهر (ت ٧٠ هـ) يمثل الطبقة الأولى من النحوين خير تمثيل. ويحدثنا كامل حسين عن هذه الطبقة فيقول: إن همها لم يكن وضع نظام يهتدى به من يجىء بعدهم من القراء والكتاب، وإنما كان غرضهم تحليل المادة اللغوية التى عرفوها تحليلا يفسر نظامها ويشرح خصائصها بحثا عن الحقيقة لذاتها، ومن هنا أسرفوا فى التحليل وأهملوا التركيب مع أنه هو العقلية المتممة للتحليل.

«وكان طبيعيا حين أرادوا أن يكشفوا عن قواعد اللغة ونظامها أن يجمعوا كل ما يمكن جمعه، وأن يدونوا كل ما يسمعونه عن العرب مشافهة مهما يكن حظهم من الذكاء أو الفصاحة أو العلم، وظنوا أن كل ما سمعوه من العرب موثوق به، وكانت الثقة بهذه المصادر خطأ وقع فيه النحويون، وإن كان لهم فيه بعض العذر، واستمر هذا الخطأ يؤثر فى النحو قرونا عديدة».

وينتقل الدكتور كامل إلى الحديث عن نشأة التدوين واضطرار علماء اللغة إلى الاعتماد على الشعر الجاهلى من حيث هو مصدر من مصادر اللغة. وللدكتور كامل موقف من قضية الاستشهاد بالشعر أفردنا له فصلا خاصا.

ويذكر كامل حسين أن نمو اللغة العربية تم على نحو غريب فى نمو اللغات، فاللغات تكون

سماعية مضطربة مختلطة أول الأمر، ثم يكتب الأدباء والمفكرون كتبا يستحسن الناس بعض مـا فيها فيحتـذونـه، ثم يجىء بعدهم آخـرون من هـذا الطراز يحددون الصيغ والأسـاليب والقواعد، ثم يقـرهم على ذلك الذوق العام عند أهل هذه اللغـة، ثم يجىء علماء اللغة فيضعون قواعدهـا مسترشدين بما كتبه الكتاب واستحسنـه الناس، وتصبح هذه القواعـد أصلا تتبعه الأجيال اللاحقة، ولا تزال هـذه القواعد تزداد استقرارا واطرادا وبساطة، وهـذا هو تاريخ نمو كل فن، أما اللغة العربية فقد أنعم الله عليها بنزول القرآن ـ وهو أكبر حدث فى تاريخها لا نزاع ـ فبلغت العربية بين عشية وضحاها أوج مجدها وتمام نموها وعرّفت أرفع أساليبها.

ويلقى الدكتـور كثيرا من الشك على ما أخذ به اللغـويون مما قاله الأعـراب: «ولا أظن أحدا يقول إن هـذا يدل على غنى اللغة، بل هـو فى الواقع دليل على التخبط الذى أصـاب اللغة فى أول عهدها بالتدوين».

□

ويخلص الدكتور فى حـديثه عن (الطبقة الأولى) من النحاة إلى القول بتشـابه تفكير الطبقة الأولى فى جميع العلوم، ويمثل لـذلك، أما كتاب سيبويـه فهو من الكتب العالميـة التى عرفت فى العلوم القديمة ككتـاب أرسطو فى الطبيعيات، وكتاب إقليدس فى الهندسـة، وكتاب بطليموس فى الفلك (المجسطى)، وكتـاب أبقراط فى الطـب. وفيه تجلت قـدرة سيبـويه على التأليف. «وهـذه الكتب الكاملة ـ التى اعتقد الناس أنها غاية العلم ـ كانت سببا فى منع العلوم القديمة أن تتقدم، وظل النـاس يـؤمنـون بعظمـة هـذه الكتب ومـؤلفيهـا، واقتصر التـابعـون لهم على الشروح المستفيضة التى لا تتناول إلا التفصيلات، حتى كان علماء اللغة يقولون لكل من أراد الاجتهاد: «ليس هذا فى كتاب سيبويه فلا محل للاجتهاد».

□

والدكتور كامل يعرض تاريخ النحو من وجهـة نظره العامة فى تاريخ العلوم المقارن، وهى صحيحة إلى حد كبير جـدا. وتراه مثلا يقول: «على أن تاريخ العلوم المقـارن يبين لنا أنه يأتى وقت يكسر فيـه العلماء الأغلال التى وضعتهـا هـذه الكتب فى سبيل الاجتهاد، وتنشأ منـاهج

جديدة فى التفكير تخالف ما جرى عليه العلماء، وكانت هذه هى السبل الوحيدة التى تقدمت بها العلوم فى مختلف الميادين».

□

ويأتى دور **الطبقة الثانية**، طبقة التابعين، وتفكيرهم متشابه فى كل العلوم، إذ حرصوا على البقاء فى الحدود التى وضعها شيوخهم، وساعدهم ذكاؤهم على أن يوفقوا بين الكليات التى وضعها أسلافهم وبين ما لاقوه من صعوبات فى تطبيق الكليات ومن أبرزهم المبرد. وعهد الطبقة الثانية هو عهد تحكم الأجرومية. ويعرف الدكتور هذا العهد فيقول: «**يدرس فيه الناس علوم اللغة على أنها غاية تراد لذاتها، بل كان بعضهم يعدها غاية العلم**».

ويستطرد الدكتور إلى الحديث عن بيان النزعة الفلسفية فى النحو، فيقرر أنه كان طبيعيا أن تؤثر الفلسفة التى عرفها العرب وتعمقوا فى بحوثها فى النحو.. ولعل إعجاب ابن جنى بالفلسفة اليونانية كان سببا فى محاولته أن يجعل للنحو أصلا فلسفيا، وكتابه «الخصائص» شاهد على ذلك.

ويقول الدكتور كامل حسين: «كثيرا ما تهكم الناس على الفلسفة فى بعض نواحيها أنها محاولة إيجاد أسباب واهية غامضة لما يعرفه الناس كلهم بداهة». وهذا ينطبق تماما على ما فعله ابن جنى فى النحو، ويمثل الدكتور كامل حسين لذلك بتخصيص ابن جنى فصلا فى الخصائص عن هجوم الحركات على الحركات، وتعليله نصب جمع المؤنث السالم بالكسر بأن ذلك حمل للفرع على الأصل.

□

وينتقل الدكتور كامل إلى الحديث عن **الطبقة الثالثة**، فيقول:

«كان عهد التابعين من أهل الطبقة الثانية عهدا مشرفا برغم العيوب التى شرحناها.. وظلت هذه حال اللغة إلى القرن الخامس، ثم بدأ عهد الانحطاط، وتدهورت الحضارة العربية فأصاب علوم اللغة تدهور واضح جعل العلماء غير قادرين على أى نوع من أنواع التجديد أو الابتكار،

ولم يتجاوز عملهم الشروح العويصة التى لا غناء فيها، وتنافسوا فى تخريجاتهم، ولم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا فى أقوال القدماء ما يطعنون بـه فى علم زملائهم؛ فالفيروزابادى يكثر من قوله «ووهم الجوهرى».

□

وهنا يأتى دور الحديث عن **الألفية:**

«من أكبر الدلائل على تدهور علوم اللغة ما فعله ابن مالك حين وضع ألفيته المعروفة، وليس من المبالغة أن نقول إنها ساعدت بدورها فى هذا التدهور، وعندى أنها عادت بأضرار جسيمة على العربية، والعناية بها من الأسباب التى باعدت بين النحويين والكتاب».

«والأضرار التى ألحقتها ألفية ابن مالك باللغة العربية كثيرة. منها أنها نظم سقيم لا يقبله من عنده أقل قدر من الذوق الأدبى، ولا أظن أن أحدا ممن حفظوها يستطيع أن يكتب شيئا ذا بال فى غير النحو، وهى من الأمور التى ساعدت على انطواء النحويين على أنفسهم، كأن النحو بمعزل عن كل ما يفيد منه الكاتب والأديب. ثم إنها ركزت جهد المتعلمين على درس القواعد كأنها غاية فى ذاتها، والتأكيد على قواعد اللغة، والحاجة إلى تذكر تفاصيلها يعوق المتعلمين عن الانطلاق فى التفكير. ومن هنا أصبح العلم باللغة احترافا».

«والألفية مجموعة طلاسم لا تفهم إلا بعد شرحها شرحا وافيا، ولا يفيد أحد منها إلا بعد شرح هذا الشرح، حتى إذا بلغ الإنسان جوهر القاعدة وجد أنها لا تستحق شيئا من هذا الجهد. قيل إنها سهلت العلم بالقواعد، ولكن فائدة هذا النظم تضيع بين سوء النظم، وشرح الشراح، ولذلك تعددت الشروح والتقارير والحواشى، ولولا الألفية لاستطعنا أن نحتفظ من قواعد اللغة بما نكون فى حاجة إليه».

«والألفية ظاهرة من ظواهر الانحطاط فى علوم اللغة، وهى كذلك سبب من أسبابه. ومن العجيب أن علوما أخرى كتبت فيها ألفيات مثلها حتى فى الحساب». وأنا أضيف إلى الجملة الأخيرة من كلام الدكتور فأروى ما علمته من أن واحدا من علماء الأزهر تمكنت الألفية من لحمه ودمه، فلما أجاد الإنجليزية ألف فى قواعدها ألفية. **وللألفية مكانة كبيرة فى نفوس ذوى العلم بالعربية** ولا تزال هذه المكانة إلى اليوم، **ولم يكن الدكتور بغافل عن هذه المكانة ولكن ذلك لم يمنعه من أن يهاجم الألفية هذا الهجوم العنيف.**

وقـد يكون من المنـاسب أن نستطـرد هنـا إلى موقف كـامل حسين من بعض كتب النحـو الأخرى بعـد أن ذكرنا مـوقفه من الألفية. كـان الدكتور كـامل معجبا بشواهـد الكامل للمبرد (أبدى هذا الإعجـاب فى بحثه: حاجتنا إلى معجم مصفـى)، وكان معجبا بصفة خـاصة بكتاب التفاحة لأبى جعفر النحـاس (فى التعقيب على بحث الفصحى والعامية للأستاذ عـزيز أباظة). أما موقفـه من كتاب الأشمونى فقد ذكرناه فى الفصل الأول من هـذا الباب (جنس العدد)، ولا مانع من أن نـذكر أن الصـورة التى كانت لكتـاب الأشمونى فى ذهن كـامل حسين أنه «**جحر ضب خرب**».

ثم كانت النهضة العربية الحديثة، وأدرك بعض العلماء أننـا فى حاجة إلى إحياء علوم اللغة. فكتب الشيخ حسين المرصفى كتابه (الوسيلة الأدبيـة) حذا فيها حذو الأقدمين.. «وعكف كثير من المتعلمين على درس هـذه العلـوم، وكتبـوا فيهـا كثيرا، ثم تبين أن المتعلمين ينصرفـون عن القـواعد اللغـوية لصعـوبة اتقـانها، وبـذلت محاولات كثيرة لوضع كتب مبسطـة يسهل على المتعلمين إتقانها، ولم تنجح هذه المحاولات لسبب واضح جـدا وهو أن علوم اللغة لا تحتاج إلى تيسير بل تحتـاج إلى وضع علوم جديـدة تقوم على أسس تختلـف كل الاختلاف عن نظـريات العلماء القدماء». وهذا هو ما حاوله الدكتور كامل حسين.

□

فى النقاط السابقة عرضنا لتاريخ النحو كما صوره كامل حسين، وقد حرصنا على أن ننقل الصورة العلمية على نحو يتبدى فيه تاريخ النحو عند كامل حسين من ناحيتين، الناحية الأولى التاريخيـة، والناحيـة الثانيـة ما يتعلق بـآراء كامل حسين. وفى الحقيقة أنى أحـس فى تواصل فقـرات هذا الفصل بعضـا من الاضطـراب، غير أنى أومن بأن محافظتى على الترتيب الـزمنى لتطور النحو، وعلى عرض آراء الرجل، هما شفيعاى عند القارىء لهذا العذر.

الفصل التاسع

أثر الاستشهاد بالشعر فى علوم اللغة

نورد فيما يلى آراء الدكتور كامل حسين فى موضوع عنى به فى أكثر من موضع، وأفاض التحدث عنه فى كتابه «اللغة العربية المعاصرة»

١ ـ قيل إن الشعر ديوان العرب. وقد يكون حقا ديوان عاداتهم وأخلاقهم وأيامهم وما يحبون وما يكرهون، ولكنه لا يصلح ديوانا للغة دون تحقيق دقيق.

٢ ـ الشعر فى اللغات كلها له أسلوب خاص وأوضاع وترتيب فى الكلام يقبل من الشعراء، ولا يقبل من الكتاب عادة. وهذا فى الشعر العربى، بالإضافة إلى أن أوزانه محدودة محكمة لا تقبل إلا قليلا من المرونة، وقافية القصيدة واحدة مما يزيد فى صعوبة النظم. ولو التزم الشعراء العرب صحة الألفاظ واستقامة الأسلوب وجودة المعنى مع هذه الأوزان القاسية والقافية الواحدة دون تجاوز عن بعض الصيغ، وتهاون فى الصرف، ما استطاع أكثرهم أن يقول إلا القليل من الشعر.

على أن النظم يجعل هذه الانحرافات فى اللغة والأسلوب مقبولة، ولكن النحويين يخطئون حين يجعلون ذلك أصلا من أصول اللغة.

٣ ـ والشعر مهما يكن جيدا يكون فيه تساهل فى معانى الألفاظ، فالشاعر لا يقف عند الفرق بين الهجوع والنوم أو السير والسرى، بل يختار ما يوافق النظم. ولا نزاع فى أن هذا التساهل قد أفسد كثيرا من الدلالات الدقيقة للألفاظ.

٤ ـ والشاعر قد يخترع جموعا ومصادر لم يسمعها من قبل، ولا يعنى ذلك أنها تصبح مباحة لغير الشعراء.

٥ ـ والـدكتور كامل حسين مع الـذين يقولون بأن أكثـر شعر الشواهـد مصنوع واضح الصنعة.

٦ ـ ولا يرى كـامل حسين غضاضة فى إقرار قـاعدة ما دامت مقبولـة دون تكليف أنفسنا الاستشهاد بالشعر.

٧ ـ وعند كـامل حسين أن من الشعراء مَنْ لا تعنيهم الـدقة فى القـول، بل إن منهم مَنْ لا تعنيهم الدقـة فى المعنى، وقد يكونون مع ذلـك من كبار الشعراء، ومن هؤلاء الكبـار أيضا من يكون غير متأنق فى قوله.

٨ ـ والـدكتور كـامل حسين يرى أن «الشعـر لم يفسد النحـو كثيرا، لأن النحو لا يعترض النظم إلا نـادرا، ولكنه أفسد الصرف وصيغ المصـادر وجموع التكسير ومعانى الألفـاظ التى أصبحت كلها متداخلة متقـاربة تدل الكلمة الواحدة على معـان كثيرة، ويدل على المعنى الواحد ألفاظ كثيرة».

وخلاصة القـول أن الدكتور كامل حسين يدعـو إلى التحرر مما قيدنـا أنفسنا به من الاستشهاد بشعر الشعراء ومعه الحق فى ذلك.

الفصل العاشر

مسلمات العربية :

يرى الدكتور أن فى علوم اللغة العربية مسلمات لا يجوز لنا أن نبقى عليها.

١ ـ وأولى هذه المسلمات هى **فهم القدماء للسليقة**، وقد تعرضنا لهذه القضية بالتفصيل فى الفصل الخامس من هذا الباب.

٢ ـ أما المسلمة الثانية، فهى أن **اللغة العربية أوسع اللغات** وأغناها:

(١) وهى شنشنة نعرفها فى أهل اللغات قديما، «وفى هذا إعزاز للقومية يرتاح إليه الوطنيون، ولكن هذا التفاخر خطر جدا إذا أدى إلى وقوف اللغة عند حد لا تتعداه، وهو ما وقع للعربية».

(٢) «ولا أدرى على التحديد ما يراد بسعة اللغة، واللغات كلها تتسع لتصورات أهلها، والتفاضل بين اللغات يكون فى كثرة إنتاجها الأدبى والفكرى لا فى عدد ألفاظها. وقد كان القدماء يعدون من غنى اللغة أن يكون للأسد مئات الأسماء، وهى حجة واهية فطن إلى ضعفها بعض القدماء فقالوا إن للأسد اسما واحدا، وما عداه أوصاف».

(٣) وكثرة المترادفات التى لا تفترق مدلولاتها يعد عيبا فى اللغة لا سعة فيها، «وواجب التفريق بين المترادفات يقع على عاتق الكتاب والأدباء وحسن اختيارهم لما يستعملونه منها».

(٤) والمعانى الكثيرة للكلمة الواحدة نشأت من تأخر التدوين و«هى دليل على ضعف اللغة».

(٥) «وليس من غنى اللغـة أن يقال للنوم هجـوع إذا كان فى أول الليل أو وسطـه أو آخره. وهى مزية لا حقيقة لها ما دام المعنى على هذا النحو من التناقض».

(٦) «والـدقة عنـدهم دقـة فى المبنى وتخريج وهمى لأسباب ذلك، والـدقـة عند المحـدثين منصبة على المعنى».

(٧) «وإنما تقاس سعة اللغـة بما يستعمله الكتاب والأدباء من ألفـاظ وعبارات لها دلالتها الخاصة».

(٨) واللغويون يخشون إضافة الجديد إلى اللغة، وهى السبيل الوحيد لإغنائها، وكثير جدا مما جاء فى علوم الحضارة العربية كان إضافة إلى اللغة لم يعرفها أهل البادية، ويجب أن تكون مباحة لنا فى حدود ما يستسيغه الأدباء ويستحسنه الكتاب.

□

٣ ـ والمسلمة الثالثة هى أن «**الفصحى العالية تصلح لكل مقام**» ورأى الدكتور فى هذه المسلمة:

(١) «أن استعمال الفصحى العـالية فى غير ما يليق بها يشبـه مَنْ يضع قطعة مـن الحرير الغـالى ليسد بها فتحـة فى نـافذة، دون أن يـدرى أن فى هـذا إهدارا لقيمتهـا، ثم إنـه ليس من المستطاع أن نتكلم بالغناء دائما».

(٢) «خير مـا تصلح له الفصحى العـاليـة أرقى مراتب الأدب والمواعظ والحكم. وهـذه لا تصلح إلا بالفصحى العالية».

(٣) «وعلى ذلك يجب على العرب أن يختـاروا من المقامات مـا تصلح فيه الفصحى العـالية وما لا يصلح إلا بها».

(٤) «والمشكلـة هنا هى العمل على جعل هـذه الفصحى ميسرة لمن يـريدون أن يتأنقـوا فى علمهم دون أن يكون ذلك عائقا عن التفكير الحر». وهو ما سماه الدكتور «**تسليق الفصحى**».

(٥) «واللغة العربية لغة **معربة** إعرابا دقيقا، ثم هى **اشتقاقية**، وكلا الأمرين يحول بينها وبين أن تكون لغة للعلوم الحديثة كلها وإن كان ذلك مستطاعا بعد جهد عنيف، ولن تكون فيه فائدة لا للغة ولا للعلوم».

(٦) «**وعلى ذلك يكون للعربية ثلاث درجات:**

□ العالية وتُتبع فى الأدب الرفيع الذى يحتاج فيه إلى قوة تعبيرية وجمال فى الأسلوب.

□ الفصحى المخففة التى تتبع فيها بعض القواعد الكبرى إذا كان الإنســـان مهيأ لاتباعها، ويتبع فيها البناء المألوف للكلمة دون بحث فى صوابه أو خطئه أو جواز مخالفته.

□ أما العلوم الطبيعية الرياضية فلا يصلح لها إلا العامية المنقحة تنقيحـــا يخرج بها عن الابتذال.

□

٤ ـ والمسلمة الرابعة هى «**وجوب المحافظة على قواعد الإملاء**»:

(١) فقواعد الإملاء فى العربية اليوم غير منطقية وغير معقولة وهى لا تتبع نظاما خاصا.

(٢) وأعجب ما فى قواعـد الإملاء رسم الهمزة «وقد عرضنا رأى الـدكتور فى رسم الهمزة فى الفصل السابع من هذا الباب».

(٣) ومن الصعوبات: الكلمات التى تكتب مشتبكة وحقها أن تكون منفصلة مثل: لئن ولئلا وطالما.

(٤) ومما يـزيد فى صعـوبات الإعـراب ربط الكلمات بعضها ببعض، وهـو يرى أن تكتب مسئوليـاتنا هكـذا: مسئوليـات نا «حتى يسهل على القـارىء أن يعرف أن التـاء فى وسط هذه الكلمة هى تاء جمع المؤنث السالم التى تنصب بالكسرة».

(٥) ويقترح ألا نكتب الألف بعد الواو فى مثل: كتبوا.

(٦) وقد تكون معرفة الصواب ميسرة إذا عرف السياق، أما فى الكلمات التى تدل على أسماء الأماكن والأعلام فلا يمكن أن يدل عليها السياق.

وهنا يكرر كـامل حسين الدعوة إلى استعمال حروف العلة على أنها حركـات، وهى الدعوة التى طالما نادى بها فى كتابة الأسماء الأجنبية.

(٧) ولا ضير على اللغة العربية من إغفال القواعـد التى تؤدى إلى مثل هذه الصعوبات، ولا عبرة بما يقـال من أن هذا يقطع الصلـة بين الكتب العربيـة القديمـة، وبين المتعلمين فى العصر

الحاضر، والواقع أن الصلة مقطوعة لصعوبة الإملاء، ثم إن الأتراك ــ وقد غيروا حروفهم إلى اللاتينية ـ لم تنقطع صلتهم بأدبهم القديم.

□

٥ ـ والمسلمة الخامسة هى «**أن القواعد اللغوية متساوية قدرا**».

والدكتور يرى أن القواعد اللغوية ليست متساوية فى أقدارها ووجوب اتباعها، فهى على أنواع مختلفة:

(أ) ما يجب المحافظة عليه.

(ب) ما يحسن اتباعه.

(جـ) ما يمكن التساهل فى تطبيقه إذا كان فى اتباعه إرهاق أو تردد أو إمعان فكر.

(د) ما لا يفيد منه الكاتب أو القارىء.

(هـ) ما هو مفتعل افتعالا لا أصل له من اللغة.

(و) ما يجب أن ننبذه حتى لا يعرفه إلا من يرون مثل هذا العلم من بين المحترفين.

وهكذا يقسم الدكتور قواعد اللغة تقسيما فى مدى الأخذ بها، وقد يكون فى تقسيمه ثلاثة الأنواع الأولى شبها بالتقسيمات الفقهية التى تتعلق بأحكام الأعمال.

ويمضى الدكتور كامل حسين (ص ٨٠، ٨١ من كتابه اللغة العربية المعاصرة) فيفصل القول فى هذه الأنواع، وما يجب أن يكون عليه موقفنا منها.

الفصل الحادى عشر

□□ مستويات اللغة المعاصرة

□□ الفصحى المخففة :

يقصد الدكتور بالفصحى المخففة تلك اللغة الشائعة بين المتعلمين، وهى وسط بين العامية المنقحة، والفصحى العالية. ويدعو الدكتور إلى دراسة خصائص هذه اللغة ووضع قواعد تنظيمها حتى لا تصبح مهلهلة كالعامية، أو عسيرة كالفصحى العالية.

ومن أمثلة الفصحى المخففة أن يكون جنس العدد على النحو الذى اقترحه الدكتور وبيناه من قبل فى الفصول الأولى من هذا الباب.

وما النحو المعقول إلا وسيلة الدكتور إلى تحقيق دعوته، وهو نحو «براجماتى»، بمعنى أنه يعتمد فى صحته على ما يكون فيه من فوائد.

أما خصائص الفصحى المخففة فهى:

□□ عدم التمسك بالإعراب إلا فى الحالات الواضحة جدا، وإطراد أبواب الفعل، وصيغ المصادر، وجموع التكسير إلا فيما هو مشهور.

□□ العدول عن مطابقة الفعل للفاعل المثنى.

□□ إغفال الفرق بين مخاطبة الرجال والنساء فى الضمائر فى حالات الجمع.

□□ إباحة النطق بالكلمات غير المعروفة للكاتب أو القارىء بالصيغ المختلفة بحيث لا

يتوقف عندها للتفكير فى صحتها (وقد فصلنا القول فى هذا الأمر فى الفصل الخامس من هذا الباب).

□□ العامية المنقحة وتعليم اللغة العربية للمتبدئين :

ينبه الدكتور فى بداية فصله الخاص بتعليم العربيـة من كتابه «اللغة العربية المعاصرة» إلى عدة حقائق مهمة منها:

(١) أن تعلم اللغة أشق على الطلبة من تعلم غيرها من العلوم.

(٢) أن أكثر الطـرق الحديثة المتبعة فى تعليم العربيـة مستوحاة من طرق تـدريس اللغات الأخرى لأهلهـا ولغير أهلها، وبعض هذه الطـرق لا تتفق مع خصائص العربيـة بسبب البون الشاسع بين اللغة التى يتكلمها المبتدئون، وبين الفصحى العالية التى يكتبها المثقفون.

ويقوم اقتراحه على أساس من الحقائق التالية :

(١) أن تعلم القراءة خطوة تسبق تعلم اللغة، وهى تمهيد لها.

(٢) أن الغرض الأول مـن تعلم القراءة فى السن الأولى هـو المطابقـة بين الكلمة المسمـوعة والمرئية.

ثم يقول : فإذا دخل الأطفـال المدارس، فإنهم يتكلمون لغـة عامية يسمعـونها فى كل مكان ويتحدثون بها بطلاقة وثقة.

وعلينا أن ننقحها تنقيحا يسيرا، وسنجد أن ذلك أسهل كثيرا مما نظن.

ويقدم الدكتور كامل حسين بعض الأمثلة على ذلك:

(١) يقول الطفل: أنـا جيت المدرسة، وكان التـلامذة كلهم فى الامتحان. ويقـول: أيضا إنت لابس بدلة حلوة.

والتنقيح فى هذا المثالين يسير.

(٢)

ويقول الطفل	والتنقيح
ـ إحنا لعبنا الكورة فى حصة لألعاب	نحن بدلا من إحنا
ـ بدى أستريح فى البيت.	بودى بدلا من بدى

ويلاحظ أن هـذه الجمل كلها مثبتة. والتنقيح فيهـا بسيط جدا، ويـلاحظ أن تكون الجمل فيها الضمائر المختلفة.

(٣) النطق بالقاف :

بعض اللهجات تنطق القاف ألفا، وبعضـها جيما، وليس من الصعب أن نعود الطفل على أن يقول قعد وقال ولقى، فهذه الصعوبة يمكن التغلب عليها حتى عند الأطفال.

(٤) **أما الجمل المنفية:** فتحتاج إلى تنقيح أكثر من الجمل السابقة:

يقول الطفل	والتنقيح
ـ ما كانش حد فى المدرسة.	ـ ما كان
ـ ما جبتش الكتاب معايا.	ـ ما جبت
ـ هو ما قعدش جنبى	ـ هو ما قعد

والشين المذكـورة فى النفى إمـا أن تكون بـدلا من شىء كما فى «بـلاش»، أو هى فى الـواقع علامة النفـى فى العامية. ولعلها لهجة من لهجـات القبائل التى نزلت فى بعض البـلاد العربية. وحذفها له أثر كبير فى تحويل العامية إلى ما يشبه اللغة الصحيحة.

(٥) **الاستفهام:** وهناك صعوبة فى الاستفهام الذى يبدأ عند الأطفال بكلمة «ليه».

يقول الطفل	والتنقيح
ـ ليه ضربتنى؟	لماذا بدلا من ليه.

(٦) **الإشـــارة :**

يقول الطفل	والتنقيح
ـ النهارده كان حر	هذا النهار كان حر.

(٧) **الاستمرار :**

يوجد فى العامية حرف الباء الذى يلحق بالأفعال فتدل على الاستمرار حيث يقول الطفل: أنا باكتب، والواقع أن «هذا الحرف غير موجود فى العربيـة. وأنا حائر فى أمره لأن له دلالة خاصة، ويصعب الاستغناء عنه. ولا أدرى هل نبقيه علامة على الاستمرار، أو نحذفه عند التنقيح».

(٨) **المستقبل:**

يقول الطفل	والتنقيح
ـ أنا (ح) أروح المدرسة يوم السبت	سأروح.

(٩) **الملكية :**

يقول الطفل	والتنقيح
ـ الكتاب بتاعى ضاع.	ـ كتابى ضاع.

ولعل أصل كلمة بتاع هذه هى متاع، كأنه يقول «الكتاب متاعى ضاع»، ويمكن أن يستغنى عن هذه الكلمة ويستعاض عنها بياء الملكية.

ويقول الدكتور كامل حسين إن هذا الأسلوب فى تعليم اللغة للأطفال يقنعهم بأن اللغة التى يتعلمونها ليست غريبة عن اللغة التى يتكلمونها. ويصح أن نشجعهم على التعبير عن أفكارهم بهذه العامية المنقحة إلى أن يبلغوا السن التى يستطيعون فيهـا التدرج من هذه العامية المنقحة إلى اللغة الفصحى المخففة، وسنترك للإخصائيين تحديد المدة التى يتم فيها الانتقال من لغة إلى أخرى، وكذلك نترك لهم ضرب الأمثلة العديدة على هذا التنقيح.

التعبير بالعامية المنقحة :

يقول الطفل حاكيا ما حدث له فى يوم من الأيام :

«إحنا رحنا البحر، وركبنا المركب، ونزلنا الميـه، وأعدنا نسوء المركب ورجعنا تانى، وطلعنا، وشفنا النادى، وتفـرجنا على الحتت الى بيلعبوا فيها بس مـا كانوش بيلعبوا، وبعد مـا تفرجنا رجعنا البيت، وغيرنا هدومنا المبلولة، واستريحنا، ونزلنا الجنينة بعد كده».

ويمكن تنقيح كلام الطفل هكذا :

«نحن رحنا البحر، وركبنا المركب، ونزلنا الماء، وقعدنا نسوق المركب ورجعنا تانى. وطلعنا من المركب وشفنا النادى، واتفرجنا على الحتت التى بيلعبوا فيها، ولكن ما كانوا يلعبوا، وبعدما اتفرجنا رجعنا البيت وغيرنا هدومنا المبلولة، واستريحنا، ونزلنا الجنينة بعد كده».

وهـذا خير فى تعويـد الطفل على الصـدق فى التعبير من أن يحفظ عبارات بـالفصحى العالية.

□□ تعليم العربية لكبار السن :

يدعو الدكتـور كامل حسين إلى التفريق بين تعليم العربية لكبار السـن وصغاره للأسباب الآتية:

(١) صغار السن يسهل عليهم تعلم كل شىء، للمرونة الكاملة فى قدرتهم على الاستيعاب.

(٢) كبار السن لـديهم حصيلة كبيرة من الألفاظ والتراكيب يعـرفونها معرفـة جيدة حتى قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة.

والعامـة فى البلاد العربيـة يعرفون من الآيـات القرآنيـة والأحاديث النبويـة ما يجعلهم فى الواقع غير أميين.

ويحسن بالمعلمين أن يفيدوا من هذا الموقف، فيعلموهم قـراءة الكتب الدينية. والرجل يفرح إذا عرف كيف يقرأ ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم**﴾ [البقرة: ٢١٦] و «**لا حول ولا قوة إلا بالله**» ، أما أن نعلمهم «ذهب عـادل ليلعب الكرة» فعمل لا يعنيهم ولا يشـوقهم، ولعله هو السبب فى ارتدادهم إلى الأمية وعدم إقبالهم على الاطلاع.

الفصل الثانى عشر

النحو المعقول :

نعرض فيما يلى منهج الدكتور كامل حسين فى «النحو المعقول» أو «النحو الحديث»:

الإعـــراب

١ ـ الاسم :

يُـرفع الاسم على الخبرية حين يكون متحـدثـا عنه أو خبرا متعلقـا بـه، وُيجر الاسم على الإضافة بأن يسبقـه حرف جر أو اسم مضاف إليه، وينصب الاسم على التكملـة فى كل ما عدا ذلك.

(١) رفع الاسم :

يرفع الاسم المتحدث عنه والخبر المتعلق به ومـا يتبع ذلك من أوصاف أو معطوفات كما فى الأمثلة الآتية:

الجملة	المتحدث عنه	الخبر	ملاحظات
قام محمد	محمد	قام	لا يؤثر التقديم أو التأخير فى إعراب المتحدث عنه. الفرق بين هذه الجمل بلاغى وليس إعرابيا
محمد قائم	محمد	قائم	التقديم والتأخير والنفى والاستفهام لا يؤثر فى الإعراب.
ما محمد قائم	محمد	قائم	
هل قائم محمد؟	محمد	قائم	
ما قام إلا محمد	محمد	قائم	
ما محمد إلا قائم	محمد	قائم	الاستثناء لا يغير من إعراب المتحدث عنه
كتب الكتاب	الكتاب	كتب	الكتاب متحدث عنه.
المؤلفة قلوبهم	قلوبهم	ـــــ	المتحدث عنه القلوب.
الحسن خلقه	خلقه	ـــــ	المتحدث عنه الخلق.
كان محمد قائما	محمد	كان	الواقع أن كان هى الخبر ولا داعى لانفراد كان وأخواتها بأحكام خاصة.
إن محمدا قائم	محمدا	قائم	هذه هى الحالة الوحيدة التى ينصب فيها المتحدث عنه لأن الضمائر التي تلي هذه الكلمات منصوبة، فجرت العادة أن ينصب ما بعدها وإن كان متحدثا عنه.

مواضع أخرى للرفع :

يا محمد   المنادى الحقيقى يجب أن يكون مقصودا بذاته وهو مرفوع، وينصب فى غير ذلك.

علامات الرفع:

(أ) الضمة : جاء محمد، ولا تظهر الضمة فى الكلمات المنتهية بياء أو بألف مقصورة.

فنقول جاءنا قاض عادل، وجاء القـاضـى العادل، وجاءنا قاضـى المدينة، وتقول الغنى غنى النفس، وهذا رضا من الله.

(ب) الألف والنون أو الألف فى المثنى: جاء القاضيان، وجاء صاحباك.

(جـ) الواو والنون فى جمع المذكر السالم أو الواو إذا أضيفت إلى ما بعدها: جاء المحافظون، وجاء حافظو القرآن.

(د) الواو فى الأسماء الخمسة: هذا أبوك.

(٢) جر الاسم :

(أ) أن يكون الاسم مضافا إليه اسم قبله : كتاب محمد.

(ب) أن يسبقه حرف جر : من محمد.

(جـ) أو حرف قسم : والله، وتا الله.

(د) أو واو رب : وفارس من غمار الموت.

علامات الجر :

(أ) الكسرة: مررت بمحمد، ولا تظهر الكسرة فى الكلمات المنتهية بياء أو بألف مقصورة، فتقول: مررت بقاض، ومررت بالقاضى العادل، ومررت بقاضى المدينة. وتقول مررت بمرعى جيد، وبمرعى السعدان.

(ب) الياء والنون أو الياء فى المثنى.

(جـ) الياء والنون أو الياء فى جمع المذكر السالم: رب العالمين.

(د) الياء فى الأسماء الخمسة: بأبيك.

(هـ) يكون الجر بالفتحة فى الأسماء الممنوعة من التنوين إذا كانت خالية من أل والإضافة، فإذا لحقتها أل أو الإضافة كان الجر بالكسرة جريا على القاعدة العامة.

الأسماء الممنوعة من التنوين هى :

(أ) من الصفات: ما كان على وزن أحسن، وأحمر، وبيضاء، وسكران.

فتقول مررت بأحسن منهم.

(ب) من الأعلام ما كان

ـ أعجميا : مررت بيعقوب

- على وزن الفعل : مررت بيزيد
- مؤنثا : مررت بعائشة
- أو على صيغة التأنيث : مررت بطلحة
- أو على وزن عثمان : مررت بعثمان

(جـ) من الجموع ما كان على وزن شفعاء، وأنبياء، ومفاتيح، وصهاريج.

ولا بأس على من يجد صعوبة فى تذكر قواعد الممنوع من الصرف أن يقتصر على أفعل التفضيل، تاركا للمختصين أن يراعوا ذلك فى الصيغ الأخرى.

(٣) **نصب الاسم :**

ينصب الاسم إذا كان تكملة للخبر كأن يكون بيانا لما عليه الحديث، أو توكيدا، أو تحديدا لزمانه أو مكانه، أو هيئته، أو حاله، أو سببه، إلى غير ذلك من الأغراض التى لا داعى لتحديدها. ويكفى فى **النصب ألا يكون الاسم متحدثا عنه، ولا خبرا عنه، ولا مجرورا، ولا وصفا ولا معطوفا على مرفوع أو مجرور.**

الجملة	المنصوب	ملاحظات
كتب محمد كتابا	كتابا	وقع عليه الحدث وهو الكتابة
منجز وعده	وعده	وقع عليه الإنجاز
حذر أمورا	أمورا	وقع عليه الحذر
الكاتب الكتاب	الكتاب	أل والتنوين والإضافة تجعل وظيفة الكلمة فى الجملة منتهية ويكون ما بعدها تكملة منصوبة.
هو كاتب كتابا	كتابا	
إغاثتك البائس	البائس	
جاء محمد صباحا	صباحا	بيان الزمان
قام محمد احتراما لك	احتراما	بيان السبب
انطلق انطلاقا	انطلاقا	توكيد
جاء محمد مرجعه من السفر	مرجعه	بيان الزمان

فسجدوا إلا إبليس	إبليس	الاستثناء تكملة للخبر وليس من صميمه
جاء محمد أمامك	أمامك	بيان المكان
كان محمد قائما	قائما	كان وأخواتها لا تنصب خبرها لخاصية فيها بل ينصب لأنه تكملة

وينصب الاسم كذلك حين لا يراد منه أن يكون متحدثا عنه أو خبرا له.

الجملة	المنصوب	ملاحظات
الجهاد الجهاد	الجهاد	الجهاد ليس متحدثا عنه.
ما أحسن السماء	السماء	المراد التعجب لا الإخبار.
عليكم أنفسكم	أنفسكم	أنفسكم ليست متحدثا عنها.
سرت والنيل	النيل	لا يمكن أن يكون النيل عطفا على التاء فى «سرت» فليست متحدثا عنه

علامات النصب :

(أ) الفتحة: كتب محمد كتابا (ولا تظهر فى الكلمات المنتهية بألف مقصورة).

(ب) الكسرة: فى جمع المؤنث السالم: الحسنات يذهبن السيئات.

(جـ) الياء والنون أو الياء فى المثنى: أكرم محمد الصديقين وصديقيه.

(د) الياء والنون أو الياء فى جمع المذكر السالم: يعذب الله الظالمين وظالميك.

(هـ) الياء: فى الأسماء الخمسة: أبيك وأخيك.

٢ ـ الفعـــــل :

القاعدة: الفعل لا يتغير إذا كان ماضيـا لأن الأحداث الماضية لا تتغير، والفل المضارع **يرفع** إذا دل على تقرير حقيقة. **ويجزم** إذا دل على حدث معلق على حدث آخر كما فى فعل الأمر وجواب الشرط، أو لم يتم كما فى المضارع المنفى بلم .**وينصب** فى كل ما عدا ذلك.

الفعل الماضى:

الفعل الماضى لا تتغير حركة آخره لأن معناه ليس قابلا للتغيير باختلاف التراكيب، وصيغته ثابتة وتختلف باختلاف الضمائر.

الفعل المضارع :

(١) الرفع: يرفع الفعل المضارع إذا أريد به تقرير حدث بعينه.

(٢) الجزم: يجزم الفعل إذا دل على حدث ناقص كأن يكون نفيا لمضارع لم يتم أو فعل أمر لا يقع إلا إذا أطيع، أو دل على حدث معلق وقوعه على حدث آخر.. إلخ.

الجملة	الفعل المجزوم	ملاحظات
لم يحضر	يحضر	النفى بلم
اكتب	اكتب	أمر لا يقع إلا إذا أطيع.
أرسله معنا يرتع	يرتع	الرتع لا يحدث إلا إذا تم الإرسال.
إن تقم أقم	تقم ـ أقم	كلا الحدثين لم يقع، وكلاهما معلق على الآخر، وهذا هو الشرط.

(٣) النصب : ينصب الفعل المضارع فيما عدا ذلك.

مواضع النصب :

الجملة	الفعل المنصوب	ملاحظات
جئت لأكرمك	أكرمك	
جئت كى أكرمك	أكرمك	
جئت حتى أكرمك	أكرمك	
ألا تزورنى فأكرمك	أكرمك	
ليتك تزورنى فأكرمك	أكرمك	كلها منصوبة لأنها غاية لما قبلها.
تزورنى إذن أكرمك	أكرمك	الإكرام هنا نتيجة للزيارة، فالنصب لا يتعلق بكلمة إذن، وإنما يتعلق بأن ما بعدها نتيجة لما قبلها.

أو أبلغ المنى	أبلغ	بلوغ المنى غاية.
لبس عباءة وتقر عينى	تقر	تنصب إذا كانت معلقة على لبس العباءة، ولا تنصب إذا كانت عطفا.

« تعليقات على الإعراب »

المتحدث عنه :

(١) اختار الدكتور كامل حسين اصطلاح «المتحدث عنه» بدلا من «الموضوع» التى استعملها المناطقة، وبدلا من «المسند، والمسند إليه»، فهما عسيرتان على المبتدئين.

(٢) لا يحتاج المتحدث عنه دائما إلى خبر متعلق به فلا داعى لذكر محذوف، **فالحذف والتقدير لا وجود لهما فى النحو الحديث.**

(٣) ليس من الضرورى أن نحدد أى الاسمين متحدث عنه، وأيهما خبر، فهذا بحث بلاغى لا يتعلق به إعراب أى منهما.

(٤) التقديم والتأخير والنفى والاستفهام :

ليس لهذه الأمور أثر فى الإعراب، فالمتحدث عنه مرفوع دائما سواء تقدم أم تأخر.

(٥) الاستثناء :

الاستثناء لا يؤثر فى الإعراب شيئا :

(أ) إذا كان المستثنى متحدثا عنه أو متعلقا به كان حقه الرفع.

(ب) فيما عدا ذلك يكون المستثنى تكملة منصوبة كما فى الآية: ﴿**فسجدوا إلا إبليس**﴾. [البقرة: ٣٤]

(٦) الاستثناء بغير وسوى :

(أ) لا يرى الدكتور داعيا لإعراب سوى، وفرض حركات مقدرة على يائها.

(ب) أما إعراب (غير) فإن كامل حسين لا يرى **قاعدة أقل فائدة للمتكلمين والقراء من قاعدة إعراب غير إعراب المستثنى بإلا.**

(جـ) أما غير فهى كلمة ككل كلمات اللغة ترفع إذا كانت متحدثا عنها، مثل: (لا يقع فى الشر غير فاعله).. وهكذا يمضى الدكتور فى عرض فيه، فذلك نفى بسيط ويكون الضم أولى.

« ولا داعى لوضع قاعدة خاصة بها ».

(٧) جملة كان وأخواتها :

(أ) ليس هناك ما يدعو إلى البحث فى اسم كان وخبرها فاسمها مرفوع بالطبع لأنه متحدث عنه وخبرها منصوب بالطبع لأنه تكملة، «وقد تكون التكملة ألزم لهذه الأفعال منها لأكثر الأفعال الأخرى، وليس هذا سببا لانفرادها بقواعد خاصة».

(ب) أما (كان) فتدل على الكينونة فى الماضى، وغير الماضى، كما فى قوله تعالى: ﴿**وكان الله غفورا رحيما**﴾، [النساء: ٩٦] والفرق بينهما بلاغى وليس إعرابيا.

(٨) أفعال القلوب والتحويل:

يرى الدكتور أنه من التعقيد أن نفرد بابا خاصا لظن وأخواتها فكل أخبارها منصوب على التكملة.

(٩) إن وأخواتها :

يخرج الدكتور كامل حسين من مأزق إنّ بقوله: «يقال فى إعراب هذه الجمل إن المتحدث عنه حقه الرفع لولا أن سبقته «إن»، وبذلك يستقيم هذا الباب مع أبواب الرفع والنصب الأخرى.

(١٠) المنادى :

(أ) «ليس المنادى من الأبواب الصعبة فى النحو، وقد يكون أسهل لو قلنا إن المنادى المقصود لذاته يرفع مثل: يامحمد، يارجل، يأيها الرجل، فإذا لم يكن مقصودا لذاته كأن يكون نكرة غير مقصودة أو مقصودة لصفة فيها نصب مثل: يا حاضرا فى فؤادى، يا صاحب الدار.

(ب) والبحث المهم فى المنادى ـ عند الدكتور كامل حسين ـ يجب أن يكون فى أدوات المنادى ودلالتها.

(١١) كـــم :

(أ) إذا أريد بها الاستفهام عن العدد فلا عمل لها أبدا فى إعـراب مابعدها فتقول «كم ثوبا اشتريت»؟ و(ثوبا) منصوبة لوقوع حدث الشراء عليها «وبكم درهم اشتريت»، فدرهم مجرورة بالباء، «ولا أرى مـانعا من أن نسأل فنقول «كم رجل قام؟» وإن لم يـرد هذا التعبير فى مأثور القول».

(ب) «والواقع أن كم كانت للتكثير، فخير عبارة تدل على ذلك أن تتبعها (من) مثل ﴿**كم من فئة قليلة**﴾ [البقرة : ٢٤٩] وحذف (من) جائز ويبقى إعراب (فئة) بالكسرة.

(١٢) كلا وكلتا :

يرى الدكتور كامل حسين أن الألف فى كلا وكلتـا من أصل الكلمة، وليست علامة تثنية إذا جاءت قبل المثنى، والدليل على ذلك أنك تقول «كلا الرجلين قام».

أما إذا جاءتا عقب المثنى فتكونان صفتين، ويعربان كذلك فتقول: «مررت بالرجلين كليهما» والصحيح أن تقول: «إن المعلم والطبيب كليهما لا ينصحان»، أو «إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصح»، والخطأ أن تقول: «إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان».

(١٣) أى :

(أ) يرى الدكتور كامل حسين أن العيب ليس فى أى، وإنما فى القواعد التى وضعت لها.

(ب) أما إعرابها فى النحو الحديث فيسير على النحو التالى:

□ ترفع حين تكون متحدثا عنها مثل: ﴿**أيكم يأتينى بعرشها**﴾ [النمل: ٣٨].

□ تنصب حين يقع عليهـا الحدث سواء تقدمت أو تـأخرت مثل ﴿**أيما الأجلين قضيت**﴾ [القصص: ٢٨].

فليس إعرابها غريبا ولا داعى لتقدير فعل ينصبها حين تنصب.

(١٤) حتى :

يدعو الدكتور كامل حسين إلى إعراب ما بعدها بالمعنى فتقول «أكلت السمكة حتى رأسها» بالكسر إن أردت أن تقول: أكلتها إلى رأسها، وبالفتح إذا أردت: أكلت رأسها.

أما الرفع فى مثل قـول جرير «حتى شط دجلة أشكل»، فإن مثل كلمة الشط مـرفوعة لأنها متحـدث عنها (وهـذا لا معنى له فى مثل السمكـة فـلا مسوغ للتأويل بقـولنا: «حتى رأسهـا مأكول»).

(١٥) لا :

«لا» تدل فى مـذهب الدكتور كـامل حسين على أحد معنيين: إمـا النفى البسيط، وإما النفى البات القاطع الذى يراد تأكيده، فالنفى البسيط كما فى عبارة ﴿**فلا خوفٌ عليهم**﴾[البقرة : ٣٨] والنفى البات كما فى عبارة ﴿**لاريب فيه**﴾ [البقرة : ٢] حيث المراد النفى القاطع.

وإذا جاء رجل متلهف يستغيث بك قلت له هنا لا خـوفَ عليك بالفتح، أما إذا تحدث رجلان عن مكان ما فقالا إنه آمن لا خوفٌ فيه فذلك نفى بسيط ويكون الضم أولى.

(١٦) جزم الفعل :

يقوم الجزم أو عدمه على **المعنى المراد** أكثر من قيامه على **عوامل الجزم**، فقد يكون عامل الجزم موجودا ويـرفع جوابه، وقد يكـون عامل الجزم غير موجود ويجزم جـوابه: فالمثل على الحالة الأولى والآية الكريمة ﴿**لئن أخرجوا لا يخرجون**﴾ (الحشر : ١٢)، ﴿**ولئن قوتلوا لا ينصرونهم**﴾ (الحشر : ١٢). فعـدم الخروج وعدم نصرهم المقـاتلين واقع سـواء وقع الحدث الأول أم لم يقع لذلك يكون الرفع فى جواب «إن» أولى على المعنى المراد. والمثل على الحالة الثانية الآية الكريمة ﴿**لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين**﴾ [المنافقون : ١٠] إن لـولا ليست من عـوامل الجزم عـادة إلا أن معناهـا فى هـذه الآيـة شرطى، وعبـارة أكن من الصالحين معلق على التأخير فى المعنى، وعلى ذلك وجب الجزم.

(١٧) نصب الفعل :

يقترح الدكتـور أن يترك الحكم فى أدوات نصب الفعل التى وضـع لها النحاة بعض الشروط الخاصة للمعنى ولما يريـده المتكلم. ومثال ذلك: «**ولبس عباءة، وتقر عينى**»، فإذا أردت أن تكون قرة العين نتيجة للبس العباءة كان النصب، وإذا أردت مجرد العطف فيجب الرفع.

(١٨) إنّ وأنّ :

جرت عادة العـرب على ألا يذكروا بعد كلمة قال إلا مـا كان نصا، وعلى ذلك يجب أن تكسر همزة إن بعد قال. لكنـا فى هذا العصر نتوسـع فى استعمال كلمة قـال، فإذا كان ما بعـدها نصا وضـع بين علامتى تنصيص وتكون همزة إن مكسورة، وإن لم يكن نصا جاز فتح همزة أن أو كسرها بحسب المعنى المراد.

الفصل الثالث عشر

الصرف الحديث

١ ـ أبواب الفعل (جدول الصرف) :

(١) خلاصة فكرة الدكتور كامل حسين فى جدول الصرف أنه جمع تقسيمين فى تقسيم واحد. فالتقسيم الأول هو تقسيمنا الفعل إلى صحيح ومعتل.. إلخ، والتقسيم الثانى هو تقسيمنا الفعل ستة أبواب من حيث حال عينه فى الماضى والمضارع، وتقسيم الدكتور يجعل الفعل تابعا لباب «المثال المضارع» أو «الناقص الماضى» مثلا.

(٢) وقد نشر الدكتور جدول الصرف (الأول) مع بحثه أصول علوم اللغة الذى ألقاه أمام مجمع اللغة فى الجزء الثانى من كتابه «متنوعات».

أما (جدول الصرف) (الثانى) فقد نشره فى بحثه النحو المعقول.

ولو درسنا الجدول الأول على ضوء معلوماتنا الصرفية لوجدنا فيه بعض النقص، فهو لم يذكر مثلا باب المثال الذى من باب ضرب يضرب ومثاله وعد.

أما الجدول الثانى فقد زاد فيه الدكتور كامل حسين، وتدارك ما ترك من قبل حتى بلغ مبلغا كبيرا من الكمال وحتى بلغ به مبلغا علمى وهو قليل.

□

(٣) وكان الدكتور كامل فى الجدول الأول يتناول الفعل فيذكر الماضى والمضارع والمجزوم المبنى للمجهول واسم الفاعل واسم المفعول واسم المصدر واسم الزمان. ثم يبين اتصاله بضمائر المتكلم (المفرد، والجمع)، والمخاطب (المفرد، والمفردة، والجمع)، الغائب (المفرد، المفردة، الجمع) فى الماضى والمضارع. ثم يتناول صيغة الأمر (للمفرد وللمفردة وللجمع).

أما فى الجدول الثانى فقد تناول الأفعال تناولا أكثر علمية وترتيبا على النحو الآتى:

الماضى، المضارع، الأمر، اسم الفاعل، اسم المفعول، المبنى للمجهول (فى الماضى والمضارع)، اسم الزمان. وهى (المشتقات) التى لا تتعلق بالضمير.

ثم المشتقات التى تتغير طوعا للضمير بالضمير: المتكلم، المخاطب (المذكر والمؤنث)، الغائب (المذكر والمؤنث) فى حالتى الإثبات والنفى.

□

(٤) أما فى كتابه «اللغة العربية المعاصرة» فقد تناول كامل حسين جدول الصرف بالتخفيف، فجعل جميع الأفعال السالمة من باب نصر ينصر، المعتل الأول على بابين (وعد يعد، ووضع يضع) المعتل الوسط على بابين (قال، باع)، المعتل الآخر.. (رعا، رمى).

ودعا كامل حسين فى هذا الكتاب إلى اختيار باب واحد للفعل ذى الأبواب المتعددة:

(أ) فإذا كان الفعل من الأفعال المشهورة وكان لكل باب من الأبواب معنى خاص به بقيت الحال كما هى عليه كما فى كبر وكبر.

(ب) وإذا كانت الأبواب المتعددة كلها بمعنى واحد فيجب اختيار واحد منها، ويفضل الباب الذى تكون عينه مفتوحة، ويفضل الباب المضموم العين على مكسورها.

٢ ـ المصادر :

خلاصة رأى الدكتور كامل حسين فى المصادر يضمها قوله :

«وعندى أننا نؤدى للغة خدمة كبرى إذا خصصنا لكل مصدر معنى خاصا، كأن نقول إن الأوب يكون من الذنب، أما الإياب فيكون من السفر لأن فى ذلك غنى كبيرا للغة، وتجديدا لمعانى»

ألفاظها، ودقة فى دلالتها، وكلها صفات مـرغوبة من حيث إن وظيفة اللغة هى الإبانة، ولا عبرة بقول من يقول: أين النص على هذا التخصيص؟!».

٣ ـ الجموع :

ويرتبها الدكتور فى أربع مجموعات: المشهـورة، القياسية، والتى ترد كثيرا، وقليلة الورود. فالمشهـورة تبقى على حالها، والقيـاسية واجبـة الاتباع، وكثيرة الورود تفضـل على غيرها من الصيغ، وقليلة الورود تظل سماعية.

الباب الخامس

فلسفة البحث العلمى
عند محمد كامل حسين

الفصل الأول

البحث العلمى

للدكتـور كامل حسين مـذكرة مهمة عن البحث العلمى تـداولتها مجالس البحـوث العلمية المختلفـة، واعتبرت دوما من الملاحق الخاصـة بالتعـريف بالبحث العلمى، وبجـوائز الدولـة، وبمجالس البحوث، وقد نشرت أكثر من مرة، واعتبرت من وثائق المجالس القومية المتخصصة.

فى هـذه المذكرة يضع كـامل حسين أطرا فلسفيـة ممتازة لعمليـة البحث العلمى من جميع جوانبها.

وسـوف نحاول أن نـركز فى هـذا الفصل على بعض أفكـار الدكتـور كامل حسين فى هـذا الشأن:

(١) فكامل حسين يعتبر أن مـراكز البحوث لا ينبغى لها أن تصـور على أنها أمكنة تكشف فيها الحقـائق. بل على أنها أمكنة معدة لتلقى الوحـى العلمى الذى لا تكون البحوث بـدونه إلا تكرارا أو تقليدا أو قشورا.

وفى هذا الصدد يحكى كامل حسين قصة ممتازة عن زيارته لأحد معاهد السرطان الكبرى،

وانبهاره بمعمل تربية الخلايا وما فيه من تجهيزات ثم يقول: «وكان مديره عالما من أذكى العلماء وأقدرهم، ومساعدوه على أكبر قسط من العلم والخبرة، وكان العمل كله منظما دقيقا منسقا على خير ما نعرف من مناهج البحث العلمى. وشرح لى هذا العالم اتجاهات بحوثهم وعرض على ما وصلوا إليه من نتائج، وكان العرض مدهشا، فأبديت له غاية الإعجاب بهذا العمل الرائع. وخطر لى وأنا أتحدث إليه أن أبدى له رغم إعجابى التام بهذه البحوث ومنهجها أنى أشك كثيرا فى أن تكون هذه طريق الوصول إلى معرفة السرطان، وقلت له إن هذا السر سينزل على الناس من السماء يوما ما كما نزل سر التقيح على باستور. وتماديت فقلت إن باستور لو اتبع طرق البحث المنظمة، فتناول الصديد بالتحليل الكيمائى والفيزيائى والكهربائى، ولو تجمع لديه كل ما يمكن أن يعرف من حقائق عن التقيح؛ ما أتاح له ذلك وحده أن يعرف سر هذا الأمر، ولو لم ينزل عليه الوحى العلمى بذلك ما بلغ النجاح الذى بلغه. وكان خليقا بمحدثى أن يغضب لهذه الملاحظة فهى قاسية غير كريمة ومثبطة وتكاد تكون احتقارا لعمله كله الذى كرس له حياته، ولكنه لم يغضب، بل قال لى فى هدوء تام: هذا صحيح وسينزل سر السرطان على الناس وحيا من السماء، ولكنه حين ينزل سينزل فى أغلب الظن على معمل من معامل تربية الخلايا».

وهكذا صور كامل حسين لنا القضية التى يريد لنا أن نفهمها ونحن نخطط للبحث العلمى، سواء كانت قصته مع عالم السرطان حقيقية أو من خياله الأدبى الممتاز. وهو لهذا يصف لنا هذا الرجل بأنه يقضى حياته فى طريق مظلمة مجهولة.. وهو لا يدرى أين ينتهى به المطاف، وهو مع ذلك مقبل على عمله فى اطمئنان وحماسة لا يستطيعها غير المؤمنين.

وينبهنا كامل حسين إلى أن هذا العالم رغم أنه لم يكن مطمئنا إلى ما سيؤدى إليه عمله فهو مؤمن بمنهجه فى البحث.. «وكل ما يرجوه أن يكون عمله مهيئا لنزول هذا الوحى.. وهو لا ينزل إلا فى جو علمى ممتاز».

(٢) ينتبه كامل حسين فى مذكرته وينبهنا إلى نقطة غاية فى الأهمية عن تفاعل الشك والإيمان فى الصفات العقلية اللازمة للبحث العلمى فيقول:

«ولو لم يشك العالم الممتاز فيما يعلم ما تناوله بالإثبات أو النفى أو التحرير، فالشك هو الذى يحفزه إلى التمحيص والتجديد. ولو لم يؤمن بعمله ومناهجه ما توافرت لديه الحماسة والحمية والإخلاص التى تدفعه إلى العمل المرهق الذى يتطلبه البحث والذى لا يستطيعه غير المؤمنين. ومن أشد الأمور خطرا على البحث العلمى أن يكون هذا الشك والإيمان مقلوبى الوضع، فيكون القائم بالبحث ممن يؤمنون بما يعلمون، ويشكون فى المنهج والطريقة».

وربما كـانت هذه النقطـة بالـذات هى أخطر مـا أصاب البحث العلمى فى بـلادنا والبـلاد المناظرة فى الفترات الحالية. وربما كان كامل حسين قـد استشعرها مبكرا بحسه الممتاز وفهمه الأصيل للعلم والبحث العلمى.

(٣) يعرف كـامل حسين «العلم الحى» بأنـه تلك المنطقة القـائمة بين المعلـوم والمجهول.. ويصف البحث العلمى بأنه «كائن حى لابد له من وقت لينمو نموا طبيعيا» وأنه «ليس بحثا عن كنز مدفـون يكفى فيه التفرغ والعمل لنبلغ مكمنه نعثر فيـه عن الحقيقة» بل هو «عمل روحى مادى بطىء لا ينجح فيه إلا التشجيع الخفى القائم على تهيئة الجو والوسائل وتركه ينمو على طبيعته».

(٤) يؤكد كامل حسين على أهمية التقاليد العلمية والروح العلمية والعقلية العلمية فى بيئات البحث العلمى إلى حد بعيـد، وهو يقدم هـذه التقـاليد على ضروريات وجود العلم وعلى نتـائجه وعلى أجهزته ومعامله وعلى نبوغ العلماء القائمين به وفى هذا المعنى يقول:

«وليس البحث العلمى تجارب تعمل أو نتائج تدون أو حقائق تثبت، ولا هو قوانين تكشف، وإن يكن ذلك كله من ضروريات وجوده، وليس هو آلة تخترع أو دواء يركب وإن كان ذلك من نتائجه، ولكنه قبل كـل شىء طريقة تفكير منظمة واقعية مرتبة يتلـو بعضها البعض على نحو يتفق وحقائق الأشياء.

«وسنبحث فى خـواص البحث العلمى فى أرقى مظاهـره، وأتمهـا وأكملها لنتبين مقـوماتـه والعوامل الضرورية لنجاحه، وهو لا يقوم على الأجهزة وحدها مهما تكن كاملة دقيقة، ولا يقوم على ما ينفق على المعامل من أموال طائلة، ولا على مـا يكون عليه العلماء القائمون به من النبوغ والتفرغ وإن كـان ذلك كله من الأمور التى لا غنى عنهـا، ولكنه فوق كل ذلك يقوم على تقـاليد تورث، وروح تبـث. فنحن نرى بلادا بعينهـا عرفت بـالتفوق فى بعض أوجـه البحث العلمى، ونرى جامعات اختصت بألوان من البحوث بلغت فيها ما لم تبلغه جامعات أخرى أكبر وأغنى، ويكون ذلك نتيجـة لهذه التقاليد الموروثة فى بيئـة بعينها. وإيجاد هذه التقاليـد العلمية، وبث الروح العلمية ونمـو العقلية العلمية أمور دقيقة غـامضة ليس من السهل على القائمين بتنظيم البحوث العلمية أن يخلقوها بين عشية وضحاها».

(٥) يرى كـامل حسين أن البحث العلمى فى غير حاجة إلى أن يُقسم على النحـو الذى تقسم بـه المعرفـة (إلى علم رياضى وطبى وفسيـولـوجى.. إلخ) لأن الفهم واحد فى كل فـروع العلم المختلفـة، ولهذا فقد وضع كـامل حسين تقسيما آخـر لمراتب البحث العلمى فى أكمل مظاهـره،

ووصف تقسيمه هـذا بأنه تقسيم أفقى (على خـلاف التقسيم الرأسى الذى تقسم إليـه علوم المعرفة).

وعند كامل حسين أن مراتب البحث العلمى أربعة:

□□ المرتبة الأولى: مرتبة التجارب والمشاهدات.

□□ المرتبة الثانية: مرتبة المقارنات والمقابلات.

□□ المرتبة الثالثة: مرتبة الفروض الخصبة.

□□ المرتبـة الرابعـة: مـرتبة الـوحى الصـادق. أو هـى مرتبـة الـوصول على حـد تعبير المتصوفين.

(٦) مع أن كامل حسين كـان دوما فى فكره وعملـه من أنصار التجـريب ومن المعتقدين فى جدواه الهائلـة، ومن المحبذين للنتائج التى وصـل إليها العلماء عن طريق التجـريب. إلا أنه فى هذه «المذكـرة» يؤكـد أن التجربـة ليست غايـة العلم بحال من الأحـوال بل هى «أولى مـراتبه وأسـهلها تعلما، وأقربها إلى جمهور المشتغلين بالبحث، ولا بـد أن ينتقل الباحث من هذه المرتبة إلى المراتب التالية إذا أراد لعلمه أن يكون حيا تقدميا قابلا للنمو».

ويؤكد كامل حسين على معنى «أن تكون التجارب الأولى فى أمور ضيقة لاستخلاص نتائج محدودة». وأن الغـاية الأولى من رسـائل الـدكتوراه بـالنسبة للبـاحث مـرانه على لغـة العلم وأسلوب التجارب وطـرق الاستنتاج والتدوين، وقليل منها مـا يكون حقا فيه إضافـة جديدة للعلم بمعناه الواسع الأعم. ورسـائل الدكتوراه ليست بذاتها دليلا على التفوق العلمى، وليست دليـلا على التخصص فى العلم الذى تتنـاوله تجاربها، وهى على أحسن تقـدير كمـوضوعـات الإنشاء تدل على استعداد صـاحبهـا للأدب والتفكير، ولكنها بذاتها ليست أدبا ولا تفكيرا إلا أن تكون جزءا من بحـث منظم له غاية أكبر وأعم، وتجارب الدكتـوراه عقيمة لا عقب لها إذا بقيت منقطعة لا تسبقها، ولا تتبعهـا بحوث أخرى متصلة بها، وقيمتهـا العلمية تتوقف على المراتب التالية من مراتب البحث العلمى.

وينبهنـا كامل حسين إلى أن «التجـربـة» ليست مـوضوع مفـاضلـة بين البيئات العلميـة المختلفة.

(٧) يتحدث كامل حسين عن مـرتبة المقابلات والمناظـرات، فيصف أهلها بأنهم المتطلعون إلى بلوغ مرتبة العلماء، فهم يتجاوزون التمحيص (الذى هو من جوهر عمل أهل المرتبة الأولى) إلى المقارنة والمقابلة.

«فهم أوسع علما وأكثر إلماما بوجهات النظر المختلفة من أهل المرتبة الأولى، وهم الذين يستطيعون أن يقارنوا نتائج هذه التجارب بنتائج أخرى فى نفس الموضوع أو فى موضوع آخر له به صلة وإن تكن بعيدة، وهم الذين يتبينون أوجه التشابه بين النتائج المختلفة، وأوجه الخلاف بين النتائج المتشابهة، وهم الذين يستطيعون أن يهذبوا النتائج الشاذة والغريبة ويحللوا ظروفها حتى لا تظل منقطعة عقيمة».

(٨) يشرح كامل حسين الميزة التى تكون لتكوين الجامعة المتكامل فى القيام بدور مهم فى هذه المرتبة فيقول: «والمرتبة التى نحن بصددها تتم على خير وجه فى الجامعات، على حين أن المرتبة الأولى مرتبة التجربة والمشاهده تستوى فيها الجامعات وغيرها من مؤسسات البحث العلمى، ذلك أن الجامعات أقدر على تسخير جميع العلوم لأغراض البحث الواحد، ثم إن طبيعة الدراسة فى الجامعات تسهل على كل باحث أن يفيد من بحوث غيره فى العلوم الأخرى، وحيثما يحتاج البحث إلى معلومة من علوم مختلفة تكون الجامعات خير مجال لهذا التعاون، فقد يحتاج الباحث فى الطب إلى بحوث كيميائية أو طبيعية، فيكون تناول ذلك فى الجامعات أسهل وأجدى، وهذه هى الميزة الكبرى للجامعات على غيرها فى مجال البحوث العلمية». ويستلفت كامل حسين النظر إلى أن كثيرا من البحوث العلمية التى جمعت لها الأجهزة الكاملة وصرفت عليها الأموال الطائلة لاتزال حتى الآن فى هذه المرتبة لا تتعداها.. ومنها بحوث السرطان.

(٩) يحدثنا كامل حسين عن **مرتبة الفروض الخصبة** فيقول: «هذه هى المرتبة التى يعمل فيها كبار العلماء، وهى ينبوع الكفاية فى بيئات البحث العلمى، ومنها تستمد المرتبتان الأوليتان التنظيم والإرشاد. فيها يتلقى العلماء الممتازون نتائج التجارب ونتائج مقارناتها، ويستخلصون من ذلك كله فرضا يحتمل الصحة والخطأ يضعونه موضع التجربة المنظمة، فيتبين منها ما فيه من خطإ أو صواب».

«ولما كانت هذه المرتبة أهم مراتب البحث العلمى فسنبحث فى خواصها حتى نعرف موقعها من نظام البحث العلمى فى أرقى مظاهره. الفرض العلمى نظرية لم تثبت بعد، فهو نظام يتخيله العالم، ولكنه بالطبع ليس تخيلا محضا، بل يكون قائما على المعلومات العديدة السابقة فى نفس الموضوع، ويكون قائما على تفهم أساليب الطبيعة فى سننها ونظمها، وليس من الفروض العلمية ما يخطر ببال كل مبتدئ فى البحوث! تداعب عقله قوانين وتفسيرات وقواعد يحسبها حقيقة هى ليست من العلم فى شىء، وكثير ممن يظنون بأنفسهم القدرة على هذه الفروض يتمسكون بحقيقة مفردة أو مشاهدة عابرة أو رأى خطير، فيحسبون أنه مفتاح فرض علمى عظيم. والواقع أن القدرة على تخيل الفروض العلمية قدرة خاصة لا تتوافر إلا لمن لهم مواهب

كبيرة فى هـذا الباب، ولا يكفى فى ذلك المران أو الخبرة أو التفـرغ، ومن العلماء مَنْ لا يتمتعـون بهذه الموهبة، ومع ذلك فعملهم يكون عملا قيما؛ وإن يكن محصورا فى المرتبتين السابقتين.

(١٠) يفرق الدكتور كامل حسين بين **الفروض الخصبة والفروض الصحيحة** فيقول:

«إن الأولى فى البحث العلمى لا تكـون الفروض الصحيحـة من أول الأمـر، بل قد يتصـور العلماء عشرات الفـروض قبل أن يتبينوا واحـدا منهـا هو الصحيح، وإنما تقبل الفـروض من العلماء على قدر خصوبتها، وأعنى بذلك قـدرتها على فتح آفاق جديدة من البحث وعلى الإيحاء بتجارب جديدة تـوحى بدورها فروضا خصبة أخـرى حتى تنجلى الحقيقة. أما الفرض العقيم فهو كالطريق المغلقة، لا يلبث أن يتبين للسائر فيه أنه لا يؤدى إلى أى شىء».

ويزيد كامل حسين هذه النقطة وضوحا فيقول:

«والعلم مملوء بـالفروض الخصبـة التى ثبت بعد ذلك أنها خطأ، وفى ميـدان العلم لا يطبق المبدأ الذى يحرص عليه الفـلاسفة والأخلاقيون والقانونيـون أن مابنى على الخطأ فهو خطأ، وأكثر الفروض الخصبة التى أدت إلى نظريات عامة عظيمة ثبت بعد ذلك أنها لم تكن فى الواقع صحيحـة تمامـا. ومن أخصب الفروض الصحيحـة فـرض تكـوين الـذرة على أنه كـالنظـام الشمسى تـدور فيه الإلكترونـات حول النـواة. وقد أدى هـذا الفرض إلى كشف أكثـر ما هـو معروف عن الـذرة. ثم تبين أن هذا الوصـف تقريبى، وأن هناك صعـوبات فى قبولـه، ولم يعد يصدق به أحد من العلماء اليـوم على أنه يمثل الواقع وإن كان فرضا خصبـا جدا. هذا مثل من أمثلة الفروض الخصبة التى هى خطأ، والتى أثرها على العلم مع ذلك كبير جدا. وليس هذا مثلا منفردا، وفى الطب اختبارات قـامت على نظريات، ثم ظهر أن النظـرية خطأ وبقيت الاختبارات صحيحة، كما فى تفاعل فاسرمان».

«وليس من السهل المفـاضلة بين الفروض العمليـة لنعرف العقيم الفـارغ منها والخصب المفيد فقـد يكون كـلاهما خطأ. ولا يقوم هـذا التفاضل إلا على الخصـوبة أى القـدرة على فتح الآفاق العلمية الواسعة التى تتجلى فيها الحقائق الكبرى».

(١١) يعلى كامل حسين من قـدر مرتبة **«الفروض الخصبة»** ويستند فى هـذا الرأى إلى أن التجـارب المنقطعـة أو التى تجىء صـدفة لم تعـد تحدث فى البحـوث الحديثـة إلا نـادرا مثل اكتشاف البنسلين، ولهذا فإن كامل حسين يؤكد أن البيئة العلمية تنشأ فيها هذه المرتبة بعد أن تظل عالة على غيرها و«لا يمكن أن يكون لها استقلال علمى ما لم ينشأ فيها علماء قادرون على هذا النوع من الفروض ووضعها موضع الاختبار».

ويؤكد كامل حسين أن هذه المرتبة هى التى يتم فيها كشف القوانين العلمية وهى أيضا المرتبة التى يتم فيها حل المشاكل التطبيقية، «والفرق بين البحث العلمى النظرى والتطبيقى فرق فى الموضوع أو الاتجاه أما منهج البحث فهو واحد فى الحالين، ولا تحل مشكلة تطبيقية دون أن ينظم البحث فيها فرض علمى خصب يقوم على تحليل علمى للمشكلة وتصور معقول لحلها حتى يمكن تنظيم التجارب التى تؤدى إلى الحل».

وكل ذلك ينشأ فى هذه المرتبة الثالثة، وهى عنوان الرقى فى البحوث العلمية سواء أدى ذلك إلى النجاح أو الإخفاق. «وليس النجاح شرطا فى تقدير رقى البحوث العلمية، فقد تعمل البيئة العلمية الراقية أعواما طويلة دون أن يؤدى عملها إلى كشف جديد، وقد يحدث الكشف العظيم فى البيئة العلمية المتوسطة، ولكن هذا النجاح يظل منقطعا غير قابل للنمو، على أن الواقع الذى لا شك فيه أن تقدم العلم جعل نجاح البيئات الضعيفة علميا فى الكشوف المهمة نادرا، وتكاد كل الكشوف الكبرى – حتى ما كان منها وليد الصدفة – لا يحدث إلا فى البيئات العلمية الممتازة».

(١٢) يتحدث كامل حسين فى نهاية مذكرته عن **المرتبة الرابعة** من مراتب البحث العلمى ورغم أنه يصفها وصفا يبدو ميتافيزيقيا لطيفا **بمرتبة الواصلين** على حد تعبير الصوفية، إلا أنه يتحدث عنها تحديدا واضحا دقيقا على الرغم من أنه يقترن فى البداية بأنها تكاد تكون وحيا يهبط على إنسان ما فيدله على الفرض الصحيح. ويؤكد كامل حسين ما ذكره فى بداية المذكرة من قصته مع عالم السرطان فيقول: «والذى لا شك فيه أن ذلك الوحى لا يهبط على العالم دون تمهيد من أهل المراتب السابقة»، ويضرب كامل حسين الأمثال للتدليل على صحة ما يقول:

- فنظرية التطور التى هبطت على داروين سبقتها مشاهدات كثيرة جمعت وصنفت وقورنت ومحصت تمحيصا دقيقا، وسبقتها فروض خصبة كثيرة قام بها علماء لا يقلون عنه علما.
- وكذلك نظرية النسبية سبقتها بحوث عظيمة جدا فى الرياضة والفيزياء قام بها علماء كثيرون.
- وهذه البحوث هى التى مهدت السبيل للموهوب أن يكشف نظرية عظيمة لم يكن له أن يتصورها لو لم يمهد له السبيل كثيرون من أهل المراتب الأخرى التى ذكرناها.

ولا ترجع أهمية هؤلاء فى نمو البحث العلمى إلى ما يحققونه من نجاح فذلك ليس من الكثرة بحيث يتوقف البحث العلمى عليه. «إنما تقوم فائدتهم الكبرى للبحوث على الروح التى يبثونها فى البيئة كلها، وعلى التشجيع الذى يحدثه وجودهم فيمن هم دونهم علما. ووجود واحد أو

اثنين منهم فى تاريخ البحث العلمى فى بيئة بعينها أمر ضرورى جدا لرفع مستوى البحث فى هذه البيئة حتى فيما لا علاقة له ببحوثهم، ولا شك أن مستوى البحث العلمى كله فى جامعة كمبردج مثلا ارتفع ارتفاعا عظيما بعد أن نشأ فيهم نيوتن»، والتفاعل متبادل بين البيئة وكبار علمائهم فهم لا ينشئون إلا فى البيئة الراقية ثم هم يرقون بهذه البيئة إلى مستوى لم تكن لتبلغه بدونهم.

«وتقدير جمهور المثقفين من غير رجال العلم لهذه الطبقة من العلماء يختلف، فمنهم من يرى أنهم فوق عقول الناس لا يستطيع أحد أن يلحق بهم، وأنهم فى معصم من الخطأ العلمى وهو نوع من الإعجاب بالبطولة تقع فيه البيئات الناشئة، وخطر هذا التقديس لكبار العلماء على البيئة الناشئة أنه يجعل أهلها يعتقدون أن بلوغ المراتب العليا من العلم مستحيل عليهم، وقد سمعت أحد كبار القضاة يصف أينشتين أنه أعلم أهل الأرض بما فى الكون، وهو تعبير عجيب يدل على أن صاحبه لا يعلم شيئا عن أينشتين ولا عن العلم».

(١٣) ويختم كامل حسين مذكرته بفقرة ممتازة عن **أقطاب العلم فى التاريخ** يقول فيها:

«أقطاب العلم فى التاريخ ليسوا من نوع غير الذى منه غيرهم من العلماء، ولو اعتقدنا ذلك ما استطعنا أن نتقدم بالبحوث إلى ما هو فوق علم العلماء، وإنما هم قمة بناء شاهق، وهم عنوانه، ولكن علمهم ليس شيئا غريبا ولا شاذا بل هو نتيجة طبيعية لما يقوم به رجال البحث العلمى المعاصرون لهم والسابقون عليهم».

•

الفصل الثانى

المناخ العلمى

نلخص هنا مقالاً ممتازاً كتبه الدكتور محمد كامل حسين فى مجلة رسالة العلم التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الدكتور عبدالحليم منتصر وتصدر عن جمعية خريجى كليات العلوم، وقد اختار لمقاله عنواناً: «المناخ العلمى الواجب توافره فى المجتمع العربى بصفة عامة وفى دور العلم بصفة خاصة»

ومن الملاحظ أن هذا العنوان يتسق مع الحالة السياسية التى كانت مصر تعيشها فى ذلك الوقت حتى إن اسمها كان الجمهورية العربية المتحدة، وسنلخص فيما يلى وفى نقاط متوالية فكرة كامل حسين الكاملة عن المناخ العلمى ومن المؤكد أن هذه الفكرة تمثل أهمية بالغة بعد حديثه القيم عن البحث العلمى الذى تعرضنا له فى الفصل الأول من هذا الباب.

١ - يبدأ كامل حسين مقاله بتوضيح المقصود بالمناخ العلمى وأهمية هذا المناخ، ويلجأ فى هذا السبيل إلى إثبات مقصده عن طريق التأكيد على وجود عنصر مفتقد كان السبب فى غياب النتيجة المتوقعة على الرغم من توفير الأسباب وهو يقول:

«يخيل إلى كثير من الباحثين أن التقدم العلمى فى الأمم الفتية أمر واضح المحجة سهل التحقيق. كأنه ليس عليها إلا أن تحتذى الأمم العريقة فتطوى بذلك القرون التى سبقوها بها،

تبـدأ من حيث انتهـوا وتقتـدى بهم حيث نجحـوا، وتتجنب أخطـاءهم حيث أخطأوا، فتكـون وإياهم سواء فى التقدم العلمى.

والواقع أن التقدم العلمى فى الأمم الناهضة ليس على هـذا القدر من البساطة، بل لعله أكثر تعقيدا منه فى الأمم العريقة. فهى تتفق معها فى الصعوبات العالمية التى تعترض كل أمة تريد أن تحافظ على تفوقهـا. وعليها كذلك أن تتغلب على الصعـوبات التى تعترضهـا من حيث هى أمة ناهضة، تسعى أن تفيد من العلم ما أفـادته أمم أكبر وأغنى، وعلى كلٍ منها فوق ذلك أن تتغلب على صعـوباتها الخاصـة بها والتى تتعلق بنهضتهـا الفكـرية ومـاضيهـا الثقـافى وتطورهـا الحضارى.

«رأت الأمم الفتية أن العلم يقوم على أمرين: **الرجال والأجهزة**؛ فعملت على توفيرهما وبذلت كثيرا من الجهد والمال فى هذا السبيل، وقد ثبت ثبوتا قاطعا أن العلم الحديث علم عالمى يستطيع التفوق فيـه كل من أوتى قدرا كافيـا من الذكاء، وأنـه ليس مقصورا على أمم بعينها أو ثقـافة خاصة بها. وثبت كذلك أن العلميين من أهل الأمم الفتية حين يعملون فى المراكز العلمية الكبرى يصيبون من النجـاح ما يصيبه أقرانهم. فإذا كـانت كفاية العـاملين ثابتة، والأجهزة الـدقيقة متوافرة فمن أين يأتى هذا النقص الذى لا سبيل إلى تجاهله؟».

«والواقع أن العلم، من حيث هو كائن حى دقيق، يتأثـر بالبيئة إلى أقصى حد. ومن البيئات العلمية، بيئات خصبة ينمـو فيها العلم نموا كبيرا، وأخرى مجدبة يُبذل فيهـا الجهد البالغ فلا تؤتى من الثمار إلا قليـلا. والفرق بين الخصب والجدب قـد يكون قليلا جـدا، ويكون مع ذلك بالغ الأثـر. وكذلك النجاح فى الحياة قـد يتوقف على أمور دقيقة يحسبهـا أكثر الناس غير ذات بال».

٢ ـ ويـرى كامل حسين أن البحث فى البيئات يشمل أمـرين: البحث فى العوامل التى تـؤثر فيها فتفسدها أو تصلحها وهى عوامل كثيرة بعضهـا خارج عنها وبعضها يرجع إلى طبيعتها. ثم البحث فيما ينقصها من عوامل الخصب والإثمار.

ومن العوامل التى تؤثر فى النهضة العلمية عند الأمم الناهضة علاقاتها بالمدينة الأوروبية. ذلك أن الظروف التـاريخية قضت أن تنشأ العلوم التجـريبية وتترعرع فى أوروبـا. ومن سوء الحظ أن أول لقاء بين الأمم الفتية والمدنية الأوروبية كان لقـاء سيئا جدا. فكان التفوق العلمى ذريعـة للطغيان السيـاسى على الأمم النـاهضـة، واستُخدم العلم وسيلـة للظلم والاستبـداد والعسف. فكـان على أهل الأمم الفتية عنـد أول نهضتهم أن يثبتـوا قدرتهم على تحصيل هـذه

العلوم. وحملهم هـذا على التفاخر بتاريخهم البعيـد والقريب، يحاولون بذلك أن يستعيـدوا ما ظنوا أنهم فقـدوه من عزة وكرامة وثقـة بالنفس. وعندى أن هذا الإصرار على الفخـر بالماضى يؤكـد ما يحاولون نفيـه. ذلك أنه يجعل كفايتهم مـوضـع الشك ولا أحسبه يرفـع من الكـرامة القـومية. إذ ليس أدل على الضعف من أن يجد الإنســان نفســه مضطرا إلى تبريـر ماضيـه أو حاضره.

٣ ـ ثـم يؤكد كـامل حسين أن **علاقة الأمم النـاهضة بالأمم الغربيـة خلقت فيها عقدا نفسية وعقلية** لم يعد لها مسوغ وقـد آن لها أن تتخلص منها تماما والتفكير العلمى الصحيح لا يستقيم مع وجـود العقد النفسيـة مهما يكن نـوعها. والعلم أصـلا يقوم على فهم الطبيعـة ومنطقها وعلى معرفة علاقة الأشياء بعضها ببعض مستقلة عن الإنسان. **والعاطفة الوحيدة التى تصلح أساسا للتفكير العلمى هى حب المعرفة.** والطبيعة لها نظامها الخاص وهو فى جوهره ريـاضى مستقيم، وهى تحل مشاكلها، على حـد قول عالم باكستانـى، حلولا رشيقة. والعقد النفسية التى تحمل الباحث على التفكير فى كرامتـه أو كرامة قومه أو السعى إلى التفوق الاجتماعى أو السياسى يجب أن تعـد من عوائق التقدم العلمى لا من دوافعـه. مهما يكن فيها من نبل وعزة.

ويستلفت كامل حسين النظـر إلى الأهمية القصوى للثقافـة العامة فيقـول: «ومن العوامل التى لها أكبر الأثر فى تحقيق التفوق العلمى أن تكون الثقافة العامة فى مستوى لا يقل كثيرا عن المستوى المطلـوب فى العلوم. والعلوم الحديثـة نشأت فى أعقاب ثقـافة عاليـة جدا ولا يمكن أن تقوم على غير هذا الأساس».

«ويعوق التقـدم العلمى أن يقوم خلاف شـديد بين المحافظين على القـديم والمجددين حين يسرف كل منهم فى التمسك برأيه إلى حد يعوق حياة الآخرين. وليس الخطر على الأمم أن يكون فيها مـذاهب مختلفة فى التفكير، وإن تنـاقضت. وإنما يأتيها الخطـر إذا وقع بين هذه المذاهب تصادم يذهب بخيرها ويزيد فى شرها».

٤ ـ ويتناول كامل حسين **علاقة الفكر العلمى بالقومية** بذكاء شديد فيقول: «وفى حياة كل أمة أمـور تحسن المحافظة عليها إذا لم تـؤد هذه المحافظة إلى الجمـود وإذا لم يكن الدافع إليهـا الخوف من كل جـديـد. وبعض المحـافظين يـريدون أن يقـوا قـوميتهم خطـر ضيـاع خصائصهـا، كأن القوميـة شىء يمكن أن يزول كما يخلع الـرداء. وهو وهـم قـديم تعلقت به الأمم الفتية فى عهـد ضعفها المرهق. وفى حياة الأمم أمـور أخرى يحسن فيها التجـديد على ألا

يكون تقليدا أو تمسكـا بكل فكرة عابرة تصدر عن قـوم نراهم متقدمين. **ولا فرق عندى بين المحافظ والمجدد مادام كل منهما تابع** لغيره. إذ **لا تفاضل** فى التبعية. ولعل المحافظ أن يكون أدعى إلى الإعجاب من الـذين تغويهم الوجوديـة أو اللامعقول. والذى ينشئ قصيـدة فرنسية جميلة والـذى يكتب رواية رمـزية والـذى يتحدث عن راسين كما يتحـدث الفرنسيـون هؤلاء يحسبون أنهم يرتفعون بثقافـة أمتهم بأعمالهم هذه إلى أرقى المستويات وهم فى هذا واهمون. وليس هنا مجال البحث فى أثر هذه المحاولات على الثقـافة العامة فى الأمم الفتية. وإنما أردت أن أبين أن هذا الصراع بين قديم جـامد وحديث قلق يضر بالبيئة العلميـة التى هى فى أشد الحاجة إلى الاستقرار».

«وعلى الأمم الفتيـة أن تتخلص نهائيـــا من كل مـا علق بأذهـــان أهلهـا من أن من العلماء الغربيين من يريد أن يغض من قدر علماء الشرق عمدا. هـذا عهد انقضى تماما. والذين نلقاهم من علماء الغرب يقدرون الرجل منا قـدره الحق، فإن كان عمله أصيلا مستقرا احترموه، وإن كان عمله تحصيلا لما قالوا هم به من قبل، وإذا كان عمله قلقا مستعارًا لم يحترموه، تماما كما يفعلون بعلمائهم. ولعل رأى بعضـهم فى البعض الآخـر أن يكون أسوأ من رأيهم فينـا، وأعرف مستشرقا ألقى محاضرة عنوانها «هل القرآن كلام اللـه» وأجاب على ذلك بالإيجاب. وقد تكون مقدماته غير مقدماتنا ولكنه على كل حال لا يمكن أن يكون قد أراد ببحثه هذا أن يشوه الإسلام عمدا. ولعل الظن بأن الغربيين لا يقـدرون الشرقيين أن يكون ما بقى منه عندنـا أكثر مما بقى عندهم. وإذا تخلصت الأمم الفتية من كل هذه العقـد النفسية التى نشأت من تاريخها القريب فإنها تكون بذلك قد وضعت خير أساس لحياة علمية خصبة مثمرة».

٥ ـ وينبه كامل حسين إلى خطورة قصر العناية على التكنولوجيا وإهمال العلم البحت مهما تكن الظـروف وهـو يقـول فى هـذا المعنى: «ويعـوق نهضـة الأمم الفتيـة أن تفصل بين العلم وتطبيقه وأن تقصر همها على التكنولـوجيا رغبة منها فى تخفيف أعباء الحياة وبلـوغ الرفاهية التى تنعـم بها البـــلاد المتقـــدمـــة. وليس لى على ذلك اعتراض إلا مـن حيث إن **العناية بالتكنولوجيا وحدها لا تحقق الغرض المنشود.** والعلم هو الذى تصدر عنه التطبيقات. وإذا اقتصرنا عليهـا نضب معينها بعد قليل، وكلمـة العلم التطبيقى تحمل فى ثنايـاها العلم البحت. وخيل إلينـا أن العلم البحت طـريقه صعـب طويل. وأن المخترعـات الصغيرة تصلح أن تكـون غايات بذاتها، وهذا غير صحيح فالعقلية العلميـة وحدة متكاملة لا يمكن التفريق بين أجزائها. والأمم العريقة حين تفصـل بين العلم والتكنولوجيا إنما تفعل ذلك لأن عنـدها من العلماء عددا كبيرا يفى بحاجتهـا فى كلا الأمرين، وبـذلك يجوز أن يكون فيهـا علماء متخصصون فى العلم

البحث وآخرون متخصصون فى العلم التطبيقى، ولا تستطيع الأمم الناهضة أن تفعل ذلك ما لم يتوافر لديها عدد كبير من كلا النوعين».

٦ ـ ويحذر كامل حسين من الوقوع فى أى شرك من الشركين شرك الاعجاب المفرط بالغرب أو شرك الغرور الزائف بالذات فيقول: «وكذلك يعوق النهضة العلمية فى الأمم الفتية أن موقفها من العلم الغربى غير طبيعى، فمنا من يقول أين نقع نحن من فطاحل العلماء الذين نعرفهم؟ وهو قول يفت فى عضد الباحث فيقعد به عند التقدم. ولو كان هذا حقا ففيم عمل الباحثين فى المراكز العلمية المنبثقة فى شتى بقاع الأرض. وآخرن يظنون أنهم وقد نشروا بحوثا لا تقل عن بحوث غيرهم فليس لأحد من العلماء فضل عليه. هذا الشعور المزدوج الذى يجمع بين الإعجاب المفرط والغرور الزائف شعور غير طبيعى. وهو يدل على سوء فهم العلم وطبيعته. ولا يمكن التخلص منه إلا بالأصالة».

٧ ـ ويدلنا كامل حسين على **خطورة الاعتماد على التحصيل والاطلاع** وعلى أن نستبدل بهذا الخلق خلقا آخر هو التجربة والمشاهدة وهو يعطى العذر لنشأة هذه السمة فى الوقت الذى يطالبنا بالتخلى عنها، ويقول: « وفضلا عن هذه العوامل العامة التى تؤثر فى البيئة العلمية، تقوم عوائق أخرى قضت بها الظروف التاريخية التى أحاطت بتطور النهضة العلمية منذ أكثر من نصف قرن عندما بدأت الأمم الفتية تعنى عناية جادة بالعلوم الطبيعية. وكان طبيعيا أن تتركز جهودهم فى التحصيل وأن يكون سبيلهم إلى ذلك كثرة الاطلاع. وليس هذا خير السبل إلى الإحاطة بالعلم التجريبى الذى يجب أن يبدأ بالتجربة والمشاهدة. والواقع أن هذا العيب ـ عيب الاعتماد على التحصيل والاطلاع ـ ظل ملازما للتفكير العلمى فى الأمم الناهضة، وعليها أن تعمل على الخلاص منه».

«والاطلاع الواسع أمر لابد منه لكل مشتغل بالعلوم. ولكن الانتفاع به يحتاج إلى عناية خاصة. فهو سلاح ذو حدين: هو لازم لنمو العلم لزوم الرى لخصب الأرض على ألّا يزيد حتى يغرق الزرع. وأعرف من العلميين من أفسد عليه تفكيره كثرة اطلاعه فتراه يضطرب لكل رأى جديد يخالف ما تعود أن يصدقه. وأنفع ما يكون الاطلاع حين يأتى بعد المشاهدة والتجربة حين يعترض الباحث أمر لا يهتدى فيه إلى الصواب فيلجأ إلى ما عمله غيره من الباحثين فى هذا المجال. وشره ما كان استيعابا نظريا لكل ما كتب فى موضوع بعينه. والاطلاع على غير هدى من الخبرة الخاصة يزيد الشقة بين النظر والخبرة وهو خطر كبير على نجاح العلميين».

٨ ـ ويستلفت كامل حسين النظر إلى أهمية النشأة العلمية والصحيحة وإلى أهمية الاستقلال فى هذه النشأة فيقول: «ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن الخطأ فى تعلم العلوم شىء

يصعب إصلاحه فيما بعد وكثير من المشتغلين بـالعلوم يظنون أنهم يستطيعون وهم كبار أن يصلحوا مـا أفسدتـه نشأتهم وهم صغار. والـواقع أنه من الصعب أن يتخلص الإنســان من أخطاء نشأته أو عيوب ماضيه والنشــأة العلمية الصحيحة شرط لابد منه لتحقيق النجاح حين يبلغ الإنسان الدرجة التى يكون فيها عمله العلمى شيئا ذا قيمة».

«ثم فطنت الأمم النـاهضــة إلى أن عليهـا أن تبلغ من العلـوم ما بلغـه غيرهــا إذا أرادت أن تتخلص من طغيانهم. وظن أهلها أنهم يستطيعـون أن يبدأوا من حيث انتهى هؤلاء. ولم تنجح هذه الوسيلة لأن العلم الذى يكتسب على هذا النحـو علم مبتور لا جذور له فهو على أسوأ حال يكون كالفسيلة تـزرع فى غير بيئتها، فتذبل وتضمر مهما يبذل فى تعهدهـا من جهد. وهو على أحسن تقدير يكـون كفرع الشجرة يثبت فى شجرة أخرى فينبت فيه بعض الثمـر، وقد يكون جيدا ولكنه علم لا يستطيع أن يستقل ولا أن يحيى حياة طبيعية».

«ولما تبين لهم عقم هذه الطـريقة أخذوا بمبـدأ الهرولة ولا يزالـون يعملون ذلك حتى الآن يحسبون أن الحياة العلمية سباق بينهم وبين البلاد العريقة وأن واجبهم أن يعملوا على اللحاق بهؤلاء وقد يبلـغ ببعضـهم التفاؤل أن يعتقـدوا أنهم قد يسبقون غيرهـم. على حين أن الهرولة خطأ من ناحيتين: الأولى أن السبـاق فى ميدان العلم لا يمكن أن يؤدى إلى تفوق الأمم النـاهضة فهى أضعف فى وسائلها وأبطأ فى تطورها من أن تلحق بالأمم العريقة. والشقة بين الفريقين فى ميدان العلم تزداد على الزمن، كما حدث فى اقتصـادياتهما حيث لا تزال الشقة بين الأمم الغنية والفقيرة تـزداد على مـر الأيـام. والهرولـة خطأ أيضـا من حيث هى تحرم المشتغلين بـالعلم مقومات العلم الخصب، وتجعل الحياة الفكرية كلها قلقة، وتزيد فى صفة الانفصام».

«ومن آثار الهرولة أن الأمم الناهضة تفخر باقتنائها أحدث الأجهزة قبل أن يشعر علماؤها بالحاجة إليهـا، ويتعلقون ببحوث متعددة لا يحدوهم إلى التعلق بها إلا الرغبـة فى أن يكونوا فى الصف الأول من الباحثين. وخير البحـوث ما كان صادرا عـن حاجة ماسـة إليها لا عن مجرد الـرغبة، هـذه حال عقليـة تخلق فى بعض المشتغلين بالعلم، بل فى خيرهم، صفـة تشبه أحـلام اليقظة، وهى حال لا تستقيم معها حياة علمية سليمة والأمم الناهضة حين تتبع طريق الهرولة تعنى بتنشئة الأبطال أكثر من عنايتها برفع مستوى العلم عامة. وهو خطأ جوهرى».

ويعود كامل حسين لتنـاول هذه الجزئية بشئ من الجدل الفكرى المثمـر فيقول: «سيقول كثير من الناس إن هذه المشكلة على الوجـه الذى وصفناه غير قابلة للحل وإنها تحتم على الأمم الفتية أن تظـل دائما فى منزلة دون منـزلة الأمم الكبيرة. والـواقع أنه لا داعى لليأس مـن تقدم العلـوم فى الأمم الصغيرة إذا اتخذت الطريق الســوية للنهضــة العلمية والفكـرية وهى طـريق

الأصالة متجاهلة فى ذلك لكل مـا بقى فيها من مخلفات الماضى القريب مـن عقد نفسية أو من رغبة فى تصور العلاقة بين الأمم الصغيرة والكبيرة فى ميدان العلم على أنها سباق.

٩ ـ ثم يعرض بشئ من التفصيل لما يسميه **مشكلة الانفصام** فيقول: «ومن الأمور الدقيقة التى تعترض تقـدم الأمم الفتية مـا يصح أن نسميـه الانفصام، وهى صفـة واضحـة فى أكثـر مظاهر الحياة فى تلك الأمم. وهى نتيجة حتميـة لنشأتها غير الطبيعية. ولا أعنى بالانفصام ما يكون فى الحيـاة العامة من اختـلاف فى الآراء والمذاهب، وما يكـون فيها من تناقض فهـذا أمر طبيعى لا تخلو منه الحياة. وانما **أعنى بالانفصام أن يقـوم انشقاق واضح عميق فى أمور يجب أن تكون شيئا واحدا.** من ذلك الانفصام الذى يكون بين المفروض والواقع. أو بين قدرة الأمة وأمانيها، أو بين ثقافتها الموروثة وثقـافتها المكتسبة. أما فى الحياة العلمية فشر الانفصام ما يكون بين النظر والتجربة، أو بين العلم والخبرة».

ويزيد هـذه النقطة وضوحا فيقـول: «وفى الأمم الناهضة يكثر فى المشتغلين بـالعلوم صفة الإعجاب بالنظريات العالية لما يكون فيها من ذكاء وبريق.. فهى تبهرهم لهذه الصفات مستقلة عن صلتها بالتجربة، وهم ينسون أن أعلى النظريات ليست شيئا ذا بال إلا إذا كانت سبيلا إلى فهم ظاهرة تجريبية. وأقل التجارب قد تبين وجـه الضعف فى أرقى النظريات وأبرعها بما يدل عليه من نقص فى شمـولها، والتقدم العلمى أكثـره يرجع إلى إثبـات خطأ النظريـات التى كانت صادقة بالأمس، والعالم الموهوب هو الذى يستطيع حين يتأمل نظرية جديدة أن يتبين الصدع الذى فيها والذى يستطيع أن يصل منه إلى آفاق جديدة».

«ولنذكـر أن أكثر العلم المعروف إنما هو إجـابات عن أسئلة عرضت للبـاحثين عند تأملهم الظواهر الطبيعية والتجارب المعملية وأن التقدم يقوم فى أكثر الأحيان على التساؤلات الصحيحة الخصبة أكثر ممـا يقوم على الإجابات الصحيحـة، والتساؤلات التى تؤدى إلى التقـدم لا تذكر عادة فى الكتب ولا يتبينها إلا مَنْ درب على مشاهدة الطبيعـة مشاهدة شخصية جدية ويخطئ المشتغلون بالعلم إذ يظنـون أنهم يستطيعون أن يمرنوا على التساؤلات الصحيحـة استنتاجا من إجـابـات غيرهم، هـذا عـامل من عـوامل الجدب فى البيئـات العلميـة يجب أن يفطن إليـه العلميون».

«أما الانفصام بين العلم والخبرة فمنشؤه فى الغـالب فساد فى فهم العلم وفى أسلوب التعلم، وليس من العسير أن نتخلص منـه لأنـه ليس صفـة ملازمـة وإنما يـرجع إلى خطأ فى التعليم والتعلم. وقد يعلم الإنسان كل ما كتب وعـرف عن شىء بعينه حتى إذا أراد أن يتناوله وجد فى علمه نقصا خاصا يعوق النجاح وهو لا يدرى له سببا واضحا. وليس العلم بالخبرة أوسع ولا

أكبر ولا أدق من العلم النظـرى. ولكنه نـوع آخـر، وقد يظن كثير من العلميين أنـه يستطيع أن يتقن النظر أولا، ثم يكتسب الخبرة بعـد ذلك، وهذا خطأ لأن الأمـرين يجب أن يكتسبا فى وقت واحد بل يجب أن يبدأ بـالخبرة كلما أمكن ذلك، وإلا وقع الانفصام الذى قـد لا يزول بعد ذلك أبدا».

ويعود كـامل حسين ليؤكد فكـرة أن المشاهد يجب أن يسبق الاطـلاع ويقول: «**والطريقة المثلى لتعلم العلوم تكـون بالمشاهدة أولا ثم بالتـدوين ثم بالاطلاع. أما الـذين يبدءون بالاطلاع وحسن الفهم قبل المشاهدة فيظلون دائما تابعين لغيرهم. وهى التبعية التى لا يكون معها خصب ولا تقدم».**

١٠ ـ وبعد ان استعرض كامل حسين ما كان يراه أبرز عوائق الحياة العلمية الصحيحة فى البلاد الفتية، بـدأ فى الحديث عن الأعمال الإيجابية التى قد تؤدى إلى النجاح. وحـرص مفكرنا الكبير على أن ينبـه فى هذا الصـدد إلى معنى مهم وهـو أنـه «وقبل أن نبحث فى وسائل النجـاح والتقدم يجب أن نقدر أن التقدم العلمى لا يكون بالحديث عن خصائص العلم ومقوماته وإنما يتحقق التقـدم العلمى بممارسته ممـارسـة صحيحة. والعقليـة المستقيمـة علميا لا تنمـو إلا بالمرانة، ولا يفيدنا كثيرا البحث النظرى مهما يكن دقيقـا عميقا. والبحوث النظرية فى مقومات العلم عمل لا طائل تحتـه إلا إذا تحقق به تغيير حـاسم فى ممارسة العلـم. والتحليل الذى نحن بصدده يظل عميقا إن لم يغير من فهمنـا لطبيعة العلم عند ممارستـه، ومن أكبر عوامل التقدم العلمى النجاح فى بعض نواحيه نجاحا حاسما صريحا فالنجاح أكبر قوة تدفع بالعلم إلى الأمام، وهو سر ما نسميـه التقاليد العلمية التى تكفل التقدم لبعض المراكز العلميـة فى نواح بذاتها من العلم. وقـد يُوفق رجل واحـد ينجح نجاحـا مبينا فى عمله العلمـى فيفعل هذا النجـاح فى البيئة العقلية والعلمية ما لا يمكن أن تفعله البحوث النظـرية فى طبيعة العلم. ولنذكر أن العلم لا يَفيد إلا من النجاح ويضر به الإخفاق».

«وقد يحدث أن يفيـد الإنسان فى حياتـه من تدبر أخطـائه وهو ما يسمى عـادة بالخبرة فى الحياة ولكن التقدم العلمى لا يتحقق إلا بالنجاح».

ثم يقول «وسيكون أكثر حديثى عن الأصالة والثقـة بالنفس وهو حديث لا غناء فيه ما لم يتحقق عمليـا. ولا يسوغـه إلا أن التحليل أشبه الأشيـاء بمثل هذا الحديث. ولنـذكر أن الثقـة بالنفس لا تقوم بالحديث عنها بل يجب أن نعمل على خلقها فى المشتغلين بالعلم عن طريق تهيئة وسائل النجاح لهم فى بعض أعمالهم والثقـة التى يشعر بها بعض العلميين والتى لا تقوم على

نجاح يســوغ لهم هذه الثقة لا تكون فى الـواقع إلا غرورا أجوف لا يمكن أن يتحقق معــه تقدم علمى».

١١ - ومـن هذا المنطلق يصــارحنا كامـل حسين وبمنتهى الجرأة بشكه التــام فى جدوى التخطيط للحياة العلمية ويقـول بلا أدنى مواربة وفى صراحة ووضــوح: «مثل هذه الاعتبارات تجعلنى كثير الشك فى ما يمكن أن يؤديه التخطيط للحياة العلمية فى الأمم الناهضة وخاصة إذا كان التخطيط يقـوم على تحديد أمور بعينهـا تحتاج إليها البلاد أكثـر من قيامه على الكفــايات البشريــة. وذلك أن التخطيط فى جـوهره يقـوم على القـدرة على تحريك العــاملين من عمل تقل الحاجة إليه إلى عمل آخـر تكثر الرغبة فى إتمامه. والكفاية العلميــة لا يمكن تحريكها بمثل هذه السـهولـة. وقد ينجح التخطيط العلمى فى البـلاد الكبيرة لكثرة مافيهــا من الكفايــات المتعددة. والأمر فى الأمم الفتية على غير ذلك. ويجب ألا ننسى أن الكفاية العلمية كفاية نوعية، وأن الرجل قد يكون موهوبا فى عمل بعينه، ولا يكون موهوبا فى عمل آخر. فيكون إرغامه على ما لا يحسن مدعاة للإخفاق، ومضيعة للوقت، والجهد، ومثبطا لهمم غيره، وهذا كله يخلق جوا لا يعين على النجاح».

والباحثون فى مشكلة علمية لا يعرفون سلفا طريق النجاح فيها. وإنما يُعرف ذلك فى الأمور التى تم النجاح فيها. مثـال ذلك ما حدث فى البنسلين حيث تبين بعد النجـاح أن مشكلته كانت كيميائية. على حين أن المشاكل المتعلقة بالسرطان لا يـزال طريق النجاح فيها مجهولا ولا يدرى أحد هل سيجىء الحل من طريق الكيمياء أو البيولوجيا أو الميكروبيولوجيا أو غير ذلك، وكذلك لا أتصور إمكـان التخطيط فى معالجة البلهارسيــا أو دودة القطن لأن واضع التخطيط ينقصه بالطبع معرفة الطريق التى تـؤدى إلى النجاح. وقد يكون التخطيط غير الموفق مؤديا إلى إسراف وأخطاء بعيدة الأثر فى الحياة العلمية».

١٢ - وفى سبيل هـذا يؤكـد كامل حسين على **أهمية التربية بديلاً عن التخطيط** ويقول: «وعلى ذلك يجب أن تبدأ النهضــة العلمية بأن نعنى بالـرجل الذى يتناول هذه العلـوم فننشئه النشأة المستقيمة علميــا، وعلينا أن نعنى به فى معملــه وفى ثقافتــه، وألا نرغمه على غير مــا هو ميسر له، وعلينا أن نهيئ له الجو العقلى الضرورى للنجــاح. ومن بساطة التفكير التى تبلغ حد السذاجة أن يظن الإنســان أنه يستطيع أن يبلغ الغاية من العلم إذا اكتملت له الأجهـزة الدقيقة والمراجع الوافيــة ما لم تتحقق له الدوافع الصحيحــة والتكوين الثقافى العــام والتكوين العلمى الخاص.

وقـد كـان كامـل حسين يجاهر بأن الصفـة التى لابـد منهـا لتحقيق التقـدم العلمى هى: **الأصالة**. وكان له تعـريف دقيق وفهم أدق لهذه الصفة، وكان يقدم لهذا الفهـم بتصوير رائع يقرب الحقيقـة من الأذهان وسننقل للقـارئ النص الكامل لشرحـه حيث يقول: «يعتقـد أكثر علماء البيولوجيا فى صحـة النظرية القائلة بأن الفرد فى نمـوه من الخلية الواحدة إلى أن يصبح حيوانـا كاملا يمر فى أطـوار تعيد أطوار نمو فصيلتـه أو نوعه أو جنسه بهذا يتحقق لـه النمو السوى. وهـو بذلك لا يستطيع أن يتخطى أطوار نموه وإن أصبحت غير ذات فـائدة. ولعله إذا تخطاهـا أن يصيبه تشوه فى تـركيبه. والبرهان على هـذه النظريـة معروف لدى البيـولوجيين والأمثلة عليها كثيرة جداً.

«ولما كان العلم التجـريبى كائنا حيا، نما من مقـدمات بسيطة إلى أن بلغ اليوم مـا بلغه من عظمة وتعقيد. فلا غرابة أن يكون نمو المشتغل بـه مطابقا فى خطواته لنمو طائفة العلماء، وإذا لم يتحقق للعالم أن يمر بالخطوات التى مر بها العلـم كله فقد يصيبه نقص أو تشوه فى عقليته العلمية. وكذلك تـاريخ العلم فى الأمة الواحدة يجب أن يمر بـالخطوات التى تم بها نمو التفكير الإنسانى كلـه. وإلا كان العلم فيها مستمرا لا جـذور له ويصعب عليه بعد ذلك أن ينمـو نموا طبيعيا».

وينتقل كامل حسين إلى الحديث المفصل عن تطور العلم التجريبى فيقول:

☐ **« بدأ التفكير التجريبى عندما وصل التفكير القديم وتفكير القرون الوسطى إلى غايته، وأصبح بذلك عقيما لا يستطيع النمو، وكـان جوهر هذا التفكير أنه قائم على كليـات ثابتة تتحكم فى الواقع فإذا لم يطـابق الواقع هذه الكليات وجـب التأويل الذى كان فى بعض الأحيان بـارعا ذكيا. أما التفكير التجريبى فهو الذى يعتمد على أن الواقع هو الأصل وأنه هو الذى يتحكم فى الكليات يغير منها مهما تكن ثـابتة. والخيط الذهنى الذى يربط عنـاصر العلم التجريبى كله بواقعـه وكلياته هـو الرياضيـات. وأكثر الناس يرتـاحون إلى صدق مـا يقوم عليه بـرهان رياضى».**

«و أن بدء العلم التجريبى أن شك الناس فى الكليات، وهذا الشك كان شكا خصبا ولم يكن إنكارا بحتا ولم يكن مقصورا على هدم القديم. والشك الخصب هو الذى يؤدى إلى التساؤل الصحيح والتسـاؤل الصحيح هو الطـريق إلى العلم وأثـره فى ذلك أكبر من أثـر الإجابـات الصحيحة. والقـدرة على تدريب الناشئين على هذا الشك الخصب والتسـاؤل الصحيح أمر بالغ الأهمية فى تكوين العلماء. وقد يقال إن المشتغلين بـالعلوم فى البلاد المتقدمة لا يعرفون

هذا التدريب معـرفة واضحة. وهذا غير صحيح، وقـد يكون علمهم به من الناحيـة النظرية ناقصـا، ولكنهم فى عملهم يسيرون على أسلوب قـائم على هذا الأساس المتين، وهـذه المرانة العملية على الطريقة السليمة أكثر نجـاحا فى تكوين العلماء من البحث النظرى ولا يعنينا أن يكـون علم العلماء بالطـريقة العلميـة علما واعيـا أو غير واع ما دام العلميـون يهتدون بـه ويسيرون على نهجـه. والذى لا يكـون فى عملـه أثر الشك الخصب والتسـاؤل الصحيح لا يمكن أن يبلغ شيئـا فى مجال العلم. ويدخل فى هـذا الباب خطأ المبتـدئين الذين يظنـون أن القوانين أكبر من الـواقع والذين يزعجهم أن يجدوا خبرتهم تخالف النظريـات السائدة، على حين أن الـواقع أن تقـدم العلم يقـوم على إثبـات أن نظـريـة مـا لا تكفى لتفسير الـواقع. **والنظريـات يتسع مداها ويعظـم شمولها وتكون أقـرب إلى الحق كلما استطاعت أن تفسر كل ظاهرة جديدة**، وقد ثبت فى أذهـان العلماء أن الأسباب الواحـدة تؤدى دائما إلى نتائج واحدة وأنه إذا اختلفت النتائج فلابد أن يكون هناك اختلاف فى الأسباب يجب البحث فيه، ولو أدى ذلك إلى هـدم أثبت النظريات أساسـا. والواقع أن هناك تجاوزا فى التعبير حين نقـول إن النظريـات القديمـة خطأ، إذ إنها فى الـواقع ليست خطأ بل هى صواب فى حـدود الظواهر التى تفسرها، ويحسن أن توصف بأنها ضيقة محدودة بدلا من وصفها بالخطأ».

- والطور الثـانى لتقدم العلم هـو عهد **اليقين الثابت الإستاتيكى** وهـو ما نسميـه **اليقين الراسى**، هذا المذهب يـرى أن ما ثبت بـالبرهان الواقعى يعـد حقيقة لا تتغير أبـدا، ما دامت صحتها قـد ثبتت بالتجربة، وهـو العهد الذهبى للعلم التطبيقى نتجت عنه أكثـر المخترعات التى بهرت النـاس وأعجبتهم. وعليها تقـوم السمعة العـالية التى للعلم عنـد أكثر النـاس، وخاصة عنـد الذين لم يتناولوا العلم بأنفسهـم، وهو أصل التكنولوجيا التـى تقوم على هذا اليقين الراسى الذى يمكن حساب نتائجه حساباً دقيقا. وريادة الفضاء هى أقصى ما وصل إليه هذا اليقين الراسى الرياضى فهو الذى حقق للناس السيطرة على القوى الطبيعية، وزاد فى ثقة الناس بالعقل الإنسانى وقوته».

- **«والتقدم الـذى يحققه اليقين الراسى تقـدم أفقى يزداد اتساعـا ولكنه يظل فى دائرة اليقين الرياضى دون أن يرتفع ما فوق ذلك. وهذه صفة العلم فى القرن التاسع عشر وسيظل دائما خير أنواع العلم من حيث التطبيق».**

- **«على أن هذا الطـور لا يمثل الجزء الثانى مـن العلم كما يكون الجزء الثانـى فى أعلى الشجرة شيئا يختلف عن منطقة الإثمار.**

□ «ثم جاء القرن العشرون فوجد نوع آخر من **اليقين الدينامى** وسنسميه **اليقين المتغير** وحسابه تكاملى تتدخل فيه المتغيرات، **وإذا كان اليقين الراسى ثابتا ثبوت الأهرام فإن اليقين المتغير ثابت ثبوت الطائرة التى يقوم ثباتها على حركتها، حتى إذا توقفت سقطت** وهذا هو المذهب العقلى الذى حقق التقدم العجيب الذى رأيناه حديثا، فقد تم لنا فى نصف قرن من التقدم العلمى ما لم يتم فى عشرات القرون الماضية. ويجب أن ننسب هذا التقدم الباهر إلى خصب هذا المذهب التفكيرى الخاص».

«وإنما سقت هذا الحديث لأبين ما يجب أن تكون عليه نشأة العلماء وتدريبهم أفرادا، وما يجب أن يكون عليه تطور العلم فى الأمم المختلفة. على أن نقدر هذا التطور والمرانة عليه تحتاج إلى عناية فائقة ووقت طويل وحضارة راقية وفهم حق لطبيعة العلم».

ويعود كامل حسين ليتأمل مستقبل العلم فى ضوء ماضيه وحاضره، وسنجد أن أفكاره فى هذا الصدد شبيهة بأفكاره التى ناقشناها من قبل عند عرضنا لكتابيه « وحدة المعرفة» و«التحليل البيولوجى للتاريخ» فضلًا عن أنها تتميز بالخصوبة وبالقدرة على التنبؤ فى حدود ما يسمح به العقل البشرى وهو يقول: «وليس هذا آخر المطاف. وعندى أن القوانين الكونية متشابهة جدا. وأن ما عرفناه يقينا من قوانين الطبيعة يشبه ما عرفناه من القوانين البيولوجية مع التغيرات التى يدعو إليها تغير طبيعة موضوعات البحث. وكذلك القوانين الإنسانية فهى امتداد للقوانين البيولوجية وإن تكن أقل منها ثبوتا. ولا أشك أن العلم سيتناول مسائل الأخلاق والضمير والإيمان على نحو يشبه القوانين الدنيا.

١٤ ـ وبعد أن تناول كامل حسين عوائق التقدم العلمى من حيث البيئة ومن حيث الدوافع التى تحفز العاملين إلى العلم الخصب بدأ فى تناول الخطوات الإيجابية التى تمثل عناصر التقدم العلمى فى الأمم الناهضة وفى هذا المعنى يقول:

«وقد يتصور الإنسان حياة علمية فيها كل عناصر النجاح وهى مع ذلك خافتة ضعيفة ولكنه من المستحيل أن يتصور حياة علمية صالحة إذا لم يكن العلميون أكفاء للقيام بها، وأعنى بذلك أن التخطيط العلمى والسياسة العلمية وتنظيم البحث العلمى أمور يجب أن تأتى بعد الأعداد الصحيح للعلمين وإلا كان كل هذا التنظيم عبثا.

«وإعداد العلميين يشمل أمرين: الإعداد العقلى والإعداد النفسى.

□ أما الإعداد العقلى فيجب أن يبدأ فى أول عهود التعلم لأن الخطأ فى بدء التعلم يصعب إصلاحه فيما بعد. والطريقة المثلى للإعداد العقلى أن نعلم الطالب منذ أول عهده بالعلوم كيف يشاهد

الظواهر الطبيعية، وكيف يفكر فى حلها، وأن نهديه إلى سبيل الحل ولا نلقنه إياه. فيتدرب بذلك على دراسة الأشياء مستعينا بالأشياء، هذه هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على الانفصام العقلى».

«ويجب على المعلم أن يلقن طالب العلم شيئا قبل أن يعلمه الصعوبة التى يراد حلها. وليست العبرة بكثرة الحقائق التى يعرفها الطالب وإنما العبرة بقدرته على رؤية المشكلة وتبين وجه حلها ويجب ألا يكون ما يتلقاه الطالب فوق قدرته على إدراك عناصر المشكلة. وعلينا أن نعلمه كيف يسأل الأسئلة الصحيحة قبل أن نلقنه الإجابات الصحيحة. هذا الأسلوب فى التعليم يخلق فيه منذ البداية الثقة بالنفس وهى أهم عناصر اعداد العلميين. ومن الخطأ أن نظن أن كثرة المعلومات تفيد الطالب حتى حين تكون فوق مستوى تفكيره فإن ذلك يشبه من يريد أن يملأ فنجانا من حنفية ماء متدفقة. ومن يفعل ذلك يجد فى آخر الأمر أن الفنجان ليس فيه إلا قليل جدا من الماء».

□ أما الإعداد النفسى فيقوم على تعليم الطالب أن الدوافع الحقة للعلم هى الدوافع التى تقوم على حب الاستطلاع ومعرفة الحقيقة، وأن نعلمه أن التسابق والمنافسة والرغبة فى إثبات كفاية أمته كل هذه من الدوافع غير الصحيحة. وقد يقال إن من كبار العلماء من قام بينهم تنافس شديد على الأسبقية كما حدث فى النزاع بين نيوتن ولينتز. هذا قياس مع الفارق لأنى أؤكد أن ما كشف عنه كلا الرجلين لم يكن الدافع له إثبات كفايته أو كفاية أمته».

□ ومن الإعداد النفسى أن نعلم الطالب كيف يخلع رداء التفكير القديم وألّا يجعل للمنقول سلطانا على المعقول، على أنه يجب أن يتعلم كذلك أن حداثة رأى بعينه لا تدل على صوابه وكذلك من الإعداد النفسى أن نعلمهم الجمع بين الشك واليقين، وأن الإجابات عن تساؤلاته يجب أن تكون مبدأ تساؤلات جديدة، وأن التفسير الشامل للظواهر العلمية أمر لايزال بعيدا، وأن باب الاجتهاد لايزال مفتوحا، وأن عمله ليس شيئا حقيرا بل هو لبنة فى بناء الصرح العلمى الشاهق، وعليه أن يعلم الفرق بين العلم الحى النابض، والعلم الميت فقد يتشابهان فى الحقائق والمعلومات ولكن الأول قابل للنمو والثانى هامد لا يخرج عن أن يكون مجموعة الحقائق المعروفة. والعلم الحى هو الذى يتخطى حدود ماهو معروف.

«ومن الصعب على المعلمين فى الأمم الناهضة أن يدربوا طلبتهم هذا التدريب القاسى الجديد الطويل الأمد لأنهم هم أنفسهم لم ينشئوا هذه النشأة الخصبة. وهذا بالطبع لا يعفيهم من القيام بهذا الواجب نحو طلبتهم الذين سيكونون عماد العلم فى المستقبل».

«وأكبر عامل فى الإعداد العقلى والنفسى هو **النجاح**، وقد يستطيع رجل واحد يحقق نجاحا علميا باهرا أن يخلق جيـلا بأسره يهتدى بهديه ويتبع طريقته وينجح نجـاحة. هذا هو سر التفـوق الذى نـراه فى بعض المراكز العلميـة العليا نتيجـة لـوجود رجل ممتـاز يتبعه قـوم ممتازون.

□ «ومن الإعداد العقلى أن يعنى العلميون بتاريخ علمهم، **وقديما قال جوته: إن تاريخ العلم هو العلم نفسه.** ولا أعنى بذلك تـدريس تاريخ العلم تـدريسا منظما فهذه الـدراسة لها فوائد أخـرى لكنى أعنى أن يعلم الطالب كيف تطـور التفكير فيما هو بصـدده من بحوث، فهذه هى السبيل الوحيدة للفهم الحق لما لديه من مشاكل.

«وقد عيب على المشتغلين بالعلم فى البلاد النـاهضة أنهم لا يتعاونون وأن البحث الجماعى نـادر فيهم والسبب فى ذلك واضح فكل منهم يبحث نقطة صغيرة لا تتصل بما قبلهـا. وفى أغلب الظن أنها لا تتصل بشىء بعدهـا. ولو أن القـائمين بالبحث العلمى تناولـوا مشاكل مجهولة يريدون حلها لتعاونوا ولكان كل منهم يسعى جهده أن يفيد من علم غيره. وعندى أن عدم التعـاون نشأ من **العناية المسرفـة برسائل الدكتـوراه التى أعتبرها، فى الطور الذى تمر بـه حياتنـا العلمية، عقبـة فى سبيل التقدم لا سبيـلا إليه. والعقليـة التى تعتبر رسائل الـدكتوراه غاية البحث العلمى لا يمكن أن يتحقق معهـا تقدم صحيح وبحـوث الدكتـوراه إن لم تكن جزءا من بحث مشكلـة قائمـة فهى عمل عقيم وتظل بحوثا مبعثرة لا يصح بها بناء حياة علمية»**.

□ ثم يقول كامل حسين:

«وقد سبق أن بينا أن الطالب يجب أن يعلم كيف يشاهـد ثم يدون ثم يقرأ. هذا هو الترتيب الصحيح أمـا إذا تعود أن يقـرأ ثم يفهم ثم يشاهـد. فـذلك هو العلم الخطأ. وليس الفـرق بسيطا كما يظن أكثر المعلمين والمتعلمين. والفـرق بينهما كالفرق بين وضع الماء فى حمض الكبريتيك الـذى يـؤدى إلى الانفجـار وخلط حمض الكبريتيك بالماء الـذى يتم فى سهـولـة ويسر».

«وكذلك يجب أن يتعلم الطالب عمليا أن العلم الخصب تفاعل متسلسل كما يقولون، أى أن كل جديـد فيه يفتح آفاقا جـديدة تحمل تساؤلات جديـدة تتطلب إجابات جديـدة. والذين يظنون أنهم يستطيعـون أن يجدوا جديـدا فى العلم باستنتـاجات نظريـة من عمل غيرهم يخطئون بل يجب أن يصدر موضوع بحثهم عن بحوث لهم سابقة قاموا بها بأنفسهم».

«ونستطيع أن نلخص قولنا فى الإعداد العقلى والنفسى فى كلمة واحدة هى أن **المتعلم يجب أن يـروض نفسه على فهـم لغة الطبيعـة ومنطقهـا ولا يتم ذلك إلا بـالتحدث إليهـا مباشرة.** واجمل ما قيل عن باستير: إنه كان يفكر على نسق ما تفكر به الطبيعة.

١٥ ـ ثم ينبه كامـل حسين إلى نقطة مهمة طالما نبه إليها فى مواضع كثيرة مـن كتاباته من قبل فيقول: «وليذكـر المشتغلون بالعلم أن أحدا من كبـار العلماء لا يستطيع أن يبلغ الغاية فى علمه دون أن يكون حظـه من الثقافة العامـة عظيما. ولا أتصور عالما كبيرا لا يستطيع التعبير بلغته تعبيرًا دقيقـا واضحًا ولا أتصـور عالما كبيرًا يجهل الثقـافة الأدبيـة أو الإنسانيـة جهلا شـديـدا. والجمع بين الثقـافـة العـامـة والتفـوق العلمى كـان أمـرًا هينـا فى الماضى، ولكن التخصصات الدقيقـة جعلت من الصعب الجمع بين الثقافتين. وهذا الأمر من المشـاكل العالمية التى لم تحل بعـد. وأحسب أن المدنيـة الغـربية كـانت قـويـة حين كـانت الثقافـة تـؤدى إلى التخصص، **ولعل أكبر ضعف فيهـا فى هذا العصر أنها لم تنجح فى جعل التفـوق العلمى وسيلة إلى الثقافة الممتازة».**

ثم يلخص كـامل حسين فى سرعة بالغـة بعض الحقائق التى لم يتطـرق إلى موضـوعات فى مقالـه بشئ من التفصيل، وكأنـه يبرئ ذمته من أن يترك هـذه الأمور من دون أن يبـدى فيها برأيه القاطع المضئ فيقول:

☐ «وخير البحوث العلمية ما ينشأ من حاجة الباحث إلى خطوات جديدة يتبينها أثناء عمله. أما إذا كان الدافع له مجرد الرغبة فى عمل شىء جديد فإن عمله يظل أبتر لا غناء فيه».

☐ «ولا نزاع أن الجامعات هى المكان الوحيد الذى يمكن أن يتم فيه هذا الإعداد العقلى والنفسى، ولابد أن تتغير أساليب التعلم فيها حتى تحقق الإعداد الذى بيناه آنفا».

☐ «ثم إن الحديث عن الأجهزة وعن ما يسمونه الإمكانـات فهو حديث معاد وأكثره اعتذار عما يبدو أنه تقصير. ومن غير المستطاع أن تكون البلاد الناهضة معدة بأحدث الأجهزة اللازمة لكل فرع من فروع العلم ولعل هذا لم يتحقق حتى فى أكبر البلاد وأغناها وأقواها».

□ «ولنذكـر دائما أن النجاح العلمى يصحبـه جهد كبير ومال كثير يبـذل فى محاولات ضخمة يتبين بعد ذلك أنها لم تكن موفقة. وقـد لا يكون للأمم الناهضة طاقـة بمثل هذا التبذير إذا تم إعـداد العلميين على هذا النحـو فإن رسم السيـاسة العليـا للبحث العلمى يصبح عمـلا منتجًا».

□ « يجب أن تكون الأولوية للموضوعات التى نجد لها من المتفوقين فيها عددا كافيا، وقد بينت أن الكفاية العلمية كفاية نوعية وأن إرغام رجل ثبتت كفايته فى أمر بعينه على تناول أمر آخر لشدة الحاجة إليه لا يكون عملا ناجحا».

□ « **وهذا ما يحملنى على القول بأن التخطيط الدقيق لهذا الطور من حياتنا العلمية قد يكون عائقا للنجاح بدلا من أن يكون** عونا له».

الفصل الثالث

أصول ممارسة مهنة الطب

فى هذا الفصل نلخص للقارئ بعض أفكار كامل حسين فيما يتعلق بممارسة مهنة الطب، وقد جاءت معظم هذه الأفكار فى تقديمه لكتاب عن الطب صدر كثانى كتاب فى سلسلة عن المهن، وكان هدف السلسلة كما ذكر التصدير أن يتروى الشباب فى اختيار المهنة التى يرنو الواحد منهم إلى احترافها فى المستقبل وأن يكون اختياره قائما على أسس ثابتة من العلم والدراسة والمعرفة بطبيعة كل مهنة من جهة.. ومن التبصر والإحاطة بطبيعة استعداده الشخصى من جهة أخرى.

يبدأ كامل حسين فينبه إلى أن الطب ليس مهنة فحسب ولكنه فلسفة وثقافة.

□□ أما كونه فلسفة فلأنه كما يقول كامل حسين سبيل إلى معرفة الحقيقة، «ويقوم المنهج الطبى على معرفة ماهو طبيعى بالبحث فيما هو غير طبيعى». فالطب يحاول أن يعرف الحياة السوية جسمًا وعقلا بدرس ما يعرض لها من علة أو فساد. ثم هو - بحكم أثره فى صحة المريض - يحد من شطط التفكير المطلق، ويحول دون الإسراف فى الفروض، ورد المفكرين إلى الواقع. وهو أصدق صورة للتفكير فى كل عصر.

ويستعرض كامل حسين علاقة الطب بالفلسفة على مدى التاريخ فيقول:

«ومع أن الفلاسفة القدامى كانوا يعتبرون الطب جزءًا من الفلسفة إلا أنهم لم يفطنوا إلى فضل الطب على الفلاسفة من هاتين الناحيتين: أنه وسيلة إلى المعرفة وأن يرد المفكر إلى الصواب. وحسبوا أن الطبيب على حد قول ابن سينا ليس له أن يجادل الطبيعى فيما ثبت عند الطبيعى بالبرهان المستقل. والواقع أن ما يفيده التفكير من الطب أكثر وأقرب إلى الصواب فى عصرنا هذا مما يمكن أن يفيده الطب من التفكير المطلق، وما ثبت عند الأطباء فى المعامل وقاعات المرضى وحجرات العمليات أصبح أملا تقوم عليه المعرفة بالحياة والإنسان والعقل».

□□ وأما كون الطب ثقافة فان كامل حسين يؤكد أن الطب ليس ثقافة فحسب ولكنه ثقافة كاملة، تنمو وتشتد فى ظله كل القوى الفكرية فى الإنسان، وهو يعين على الصواب الرأى وصدق الحكم وحسن التقدير، وهو علم وخبرة ومراة على الإتقان. والنجاح فيه يحتاج إلى ذلك كله، وإلى التفكير المستقيم، وإلى قوة الشخصية. وقديما كان من الأطباء الموفقون والناجحون والمتفوقون، ومنهم غير ذلك، وكلا الفريقين لا يعلم شيئًا عن حقيقة الأمراض التى يعالجها. وكان النجاح – وهو حقيقة لا وهم – يرجع إلى شخصية الطبيب وثقافته، ولايزال المحدثون فى حاجة إلى ذلك على الرغم من اتساع علمهم بالأمراض.

ثم يتناول كامل حسين الجانب المهنى فى الطب فيبدأ بمناقشة مقولة قديمة ويقول:

«مازال الناس من قديم الزمان يقولون إن الطب من أشرف المهن. والواقع أن المهن كلها شريفة لأن العمل شريف بذاته مهما يكن نوعه. وإنما يتميز الطب على غيره من المهن أن غايته الخير المطلق. وليس شىء أدعى إلى الرضا من تخفيف آلام الناس وإعانتهم على البرء من أسقامهم. وهو ما كان يعبر عنه آباؤنا باللغة المحببة إليهم حين كانوا يقولون عن الطب إن فيه ثواب الدنيا والآخرة».

ويستعرض كامل حسين طبيعة مهنة الطب فى نقاط سريعة ومركزة فيقول:

□ كانت مهنة الطب فى أول الأمر **خبرة خالصة**، يتناول المريض من العلاج ما يعرف الناس أنه شفى به غيره ممن شكا مثل أعراضه. فإن لم يجدوا علاجاً التمسوه فى الدعوات يتقربون إلى آلهتهم، أو التوسلات إلى الجن أن تخفف قسوتها عن مريضهم واختلط الطب الحق والطب الباطل فى كل أمة عند أول عهدها بالحضارة، وللمصريين القدماء سبق فى هذا المضمار. أفادوا من الخبرة أكثر مما أفاد غيرهم، وتلقى عنهم هذه الخبرة أطباء البلاد المجاورة وأعجبوا بها وآمنوا بفائدتها.

□ ثم جاء اليونانيون فأخضعوا الطب للمنطق. واستنتجوا الصواب من الكليات التى حسبوها ثابتة لا تقبل النقض. واستهوى هذا **الطب المنطقى** أفئدة المتطببين مدى عشرين قرنًا، كان فيها خير الأطباء مَنْ كـان علمه بالقياس أكبر؛ **وغلب القيـاس على الخبرة. ومع ذلك لم يفت الأطباء ما فى الخبرة من فائدة،** وللرازى آراء فى مواضع تفضيل الخبرة على القياس وتفضيل القياس على الخبرة، مما يدل على أنهم فى ذلك العصر أخـذوا يدركون أن الغاية من الطب قد لا تتحقـق دائما عن طريق الطب المنطقى القـائم على الاستنتاج وأن الاستقـراء له موضعه فى علوم الطب.

□ أما **الطب الحديث** القائم على العلم والتجربة فلم يبدأ إلا حين دعا **فيزاليوس** إلى العلم بجسم الإنسان عن طريق التشريح لا عن طـريق النقل عن جالينوس، وحين دعا **كلود بيرنارد** إلى فهم وظائف الأعضاء عن طريق التجربة المنظمـة التى حدد أصولها وبين وسائلها فى كتابه المشهور، وحين أثبت **فيركون** أن التغيرات التى تحدث فى الخلية هى أصل الأمراض ووضع بذلك أسس الباثولوجيا الخلوية، ولما تقدم علم الكيمياء طغى على كل ما عداه وأصبح الطب كله تقريبًا كيميائيا، وهو العهد الذى لانزال نعيش فيه، أما الأطباء الإكلينيكيون فقد أخذوا يحددون الصلة بين الأعـراض والتغيرات الخلوية والـوظيفية، وتحددت فصـائل الأمراض تحديدًا قـائمًا على أسبابها الحقـة، ولما اكتشفت الميكروبـات نسبت إليها أكثـر الأمراض. واليوم نشهد دولة الفيروسات. وسيظل العلم الطبى يـزيد تبعًا للتقدم العلمى الذى نشهده اليـوم، ولا يكاد يحدث تقـدم علمى دون أن يكـون لـه أثر فى معـرفـة الأمراض: أسبـابها وعلاجها.

ويتطرق كامل حسين إلى السؤال التقليدى الذى يناقش قدر العلم وقدر الفن فى مهنة الطب فيبدى لنا كـالعهد به رأيا يتميز بـوضوح الرؤية ونفاذ البصيرة والقـدرة على حل الاشكاليات التقليدية وذلك حيث يقول:

«ومع ذلك **لا يزال الطب فنـا يمارسه رجل علم،** ولم يصبح بعـد علمًا خالصًـا. ولا يزال الذوق وحسن التـدبير ضروريين لمن يريد النجـاح فى مهنتنا، وخير وسيلـة للتفوق فى الطب أن يحب الطبيب مهنته، فإن لم يـوفق إلى ذلك فسيظل نجاحـه فيها محدودًا، وستظل ممـارستها عبءا عليه يحمله على كـره منه، والذين يحبون مهنتهم يجدون فيها من اللذة العقليـة والرضا النفسى ما لا يجده إلا القليلون من أصحاب المهن الأخرى».

«ولابد لـلأطباء أن يعرفـوا كيف يستمتعون بكل مـا تهيئه لهم مهنتهم النبيلة الكـريمة فى

مراحلها المختلفة مهما يكن نصيبهم منها، يستوى فى ذلك ما يسمونه الممارس العام وأكبر الإخصائيين ذوى الشهرة والمكانة. بل إن طالب الطب لو عرف كيف يحب العلم وكيف يحب مرضاه لوجد فى دراسته متعة كبيرة*».

ثم يتحدث كامل حسين عن علاقة الطب بالمجتمع وعلاقة الطبيب بالناس فيقول:

«**ومهنة الطب مضنية مرهقة**، والناس يرجون من الطبيب ما لا يرجونه من غيره. يريدون منه أن يلبى دعوتهم كلما دعاه داعى الواجب، وهم يرجون منه أن يبذل غاية جهده دائمًا وكثير منهم يحملونه كل العبء حين لا يشفى المريض كأن لكل مرض دواء ناجحًا. والواقع أن العلاج الناجع تفاعل بين علم الطبيب وقوة المريض على البرء، وقد لا ينجح العلاج على الرغم مما نبذله من جهد وعلم. والطبيب الحق يشعر من جراء ذلك بخيبة أمل لا يعوضه عنها شىء ومع ذلك فلا أعرف طبيبًا صغيرًا كان أو كبيرًا، إخصائيا كان أو غير إخصائى لا يروى لك حالات صعبة وفق فيها غاية التوفيق من جراء عنايته ودقته وعلمه، وليس النجاح مقصورًا على طبقة من الأطباء دون غيرهم. ومن الخطأ أن يظن الطبيب الذى يعمل فى قرية نائية أنه بمعزل عن الأوساط العلمية الكبيرة، وأنه بذلك محروم من وسائل البحث والعلم، ومن الخطأ أن يظن هذا الطبيب أنه لا يستطيع أن يقوم بواجبه ما لم تتهيأ له وسائل الفحص الحديثة من أشعة وتحاليل، والواقع أن الطبيب يجب أن يعد كل مريض يتقدم إليه موضوع بحث علمى، وأن يتناول الحالات التى تعرض له على هذا الأساس، ومهما تكن وسائل الفحص والعلاج المهيأة لديه أمية، فإن فى استطاعته أن يتعمق فى بحثها وأن يكون فكرة صحيحة عن الحالة المرضية وأسبابها، وأن يختار من العلاجات أقربها إلى رأيه فى التشخيص».

وينبه كامل حسين شباب الأطباء إلى حقيقة مهمة تتعلق بعلاقتهم بالعلم الحديث واعتمادهم عليه، ويكاد كامل حسين يخرج بهؤلاء من الإطار الذى فرضته عليهم التكنولوجيات الحديثة إلى إطار الفكر المحض، وهذا هو ما يعبر عنه حين يقول:

«وليذكر **الطبيب الناشئ** والذى يعمل بعيدا عن البحوث العلمية الدقيقة أن علمه لا يقل كثيرا عن علم كبار الأطباء منذ خمسين سنة مثلا حين لم يكن العلم بالتهاب الزائدة الدودية علمًا محققًا، وليذكر أن الأطباء كانوا مع ذلك يعالجون المرضى علاجًا طبيا، وليذكر أن كل وسيلة جديدة دقيقة للفحص تجلب معها أخطاءها وصعوباتها، وأن كل وسيلة جديدة دقيقة للعلاج تجلب معها صعوبات ومضاعفات خاصة بها».

* فى أصل التقديم: «والكتاب الذى نقدمه اليوم يبين للأطباء كيف يستمتعون ... الخ»

ويؤكـد كامل حسين أنه لم يذكـر هذا المعنى إلا للتأكيد على أهمية العـامل النفسى فى حياة الأطبـاء، وهـو بلا شك يعبر عن تجربـة شخصيـة خصبـة وعن معـرفة حقيقيـة بنفسيـات وشخصيات الكثيرين من أقرانه، وذلك حين يؤكد أنه إذا أحسن كل طبيب التصرف وبذل غاية جهده ودرس الطب على وجهـه الصحيح، وإذا أحب مهنته ومـرضاهُ فسيكون سعيـدًا جدا فى عمله، وكثير من كبار العلماء بالطب لا يعرفون هـذه السعادة، وقد أدى تقدم العلوم الطبية إلى قيام طـائفة من الأطباء «العلميين» وكثير من هذا الفـريق تنقصه القدرة على فهم مـريضه من حيث هو إنسـان، وأصبح الطب الراقى فى نظر بعض الناس طبا آليا، وفقد الأطباء الفلسفة حين أصبحوا علماء، وظنوا أن التخصص عملية تكنولوجية بحتة، هؤلاء يُحَرمون أجمل ما فى الطب، وهـو الفهم الحق للنفس الإنسانيـة، وتفهم العقليـات المتباينـة، وتنـاول كل منها بما يـوافق مزاجها».

«ولو خيرت لاخترت أن أكون من الأطباء المستشارين فى المستشفيات الجامعية فى أوائل هذا القرن. وقـد لقينا بعضـهم وتتلمذنـا على عدد منهم، هؤلاء كـانوا على جانب عظيم من الثقـافة الـواسعة الـراقيـة، جمعوا بين الحكمـة والعلم، ومع أن فـراستهم كانت أصـدق من خبرتهم، وثقافتهم أوسـع من علمهم، ومنطقهـم أسلم من معلوماتهم، إلا أن صـدق حكمهم على الأشياء كفل لهم التوفيق البـالغ فى مهنتهم، ثم **طغى العلم على الحكمة وأصبـح التخصص عنوان الكفاية**، ولم يكن من ذلك مناص، فالتخصيص هو السبيل الوحيد لمواجهة التضخم فى العلوم الطبية. وهو الطـريق الوحيد للتحقق من قيـامنا بواجبنا نحو المرضـى، وعلى الأطباء اليوم أن يجمعوا بين التخصص الدقيق، والثقافة العامة، والدراسة الصادقة، والحكمة بأوسع معانيها. فهل هم فاعلون؟»

«على أنى أعود فأؤكد أن جميع الأطباء يستطيعون أن يستمتعوا بمهنتهم، إن درسوها على الوجه الصحيح، ومارسوها على أحسن وجه، وإذا أحبوها حبا صادقًا».

الباب السادس

ببليوجرافيا

الفصل الأول

أعمال الدكتور محمد كامل حسين

أولا : كتب [وقد رتبناها حسب تواريخ صدورها الأقدم فالأحدث]

١ ـ متنوعات :

الجزء الأول، ١٩٥١، القاهرة، مطبعة مصر.

«ويتضمن هذا الكتاب الفصول الآتية، وقد نشرت بعض هذه الفصول فى دوريات»:

(١) القرآن .

(٢) أحسن القصص: قصة الخروج والعقلية اليهودية .

(٣) المتنبى .

(٤) الحرمان: أثره فى الأفراد والجماعات .

(٥) محنتان متشابهتان .

(٦) قصة أقدم رسالة علمية .

(٧) أحمد لطفى السيد والدعوة إلى أرسطو .

(٨) الفلسفة والعلم فى كتاب القانون لابن سينا.

(٩) جو الإصلاح .

(١٠) التفكير المستقيم .

(١١) الدكتور على باشا إبراهيم .

(١٢) العلوم عند العرب .

(١٣) تاريخ الكيمياء القديمة .

(١٤) تاريخ الطب عن العرب .

وفى نهاية الكتاب نص الترجمة العربية لبردية إدوين سميث .

٢ ـ التحليل البيولوجى للتاريخ :

١٩٥٧، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

٣ ـ وحدة المعرفة :

١٩٥٨ ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية..

٤ ـ متنوعات :

الجزء الثانى، ١٩٦١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

«يتضمن هذا الكتاب الفصول الآتية، وقد نشرت بعض هذه الفصول أيضاً فى دوريات»:

(١) معنى الظلم فى القرآن الكريم .

(٢) التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء .

(٣) قصة آدم .

(٤) الحياة الفكرية فى مصر الحديثة.

(٥) فى عيد العلم .

(٦) أسلوب المعرى ودلالته .

(٧) أدب الهجاء .

(٨) الفرزدق .

(٩) النابغة الذبيانى .

(١٠) اللغة والعلوم .

(١١) البحث العلمى .

(١٢) المصطلحات العلمية .

(١٣) أصول علوم اللغة .

٥ ـ الوادى المقدس :

١٩٦٨، القاهرة، دار المعارف .

٦ ـ مختارات :

١٩٦٩، القاهرة، الجمعية العلمية بكلية طب القاهرة.

«يضم هذا العدد الخاص من مجلة الجمعية العلمية أربعة فصول للدكتور محمد كامل حسين هى»:

(١) ما قال الناس فينا .

(٢) دراسة الطب .

(٣) الجدب والخصب فى البيئات العلمية .

(٤) مقال بالإنجليزية عن العلاج الطبى .

٧ ـ الذكر الحكيم :

١٩٧١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية .

٨ ـ الشعر العربى والذوق المعاصر :

١٩٧١، القاهرة، مطبوعات مجلة الإذاعة والتليفزيون .

٩ ـ النحو المعقول :

١٠ ـ اللغة العربية المعاصرة :

١٩٧٧، القاهرة، دار المعارف.

□

ثانيا : روايات

١ ـ قرية ظالمة :

١٩٥٤، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

□

ثالثا : قصص قصيرة فى دوريات

١ ـ فراق .	مجلة الهلال	فبراير ١٩٦٢.
٢ ـ قصة جريمة شنعاء .	مجلة الهلال	مارس ١٩٦٢.
٣ ـ أى الطريقين أهدى .	مجلة الهلال	إبريل ١٩٦٢.
٤ ـ قوم لا يتطهرون .	مجلة الهلال	مايو ١٩٦٢.
٥ ـ الطريد .	مجلة القصة	يونيو ١٩٦٤.
٦ ـ ماء مدين .	مجلة القصة	أغسطس ١٩٦٤.

□

رابعا : كتب بالاشتراك

١ ـ أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية :

القاهرة، بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو.

بالاشتراك مع الدكاترة: سهير القلماوى، محمود على مكى، إبراهيم بيومى مدكور، عبد الحليم منتصر، محمد محمود الصياد، حسين فوزى، جمال الدين الشيال، أحمد فكرى، محمود الحفنى.

وقد كتب الدكتور كامل حسين الفصل الرابع من هذا الكتاب وعنوانه: «الطب والأقربازين».

٢ ـ طب الرازى :

جزءان: ١٩٧٧، القاهرة، دار الشروق، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

بالاشتراك مع الدكتور محمد عبدالحليم العقبى.

□

خامسا : مقدمات كتب

١ ـ الطبيب معالجا وعالما :

١٩٦٤، القاهرة، دار الفكر العربى.

تأليف : دانا أتشلى .

ترجمة : زكريا فهمى .

٢ ـ **الموجز فى تاريخ الطب والصيدلية عند العرب :**

١٩٧٨، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

تقديم وإشراف : الدكتور محمد كامل حسين.

□

سادسا : إشراف على الترجمة

١ ـ **تاريخ العلم :**

(العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان) (١٩٥٧ ـ)، القاهرة، دار المعارف.

أشرف على ترجمة الأجزاء الثلاثة الأولى بالاشتراك مع الدكاترة: إبرهيم بيومى مدكور، محمد مصطفى زيادة، قسطنطين زريق.

□

سابعا : دراسات ومقالات

١ ـ **التعقيد فى شعر المتنبى .**

مجلة الكاتب، نوفمبر ١٩٤٥

٢ ـ **محنتان متشابهتان**

مجلة الكاتب، فبراير ١٩٤٦

٣ ـ **الدكتور على باشا إبراهيم .**

مجلة الكاتب، مارس ١٩٤٧

٤ ـ **أحمد لطفى السيد والدعوة إلى أرسطو .**

مجلة الكاتب، نوفمبر ١٩٤٧

٥ ـ كلمة الشكر والتعقيب .

مجلة مجمع اللغة العربية، ١٩٥٢

«وهى الكلمة التى ألقاها فى حفل استقباله عضوا بالمجمع».

٦ ـ أدب النقائض وحقيقة الفرزدق .

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٠]، ١٩٥٤

٧ ـ القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية .

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١١]، ١٩٥٤

٨ ـ اقتراح باستخدام التقسيم العشرى للعلوم أساسا لتنظيم أعمال اللجان

محاضر جلسات مجلس المجمع، ١٩٥٦

٩ ـ اللغة والعلوم .

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٢]، ١٩٥٦

١٠ ـ علم دراسة الأدوية أم الأقربازين .

محاضر جلسات مجلس المجمع د٢٣، ١٩٥٧

١١ ـ معنى الظلم فى القرآن الكريم .

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٣]، ١٩٥٧

١٢ ـ رأى فى جنس العدد .

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٤]، ١٩٥٨

١٣ ـ أصول علوم اللغة .

مجموعة البحوث والمحاضرات، ١٩٦٠

١٤ ـ أصول علوم اللغة (١) .

مجلة الأدب، يوليو ١٦٦٠

١٥ ـ **أصول علوم اللغة (٢) .**

مجلة الأدب، يوليو ١٦٦٠

١٦ ـ **أسلوب أبى العلاء المعرى ودلالته .**

مجموعة البحوث والمحاضرات (دورة ٢٧)، ١٩٦١

١٧ ـ **رسم الهمزة .**

محاضر جلسات مجلس المجمع د ٢٨، ١٩٦٢

١٨ ـ **الدكتور محمد كامل حسين يرد على اتهام الأستاذ العقاد :**

جريدة الأخبار، ٢١/١١/ ١٩٦٢

١٩ ـ **الرعب عند بعض المفكرين .**

جريدة الأخبار، ٢٧/ ١١/ ١٩٦٢

٢٠ ـ **حول وحدة المعرفة .**

مجلة المجلة، ١/ ١٩٦٣

٢١ ـ **المرحوم الأستاذ أحمد لطفى السيد .**

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٨]، ١٩٦٤

٢٢ ـ **اقتراح بشأن النهوض بالمصطلح العربى .**

محاضر جلسات مجلس المجمع، ١٩٦٤

٢٣ ـ **أزمة الفصحى «السليقة اللغوية» .**

مجلة المجلة، ٨/ ١٩٦٤

٢٤ ـ **أخطاء اللغويين .**

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ٢٢]، ١٩٦٥

٢٥ ـ **التعاون الدولى والسلام العالمى .**

المجلة، ٤/ ١٩٦٥

٢٦ ـ حاجتنا إلى معجم مصفى .

مجموعة البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية، ١٩٦٨

٢٧ ـ الشعر العربى .

مجلة المجلة، ٧/ ١٩٦٩

٢٨ ـ الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى .

مجموعة البحوث والمحاضرات لجمع اللغة العربية د ٣٤، ١٩٧٠

٢٩ ـ امرؤ القيس.. معلقته ومغامراته .

مجلة المجلة ١/ ١٩٧٠

٣٠ ـ الحكم فى شعر المتنبى .

مجموعة البحوث والمحاضرات د ٣٧، ١٩٧١

٣١ ـ النحو المعقول .

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ٢٧]، ١٩٧١

٣٢ ـ اللهم أعز الإسلام .

مجلة الزهراء (مجلة معهد الدراسات الاسلامية)، ١٩٧١

٣٣ ـ طه حسين مفكرا .

مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٣٣، ١٩٧٥

□

ثامنا : أحاديث وندوات صحفية

١ ـ لقاء مع الدكتور محمد كامل حسين صاحب قرية ظالمة .

محمد عبد الحليم عبدالله، مجلة القصة أغسطس ١٩٦٤

٢ ـ تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية فى الجامعات .

ندوة المجلة، مجلة المجلة يونيو ١٩٦٦

٣ ـ لقاء مع الأستاذ الفلاح والعالم الوزير (محمد نجيب حشاد) ومع العالم الفنان والمؤرخ الفيلسوف (محمد كامل حسين) . بمناسبة حصولهما على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم.

عواطف عبد الجليل ، جريدة الجمهورية، ٥/ ١٢/ ١٩٦٦

٤ ـ استقلال الجامعة

أحمد الجندى ورجاء عبد الملك وفاطمة صقر . الأخبار ٨/ ٨/ ١٩٦٧

□

تاسعا : أعمال أدبية فى الإنجليزية

1. International Co-operation and Work Peace, Cairo 1965, Ain Shams University.

وهى المحاضرة التى ألقاها أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة.

□

عاشرا : أعمال أدبية فى الفرنسية

1. Notice Necrologie sur le Prof. Aly Ibrahim, 1946, Bulletin de L'Institut d'Egypte, vol. XXIX.

□

حادى عشر : مقالات ودراسات طبية فى الإنجليزية

1. Parathyroidectomy.

Congres de la Societe Internationale de Chirurgie.

2.Multiple Congenital Dislocation.

Journal of Bone and Joint Surgery, vol. XX, No. 2, April1938.

3. Annual Report, Red Crescent Hospital, No.1,1937-1938.

4.Annual Report, Red Crescent Hospital, No. 2,1938-1938

5. Annual Report, Orthopaedic Department, Kasr El-Aini Hospital, 1940, J.E.M.A., vol. XXX, No.7-8.1940.

6. Intra Medullary Mailing, J.E.M.A., vol. XXXII, No.6 - 7,1940.

7. Separtion of Capitulum. J.E.M.A., vol. XVII, No.6.

8. Clinical Research. Bulletin of Clinical and Scientific Society of Abbassieh Faculty of Medicine, vol III, No.1, May,1951.

9. Planning for a Higher Standard of Treatment (S.S.S. Selections).

□

ثانى عشر : مقالات فى تاريخ الطب بالإنجليزية

1. The Edwin Smith Papyrus. Journal of the Egyptian Medical Association. J.E.M.A. No. 33, June,1934

2. An Ancient Egyptian Treatise on Traumatology. The Edwin Smith Papyrus. Bone and Joint Surgery, British, No. , May,1949.

3. Kocher's method of reducing dislocated shoulder is 3000 years old. Bone and joint Surgery Brithish, No of August1968.

4. Quelques specximents de pathologie osseuse de L'Ancienne Egypte.

الفصل الثانى

أعمال عن الدكتور محمد كامل حسين

أولا : كتب تناولته فى فصول

١ ـ دراسات فى الأدب العربى المعاصر . **يوسف الشارونى**

يتناول هذا الكتاب «قرية ظالمة» فى الصفحات من «٢٢٧ ـ ٢٤١».

٢ ـ رأى فى أدبنا المعاصر . **محمد عطا**

يتناول هذا الكتاب «قرية ظالمة» فى فصل بعنوان «قرية ظالمة» القصة التاريخية ص «٩١، ٩٢».

٣ ـ المجمعيون .

الدكتور محمد مهدى علام، ١٩٦٦، القاهرة

«محمد كامل حسين» «ص ١٩١، ١٩٢».

٤ ـ الجنس والواقعية فى القصة . **فتحى الإبيارى**

٥ ـ نقد و إصلاح . **الدكتور طه حسين**

بيروت، ١٩٦٦

«القرية الظالمة» «ص ٦١ ـ ٧٨».

٦ ـ معارك العقاد الأدبية . **عامر العقاد**

بيروت، ١٩٧١.

٧ ـ معارك العقاد فى السياسة والأدب . **عامر العقاد**

٨ ـ شخصيات .   محمود عوض

القاهرة، ١٩٧٧، دار المعارف، سلسلة اقرأ. فصل بعنوان «رجل بنصف لسان».

٩ ـ أفكار الكبار .   فتحى رضوان

القاهرة، ١٩٧٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

□

ثانيا : مقالات ودراسات ونقد

١ ـ متنوعات .   المحرر

مجلة الثقافة ٣١/ ١٢/ ١٩٥١

٢ ـ الدكتور محمد كامل حسين .   الدكتور إبراهيم بيومى مدكور،

مجلة مجمع اللغة العربية. وهى الكلمة التى ألقاها الدكتور مدكور فى استقبال الدكتور كامل عضوا بمجمع اللغة العربية، وقد طبعت هذه الكلمة فى كتيب خاص.

٣ ـ التحليل البيولوجى للتاريخ .   الدكتورة بنت الشاطىء

مجلة الأدب، إبريل ١٩٥٧

٤ ـ قرية ظالمة   الدكتورة سهير القلماوى

مجلة المجلة، ديسمبر ١٩٥٧

٥ ـ قرية ظالمة .   يوسف الشارونى

مجلة الآداب، فبراير ١٩٥٨

٦ ـ محاولة لنقد قرية ظالمة .   توفيق حنا

الآداب، مارس ١٩٥٨

٧ ـ كتب وكتاب: متنوعات (جـ ٢) .   يحيى حقى

المساء، ٢٩/ ٦/ ١٩٦١

٨ ـ متنوعات (جـ ٢) . المحرر

المجلة، يوليو ١٩٦١

٩ ـ العدد فى العربية . محمد على النجار

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٥]، ١٩٦١

١٠ ـ اقتراح تيسير العدد . محمد على النجار

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٥]، ١٩٦١

١١ ـ جنس العدد . حمد على النجار

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٥]، ١٩٦١

١٢ ـ تذكير العدد وتانيثه . أمين الخولى

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٥]، ١٩٦١

١٣ ـ «العــــدد» . إبراهيم مصطفى

مجلة مجمع اللغة العربية [جـ ١٥]، ١٩٦١

١٤ ـ اقتباس أم توارد خواطر . عباس محمود العقاد

الأخبار ١٤/ ١١/ ١٩٦٢

١٥ ـ مثل فى التواضع والخبرة بالدراسة . عباس محمود العقاد

الأخبار ٢٢/ ١١/ ١٩٦٢

١٦ ـــ «أقسم باللـه أننى ضربت كفا بكف» «الـدكتور زكى نجيب محمـود ينضم إلى الأستاذ العقاد فى اتهام الدكتور محمد كامل حسين». د. زكى نجيب محمود

الأخبار ٢٦/ ١١/ ١٩٦٢

١٧ ـ تعليق الأستاذ العقاد على رد الدكتور كامل عباس محمود العقاد

الأخبار ٢٧/ ١١/ ١٩٦٢

١٨ ـ مثل من التحقيق والخبرة للدراسة العلمية . عباس محمود العقاد

الأخبار ٢٨/ ١١/ ١٩٦٢

١٩ ـ قرية ظالمة . فتحى الإبيارى

القصة ١٢/ ١٩٦٤

٢٠ ـ الأربعة الكبار الذين فازوا بجوائز الدولة . رجاء النقاش

المصور ٩/ ١٢/ ١٩٦٦

٢١ ـ رجل بنصف لسان . محمود عوض

أخبار اليوم ١٠/ ٨/ ١٩٦٨

٢٢ ـ تأملات حول الوادى المقدس . د. سهير القلماوى

المجلة ٤/ ١٩٦٩

٢٣ ـ الطبيب محمد كامل حسين أديبا . د. إبراهيم بيومى مدكور

الهلال ٣/ ١٩٧٣

٢٤ ـ عالم عظيم فقدناه . محمد فهمى عبد اللطيف

الأخبار ٩/ ٣/ ١٩٧٧

٢٥ ـ نحو النور . محمد زكى عبد القادر

الأخبار ١٠/ ٣/ ١٧٧

٢٦ ـ رحلوا عن الدنيا على ميعاد.. وخلفونا بها يتامى غرباء . بنت الشاطىء

الأهرام ١١/ ٣/ ١٩٧٧

٢٧ ـ محمد كامل حسين د. حسين فوزى

الأهرام ١٢/ ٣/ ١٩٧٧

٢٨ ـ ذكريات سريعة عن محمد كامل حسين المفخرة الفكرية التى فقدناها .

فؤاد مسلم

الأهرام ١٢/ ٣/ ١٩٧٧

٢٩ ـ جراح القرية الظالمة .
محرر صفحة الأدب
الأخبار ١٦/ ٣/١٩٧٧

٣٠ ـ ظلمناه حيا فهل ننصفه ميتا ؟ .
يوسف القعيد
المصور ١٨/ ٣/ ١٩٧٧

٣١ ـ وادى محمد كامل حسين المقدس .
فتحى رضوان
الثقافة إبريل ١٨/ ٣/ ١٩٧٧

٣٢ ـ قرية محمد كامل حسين المظلومة .
فتحى رضوان
الثقافة مايو ١٩٧٧

٣٣ ـ القرية الظالمة .
فتحى رضوان
الثقافة يونيو ١٩٧٧

٣٤ ـ قرية ظالمة .
فتحى رضوان
الثقافة يوليو ١٩٧٧

٣٥ ـ طالب طب يفوز بجائزة الأدب الأولى .
إبراهيم قاعود
آخر ساعة ٢٩/ ٦/ ١٩٧٨

□

ثالثا : كلمات وقصائد حفلات التأبين

فى حفل التأبين الذى أقامته نقابة الأطباء صباح يوم ٢٢: ٤: ١٩٧٧

١ ـ كلمة الدكتور عبد العزيز السيد .

٢ ـ كلمة الدكتور إبراهيم جميل بدران .

٣ ـ كلمة الدكتور مصطفى كمال حلمى .

٤ ـ كلمة الدكتور حمدى السيد .

٥ ـ كلمة الدكتور أحمس الحماصى .

□

وفى حفل تأبين الذى أقامه مجمع اللغة العربية مساء يوم الخميس ٢٨ : ٤ : ١٩٧٧ بقاعة الجمعية المصرية للاقتصاد والإحصاء والتشريع:

٦ ـ كلمة الدكتور إبراهيم بيومى مدكور .

٧ ـ كلمة الدكتور أحمد عمار .

٨ ـ كلمة الشعر: قصيدة الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش .

□

وفى حفل التأبين الذى أقامه الاتحاد العلمى المصرى بدار الاتحاد مساء يوم الأربعاء ١٧ : ١١ : ١٩٧٧ :

٩ ـ كلمة الدكتور حسين فوزى.

١٠ ـ كلمة الأستاذ محمد شوقى أمين .

١١ ـ كلمة الدكتور أحمس الحمامصى .

١٢ ـ قصيدة الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش .

١٣ ـ كلمة وقصيدة للأستاذ الغزالى حرب .

□

رابعا : فصول من كتب بغير العربية

١ ـ فى الإنجليزية :

1. Arabic Thought in the Liberal Age, London, 1970, Albert Hourany.

٢ ـ فى الفرنسية :

Livres egyptiens sur le probleme religieux.

كتب للمؤلف

□ فى التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (الحائز على جائزة مجمع اللغة العربية) ١٩٧٨
- مشرّفة بين الذرة والذروة (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠
- الدكتور أحمد زكى - ١٩٨٤
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية - ١٩٨٨
- اسماعيل صدقى باشا - ١٩٩٨
- سيد مرعى - ١٩٩٩
- يرحمهم الله - ١٩٨٤
- مصريون معاصرون - ١٩٩٩

دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين - ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة - ١٩٩٤
- مذكرات المرأة المصرية - ١٩٩٥
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار(طبعتان) - ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء - ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث - ١٩٩٩
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية - ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣ - ٢٠٠٠
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ - ١٩٧٢) - ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ - ١٩٥٢) - ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين - ٢٠٠١

دراسات أدبية ولغوية

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) - ١٩٨٤
- على هوامش الأدب - ٢٠٠٣
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) - ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية - ١٩٨٤

أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] - ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) - ١٩٨٩ - ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث - ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ - ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق - ٩٩٣

أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة - ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) - ١٩٩٥، ١٩٩٧

- المحافظون (طبعتان) - ١٩٩٥
- البنيان الوزارى في مصر [١٨٧٨ - ١٩٩٦] (طبعتان) - ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ - ٢٠٠٠] - ٢٠٠١
- قادة الشرطة في السياسة المصرية [١٩٥٢ - ٢٠٠٢] - ٢٠٠٣

❏ فى الفكر السياسى

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً - ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان والعولمة - ٢٠٠٣

❏ فى الفكر التربوى

- مستقبل الجامعة المصرية - ٢٠٠٠
- آراء حرة فى التربية والتعليم - ٢٠٠١
- تكوين العقل العربى : مذكرات المفكرين والتربويين - ٢٠٠٣

❏ فى الشئون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها - ٢٠٠٠
- مستقبلنا في مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) - ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج فى مصر - ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار - ٢٠٠١

❏ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] - ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة فى عواطف الأنثى] - ١٩٩٩

❏ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(طبعتان) - ١٩٨٩
- شمس الأصيل فى أمريكا - ١٩٩٤

❏ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية - ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية غير الصمامية - ٢٠٠١

المحتويات

الصفحة الأولى من الطبعة الأولى ٥

إهداء ٧

مقدمة الطبعة الثانية ٩

تقديم بقلم الدكتور حسين فوزى ١٣

مقدمة الطبعة الأولى ١٧

الباب الأول: حياة محمد كامل حسين ٢١

الباب الثانى: محمد كامل حسين مفكرا ٤٩

الفصل الأول: نظرية وحدة المعرفة ٥٥

الفصل الثانى: معركة العقاد حول وحدة المعرفة ٧٣

الفصل الثالث: الوادى المقدس ٨٥

الفصل الرابع: التحليل البيولوجى للتاريخ ١١١

الفصل الخامس: فى التاريخ المقارن: «محنتان متشابهتان» ١١٧

الفصل السادس: حياتنا الفكرية المعاصرة ١٢٣

الفصل السابع: التعاون الدولى والسلام الدولى ١٢٧

الفصل الثامن: الإيمان بالله ومعنى الشرك ١٣٣

الفصل التاسع: الإيمان بالتنزيل وباليوم الآخر ١٣٧

الفصل العاشر: النبوة ١٤١

الفصل الحادى عشر: القرآن ١٤٥

الفصل الثانى عشر: منهجه فى دراسة القرآن

فى كتابه «الذكر الحكيم» ١٥٧

الفصل الثالث عشر: المعنى القرآنى لظلم النفس ١٦٣

الفصل الرابع عشر: آدم ١٦٧

الفصل الخامس عشر: بعض ملامح الفكر الدينى

عند محمد كامل حسين ١٧١

الفصل السادس عشر: بعض ملامح الفلسفة الأخلاقية ١٧٧
الفصل السابع عشر: بعض ملامح الفكر السياسى ١٨٥
الفصل الثامن عشر: بنو إسرائيل ١٨٩
الفصل التاسع عشر: الآثار النفسية والاجتماعية للحرمان ١٩٧
الفصل العشرين: استقلال الجامعة ٢٠١

الباب الثالث: محمد كامل حسين أديبا ٢٠٣
الفصل الأول: قرية ظالمة ٢١١
الفصل الثانى: كامل حسين والقصة القصيرة ٢٣١
الفصل الثالث: «قوة التعبير»: نظرية فى النقد الأدبى ٢٨١
الفصل الرابع: السبيل إلى العظمة الأدبية ٢٨٧
الفصل الخامس: الشعر العربى بين الطبع والاحتراف وكيف نعرض شعر الاحتراف على المثقفين والمحدثين؟ ٢٩١
الفصل السادس: الموسيقى فى الشعر العربى ٢٩٧
الفصل السابع: التصوير فى الشعر العربى ٣٠١
الفصل الثامن: النسيب فى القصيدة العربية ٣٠٥
الفصل التاسع: أدب الهجاء ٣٠٧
الفصل العاشر: آراؤه فى بعض الشعراء العرب ٣٠٩
الفصل الحادى عشر: أبو العلاء المعرى ٣١٣

الفصل الثاني عشر: المتنبى ٣١٧
الفصل الثالث عشر: الأدب بين الأديب والناقد والقارىء
والدولة ٣٢١
الفصل الرابع عشر: تراجم الشخصيات عند محمد كامل حسين ٣٢٥

الباب الرابع: محمد كامل حسين لغويا ٣٣٣
الفصل الأول: رأيه فى جنس العدد ٣٤١
الفصل الثانى: اللغة العلمية ٣٤٥
الفصل الثالث: المصطلحات العلمية ٣٤٩
الفصل الرابع: أخطاء اللغويين ومفاهيمه اللغوية ٣٥٧
الفصل الخامس: السليقة ٣٦٥
الفصل السادس: المعاجم ٣٦٩
الفصل السابع: من مشكلات الكتابة العربية ٣٧٣
الفصل الثامن: تاريخ النحو ٣٧٧
الفصل التاسع: أثر الاستشهاد بالشعر فى علوم اللغة ٣٨٣
الفصل العاشر: مسلمات العربية ٣٨٥
الفصل الحادى عشر: مستويات اللغة المعاصرة ٣٨٩
الفصل الثانى عشر: النحو المعقول ٣٩٥
الفصل الثالث عشر: الصرف الحديث ٤٠٧

الباب الخامس: فلسفة البحث العلمى عند محمد كامل حسين ٤١١
الفصل الأول: البحث العلمى ٤١٣
الفصل الثانى: المناخ العلمى ٤٢١
الفصل الثالث: أصول ممارسة مهنة الطب ٤٣٧

الباب السادس: ببليوجرافيا ٤٤٣
الفصل الأول: أعمال الدكتور محمد كامل حسين ٤٤٥
الفصل الثانى: أعمال عن الدكتور محمد كامل حسين ٤٥٧
كتب للمؤلف ٤٦٣
المحتويات ٤٦٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٥٠ / ٢٠٠٣

I.S.B.N . 977 - 10 - 8411- 9